منهاج البراعة

في شرح نهج البلاغة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله

الهاشمي الخوئي قدس سره

من منشورات

المكتبة الإسلامية

طهران، شارع ۱۵ خرداد شرقي

تلفون ۵۲۵۳۴۸-۵۲۱۹۶۶

منهاج البراعة

في شرح نهج البلاغة

لمؤلفه

العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي قدس سره

عنى بتصحيحه و تهذيبه العالم الفاضل: السيد ابراهيم الميانجي

الجزء السابع

الطبعة الرابعه

الناشر:

مكتبة الاسلامية بطهران

شارع ابوذرجمهري تليفون (٥٢١٩٦٦)

حق چاپ و عكسبردارى از اين نسخه محفوظ است

طبع في المطبعة الاسلامية بطهران

شبكة الفكر
alfeker.net

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل السادس

منها في صفة الارض و دحوها على الماء

كَبَسَ الْأَرْضَ عَلَىٰ مَوْرِ أَمْوَاجٍ مُسْتَفْحِلَةٍ، وَ لُجَجِ بِحارٍ زاخِرَةٍ، تَلْتَطِمُ أَواذِيُّ أَمْواجِها، وَ تَصْطَفِقُ مُتَقاذِفاتُ أَثْباجِها، وَ تَرْغُو زَبَداً كَالْفُحُولِ عِنْدَ هِياجِها، فَخَضَعَ جِماحُ الْماءِ الْمُتَلاطِمِ لِثِقْلِ حَمْلِها، وَسَكَنَ هَيْجُ ارْتِمائِهِ إِذْ وَطِئَتْهُ بِكَلْكَلِها، وَذَلَّ مُسْتَخْذِئاً إِذْ تَمَعَّكَتْ عَلَيْهِ بِكَواهِلِها، فَأَصْبَحَ بَعْدَ اصْطِخابِ أَمْواجِهِ ساجِياً مَقْهُوراً، وَفي حَكَمَةِ الذُّلِّ مُنْقاداً أَسيراً، وَسَكَنَتِ الْأَرْضُ مَدْحُوَّةً في لُجَّةِ تَيّارِهِ، وَرَدَّتْ مِنْ نَخْوَةِ بَأْوِهِ وَاعْتِلائِهِ، وَشُمُوخِ أَنْفِهِ وَسُمُوِّ غُلَوائِهِ، وَكَعَمَتْهُ عَلىٰ

كَظَّةِ جَرْيَتِه، فَهَمَدَ بَعْدَ نَزَقَاتِه، وَلَبَدَ بَعْدَ زَيَفَانِ وَثَبَاتِه، فَلَمَّا سَكَنَ هَيْجُ الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ أَكْنَافِهَا، وَحَمَلَ شَوَاهِقَ الْجِبَالِ الْبُذَّخِ عَلَى أَكْتَافِهَا، فَجَرَ يَنَابِيعَ الْعُيُونِ مِنْ عَرَانِينِ أُنُوفِهَا، وَفَرَّقَهَا فِي سُهُوبِ بِيدِهَا وَأَخَادِيدِهَا، وَعَدَّلَ حَرَكَاتِهَا بِالرَّاسِيَاتِ مِنْ جَلَامِيدِهَا، وَذَوَاتِ الشَّنَاخِيبِ الشُّمِّ مِنْ صَيَاخِيدِهَا، فَسَكَنَتْ مِنَ الْمَيَدَانِ بِرُسُوبِ الْجِبَالِ فِي قِطَعِ أَدِيمِهَا وَتَغَلْغُلِهَا، مُتَسَرِّبَةً فِي جَوْبَاتِ خَيَاشِيمِهَا وَرُكُوبِهَا أَعْنَاقَ سُهُولِ الْأَرَضِينَ وَجَرَاثِيمِهَا، وَفَسَحَ بَيْنَ الْجَوِّ وَبَيْنَهَا، وَأَعَدَّ الْهَوَاءَ مُتَنَسَّماً لِسَاكِنِهَا، وَأَخْرَجَ إِلَيْهَا أَهْلَهَا عَلَى تَمَامِ مَرَافِقِهَا، ثُمَّ لَمْ يَدَعْ جُرُزَ الْأَرْضِ الَّتِي تَقْصُرُ مِيَاهُ الْعُيُونِ عَنْ رَوَابِيهَا، وَلَا تَجِدُ جَدَاوِلُ الْأَنْهَارِ ذَرِيعَةً إِلَى بُلُوغِهَا، حَتَّى أَنْشَأَ لَهَا نَاشِئَةَ سَحَابٍ تُحْيِي مَوَاتَهَا، وَتَسْتَخْرِجُ نَبَاتَهَا، أَلَّفَ غَمَامَهَا بَعْدَ افْتِرَاقِ لُمَعِهِ، وَتَبَايُنِ قَزَعِهِ، حَتَّى إِذَا تَمَخَّضَتْ لُجَّةُ الْمُزْنِ فِيهِ، وَالْتَمَعَ بَرْقُهُ فِي كُفَفِهِ، وَلَمْ يَنَمْ وَمِيضُهُ فِي كَنَهْوَرِ رَبَابِهِ، وَمُتَرَاكِمِ سَحَابِهِ، أَرْسَلَهُ سَحّاً مُتَدَارِكاً قَدْ أَسَفَّ هَيْدَبُهُ، تَمْرِيهِ الْجَنُوبُ دِرَرَ أَهَاضِيبِهِ، وَدُفَعَ شَآبِيبِهِ، فَلَمَّا أَلْقَتِ السَّحَابُ بَرْكَ بَوَانِيهَا، وَبَعَاعَ مَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ مِنَ الْعِبْءِ الْمَحْمُولِ عَلَيْهَا، أَخْرَجَ بِهِ مِنْ هَوَامِدِ الْأَرْضِ النَّبَاتَ، وَمِنْ زُعْرِ الْجِبَالِ

الْأَعْشابَ فَهِيَ تَبْهَجُ بِزِينَةِ رِياضِهـا ، وَ تَزْدَهِي بِما أُلْبِسَتْهُ مِنْ رَيْـطِ أَزاهِيرِها ، وَحِلْيَةِ ما سُمِّطَتْ بِهِ مِنْ ناضِرِ أَنْوارِها ، وَ جَعَلَ ذٰلِكَ بَلاغاً لِلْأَنامِ ، وَ رِزْقاً لِلْأَنْعامِ ، وَخَرَقَ الْفِجاجَ في آفاقِهـا ، وَ أَقامَ الْمَنارَ لِلسّالِكينَ في جَوادِّ طُرُقِها .

اللغة

(دحا) الله الأرض يدحوها دحواً بسطها و دحيا لغة و (كبس) الرّجل رأسه فى قميصه اذا أدخله فيه و كبس البئر و النهر اذاطمّها بالتراب وفى شرح المعتزلى كبس الأرض أى أدخلها الماء بقوّة واعتماد شديد و (استفحل) الأمر تفاقم واشتدّ و(اللّجج)جمع اللّجة وهى معظم الماء قال سبحانه :

« فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ »

و(الأواذى) جمع الآذى بالمدّ والتشديد وهو الموج الشديد و(الصفق)الضرب يسمع لهصوت و الصرف والرّد و(الثبج) بتقديم الثاء المثلّثة على الباء الموحّدة معظم البحرو الجمع أثباج كسبب و أسباب وفى شرح المعتزلى أصل الثبج ما بين الكاهل الى الظهر والمراد أعالى الأمواج و(ترغوزبداً) من الرغا وهو صوت الابل و قيل من الرّغوة مثلّثة وهي الزّبد يعلو الشيء عند غليانه يقال : رغا اللّبن أى صارت له رغوة ففيه تجريد و (جماح) الماء غليانه من جمح الفرس اذا غلب فارسه ولم يملكه و(هيج) الماء ثورانه و فورته و(الارتماء) الترامى والتقاذف وأصل (الوطى) الدّوس بالقدم و(الكلكل) بالتخفيف الصدر قال امرء القيس :

فقلت له لما تمطّى بصلبه وأردف اعجازاً وناء بكلكل

وربما جاء فى ضرورة الشّعر بتشديد اللام الثانية و(ذلّ) أى صار ذليلا أوذلولا ضدّ الصّعب و فى بعض النسخ كلّ أى عرض له الكلال من كلّ السّيف اذا لم يقطع و(المستخذى) بغير همز كما فى النسخ الخاضع و المنقاد و قد يهمز على الأصل

و(تمعكت) الدابة تمرغت في التراب و(الكاهل) ما بين الكتفين و(الاصطخاب) افتعال من الصخب وهو كثرة الصياح واضطراب الأصوات و(الحكمة) محركة وزان قصبة حديدة في اللجام تكون على حنك الفرس تذللها لراكبها حتى تمنعها الجماح ونحوه مأخوذة من الحكم وهو المنع يقال: حكمت عليه بكذا اذا منعته من خلافه فلم يقدر على الخروج منه

و(التيار) الموج و قيل أعظم الموج ، و لجته أعمقه و(النخوة) الافتخار و التعظم والانفة والحمية و(البأو) الكبر والفخر يقال بأى كسعى وكدعا قليل بأواً وبأواء فخر وتكبر ونفسه رفعها وفخر بها و(شمخ) الجبل شموخا علا وطال والرجل بأنفه تكبر و(الغلواء) بضم الغين المعجمة وفتح اللام وقد تسكن الغلو وأول الشباب وسرعته ومثله الغلوان بالضم و(كعمت) البعير من باب منع شددت فاه بالكعام وهو على وزن كتاب شيء يجعل في فيه اذا هاج لئلا يعض أو يأكل

و(الكظة) شيء يعترى الممتلى من الطعام يقول : كظه الطعام ملأه حتى لايطيق التنفس واكتظ المسيل بالماء ضاق به لكثرته أو هو من الكظاظ وزان كتاب وهو الشدة والتعب وطول الملازمة و(الجرية) بكسر الجيم مصدر جرى الماء أو حالة الجريان و(همدت) الريح سكنت وهمود النار خمودها و(نزق) الفرس من باب نصر وضرب وسمع نزقاً ونزوقاً نزى ووثب والنزقات دفعاته

و(لبد) بالأرض من باب نصر لبوداً لزمها و أقام بها و منها اللبد وزان صرد وكتف لمن لايبرح منزله ولايطلب معاشاً و(زاف) البعير يزيف زيفا وزيفاناً تبختر في مشيته وفي بعض النسخ بعد زفيان و ثباته بتقديم الفاء على الياء وهو شدة هبوب الريح يقال : زفت الريح السحاب اذا طردته و(الوثبة) الطفرة و(الأكناف) بالنون جمع الكنف محركة كالأسباب والسبب و هو الجانب و الناحية و(شواهق) الجبال عواليها و(البذخ) جمع الباذخ وهو العالي و(الينبوع) ما انفجر من الأرض من الماء وقيل الجدول الكثير الماء و(عرنين الانف) أوله تحت مجتمع الحاجبين و(السهب) الفلاة البعيدة الأكناف والأطراف و(البيد) بالكسر جمع بيداء وهي الفلاة التي تبيد سالكها

أى ينقطع ويهلك و(الأخاديد) جمع الأُخدود وهو الشقّ فى الأرض قال تعالى :

« قُتِلَ أَصْحابُ الأُخْدُودِ » .

و (الراسيات) جمع الراسية من رسى السّفينة وقفت على البحر وارسيته قال تعالى :

« بِسْمِ اللهِ مَجْرٰيها وَ مُرْسٰيها » .

و(الجلاميد) جمع جلمدوز ان جعفر وهو الصخر كالجلمود بضمّ و(الشناخيب) جمع شنخوب بالضّم أيضاً وهو أعلى الجبل و(الشم) جمع الشميم أى المرتفع و(الصياخيد) جمع الصّيخود وهي الصخرة الصلبة (فى قطع) اديمها فى بعض النسخ و زان عنب جمع قطعة بالكسر وهى الطائفة من الشيء تقطع والطائفة من الأرض اذا كانت مفروزة و في بعضها بسكون الطاء وزان حبر وهي طنفسة «١» يجعلها الراكب تحته و يغطى كتفي البعير و جمعه قطوع و أقطاع

و(أديم) الأرض وجهها والأديم أيضاً الجلد المدبوغ و(التغلغل) الدخول و(السّرب) محركة بيت فى الأرض لا منفذله يقال : تسرب الوحش وانسرب فى جحره أى دخل و(الجوبة) الحفرة والفرجة و(الخيشوم) أقصى الانف و(جرثومة) الشيء أصله وقيل التراب المجتمع في أُصول الشجرة وهو الأنسب و(فسح) له من باب منع أى وسّع و(المتنسّم) موضع التنسّم والتّنفس من تنسّم اذا طلب النسيم واستنشقه و(مرافق) الدّار ما يستعين به أهلها ويحتاج اليه في التعيش وفي القاموس مرافق الدار مصاب الماء ونحوها و(الجرز) بضمتين الأرض التي لانبات بها ولاماء وقال تعالى:

« أَوَلَمْ يَرَوْا أَنّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ »

و(الرابية) ما ارتفع من الأرض وكذلك الربوة بالضمّ و(الجدول) وزان جعفر النهر الصغير و(ناشئة) السّحاب أوّل ماينشأ منه أى يبتدء ظهوره ، ويقال : نشأت

---

١ ـ الطنفسة مثلثة الطاء والفاء و بكسر الطاء و فتح الفاء و بالعكس واحدة الطنافس للبسط والثياب

السّحاب اذا ارتفعت و(الغمام) جمع غمامة بالفتح فيهما و هي السحابة البيضاء و(اللّمع) على وزن صرد جمع لمعة وهي في الأصل قطعة من النبت اذا اخذت في اليبس كأنها تلمع وتضيء من بين ساير البقاع و(القزع) جمع قزعة بالتحريك فيهما وهي القطعة من الغيم و في الحديث كأنهم قزع الخريف و(تمخضت) أي تحركت بقوّة من المخض وهو تحريك السقاء الذى فيه اللّبن ليخرج زبده و(المزن) بضم الميم جمع مزنة وهي السحابة و(كففه) حواشيه وجوانبه وطرف كل شيء كفه بالضمّ

وعن الاصمعى كلّ ما استطال كحاشية الثوب والرّمل فهو كفة بالضمّ و كلّ ما استدار ككفة الميزان فهو كفة بالكسر و يجوز فيه الفتح و(وميض) البرق لمعانه و(الكنهور) وزان سفرجل قطع من السحاب كالجبال أو المتراكم منه و(الرباب) السّحاب الأبيض جمع ربابة وفي شرح المعتزلي يقال : أنه السحاب الذي تراه كأنه دون السحاب وقد يكون أسود وقد يكون أبيض و(المتراكم) والمرتكم المجتمع و(السحّ) الصب والسّيلان من فوق و(تدارك) القوم اذا لحق آخرهم أولهم و(اسفّ) الطاير دنا من الأرض و(الهيدب) السحاب المتدلي أوذيله من هدبت العين طال هدبها و تدلّى أشفارها و(تمريه) الجنوب من مري الناقة يمريها اى مسح ضرعها فامرت هي أي درّ لبنها وعدّى ههنا إلى مفعولين

وفي بعض النسخ تمري بدون الضمير هكذا قال في البحار والأنسب عندي أن يجعل تمري على تقدير وجود الضمير كما في اكثر النسخ بمعنى تستخرج يقال : مرى الشيء اذا استخرجه وهو احد معانيه كما فى القاموس و(الدرر) كعنب جمع درّة بالكسر وهو الصبّ والاندفاق و(الأهاضيب) جمع هضاب وهو جمع هضب وهو المطر و(دفع) جمع دفعة بضم الدال فيهما وهي المرة من المطر و(الشآبيب) جمع شؤبوب وهو ماينزل من المطر دفعة بشدّة وقوّة و(البرك) الصدر و(البوانى) قوائم الناقة

وفي شرح المعتزلي بوانيها بفتح النون تثنية بوان على فعال بكسر الفاء وهو عمود الخيمة و الجمع بون ، قال فى البحار في النسخ القديمة المصححة على صيغة الجمع و في النهاية فسّر البوانى بأركان البنية و فى القاموس بقوائم الناقة قال :

والبواني أضلاع الزور «١» و قوائم الناقة «٢» والقي بوانيه أقام و ثبت (و البعاع) كالسحاب ثقلة من المطرو (استقلت) أي نهضت وارتفعت واستقلت به حملته ورفعته و(العبء) بالكسروزان حبر الحمل و الثقل و (الهوامد) من الأرض التي لانبات بها و(زعر) الجبال بالضمّ جمع أزعر كحمر وأحمر وهي القليلة النبات وأصله من الزعر بالتحريك وهوقلة الشعر في الرأس يقال رجل أزعرو(الأعشاب) جمع عشب كقفل وهو الرطب من الكلاء

و (بهج) يبهج من باب منع سرّ وفرح وفي بعض النسخ بضمّ الهاء من باب شرف أي حسن و(تزدهى) افتعال من الزّهوو هو الكبر والفخرو(البسته) في بعض النسخ بالبناء على الفاعل وفي بعضها بالبناء على المفعول و(الريط) جمع ريطة بالفتح فيها وهي كلّ ملاءة غير ذات لفقين اى قطعتين كلها نسج واحدوقطعة واحدة، أو كلّ ثوب رقيق ليّن و (الأزاهير) جمع أزهار جمع زهرة بالفتح وهي النبات أو نورها وقيل الأصفر منه وأصل الزهرة الحسن والبهجة و(الحلية) مايتزيّن به من مصوغ الذهب والفضة والمعدنيات

و(سمّطت) بالسين المهملة على البناء للمفعول من باب التفعيل أي علّقت وفي بعض النسخ الصحيحة بالشين المعجمة من الشمط محرّكة و هو بياض الرأس يخالط سواده فمن النبات مايخالط سواده النور الأبيض وفي القاموس شمطه يشمطه خلطه والاناء ملأه والنخلة انتشر بسرها والشجر انتشر ورقه والشميط من النبات مابعضه هائج وبعضه أخضرو(البلاغ) مايبتلغ به ويتوسل إلى الشيء المطلوب و(الفج) الطريق الواسع بين الجبلين والفجاج جمعه و(الجادّة) وسط الطريق ومعظمه

الاعراب

على في قوله عليه السلام على مور بمعنى في كما في قوله تعالى : دخل المدينة على حين غفلة، وجملة تلتطم منصوبة المحلّ على الحالية ، واواذي بالرفع فاعله ، وترغو زبداً إن كان ترغو من الرغا فزبداً منصوب بمقدّر أي ترغوقاذفة زبداً، و إن كان من

---

١ - الزور وسط الصدر، ق

٢ - وفى القاموس فى باب النون البوان بالضم والكسر عمود للخباء جمعه ابونه وبون بالضم كصرد ،منه

الرّغوة فانتصابه به على التجريد أى ترمى زبداً ويشعر بتضمّنه معنى ترمى قوله عليه السلام في الخطبة الأولى : فرمى بالزّبد ركامه، فافهم

و مدحوّة منصوبة على الحال ، و في لجّة إما للظرفية أو بمعنى على والأوّل أولى إذالأصل الحقيقة وقوله : ردّت فاعله ضمير مستكن عايد إلى الأرض ومفعوله محذوف وهوالضمير الراجع إلى جماح الماء والباء في قوله ، بالراسيات تحتمل الصلة والسّببية كماسنشير اليه ، وذوات الشناخيب بالكسر عطف على جلاميدها ، وتغلغلها و ركوبها بالجرّ معطوفان على الرسوب ، و قوله : متسربة حال مؤكدة من ضمير تغلغلها على حدّ قوله تعالى : ولّى مُدبراً ، وعلى في قوله على تمام مرافقها للاستعلاء متعلّق بمحذوف أى مستقرّين و متمكّنين على تمام مرافقها ، و أرسله جواب إذا تمخضت ، وسحّاً حال من مفعول أرسل والمصدر بمعنى الفاعل

و قوله : تمريه الجنوب درراًها ضيبه ، الضمير في تمريه مفعول با لواسطة و الجنوب فاعله والدّرر مفعول به أى تمري الجنوب منه درراًهاضيبه، والاضافة في برك بوانيها لأدنى ملابسة

المعنى

اعلم أنّ هذا الفصل من كلامه عليه السلام مسوق للاشارة إلى قدرته سبحانه وتدبيره في كيفيّة ايجاد الأرض ودحوها على الماء وخلقة الغمام والمطر و البرق والنبات والأنهار والأزهار و متضمّن لما أعدّالله للناس فيها من المنافع العظيمة و الفوايد الجسيمة،والرفدالروافغ، والنعم السوابغ وهوقوله عليه السلام :

(كبس الأرض على مور أمواج مستفحلة) استعار لفظ الكبس لخلقه لها غائصاً معظمها في الماء كما يغوص ويكبس بعض الزقّ المنفوخ ونحوه في الماء بالاعتماد عليه، ووصف الأمواج بالاستفحال لشدّتها أولكونها كالفحول في الصّولة (ولجج بحار زاخرة) أى كثيرة مائها مرتفعة أمواجها حالكونها (تلتطم أواذي أمواجها) أى تضرب شدايد أمواجها بعضها بعضا (وتصطفق متقاذفات أثباجها) أى تردّ مترامیات أمواجها العالية المعظمة (وترغو زبدا كالفحول عندهياجها) أى تصوت قاذفة زبدا

أوترمى زبداً عند اضطرابه و غليانه كالفحول الهايجة (فخضع جماح الماء المتلاطم لثقل حملها) استعار لفظ الجماح لغليان الماء و اضطرابه و جريانه على غير نسق كما يجمح الفرس الجموح بحيث لايتمكن من ردّه ومنعه يقول عليه السلام: ذلّ اضطراب الماء لثقل حمل الأرض عليه

(و سكن هيج ارتمائه إذ وطئته بكلكلها) أى سكن ثوران ترامیه و تقاذفه حين وطئته الأرض و داسته بصدرها تشبيهالها بالناقة و تخصيص الصدر بالذكر لقوته (وذلّ مستخذيا إذ تمعّكت عليه بكواهلها) أى صار ذليلا منقاداً حين تمرغت عليه الأرض كالدابة المتمرغة و تخصيص الكواهل بالذكر للقوّة أيضاً (فأصبح بعد اصطخاب أمواجه) واضطرابها (ساجياً مقهورا) أى ساكناً مغلوبا (وفى حكمة الذلّ منقاداً اسيراً) كالدابة المذللة بالحكمة المنقادة لصاحبها ، هذا

ومحصل كلامه عليه السلام من قوله : فخضع إلى هنا أنّ هيجان الماء و غليانه وموجه سكن بوضع الأرض عليه

واستشكل فيه بأنّ ذلك خلاف ما نشاهده وخلاف مايقتضيه العقل لأنّ الماء السّاكن إذا جعل فيه جسم ثقيل اضطرب وتموّج وصعد علوّاً فكيف الماء المتموّج يسكن بطرح الجسم الثقيل فيه

وأُجيب بأنّ الماء إذا كان تموّجه من قبل ريح هايجة جاز أن يسكن هيجانه بجسم يحول بينه وبين تلك الرّيح ، ولذلك إذا جعلنا في الاناء ماءً وروّحناه بمروحة يموّجه فانه يتحرّك ، فان جعلنا على سطح الماء جسماً يملؤ حافات الاناء و روّحناه بالمروحة فانّ الماء لايتحرّك لأنّ ذلك الجسم قد حال بين الهواء المجتلب بالمروحة وبين سطح الماء، فمن الجائز أن يكون الماء الأوّل هائجا لاجل ريح محرّكة له فاذا وضعت الأرض عليه حال بين سطح الماء وبين تلك الريح

وقد مرّ في كلامه عليه السلام فى الفصل الثامن من فصول الخطبة الأولى ذكر هذه الرّيح وهو قوله عليه السلام: ثمّ أنشأ سبحانه ريحا اعتقم مهبها و أدام مربها إلى أن قال:

أمرها بتصفيق الماء الزخّار وإثارة موج البحار فمخضه مخض السّقاء وعصفت به عصفها بالفضاء ، إلى آخر ما مرّ

قال المحدّث العلاّمة المجلسيّ ره في البحار بعد ذكر هذا الاشكال والجواب:

والأولى أن يقال : إنّ غرضه عليه السلام ليس نفي التموّج مطلقا بل نفى الشديد الذى كان للماء اذ حمله سبحانه على متن الريح العاصفة و الزعزع القاصفة بقدرته الكاملة و أنشأ ريحا تمخّضه مخض السقاء فكانت كرة الماء تدفق من جميع الجوانب وترد الرّيح أوّله على آخره وساجيه على مائره كما مرّ في كلامه عليه السلام أى في الفصل المذكور من الخطبة الأولى ، ثمّ لما كبس الأرض بحيث لم يحط الماء بجميعها فلاريب فى انقطاع الهبوب والتمويج من ذلك الجانب المماسّ للأرض من الماء

وأيضاً لمّا منعت الأرض سيلان الماء من ذلك الجانب إذ ليست الأرض كالهواء المنفتق المتحرّك الذى كان ينتهي اليه ذلك الحدّ من الماء كان ذلك أيضاً من أسباب ضعف التموّج وقلّة التّلاطم

وأيضاً لمّا تفرقت كرة الماء فى أطراف الأرض ومال الماء بطبعه الى المواضع المنخفضة من الأرض وصار البحر الواحد المجتمع بحاراً متعدّدة وان اتّصل بعضها ببعض واحاطت السواحل بأطراف البحار بحيث منعت الهبوب إلاّ من جهة السّطح الظاهر سكنت الفورة الشديدة بذلك التفرّق وقلّة التعمّق وانقطاع الهبوب ، و كلّ ذلك من أسباب السّكون الذى أشار اليه عليه السّلام

وأقول : وممّا يبيّن ذلك أنه إذا فرضنا حوضا يكون فرسخا في فرسخ وقدّرنا بناء عمارة عظيمة في وسطه فلاريب فى أنّه يقلّ بذلك أمواجه ،وكلّما وصل موج من جانب من الجوانب اليه يرتدع و يرجع

ثمّ إنّ هذه الوجوه إنما تبدى جرياً على قواعد الطبيعيّين وخيالاتهم الواهية وإلاّ فبعد ما ذكره عليه السلام لاحاجة لنا الى إبداء وجه ، بل يمكن أن يكون لخلق الأرض و كبسها في الماء نوع آخر من التأثير في سكونه لاتحيط به عقولنا الضعيفة كما قال عليه السلام : (وسكنت الأرض) حال كونها (مدحوّة) مبسوطة (فى لجّة تياره)

أى أعمق موجه و معظمه (وردّت الماء من نخوة بأوه و اعتلائه) أى فخره وترفعه (وشموخ انفه وسموّ غلوائه) أى تكبّره وعلوّ غلوّه

وهذه كلّها استعارات للماء في هيجانه واضطرابه بملاحظة مشابهته بالانسان المتجبّر المتكبّر التياه في حركاته و أفعاله و الغرض ببان سكون الأرض في الماء المتلاطم ومنعها إياه من تموّجه و هيجانه (و كعمته على كظّة جريته) و المراد بكظّة الجرية ما يشاهد من الماء الكثير في جريانه من الثقل نحو مايعتري المملي من الطعام ، أو أراد به شدّة جريانه و طول ملازمته له ، أو التعب العارض له من الجريان على سبيل الاستعارة تشبيها له بالانسان المتعب من كثرة المزاولة لفعل (فهمد بعد نزقاته) أراد به سكونه بعد و ثباته (ولبد بعد زيفان و ثباته) أى أقام بعد تبختره في طفراته

(فلما سكن هيج الماء من تحت أكنافها) يعنى أطراف الأرض و جوانبها (وحمل شواهق الجبال البذخ على اكتافها) استعار عليه‌السلام لفظ الاكتاف للأرض لكونها محلا لحمل مايثقل من الجبال كما أنّ كتف الانسان و غيره من الحيوان محلّ لحمل الأثقال

(فجر ينابيع العيون) لعله عليه‌السلام اعتبر في الينبوع الجريان بالفعل فيكون من قبيل اضافة الخاص الى العام، أو التكرير للمبالغة ، وإن كان الينبوع بمعنى الجدول الكثير الماء على مامرّ فهو مستغن عن التكلّف وقوله:

(من عرانين انوفها) من باب الاستعارة تشبيها للجبال بالانسان ولأعاليها ورؤوسها بعرنينه وأنفه ، وانما خصّ الجبال بتفجّر العيون فيها لأنّ العيون اكثر ما يتفجّر من الجبال والأماكن المرتفعة وأثر القدرة فيها أظهر و نفعها أتمّ (وفرقها) أى الينابيع (فى سهوب بيدها و أخاديدها) المراد بالأخاديد مجارى الأنهار (وعدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها)

قال المحدّث المجلسي «قده» لعلّ تعديل الحركات بالراسيات أى الجبال الثابتات جعلها عديلا للحركات بحيث لاتغلبه أسباب الحركة فيستفاد سكونها فالباء صلة

لاسببية ، أوالمعنى سوّى الحركات في الجهات أى جعل الميول متساوية بالجبال فسكنت لعدم المرجّح فالباء سببية ، و يحتمل أن يكون المراد أنه جعلها بالجبال بحيث قدتتحرّك بالزلازل وقدلاتتحرّك ولم يجعل الحركة غالبة على السكون مع احتمال كونها دائماً متحرّكة بحركة ضعيفة غير محسوسة ، و من ذهب الى استناد الحركة السريعة الى الأرض لايحتاج إلى تكلّف

و كيف كان فالمعنى أنه سبحانه عدل حركات الأرض بالجبال الثابته من صخورها و ب(ذوات الشناخيب الشمّ من صياخيدها) أى بصاحبات الرؤوس المرتفعة من صخورها الصلبة (فسكنت) الأرض (من الميدان) والاضطراب (برسوب الجبال فى قطع اديمها) أى دخولها في قطعات وجه الأرض و أعماقها (و تغلغلها متسربة في جوبات خياشيمها) أى دخولها حال كونها نافذة فى حفرات انوف الأرض وفرجاتها (وركوبها أعناق سهول الأرضين وجراثيمها) استعار لفظ الركوب للجبال والأعناق للأرضين كناية عن الحاقهما بالقاهر والمقهور وذكر السّهول ترشيح ، ولعلّ المراد بجراثيمها المواضع المرتفعة منها

ومفاد هذه الفقرات أنّ الأرض كانت متحرّكة مضطربة قبل خلق الجبال فسكنت بها ، و ظاهره أنّ لنفوذ الجبال فى أعماق الأرض و ظهورها و ارتفاعها عن الأرض كليهما مدخلا في سكونها و قد مرّ الكلام فى ذلك في شرح الفصل الثالث من فصول الخطبة الأولى فتذكر

(وفسح بين الجوّ وبينها) لعلّ في الكلام تقدير مضاف أى وسّع بين منتهى الجوّ و بينها ، أو المراد بالجوّ منتهاه إلى السّطح المقعر للسماء (وأعدّ الهواء متنسّما لساكنها) أى جعل الهواء محلاّ لطلب النسيم واستنشاقه وفائدته ترويح القلب حتّى لايتأذّى بغلبة الحرارة (و أخرج اليها أهلها على تمام مرافقها) و المراد به ايجادهم وإسكانهم فيها بعد تهيئة مايصلحهم لمعاشهم والتزوّد لمعادهم

(ثمّ لم يدع) سبحانه وتعالى (جرز الأرض التي) لانبات بها ولاماء من حيث إنها (تقصر مياه العيون عن) سقى (روابيها) و مرتفعاتها (ولاتجد جداول الأنهار ذريعة)

ووسيلة (الى بلوغها) والوصول إليها (حتى أنشألها ناشئة سحاب تحيى مواتها) من باب المجاز في الاسناد (و) كذلك (تستخرج نباتها) لأنّ المحيى والمخرج هو الله سبحانه والسحاب سبب قال الله تعالى :

« وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحيا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ في ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ » .

وقال : « وَهُوَ الَّذي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ .

(الف) تعالى (غمامها) الضمير راجع إلى الأرض كساير الضماير والاضافة لأدنى ملابسة والمراد أنه سبحانه ركب السحاب المعدّة لسقيها (بعد افتراق لمعه وتباين قزعه) أى بعدما كانت أجزائها اللامعة متفرّقة وقطعاتها متباينة متباعدة (حتى اذا تمخضت لجّة المزن فيه) الضمير راجع الى المزن أى حتى اذا تحرّكت اللجّة أى معظم الماء المستودع في الغيم واستعدّت للنّزول (والتمع برقه في كففه) أى أضاء البرق في جوانبه وحواشيه (ولم ينم وميضه) أى لم ينقطع لمعان البرق (فى كنهور ربابه) أى فى القطع العظيمة من سحابه البيض (ومتراكم سحابه) أى المجتمع الذى ركب بعضه بعضا (أرسله) الله سبحانه (سحّا متداركا) أى حال كونه يصبّ الماء صبّا متلاحقاً (قد أسفّ هيدبه) ودنا من الأرض ما تدلّى منه حال كونه (تمريه الجنوب درر أهاضيبه) أى تستخرج منه الجنوب أمطاره المنصبّة، والجنوب ريح مهبها من مطلع سهيل إلى مطلع الثريّا ، وهى أدرّ للمطر ولذا خصّها بالذكر

وقوله عليه السلام (ودفع شآبيبه) أراد به الدّفعات من المطر المنزلة بشدّة و قوّة (فلما ألقت السحاب برك بوانيها) استعار عليه السلام لفظ البرك والبوان للسحاب واسند إليه الالقاء تشبيها لها بالجمل الذى أثقله الحمل فرمى بصدره الأرض ، أو بالخيمة التي جرّ عمودها على اختلاف التفسرين المتقدّمين (وبعاع ما استقلّت به من العبء

المحمول عليها) أى ثقل ما ارتفعت به من الحمل المحمول عليها يعنى المطر (أخرج) سبحانه (به) أى بذلك العبء (من هو امد الأرض) التي لا حياة بها ولا عود (النبات) كما قال تعالى :

« وَ تَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ » .

(ومن زعر الجبال) أى المواضع القليلة النّبات منها (الأعشاب) والرّطب من الكلا (فهى) أى الأرض (تبهج) وتفرح (بزينة رياضها) ومستنقع مياهها (وتزدهى) وتفتخر (بما البسته من ريط أزاهيرها) أى بأشجار البست الأرض إيّاها لباس انوارها و على ما فى بعض النسخ من كون البسته بصيغة المجهول فالمعنى أنّ الأرض تفتخر بما اكتسبت به من النبات والأزهار والأنوار فيكون لفظة من على هذا بيانا لما كما أنها على الأوّل صلة لألبسته، والثانى أظهر

(و) تتكبّر بـ(حلية ماسمّطت) و علّقت (به من ناضر أنوارها) أى أنوارها المتصفة بالنضرة والحسن والطراو ة (وجعل) الله سبحانه (ذلك) أى ما انبت من الأرض (بلاغا للأنام) يبتلغون به و يتوسلون إلى مقاصدهم ومطالبهم (ورزقا للأنعام) تأكل منه وترعى عند جوعها وحاجتها قال تعالى :

« وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ » .

(و خرق الفجاج فى آفاقها) أى خلق الطرق على الهيئة المخصوصة بين الجبال فى نواحى الأرض وأطرافها قال سبحانه :

« اَلَّذي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ جَعَلَ لَكُمْ فيها سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » و قال : « اللهُ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلاً فِجاجاً » .

(وأقام المنار للسالكين في جواد طرقها) و المراد بالمنار العلامات التي يهتدى بها السالكون من الجبال و التلال أو النجوم ، والأول أظهر بملاحظة المقام

و اعلم أنّ هذا الفصل لمّا كان متضمّنا لبعض ما في عالم العناصر من دلائل القدرة و بدائع الحكمة وعجائب الصنعة وما أودع الله سبحانه فيه من المنافع العامة والفوائد التّامة لا جرم أحببت تذييل المقام بهدايات فيها دراية على مقتضى الترتيب الذّكري الّذى جرى عليه هذا الفصل

فأقول : وبالله التكلان وهو المستعان

الهداية الاولى

في دلايل القدرة في الأرض والمنافع المعدّة فيها للخلق وهي كثيرة لاتحصى لكنّا نقتصر على البعض بما ورد في الكتاب وأفاده اُولو الألباب

فمنها أنه سبحانه جعلها مدحوّة على الماء وبارزة منه مع اقتضاء طبعها الغوص فيه و إحاطة البحار بها ، و ذلك لحكمة الافتراش و أن يكون بساطا للنّاس كما قال تعالى :

« اَلَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِراشاً وَالسَّماءَ بَناءً » و قال : « اَلَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَراراً » وقال : « اَلَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِساطاً » .

فلو كانت غائصة في الماء لبطل تلك الحكمة فأخرج سبحانه بعض جوانبها من الماء كالجزيرة البارزة حتى صلحت لأن تكون فراشاً ومهاداً

ومنها كونها ساكنة في حيزها الطبيعي و هو وسط الأفلاك لأنّ الأثقال بالطبع تميل إلى تحت كما أنّ الخفاف بالطبع تميل إلى فوق ، والفوق من جميع الجوانب مايلي السماء و التحت مايلي المركز ، فكما أنه يستبعد حركة الارض فيما بيننا إلى جهة السماء فكذلك يستبعد هبوطها في مقابلة ذلك لأنّ ذلك الهبوط صعود أيضاً إلى السماء فاذن لاحاجة في سكون الأرض وقرارها إلى علاقة من فوقها

و لا دعامة من تحتها ، بل يكفي في ذلك ما أعطاها فالقها، ور كز فيها من الميل الطبيعي إلى الوسط الحقيقي بقدرته

إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ » .

ومنها توسّطها فى الصلابة واللّين :

« هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَناكِبِها » .

اذلو كانت في غاية الصلابة كالحجر لكان المشى والنوم عليها ممّا يولم البدن ولتعذرت الزراعة عليها ولامتنع إجراء الأنهار و حفر الآبار فيها ولم يمكن اتخاذ الأبنية والآنية منها لتعذّر تركيبها ، و لوكانت فى غاية اللين بحيث تغوص فيه الرّجل كالماء لامتنع الاستقرار والافتراش والنوم والمشى واستحال الزرع والحرث

ومنها أنه جعل لونها الغبراء لتكون قابلة للانارة والضياء إذماكان فى غاية اللّطافة والشفّافية لايستقرّ النور عليه ، وماكان كذلك فانه لايتسخّن بالشمس فكان يبرد جدّاً و لا يمكن جواره ،هكذا قال الرازى و صدر المتألهين. والأولى مافى شرح البحرانى «قد»من أنهالوكانت مخلوقة فيغاية الشفافية واللطافة فامّا أن تكون مع ذلك جسماً سيّالا كالهواء لم يتمكن من الاستقرار عليه ، أو يكون جسماً ثابتاً صقيلا براقا احترق الحيوان وماعليهابسبب انعكاس أشعة الشمس عليها كمايحرق القطن إذا قرب من المرايا المحاذية للشّمس والبلور ، لكنها خلقها غبراء ليستقرّ النّور على وجهها فيحصل فيها نوع من السخونة ، وخلقها كثيفة لئلاّتنعكس الأشعة منها على مافيها فتحرقه ، فصارت معتدلة في الحرّ والبرد تصلحأن تكون فراشاً ومسكنا للحيوان

و منها كونها يتولّد منها النبات والحيوانوالمعادن

« وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ».

ومنها أن يتخمّر الرّطب بها فيحصل التماسك في أبدان المركبات

ومنها اختلاف بقاعهافمنها أرض رخوة وصلبة ورملة وسبخة وعذبة وحزنة وسهلة، وقال تعالى

« وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ » .

ومنها اختلاف ألوانها فأحمروأبيض وأسود ورمادي اللّون وأغبر، قال سبحانه

« وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغَرابِيبُ سُودٌ »

ومنها انصداعها بالنبات « وَالْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ »

ومنها كونها خازنة للماء المنزّل من السماء

« فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ » .

ومنها إجراء العيون والأنهارفيها

« أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ » « أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً وَجَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً » .

ومنها أنّ لها طبع السماحة و الجود تدفع إليها حبّة واحدة وهي تردّها عليك سبعمأة

« كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِأَةُ حَبَّةٍ » .

ومنها موتها في الشّتاء وحياتها فى الرّبيع

« فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ » .

ومنها انبثاث الدّواب المختلفة فيها

« وَبَثَّ فيها مِنْ كُلِّ دآبَّةٍ » « فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشي عَلي بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشي عَلى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ ما يَشآءُ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ ».

ومنها كونها مبدء الخلايق ومنشأها

« مِنْها خَلَقْناكُمْ وَفيها نُعيدُكُمْ وَمِنْها نُخرِجُكُمْ تارَةً أُخرى » .

وجعل ظهرها مقرّ الأحيا وبطنها موطن الأموات

« أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفاتاً أَحياءً وَأَمواتاً » .

ومنها مافيها من النباتات المختلفة الألوان والأنواع والمنافع

« وَأَنبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ ».

فبعضها للانسان وبعضها للحيوان

« كُلُوا وَارْعَوْا أَنعامَكُمْ » .

و ما للانسان بعضها طعام و بعضها إدام وبعضها فواكه وبعضها دواء و بعضها لباس كالقطن والكتان

ومنها ما فيها من الأحجار المختلفة ، فبعضها للزينة كالدرّ واليافوت والعقيق ونحوها ، وبعضها للحاجة كما تستخرج منه النّار ، فانظر الى قلّة الأوّل و كثرة الثاني ، ثمّ انظر إلى قلّة المنفعة بذلك الخطير و كثرة المنفعة بذلك الحقير إلى غير ذلك من آثار القدرة ودلائل الصنع و العظمة والعجائب و الغرائب التى يعجز عن إدراك معشارها عقول البشر ، ويحتار فى البلوغ إليها الأذهان والفكر

الثانية

في انفجار الينابيع و العيون من الأرض المشار إليه بقوله عليه السلام : فجر

ينابيع الأرض من عرانين انوفها، فأقول : ظاهر قوله سبحانه :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ » وقوله : « أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ » .

هو كون ماء العيون والأنهار هو الماء المنزل من السحاب ، وبه صرّح جمع من الأصحاب في باب طهورية الماء بقول مطلق بعد الاستدلال عليها بقوله سبحانه:

« وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » .

و يدلّ عليه ما رواه عليّ بن إبراهيم فى تفسيره قال فى رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى :

« وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ » .

فهى الأنهار والعيون والآبار ، ومحصّل ذلك أنّ القادر المختار أنزل بقدرته الكاملة وحكمته البالغة من السّماء ماء فأسكنه فى الأرض وأخرج منه فى العيون والآبار والقنى والأنهار ما اقتضاه الحكمة والتدبير فى بقاء نوع الانسان والحيوان وإصلاح النّباتات والزراعات وغير ذلك من وجوه الحاجات ، وإليه ذهب أبو البركات البغدادى حيث قال : إنّ هذه المياه متولّدة من أجزاء مائية متولّدة من أجزاء متفرّقة في ثقب أعماق الأرض و منافذها إذا اجتمعت ، ويدلّ عليه أنّ مياه العيون والأنهار تزيد بزيادة الثلوج والأمطار

وقالت الحكماء : إنّ البخار إذا احتبس في داخل من الأرض لما فيها من ثقب و فرج يميل إلى جهة فيبرد بها فينقلب مياها مختلطة بأجزاء بخارية ، فاذا كثر لوصول مدد متدافع إليه بحيث لا تسعه الأرض أوجب انشقاق الأرض و انفجرت منه العيون .

أمّا الجارية على الولاء فهى إما لدفع تاليها سابقها أولا نجذابه إليه لضرورة عدم الخلاء بأن يكون البخار الذى انقلب ماء و فاض إلى وجه الأرض ينجذب إلى مكانه ما يقوم مقامه لئلاّ يكون خلاء فينقلب هو أيضاً ماء و يفيضْ ، وهكذا استتبع كلّ جزء منه جزء آخر

و أما العيون الرّاكدة فهي حادثـة من أبخرة لم تبلغ من قوّتها و كثرة موادّها أن يحصل منهامعاونة شديدة أو يدفع اللاّحق السابق

و أما مياه القنى و الآبار فهى متولّدة من أبخرة ناقصة القوّة عن أن يشقّ الأرض ، فاذا ازيل ثقل الأرض عن وجهها صادفت منفذاً تندفع إليه بأدنى حركة فان لم يجعل هناك مسيل فهوالبئر ، وإن جعل فهو القناة ، ونسبة القنا إلى الآبار كنسبة العيون السيالة إلى الراكدة ، وإنما كثر تفجّر العيون فى الجبال والأماكن المرتفعة لشدّة احتقان الأبخرة تحتها بالنسبة إلى ساير الأماكن الهابطة الرّخوة ، فانّ الأرض إذا كانت رخوة نفضت «نفذت خل» فلا يكاد يجتمع منه قدرمايعتدّ به

وقال الشيخ : هذه الأبخرة إذا انبعث عيوناً أمدّت البحار بصبّ الأنهار إليها ثمّ ارتفع من البحار و البطايح و الأنهار وبطون الجبال خاصة أبخرة اخرى ، ثمّ قطرت ثانياً إليها فقامت بدل مايتحلّل منها على الدّور دائما

الثالثة

في حكمة خلق الهواء المشار إليها بقوله : وأعدّا لهواء متنسماً لساكنها ، فأقول : فيه نفع عظيم للانسان والحيوان ، لأنّه من ضروريّات العيش لأنها مادّة النفس الذى لوانقطع ساعة عن الحيوان لمات ، وقيل هنا : إنّ كلّ ماكانت الحاجة إليه أشدّ كان وجدانه أسهل و لمّا كان احتياج الانسان إلى الهواء أعظم الحاجات حتّى لو انقطع عنه لحظة لمات لاجرم كان وجدانه أسهل من وجدان كلّ شيء ، وبعد الهواء الماء ، فانّ الحاجة إليه أيضاً شديدة فلا جرم سهل أيضاً وجدان الماء ، ولكن وجدان الهواء أسهل لأنّ الماء لا بدّفيه من تكلّف الاغتراف بخلاف الهواء

فانّ الآلات المهيّاة لجذبه حاضرة أبداً

ثمّ بعد الماء الحاجة إلى الطعام شديدة ولكن دون الحاجة إلى الماء فلاجرم كان تحصيل الطعام أصعب من تحصيل الماء وبعد الطعام الحاجة إلى تحصيل المعاجين و الادوية النّادرة قليلة فلاجرم عزّت هذه الأشياء، و بعد المعاجين الحاجة إلى أنواع الجواهر من الياقوت و الزبرجد نادرة جدّاً فلاجرم كانت فى نهاية العزّة، فثبت أنّ كلّ ما كان الاحتياج إليه أشدّ كان وجدانه أسهل و كلّ ماكان الحاجة إليه أقلّ كان وجدانه أصعب، وما ذاك إلاّ رحمة منه سبحانه على العباد قال الشاعر:

سبحان من خصّ القليل بعزّة ... والنّاس مستغنون عن أجناسه
وأذل أنفاس الهواء و كلّ ذى ... نفس لمحتاج الى انفاسه

الرابعة

في دلايل القدرة وبراهين الجلال والجبروت في خلق السّحاب والمطر والبرد والثلج والرّعد والبرق والصواعق قال تعالى:

« هُوَ الَّذي يُريكُمُ البَرقَ خَوفاً وَ طَمَعاً وَيُنْشِىءُ السَّحابَ الثِّقالَ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالمَلائِكَةُ مِنْ خيفَتِهِ وَ يُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصيبُ بِها مَنْ يَشآءُ وَهُمْ يُجادِلُونَ فِى اللهِ وَهُوَ شَديدُ المِحالِ.

قال الرازيّ: في كونها خوفاً وطمعاً وجوه **الاول** عند لمعان البرق يخاف وقوع الصّواعق ويطمع في نزول الغيث **الثانى** أنه يخاف من المطر من له فيه ضرر كالمسافر وكمن في خزينته التمر و الزبيب ويطمع فيه من له نفع **الثالث** أنّ كلّ شيء يحصل فى الدنيا فهو خير بالنسبة إلى قوم و شرّ بالنسبة إلى آخر فكذلك المطر خير في حقّ من يحتاج في أوانه و شرّ في حقّ من يضرّه ذلك إما بحسب المكان أو بحسب الزّمان

ثمّ اعلم أنّ حدوث البرق دليل عجيب على قدرة الله سبحانه وبيانه أنّ السحاب

لاشك أنه جسم مركب من أجزاء مائية وأجزاء هوائية «نارية ظ» ولا شك أن الغالب عليه الاجزاء المائية و الماء جسم بارد رطب والنار جسم حار يابس ، فظهور الضد من الضد التام على خلاف العقل فلابد من صانع مختار يظهر الضد من الضد

فان قيل : لم لا يجوز أن يقال : إن الريح احتقن في داخل جرم السحاب واستولى البرد على ظاهره فانجمد السطح الظاهر منه ، ثم إن ذلك الريح يمزقه تمزيقاً عنيفاً فيتولد من ذلك التمزيق الشديد حركة عنيفة و الحركة العنيفة موجبة للسخونة وهي البرق

فالجواب أن كل ما ذكرتموه خلاف المعقول من وجوه :

الأول أنه لوكان الأمر كذلك لوجب أن يقال أينما حصل البرق فلابد وأن يحصل الرعد وهو الصوت الحاصل من تمزق السحاب ومعلوم أنه ليس الأمر كذلك فانه كثيراً مايحدث البرق القوى من غير حدوث الرعد

الثانى أن السخونة الحاصلة بسبب قوة الحركة مقابلة بالطبيعة المائية الموجبة للبرد ، و عند حصول هذا المعارض القوى كيف تحدث النارية بل نقول : النيران العظيمة ينتفى لصب الماء عليها والسحاب كله ماء فكيف يمكن أن يحدث فيه شعلة ضعيفة نارية

الثالث من مذهبكم أن النار الصرفة لالون لها البتة فهب أنه حصلت النارية بسبب قوة المحاكة الحاصلة في أجزاء السحاب ، لكن من أين حدث ذلك اللون الأحمر ، فثبت أن السبب الذي ذكروه ضعيف وأن حدوث النار الحاصلة فى جرم السحاب مع كونه ماء خالصاً لايمكن إلا بقدرة القادر الحكيم

و قال في قوله : وينشىء السحاب الثقال : السحاب اسم الجنس و الواحدة سحابة ، والثقال جمع ثقيلة أى الثقال بالماء

و اعلم أن هذا أيضاً من دلائل القدرة و العظمة ، وذلك لأن هذه الأجزاء المائية إما يقال إنها حدثت في جو الهواء أو يقال إنها تصاعدت من وجه الأرض فان كان الأول وجب أن يكون حدوثها باحداث محدث حكيم قادر وهو المطلوب

و إن كان الثاني و هو أن يقال إنّ تلك الأجزاء تصاعدت من الأرض فلمّا وصلت إلى الطبقة الباردة من الهواء بردت فثقلت ورجعت إلى الأرض

فنقول : هذا باطل ، و ذلك لأنّ الأمطار مختلفة ، فتارة تكون القطرات كبيرة ، وتارة صغيرة ، و تارة تكون متقاربة ، واخرى تكون متباعدة ، وتارة تدوم مدّة نزول المطر زماناً طويلا ، و تارة قليلا ، فاختلاف الأمطار في هذه الصفات مع أنّ طبيعة الأرض واحدة و طبيعة الأشعّة المسخنة للبخارات واحدة لابدّ و أن يكون بتخصيص الفاعل المختار

وأيضاً فالتجربة دلّت على أنّ للدّعاء والتضرّع في نزول الغيث أثراً عظيماً ولذلك شرعت صلاة الاستسقاء فعلمنا أنّ المؤثّر فيه قدرة الفاعل لا الطبيعة الخاصة

وفى الصافي في قوله : وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ، روى عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنه سئل عن الرعد فقال : ملك موكّل بالسحاب معه مخاريق من النّار يسوق بها السحاب

وفى الفقيه روى أنّ الرّعد صوت ملك أكبر من الذباب وأصغر من الزنبور و فيه عن الصادق عليه السلام أنّه بمنزلة الرجل يكون فى الابل فيزجرها هاى هاى كهيئة ذلك وقوله

« وَ ٱلْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ » من خوفه و اجلاله « وَ يُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصيبُ بِهِ مَنْ يَشآءُ » من عباده فيهلكه « وَ هُمْ يُجادِلُونَ فِي اللهِ » .

حيث يكذبون رسول الله صلّى الله عليه وآله فيما يصفه تعالى من التفرّد بالالُوهيّة

« وَ هُوَ شَديدُ ٱلْمِحالِ » .

أى المماحلة والمكايدة لأعدائه وقيل : من المحل أى شديد القوّة

وقال عليّ بن إبراهيم القمّي أى شديد الغضب هذا

وقال الرّازي فى تفسير قوله سبحانه :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحاباً ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ

مِنْ خِلالِهِ » :

قال أهل الطبايع : إنّ تكوّن السحاب والمطر و الثلج و البرد و الطلّ والصقيع فى أكثر الأمر يكون من تكاثف البخار ، وفى الأقلّ من تكاثف الهواء ، أمّا الأول فالبخار الصّاعد أن كان قليلا و كان في الهواء ، من الحرارة مايحلّل ذلك البخار فحينئذ ينحلّ و ينقلب هواء ، وأمّا إن كان البخار كثيراً ولم يكن فى الهواء من الحرارة ما يحلّله فتلك الأبخرة المتصاعدة إمّا أن يبلغ في صعودها إلى الطبقة الباردة من الهواء أولا تبلغ ، فان بلغت فامّا أن يكون البرد قويّا أولا يكون ، فان لم يكن البرد هناك قوياً تكاثف ذلك البخار بذلك القدر من البرد واجتمع وتقاطر فالبخار المجتمع هو السحاب ، والمتقاطر هو المطر والديمة ، والوابل إنما يكون من أمثال هذه الغيوم

وأمّا إن كان البرد شديداً فلا يخلو إمّا أن يصل البرد إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها وانحلالها حبّات كباراً ، أو بعد صيرورتها كذلك ، فان كان على الوجه الأوّل نزل ثلجاً ، وإن كان على الوجه الثانى نزل برداً

و أمّا إذا لم تبلغ الأبخرة إلى الطبقة فهي إمّا أن تكون قليلة أو تكون كثيرة ، فان كانت كثيرة فهي تنعقد سحاباً ماطراً وقد لاتنعقد ، أمّا الأوّل فذاك لأحد أسباب خمسة **أولها** إذا منع هبوب الرّياح عن تصاعد تلك الأبخرة **وثانيها** أن تكون الرّياح ضاغطة لها إلى اجتماع بسبب وقوف جبال قدام الرّيح **وثالثها** أن تكون هناك رياح متقابلة متضادّة فتمتنع صعود الأبخرة حينئذ **و رابعها** أن يعرض للجزء المتقدم وقوف لثقله وبطوء حركته ثمّ تلتصق به سائر الأجزاء الكثيرة المدد **وخامسها** لشدّة برد الهواء القريب من الأرض فقد يشاهد البخار يصعد في بعض الجبال صعوداً يسيراً حتى كأنّه مكبة موضوعة على وهدة ويكون الناظر إليها فوق تلك الغمامة والذين يكونون تحت الغمامة يمطرون والذين يكونون فوقها يكونون في الشمس

أمّا إذا كانت الأبخرة القليلة الارتفاع قليلة لطيفة فاذا ضربها برد الليل

كثفها وعقدها ما يكون محسوساً ونزل نزولا متفرّقا لايحسّ به إلاّ عنداجتماع شيء يعتدّ به ، فان لم يجمدكان طلاّ ، وإن جمد كان صقيعاً ونسبة الصقيع إلى الطلّ نسبة الثلج إلى المطر وامّا أن تكون السحاب من انقباض الهواء وذلك عند ما يبرد الهواء وينقبض وحينئذ تحصل منه الأقسام المذكورة

و الجواب انّالما دللنا على حدوث الأجسام وتوسّلنا بذلك إلى كونه قادراً مختاراً يمكنه ايجاد الاجسام لم يمكنا القطع بما ذكرتموه، لاحتمال أنّه سبحانه خلق أجزاء السحاب دفعة لا بالطريق الذى ذكرتموه ، و أيضاً فهب أنّ الأمر كما ذكرتم ولكن الأجسام بالاتفاق ممكنة في ذواتها فلابدّ لها من مؤثر ، ثمّ إنّها متماثلة فاختصاص كلّ واحد منها بصفة معينّة من الصعود والهبوط و اللّطافة والكثافة و الحرارة و البرودة لابدّ له من مخصّص ، فاذا كان هو سبحانه خالقا لتلك الطبايع وتلك الطبايع مؤثّرة في هذه الأحوال و خالق السّبب وخالق المسبّب فكان سبحانه : هوالذى يزجى سحاباً ، لأنّه هوالذى خلق تلك الطبايع المحركة لتلك الأبخرة من باطن الأرض إلى جوّ الهواء، ثمّ إنّ تلك الأبخرة إذاترادفت في صعودها والتصق بعضها بالبعض فهو سبحانه هوالذى : جعلها ركاماً ، فثبت على جميع التقريرات أنّ وجه الاستدلال بهذه الأشياء على القدرة و الحكمة ظاهر بيّن انتهى

وتحقيق المقام هوماذكره بما لامزيد عليه

وأقول : دلائل القدرة في خلق السحاب مضافا إلى ما ذكره هو أنّ الماء بطبعه ثقيل يقتضي النزول فبقاؤه في الجوّ خلاف الطبع ، ولذلك إذا انفصل منه قطرة نزلت دفعة فلا بدّ من قادر قاهر يمسكه في الجوّ على ثقله بقهره وقدرته

وأيضاً، لودام السحاب لعظم ضرره حيث يسترضوء الشمس و تكثر الأمطار وتبتلّ المركبات فتفسد ، ولوانقطع لعظم ضرره لافضائه الى القحط فيهلك المواشى والانسان ، فكان تقديره بالمقدار المعلوم مقتضى الحكمة والمصلحة

وأيضاً ترى السّحاب يرشي الماء على الأرض ويرسله قطرات متفاضلة لايدرك قطرة منها قطرة ولا يعلم عددها إلاّ الذي أوجدها ، ثمّ إنّ كلّ قطرة منها عيّنت لجزء من الأرض و لحيوان معيّن فيها من طير و وحش ودود مكتوب عليها بخطّ غيبيّ غيرمحسوس أنه رزق الحيوان الفلاني في الموضع الفلاني في الوقت الفلاني هذا ، مع مافي انعقاد البرد الصّلب من الماء اللّطيف وفى تناثر الثلوج كالقطن المندوف من العجائب التي لاتحصى، كلّ ذلك عناية من الله سبحانه ورحمة منه على العباد، وفيها هداية لمن استهدى ودراية لمن ابتغى الرشاد

الخامسة

في دلايل القدرة والعظمة في إنبات النبات والأشجار قال سبحانه:

« وَأَنزَلْنا مِنَ السَّمآءِ مآءً فَأَنبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَريمٍ » و قال « وَنَزَّلْنا مِنَ السَّمآءِ مآءً مُبارَكاً فَأَنبَتْنا بِهِ جَنّاتٍ وَحَبَّ الْحَصيدِ ، وَالنَّخلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضيدٌ ، رِزْقاً لِلْعِبادِ وَأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذٰلِكَ الْخُرُوجُ » .

ودلايل القدرة في ذلك من وجوه :

الأوّل أنّ الماء ثقيل بطبعه كما قلنا سابقا إنّه إذا انفصل قطرة منه من المزن تنزل إلى الأرض ولاتبقى في الجوّ بمقتضى طبعه فانظر الى قدرته تعالى كيف رقا الماء المصبوب في أسفل الأشجار مع هذا الطبع والثقل إلى أعالى أغصانها، فهوى الى سفل ثمّ ارتفع إلى فوق في داخل تجاويف الأشجار شيئاً فشيئاً بحيث ينتشر في جميع الأوراق فغذاء كلّ جزء من كلّ ورقة تجرى إليه في تجاويف العروق، ففى كلّ ورقة عرق ممتد طولا وينشعب منه عروق صغار كثيرة عرضاً وطولا ، فكان الكبير نهل وما انشعب عنها جداول، ثمّ ينشعب من الجداول سواقي أصغر منها ثمّ ينتشر منها

خيوط عنكبوت دقيقة خارجة عن ادراك البصر حتى تنبسط فى جميع عرض الورق فيصل الماءفى أجوافها إلى ساير أجزاء الورق لتسقيها و تغذيها بمنزلة العروق المبثوثة في بدن الانسان و الحيوان لتوصل الغذاء إلى كلّ جزء منه و كذلك إلى ساير أجزاء الفواكه ، فانّ الماء المتحرّك بطبعه إلى سفل كيف انجذب الى فوق من غير حامل أوقاسر ، فعلم أنّ له جاذباً آخرو مجرّكاً خارجاً عن الحسّ ليسخّره و يدبّره وينتهى بالأخرة إلى مدبّر السماوات والأرض جلّت عظمته و تعالى شأنه.

الثاني أنّ أصناف النبات والأشجار لماكانت محتاجة إلى الغذاء الدائم في بقاء نضرته و طراوته كحاجة الحيوان إلى الغذاء ولم يكن لها أفواه كأفواه الحيوان جعل لها أُصول مركوزة في الأرض لتنزع منها الغذا فتؤدّيه اليها فصارت الأرض كالأُمّ المربّية و صارت أُصولها كالأفواه الملتقمة للأرض، وأيضا لولا تلك الأُصول لما انتصب تلك الأشجار الطّوال العظام و لم يكن لها ثبات و دوام في الريح العاصف ، فهي لها بمنزلة عُمد الفساطيط والخيم تمدّ بالأطناب من كلّ جانب لتثبت منتصبة فلا تسقط ولا تميل ، ثمّ انظر إلى هذه العروق الصغار المنشعبة من الأصول المركوزة وأنها على دقّتها وضعفها كيف تجرى فى أعماق الأرض وتسير فيها على صلبها عرضاً و طولاً

الثالث إخراج أنواع مختلفه من النّبات و أصناف متشتّة من الأشجار من حبّ وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمّان وفواكه كثيرة مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والروايح يفضل بعضها على بعض في الاكل مع أنّها جميعاً يسقى بماء واحد و يخرج من أرض واحدة

فان قلت : سبب اختلافها بذورها وحبوبها

قلنا : هل يكفى ذلك في ترتّب هذه الآثار ؟ فانّ الحبوب على اختلافها متشابهة فى الصورة والجوهر فكيف يصير بهذا الاختلاف موجبة لهذه الأنواع المتباعدة المتباينة في الصور الجوهرية والكيفيّات والخاصّية ، فهل كان فى النواة نخلة مطوّقة بعنا قيد الرُطب ؟

سلّمنا أنّ اختلافها من المرجّحات لكن نسوق الكلام إلى موجد هذه الاختلافات وفاعلها، فانظر إلى اختلاف طبايع النبات وخواصها ومنافعها فهذا يغذي وهذا يقوي، و هذا يقتل و هذا يحيي و هذا داء وهذا دواء و هذا يسخّن و هذا يبرّد، و هذا يسهل الصّفرا و هذا يولد السّوداء، وهذا يقمع البلغم و هذا يولده، وهذا يستحيل دماً وهذا يطفيه، وهذا يسكر وهذا ينوّم، وهذا يفرّح وهذا يضعف، إلى غير هذا ممّا لو أردنا استقصاء العجايب المودعة فيها انقضت الأيام

ومع ذلك فالحكم الباطنة والمصالح الكامنة فيها أكثر جدّاً مما وصلت اليه عقولنا القاصرة، فهذه هي دلائل القدرة و علامات العظمة و آثار الصنع و الحكمة في الأشياء المذكورة نبّهنا عليها على وجه الاختصار إذ الاستقصاء فيها خارج عن الطّوع والاختيار، فسبحان من أقام الحجّة على مخلوقاته بما أراهم من بدايع آياته وجعلها تذكرة لأولى الألباب، وهو أعلم بالصواب

الترجمة

بعض دیگر از این خطبه در صفت زمین و گسترانیدن اواست بر روی آب میفرماید:

فرو برد حضرت باری تعالی زمین را بر بالای موجهای با شدّت و صولت و برروی لجّه‌های دریاهای پرشدّت بر آمده درحالتیکه میزدند موجهای با شدّت آنها بعضی بعضی را و ردّ میکردند یکدیگر را دفع کننده‌های موجهای بزرگ و بلند آنها، ومیانداختند کف را مانند شتران نر در وقت هیجان آنها، پس فروتنی نمود سرکشی آب موج زننده و ردّ کنندهٔ یکدیگر بجهة سنگینی باران زمین و ساکن گردید هیجان مدافعه آن وقتیکه در نور دید زمین آن آب را بسینه خود، وخوار شد آب درحالتیکه خاضع و فروتن بود وقتیکه غلطید زمین بر او بدوشهای خود مانند غلطیدن حیوان درخاك

پس گردید آب بعد از اضطراب وشدّة موجهای او ساکن و ذلیل ودر حلقهٔ

آهنین‌لجام ذلت گردن نهاده و گرفتار، وساکن شد زمین در حالتیکه گسترانیده شده بود درمیان موج عمیق آن آب، وباز گردانید آبرا از نخوت فخر و بلندی آن و از پر بادی دماغ آن وبلندی از اندازه گذشتن آن، و ببست آبرا برپری روان شدن آن، پس ساکن شد آب بعد از سبکی و جهیدنهای خود، و ایستاد بعد از تبختر کردن در جستنهای خود، پس چون ساکن گردید هیجان آب از زیر أطراف زمین و بار فرمود حقتعالی کوههای بلند بالا را بر دوشهای زمین، روان گردانید چشمهای آبرا از بالای بینیهای زمین، وپراکنده ساخت آن چشمهارا در بیابانهای گشاده آن و مجاری نهرهای آن، و تعدیل فرمود حرکتهای زمین را بکوههای ثابت شونده از سنگهای آن، وبکوههائی که صاحب سرهای بلندند ازسختیهای سنگهای آن

پس ساکن شد زمین از اضطراب بجهة فرورفتن کوهها در قطعهای سطح آن، وبسبب درآمدن کوهها درعمق‌زمین درحالتیکه درآمده‌اند درخانهای‌اندرون بینیهای زمین بواسطه سوارشدن کوهها بر گردنهای زمینهای هموار وبربلندیهای آن، و فراخ کرد حقتعالی میان هوا و میان زمین را ومهیّا فرمود هوا را محل تنفس کشیدن از برای ساکنین‌آن، وبیرون آورد بسوی زمین اهل آنرابرتمامیت منافع و مصالح آن

پس از آن ترك نکرد زمین بی گیاه را که قاصر باشد آبهای چشمه‌ها از سیراب نمودن بلندیهای‌آن زمین، ونمی‌یابد رودخانه‌ها وسیله رسیدن بدان زمین، تااین که‌ایجادفرمودأزبرای‌آن‌أبری‌ظاهر شده که‌زنده‌میکندمرده‌های آنرا وبیرون می‌آورد گیاه‌آنرا، جمع وترکیب فرمود ابرهای سفیدآنرا بعد از تفرّق قطعهای درخشان آن ابر ومباینت پارهای آن

تا اینکه چون متحرّك شد معظم ابرهای سفید در آن‌ابر، و درخشان گشت برق آن درجوانب و اطراف آن، وخواب نکرد یعنی ساکن نشد لمعان آن در

میان پارهای ابر سفید آن ، ومیان متراکم ابر کشیده آن فرستاد حقتعالی آن ابر را در حالتیکه ریزاننده آبست و دریابنده بعضی بعضی را بتحقیق که نزدیکشد بزمین ابریکه بواسطهٔ ثقل مایل است بزمین که بیرون می‌آورد باد جنوب از ابر بارانهای بهم ریخته اورا ، و دفعه دفعه‌های بارانهای با شدّت او را

پس چون افکند ابر سینه که قریب باضلاع او است چون شتر گران بار که سینهٔ خود برزمین نهد ، وانداخت گرانی چیزی را که بلند شده بود با او و از باد گرانی که بار شده بود بر آن ، بیرون آورد بآن آب از موضع بی گیاه زمین گیاه روئیده را و از کوههای کم گیاه گیاههای تروتازه را .

پس آن زمین بهجت مینماید بزینت مرغزارهای خود، وتفاخر میکند بآنچه که پوشانیده شده باو از چادرهای شکوفهای نور دهنده خوش شکل خوش بوی خود ، و تکبر مینماید بزیور آنچه که معلّق شده بآن از شکوفهای با نضرت وطراوت آن ، و گردانیده است حق سبحانه وتعالی آنرا که بیرون آورده از زمین مایهٔ وصول عالمیان بمقصود خودشان ، و روزی ازبرای چهارپایان ، وشکافت حضرت باری راههای گشاده را در اطراف زمین، وبرپانمود نشانه‌ها ازبرای سالکین بر میانهای راههای زمین

الفصل السابع

فَلَمَّا مَهَّدَ أَرْضَهُ ، وَأَنْفَذَ أَمْرَهُ ، اِخْتَارَ آدَمَ عليه السلام خِيرَةً مِنْ خَلْقِهِ ، وَجَعَلَهُ أَوَّلَ جِبِلَّتِهِ ، وَأَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ ، وَأَرْغَدَ فِيهَا أُكُلَهُ ، وَأَوْعَزَ إِلَيْهِ فِيمَا نَهَاهُ عَنْهُ ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّ فِي الْإِقْدَامِ عَلَيْهِ التَّعَرُّضَ لِمَعْصِيَتِهِ ، وَالْمُخَاطَرَةَ بِمَنْزِلَتِهِ ، فَأَقْدَمَ عَلَى مَا نَهَاهُ عَنْهُ مُوَافَاةً لِسَابِقِ عِلْمِهِ ، فَأَهْبَطَهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ لِيَعْمُرَ أَرْضَهُ بِنَسْلِهِ ، وَلِيُقِيمَ الْحُجَّةَ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَلَمْ يُخْلِهِمْ

بَعْدَ أَنْ قَبَضَهُ مِمَّا يُؤَكِّدُ عَلَيْهِمْ حُجَّةَ رُبُوبِيَّتِهِ، وَ يَصِلُ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَعْرِفَتِهِ، بَلْ تَعَاهَدَهُمْ بِالْحُجَجِ عَلَى أَلْسُنِ الْخِيَرَةِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ، وَ مُتَحَمِّلِي وَدَائِعِ رِسَالاتِهِ، قَرْناً فَقَرْناً، حَتَّى تَمَّتْ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم حُجَّتُهُ، وَ بَلَغَ الْمَقْطَعَ عُذْرُهُ وَنُذْرُهُ، وَ قَدَّرَ الْأَرْزَاقَ، فَكَثَّرَهَا وَ قَلَّلَهَا، وَقَسَّمَهَا عَلَى الضِّيقِ وَ السَّعَةِ، فَعَدَلَ فِيهَا، لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِهَا وَمَعْسُورِهَا، وَ لِيَخْتَبِرَ بِذٰلِكَ الشُّكْرَ وَ الصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّهَا وَ فَقِيرِهَا، ثُمَّ قَرَنَ بِسَعَتِهَا عَقَابِيلَ فَاقَتِهَا، وَ بِسَلامَتِهَا طَوَارِقَ آفَاتِهَا، وَ بِفُرَجِ أَفْرَاحِهَا غُصَصَ أَتْرَاحِهَا، وَ خَلَقَ الْآجَالَ، فَأَطَالَهَا وَ قَصَّرَهَا، وَ قَدَّمَهَا وَأَخَّرَهَا، وَ وَصَلَ بِالْمَوْتِ أَسْبَابَهَا، وَجَعَلَهُ خَالِجاً لِأَشْطَانِهَا، وَقَاطِعاً لِمَرَائِرِ أَقْرَانِهَا.

اللغة

(الخيرة) على وزن العنبة المختار ،وقديسكن الياء و في القاموس خار الرجل على غيره خيرة وخيراً وخيرة ، فضّله على غيره كخيرة ، وفي شرح المعتزلي الخيرة اسم من اختاره الله يقال: محمد صلى الله عليه وآله وسلم خيرة الله و(الجبلّة) بكسر الجيم و الباء وتشديد اللاّم الخلقة والطبيعة وقيل في قوله تعالى:

« خَلَقَكُمْ وَ الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ » .

أى ذوي الجبلّة ، ويحتمل أن يكون من قبيل الخلق بمعنى المخلوق، وقيل الجبلّة الجماعة من الناس و(الاكل) بضمّتين الرزق والحظّ قال تعالى :

« أُكُلُهَا دَائِمٌ وَ ظِلُّهَا » .

و(أوعزت) الى فلان فى فعل أو ترك أى تقدّمت وامرت و(خاطر) بنفسه وماله أشفاهما على خطر و ألقاهما في المهلكة قال في المغرب : (تعهد) الصيغة وتعاهدها أتاها وأصلحها وحقيقته جدّد العهد بها و(القرن) أهل كلّ زمان مأخوذ من الاقتران فكأنّه المقدار الذى يقترن فيه أهل ذلك الزمان في أعمارهم و أحوالهم فقيل : أربعون سنة وقيل ثمانون سنة وقيل : مأة و (مقطع) الشيء منتهاه كأنه قطع من هناك و(العذر و النذر) إما مصدران بمعنى الاعذار والانذار أوما بيّن للمكلّفين من الأعذار في عقوبته لهم إن عصوه ، وما أنذرهم به من الحوادث وقوله :

(فعدل) بالتخفيف وفي بعض النسخ بالتشديد و(الميسور والمعسور) مصدران بمعنى اليسر و العسر كالمفتون بمعنى الفتنة ، ويمتنع عند سيبويه مجيء المصدر على وزن مفعول قال : الميسور الزمان الذى يوسر فيه و (العقابيل) جمع عقبول و عقبولة و هي قروح صغار تخرج غبّ الحمى بالشفة و(الفرج) جمع فرجة وهي التفصّى من الهمّ و (الغصص) جمع غصّة وهى ما اعترض في الحلق و (الاتراح) جمع الترح محركة كأسباب وسبب الهمّ والهلاك والانقطاع و (خلجه) يخلجه من باب نصر جذبه و (الأشطان) جمع الشطن بالتحريك وهو الحبل أو الطويل منه

و (المرائر) جمع مرير ومريرة وهي الحبال المفتولة على اكثر من طاق وقيل : الحبال الشّديدة الفتل وقيل : الطوال الدّقاق منها و (الأقران) جمع قرن بالتحريك وهو حبل يجمع به البعيران .

الاعراب

قوله: خيرة منصوب إمّا على المصدر أو على كونه اسماً منه كما حكيناه عن القاموس وعن شرح المعتزلي ، فيكون المعنى اختاره اختياراً أى فضّله تفضيلا واختاره خياراً ، و انتصاب اسم المصدر بالفعل أيضاً غير عزيز يقال : توضّأ وضوء و تطيّر طيرة و افتدى فدية ، و على كونه بمعنى المختار فهو منصوب على الحال ، و موافاة منصوب على الحدث بحذف العامل أى فوا فى المعصية موافاة و طابق بها سابق العلم مطابقة ، و لا يجوز جعله مفعولا له حتى يكون علة للفعل لاستلزامه

كون علمه السابق علّة لاقدامه على المعصية وهو لايستقيم على اصول العدلية

المعنى

اعلم أنّ هذا الفصل متضمن لتمجيد الله سبحانه باعتبار خلقه آدم عليه السلام وتفضيله على غيره واتمام نعمته عليه ومقابلته بالعصيان ومقابلة عصيانه بقبول توبته واهباطه إلى الأرض وإكرام ذرّيته بعده ببعث الأنبياء فيهم وقسمته بينهم معيشتهم و آجالهم بالقلّة والكثرة والضيق والسعة وابتلائه لهم بذلك

فقوله عليه السلام (فلمّا مهّد أرضه) أي سوّاها وأصلحها أو بسطها على الماء ولعلّ المراد هنا إتمام خلق الأرض على ماتقتضيه المصلحة في نظام امور ساكنيها وفي شرح البحراني أي جعلها مهاداً كقوله تعالى :

« أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً » .

أوجعلها مهداً كقوله تعالى :

« جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً » .

و على التقدير الأوّل أراد أنه خلقها بحيث يسهل على العباد أن يتصرّفوا فيها بالقعود والقيام والزراعة و ساير جهات المنفعة ، وعلى التقدير الثاني يكون لفظ المهد استعارة لها بملاحظة تشبيهها بمهد الصبيّ في كونها محلّ الراحة والنوم (وانفذ أمره) أي أمضى أمره التكويني في ايجاد المخلوقات و إتمامها وكان من تمامها خلقة نوع الانسان و ترجيحه على الأشباه و الأقران كما أشار إليه بقوله (اختار) أبا البشر (آدم) على نبيّنا وآله وعليه السلام (خيرة من خلقه) و فضّله سبحانه وذرّيته على ساير مخلوقاته كما قال عزّ من قائل :

« إِنَّ اللهَ اصْطَفى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

وقد اشير إلى بعض جهات التفضيل والاصطفاء في الآيات الشريفة

فمنها أنه سبحانه شرّفه بالاستخلاف كما قال :

« إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » .

ومنها اضافة روحه إليه كما قال :

« وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي » .

ومنها اضافة خلقته إلى يديه كما قال :

« ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ » .

ومنها أمر الملائكة بالسجود له كما قال :

« وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ » .

ومنها تعليمه الأسماء و ايثاره بذلك على ملائكة السّماء كما قال :

« وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها » .

ومنها تكرمته وذرّيته بما اشير إليه بقوله :

« وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَ حَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً » .

ومنها جعلهم قابلا لاتيان الطّاعات وحمل الأمانات كما قال :

« إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّمٰوات وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ »

ومنها تصويره لهم بالصور الحسنة كما قال :

« صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ » .

ومنها تعليمهم البيان كما قال :

«خَلَقَ الْإِنْسانَ عَلَّمَهُ الْبَيانَ» .

ومنها تعديل الأعضاء واستقامة القامة كما قال :

« لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » .

ومنها التّعليم بالقلم كما قال :

« إِقْرَءْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ » .

ومنها كونه نسخة جامعة لما في الملك و الملكوت وكتاباً مبيناً لاسرار القدرة والجبروت ، ولذلك عقّب بيان خلقته بقوله :

« فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ» .

وإلى هذا المعنى أشار أمير المؤمنين عليه السلام فيما نسب اليه :

دوائك فيك فلا تبصر و دائك منك فلا تشعر
وأنت الكتاب المبين الذي بأحرفه تظهر المضمر
أتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر

فقد ظهر بذلك كلّه أنه سبحانه اختاره على غيره (و جعله أوّل جبلته) أى أوّل شخص من نوع الانسان وأوّل خليفة خلقت في الأرض . و فيه ردّ على من قال بقدم الأنواع المتوالدة (وأسكنه جنّته) وأبا حها له بقوله :

« أُسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ » .

(وأرغد فيها اكله) أى جعله واسعاً طيّبا وقال له ولزوجته:

« فَكُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما » .

(وأوعز إليه فيما نهاه عنه) أى تقدّم إليه في الأكل من الشجرة ونهاه عن ذلك وعاهده في ذلك كما قال :

«وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً».

(و أعلمه أنّ في الاقدام عليه) أي على ما نهاه عنه (التعرّض لمعصيته) كما قال:

«وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ».

(و المخاطرة بمنزلته) أي اشراف منزلته على خطر و انحطاط درجته كما قال:

«فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ».

فالضمير في منزلته راجع إلى آدم، و يحتمل رجوعه إليه سبحانه كضمير معصيته على الظاهر (فأقدم على ما نهاه عنه)

«وَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ».

وقد مرّ تأويل تلك المعصية وأضرابها في شرح الفصل الثاني عشر والفصل الثالث عشر من فصول الخطبة الأولى ولا حاجة إلى الاعادة و قوله: (موافاة لسابق علمه) أراد أنه وافى بالمعصية وطابق بها سابق العلم فأقدم على المنهيّ عنه بما قدر عليه و كتب في حقّه في القضاء الالهى السابق على وجوده

يدلّ عليه ما ورد في بعض الأخبار أنّ آدم عليه السلام حجّ لموسى عليه السلام فقال موسى: أنت خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه و أسجد لك ملائكته و أسكنك جنّته فلم عصيته؟ قال آدم عليه السلام له: أنت موسى الذي اتّخذك الله كليماً وأنزل عليك التّوراة؟ قال له: نعم قال له: كم من سنة وجدت الذنب قدّر عليّ قبل فعله؟

قال : كتب عليك قبل أن تفعله بخمسين ألف عام ، قال : ياموسى أتلومني على أمر قد كتب عليّ فعله قبل أن أفعله بخمسين ألف سنة ؟

فان قلت : إذا كانت المعصية مكتوبة عليه مقدّرة في حقه ثابتة في العلم الالهى قبل وجوده ، فلابدّ أن يكون مجبوراً فيهاغير متمكن من تركها

قلت : العلم ليس علّة للمعلوم بل حكاية له وكونها مقدّرة في حقّه لايستلزم اضطراره إذا لم يكن ذلك قدراً حتماً و قضاء لازماً ، و إلاّ لما استحقّ اللّوم والعتاب بقوله :

«أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ» .

ولم ينسبا العصيان إلى أنفسهما ولم يقولا :

«رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» .

فان قلت : كيف لم يكن قدراً حتماً والمستفاد من بعض الأخبار أنّ أكلهما منها كانا بمشيّة حتم وإرادة ملزمة ، وهو مارواه في الكافي عن عليّ بن إبراهيم عن عليّ بن معبد عن واصل بن سليمان عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سمعته يقول : أمر الله ولم يشأ وشاء ولم يأمر ، أمر إبليس أن يسجد لآدم عليه السلام وشاء أن لايسجد ولو شاء لسجد ، و نهى آدم عليه السلام من أكل الشجرة وشاء أن يأكل منها ولو لم يشأ لم يأكل

و عن عليّ بن إبراهيم أيضا عن المختار بن محمّد الهمداني و محمّد بن الحسن عن عبدالله بن الحسن العلويّ جميعاً عن الفتح بن يزيد الجرجاني عن أبي الحسن عليه السلام قال : إنّ لله إرادتين ومشيّتين : إرادة حتم ، وإرادة عزم ، ينهى وهو يشاء ويأمر وهو لايشاء ،أو ما رأيت أنّه نهى آدم وزوجته أن يأكلا من الشجرة وشاء ذلك ، ولو لم

يشأ أن يأكلا لما غلبت شهوتهما مشية الله تعالى ، وأمر إبراهيم عليه السلام أن يذبح إسحاق ولم يشأ أن يذبحه ولوشاء لماغلبت مشيّة إبراهيم عليه السلام مشيّة الله «١»

قلت: ظاهر الخبرين و إن كان يفيد أنّ صدور الأكل منهما إنّما كان عن مشيّته الملزمة و أنّه لولم يشاء الأكل أى شاء عدم الأكل لما امكن لهما الاقدام عليه و إلاّ لزم غلبة مشيّتهما مشيّته سبحانه فيلزم منه العجز تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً ، إلاّ أنّه يمكن توجيههما على وجه يطابق الأُصول العدليّة ولاينافيها .

فنقول : أمّا الرّواية الأولى فقد وجّهت بوجوه :

الأوّل حملها على التّقيّة لكونها موافقة لأُصول الجبريّة

١ـ قال بعض شراح الكافى فى شرح الرواية الاولى : أنّ مشيّته تعالى من صفات ذاته فلا يمكن تخلف مقتضاه ، و أما أمره فهو ليس من صفاته بل هو من قبيل أفعاله لكنه على قسمين : أمر تكوين ، وأمر تشريع **فالاول** كما فى قوله تعالى : انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون **والثانى** كقوله : فقعوا له ساجدين : وكقوله : ولاتقربا هذه الشجرة ، فالامر الذى هو من القسم الاول لكونه بارتفاع الوسايط لابدّ فيه من وقوع المأمور به لا سبيل الاّ الطاعة خاصة من غير احتمال تمرّد ، و الذى هو من القسم الثانى لكونه بالواسطة وعلى ألسنة الرسل والملائكة فيمكن فيه العصيان والتجاوز عن الامر فمنهم من اطاع ومنهم من عصى

اذا تقرر هذا فنقول : من الجايز أن يأمر تعالى عبده بشىء أمراً تكليفياً ولم يشأ وقوع المأمور به ، أونهى وشاء وقوع المنهىّ عنه لعلمه بالمصلحة العظيمة فى ذلك كما أمر ابليس أن يسجد لآدم ولم يشأ ، بل شاء أن لايسجد ونهى آدم عن أكل الشجرة و شاء أن يأكل منها ولا يقع فى الوجود الاّ ماشاءالله ، فلو شاء أن يسجد ابليس لآدم لسجد لا محالة ، ولوشأ أن لايأكل آدم منها شيئاً لم يأكل البتة كما فى قوله تعالى وماشاءالله كان وما لم يشأ لم يكن (١) انتهى

وقال بعضهم فى شرح الرواية الثانية انّ ارادة الحتم هى الارادة الحتمية و المشية القطعية التى لا يجوز تخلّف المراد عنها كما هو شأن ارادته ومشيته تعالى بالنسبة الى أفعاله ، وارادة العزم هى الارادة العزمية الغير الحتمية والمشية التخييرية الغير القطعية التى يجوز تخلف المراد عنها كما هو شأن ارادته ومنيته بالنسبة الى أفعال العباد ، منه

---

١ ـ هذه الكلمات غير موجودة فى القرآن نعم هى مذكورة فى بعض الأدعية ، و لعلّ الشبهة من الناسخ « المصحح »

الثاني أن يقال المراد بالمشيّة العلم فالمقصود أنه أمر بشيء ولم يعلم وقوع ذلك الشيء لعدم وقوعه فلا يتعلّق علمه بوقوعه، وشاء يعني علم وقوع شيء ولم يأمر به لكونه غير مرضيّ له

الثالث أن يقال: المراد بمشية الطاعة هداياته و ألطافه الخاصة التي ليست من ضروريات التكليف، و بمشية المعصية خذلانه وعدم فعل تلك الألطاف بالنسبة إليه وشيء منهما لايوجب جبره على الفعل والترك ولاينافي استحقاق الثواب والعقاب

الرابع ماقيل: إنّ المراد تهية أسباب فعل العبد بعد إرادة العبد ذلك الفعل

الخامس أنه اسناد للفعل إلى العلّة البعيدة، فانّ العبد وقدرته وإرادته لما كانت مخلوقة لله تعالى فهو جلّ وعلا علّة بعيدة لجميع أفعاله

السادس أن يقال: إنّ المراد بمشيّته عدم جبره على فعل الطاعة أو ترك المعصية، وبعبارة اخرى سمّى عدم المشية مشية العدم، فمعنى الحديث أنه أمر الله بشيء على وجه الاختيار وأراده على وجه التفويض والاختيار، ولم يشأ ذلك الشيء مشيّة جبر ولم يرد إرادة قسر، وشاء ولم يأمر يعني شاء شيئاً مشية تكليفيّة وأراده إرادة تخييرية ولم يأمر به على وجه القسر ولم يرده على وجه الجبر

ثمّ أوضح ذلك بقوله: أمر إبليس أن يسجد لآدم عليه السلام على سبيل الاختيار وأراد منه السجود من غير القسر والاجبار، وشاء أن لايسجد بالجبر والقسر ولوشاء لسجد أي لوشاء سجوده لآدم على الجبر والقسر لسجد له، لأنّ الأفعال القسرية لاتخلف عن الفاعل و حيث لم يسجد علم انتفاء المشية القسرية والارادة الجبرية، ونهى آدم عليه السلام عن أكل الشجرة على وجه الاختيار و كره منه أكل ثمرتها من غير الالجاء والاجبار و شاء أن يأكل منها أي شاء أن يكون الأكل أمراً اختياريا و أراد أن لايكون مجبوراً في تركه وفي قبول النهي عنه ،ولولم يشأ لم يأكل أي لولم يشأ أن يكون له اختيار في أكله وكان مجبوراً على تركه لم يأكل، لأنّ المجبور على ترك الشيء ومسلوب الاختيار عن فعله لايقدر على الاتيان به، وحيث أكل علم أنه صاحب القدرة و الاختيار فيه وأنّه تعالى أراد أن يكون فعل العبد

وتركه بقدرته واختياره حفظاً لنظام التكليف وتحقيقا لمعنى الثوابِ والعقاب

و أمّا الرّواية الثّانيـة فقد وجّهها الصدوق «ره» بمثل التوجيه السّادس في الرواية السّابقة قال ره في محكيّ كلامه عن كتاب التّوحيد بعد ايراد الرواية :

إنّ الله تعالى نهى آدم وزوجته عن أن يأكلا من الشجرة وقد علم انهما يأكلان منها لكنه عزّ وجلّ شاء أن لايحول بينهما وبين الأكل بالجبر والقدرة كما منعهما من الأكل منها بالنهي والزجر ، فهذا معنى مشيته فيهما ، ولو شاء عزّ وجلّ منعهما عن الأكل بالجبر ثمّ أكلا منها لكان مشيّتهما قد غلبت مشيّة الله كما قال العالم عليه السلام ، تعالى الله عن العجز علوّاً كبيراً انتهى .

أقول : و ساير الوجوه السّابقة جارية هنا أيضاً كما لايخفى ، ولعلّنا نشبع الكلام على هذا المرام عند تحقيق مسألة الجبر و التفويض و الأمر بين الأمرين في مقام مناسب لذلك إنشاء الله،هذا .

وقوله عليه السلام : (فأهبطه بعد التوبة) نصّ صريح في كون التوبة قبل الاهباط وهو المطابق للترتيب الذكرى في آية طه قال تعالى :

« وَ عَصىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوىٰ ثُمَّ اجْتَبٰيهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدىٰ قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً » .

إلاّ أنا استظهرنا في التنبيه الأوّل من تنبيهات الفصل الثالث عشر من فصول الخطبة الاولى أنّ الاهباط كان قبل التوبة لدلالة الأخبار الكثيرة على ذلك ، ويمكن الجمع بين الأدلّة بحمل مادلّ على تقدم التوبة على الهبوط على نفس التوبة ،ومادلّ على تأخّرها عنها على قبولها ويقال: بتأخّره عن التوبة، أوحمل مادلّ على تأخّرها على التوبة الكاملة ، والله العالم

و كيف كان فانما أهبطه سبحانه (ليعمر أرضه بنسله و ليقيم الحجّة به على عباده) قد مرّ كيفية ابتداء النسل في شرح الفصل الرابع عشر من الخطبة الأولى و أمّا إقامة الحجّة به على عباده فالمراد بـه كونه خليفة لله سبحانه في أرضه

وحجّته على خلقه ممن كان معه من أولاده ومن أتى بعده من الذين كانوا على شرعه وقال الشارح المعتزلي : المراد باقامة الحجّة به أنّه إذا كان أبوهم اخرج من الجنّة بخطيئة واحدة فأخلق بها أن لا يدخلها ذوخطايا جمّة ، والأظهر ماقلناه

(ولم يخلهم بعدأن قبضه) الله سبحانه إليه (ممايؤكّد عليهم حجّة ربوبيّته ويصل بينهم و بين معرفته) أراد أنه لم يخل الخلق بعد قبض آدم اليه من الحجج المؤكّدة لأدلّة ربوبيّته والموصلة للخلق إلى معرفته ، وفي الاتيان بلفظ التّاكيد إشارة إلى أنّ أدلّة الرّبوبيّة و آيات القدرة وبراهين التّوحيد و شواهد التفريد للخالق تعالى ساطعة قائمة ، و آثار الجلال و الجبروت في الأنفس و الآفاق للحقّ سبحانه نيّرة واضحة ، وإنما الغرض من بعث الرّسل وإنزال الكتب محض التأكيد والتأييد ، وإلاّ فالأدلّة العقليّة في مقام الحجيّة كافية وافية .

وقوله : (بل تعاهدهم بالحجج على ألسن الخيرة من أنبيائه ومتحمّلي ودائع رسالاته قرنا فقرنا) أى أصلحهم وجدّد العهد بهم في كلّ قرن قرن بالحجج الجارية على ألسن الأنبياء و الرّسل ، و المودعة في الصحف والكتب حسبما مرّ توضيحه في شرح الفصل الرّابع عشر من الخطبة الأولى في الرّواية الطويلة لأبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام

(حتّى تمّت بنبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم حجّته) و أكمل به دينه و ختم به أنبيائه ورسله (وبلغ المقطع عذره ونذره) أى بلغ الغاية والنهاية اعذاره وانذاره ، وقيل المراد بالعذر ما بيّن الله سبحانه للمكلّفين من الأعذار في عقوبته لهم إن عصوه ، و بالنّذر ما أنذرهم به من الحوادث وخوّفهم به ، و قد مرّ (وقدّر الأرزاق) في حقّ الخلايق وكتبها في أمّ الكتاب كما قال سبحانه :

« وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ » .

قيل : أى في السّماء تقدير رزقكم أى ماقسّمه لكم مكتوب في اللّوح المحفوظ لأنّه في السّماء (فكثّرها و قلّلها) أى كثّرها في حقّ طائفة و قلّلها في حقّ

طائفة اخرى على ما يقتضيه الحكمة ، أو كثّرها وقلّلها بالنسبة إلى شخص واحد بحسب اختلاف الأزمان والحالات (وقسّمها على الضّيق والسّعة) لماكان المتبادر من القسمة البسط على التساوي بيّن ما أراده بذكر الضيق والسّعة ، ولمّا كان ذلك موهما للجور أردفه بذكر العدل وقال : (فعدل فيها) أى في تلك القسمة

ثمّ أشار إلى نكتة العدل وحكمته بقوله (ليبتلى من أراد بميسورها ومعسورها وليختبر بذلك الشكر والصبر من غنيّها وفقيرها) نشر على ترتيب اللّف على الظاهر والضمير فيهما راجع إلي الأرزاق وفي الاضافة توسّع ، ويحتمل عوده إلى الأشخاص المفهوم من المقام أو إلى الدّنيا أو إلى الأرض ولعلّ احديهما أنسب ببعض الضماير الآتية ، و قد مرّ تحقيق معنى اختبار الله سبحانه و ابتلائه في شرح الخطبة الثانية والستين .

و محصّل المراد أنّه سبحانه يبسط الرّزق لمن يشاء من عباده و يقدر له و يجعل بعضهم غنيّاً و بعضهم فقيراً و يختبر بذلك الشكر من الأغنياء والصبر من الفقراء، لاعظام مثوباتهم وإعلاء درجاتهم إن شكروا وقنعوا ، وتشديد عقوباتهم و احتطاط مقاماتهم إن كفروا و جزعوا ، و يجيء لذلك إنشاءالله مزيد توضيح في شرح الخطبة القاصعة

(ثمّ قرن بسعتها عقابيل فاقتها) لايخفى مافي تشبيه الفاقة وهى الفقر والحاجة أو آثارها بالعقابيل من اللّطف ، لكونها مما يقبح في المنظر وتخرج في العضو الذى لايتيسّر ستره عن النّاس و تشتمل على فوائد خفيّة ، و كذلك الفقر و مايتبعه ، وأيضاً تكون غالباً بعد التلذّذ والتنعّم (وبسلامتها طوارق آفاتها) أراد بها متجدّدات المصائب وما يأتي بغتة من الطروق و هو الاتيان باللّيل (و بفرج أفراجها غصص أتراحها) أراد أنّ التفصّي من همومها مقارن لغصصها ، و نشاطها معقّب لهلاكها قال الأعشى :

ولكن أرى الدّهر الذى هوخائن ... اذا صلحت كفاى عاد فأفسدا
شباب و شيب و افتقار و ثروة ... فللّه هذا الدّهر كيف تردّدا

وقال الحريرىّ :

وقع الشّوائب شيّب ... و الدّهر بالناس قلّب
إن دان يوماً لشخص ... ففي غد يتغلّب
فلا تثق بوميض من ... برقه فهو خلّب

وقال آخر:

استقدر الله خيراً و ارضينّ به ... فبينما العسر إذ دارت مياسير
وبينما المرء في الأحياء مغتبط ... إذ صار في الرّمس تعفوه الأعاصير

(وخلق الآجال فأطالها وقصّرها وقدّمها وأخّرها) قال في البحار : الأجل محرّكة مدّة الشيء و غاية الوقت في الموت (١) و حلول الدّين ، وتعليق الاطالة والتقصير على الأوّل واضح ، و أما التقديم والتأخير فيمكن أن يكون باعتبار أنّ لكلّ مدة غاية وحينئذ يرجع التقديم إلى التقصير والاطالة إلى التأخير ، ويكون العطف للتفسير تأكيداً ، و يحتمل أن يكون المراد بالتقديم جعل بعض الأعمار سابقاً على بعض وتقديم بعض الامم على بعض مثلا. فيكون تاسيساً، ويمكن أن يراد بتقديم الآجال قطع بعض الأعمار لبعض الأسباب كقطع الرّحم مثلا كما ورد في الأخبار و بتأخيرها مدّها لبعض الاسباب فيعود الضمير في قدّمها و أخّرها إلى الأجل بالمعنى الثاني على وجه الاستخدام أو نوع من التجوّز في التعليق كمامرّ

(ووصل بالموت أسبابها)الضمير راجع إلى الآجال ، والمراد باتّصال أسبابها به على كون الأجل بمعنى مدّة العمر هو اتصال أسباب انقضاء الآجال به ، و على المعنى الثاني هو اتصال أسباب نفس الآجال به، والمراد بالأسباب على ذلك هى بعض الأمراض المفضية إلى الموت و نحوها من الأسباب المؤدّية إليه .

(وجعله خالجا لأشطانها) أى جعل الموت جاذباً لحبائل الآجال إليه وأراد بها الأعمار تشبيها لها بالأشطان في الطول والامتداد ، واستعار لفظ الخلج للموت

١- وبعبارة اخرى هو زمان حلول الموت،منه .

باعتبار استلزام الموت لقرب الأجل كما أنّ الجاذب يقرب المجذوب إلى نفسه (وقاطعاً لمرائر أقرانها) قال المجلسيُّ ولعلّ المراد بمرائر أقران الآجال الأعمار التي يرجى امتدادها لقوّة المزاج أو البنية ونحوها، والله العالم

الترجمة

پس چون بسط فرمود و گسترانيد حقّ سبحانه وتعالى زمين خودرا، واجراء كرد امرخودرا اختيارنمود جناب آدم عليه السلام را اختيار كردنى، يا اينكه بر گزيد اورا بر گزيده شدۀ ازميان خلقان و گردانيد اورا أوّل طبيعتى ازنوع انسان وساكن فرموداورادر بهشت خودووسعت داد در آنجا رزق اورا ومقدّم داشت بسوى وى در آنچه نهى كرد اورا از آن يعنى أكل از شجره، و اعلام كرد اورا كه در اقدام نمودن برآن فعل متعرّض شدنست بمعصيت او و درخطر افكندن وضايع ساختن است منزلت و مرتبت او، پس اقدام كرد جناب آدم برآنچه كه نهى فرموده بود خدا ازآن، و موافقت كرد اين موافقت نمودنى باعلم سابق حضرت بارى

پس فرود آورد اورا بزمين بعداز توبه و انابت تا اينكه آباد نمايد زمين خودرا بانسل او، وتا اينكه اقامۀ حجت نمايد با او به بندگان خود، و خالى نگذاشت بندگان خودرا بعداز قبض فرمودن روح آدم عليه السلام از چيزيكه مؤكّد شود حجت پروردگارى او را و وصل كند ميان ايشان و ميان معرفت او بلكه تجديد عهد فرمود باايشان بحجتها ودليلها برزبان بر گزيدگان ازپيغمبران خود ومتحملان امانتهاى پيغامهاى خود در قرنى بعداز قرنى. تااينكه تمام شد بپيغمبر ما كه محمّد بن عبدالله صلوات الله عليه و آله است حجّة بالغۀ او، وبنهايت رسيد عذر او درعذاب عاصيان وترساندن اوازآتش سوزان

و مقدّر فرمود روزيها را پس بسيار گردانيد آنرا بربعضى و كم گردانيد آنرا بربعض آخر، وقسمت كرد آنها را برتنگى ووسعت، پس عدالت كرد در آن قسمت تا اينكه امتحان نمايد هر كه را بخواهد باآسانى روزى ودشوارى آن و تا اينكه اختيار نمايد با اين شكر وصبررا از توانگر ودرويش آن

پس از آن مقارن‌ساخت بفراخی‌روزیها تبخالهای فقر و فاقهٔ آن ، و بسلامتیهای آن مصیبتهای ناگهان آنرا ، و بگشادگیهای شادیهای آن‌غصّهای هلاکتهای آنرا و خلق کرد اجلها را پس دراز نمود آنرا و کوتاه گردانید ومقدّم فرمود بعض آنرا و تأخیر انداخت بعض دیگر را وچشانید بمرگ اسباب اجلهارا ، وگردانید مرگ را کشنده ریسمانهای اجلها وبرنده ریسمانهای محکم‌پرتاب آنها

الفصل الثامن

عالِمُ السِّرِّ مِنْ ضَمائِرِ الْمُضْمِرِينَ ، وَ نَجْوَى الْمُتَخافِتِينَ ، وَخَواطِرِ رَجْمِ الظُّنُونِ ، وَعُقَدِ عَزِيماتِ الْيَقِينِ ، وَمَسارِقِ إِيماضِ الْجُفُونِ ، وَما ضَمِنَتْهُ أَكْنانُ الْقُلُوبِ ، وَغَياباتُ الْغُيُوبِ ، وَما أَصْغَتْ لِاسْتِراقِهِ مَصائِخُ الْأَسْماعِ ، وَمَصائِفِ الذَّرِّ ، وَمَشاتِي الْهَوامِّ ، وَرَجْعِ الْحَنِينِ مِنَ الْمُولَهاتِ وَهَمْسِ الْأَقْدامِ ، وَمُنْفَسَحِ الثَّمَرَةِ مِنْ وَلائِجِ غُلُفِ الْأَكْمامِ ، وَمُنْقَمَعِ الْوُحُوشِ مِنْ غِيرانِ الْجِبالِ وَأَوْدِيَتِها ، وَمُخْتَبَىءِ الْبَعُوضِ بَيْنَ سُوقِ الْأَشْجارِ وَأَلْحِيَتِها ، وَمَغْرَزِ الْأَوْراقِ مِنَ الْأَفْنانِ ، وَمَحَطِّ الْأَمْشاجِ مِنْ مَسارِبِ الْأَصْلابِ ، وَناشِئَةِ الْغُيُومِ وَمُتَلاحِمِها ، وَدُرُورِ قَطْرِ السَّحابِ فِي مُتَراكِمِها ، وَما تَسْفِي الْأَعاصِيرُ بِذُيُولِها ، وَتَعْفُو الْأَمْطارُ بِسُيُولِها ، وَعَوْمِ نَباتِ الْأَرْضِ فِي كُثْبانِ الرِّمالِ ، وَمُسْتَقَرِّ ذَواتِ الْأَجْنِحَةِ بِذُرَى شَناخِيبِ الْجِبالِ ، وَتَغْرِيدِ ذَواتِ الْمَنْطِقِ فِي دَياجِرِ الْأَوْكارِ ، وَما أَوْعَتْهُ الْأَصْدافُ وَحَضَنَتْ عَلَيْهِ أَمْواجُ الْبِحارِ ،

وَما غَشِيَتْهُ سُدْفَةُ لَيْلٍ أَوْذَرَّ عَلَيْهِ شارِقُ نَهارٍ ، وَ مَا اعْتَقَبَتْ عَلَيْهِ أَطْباقُ الدَّياجِيرِ وَسُبُحاتُ النُّورِ، وَأَثَرِ كُلِّ خُطْوَةٍ، وَحِسِّ كُلِّ حَرَكَةٍ، وَ رَجْعِ كُلِّ كَلِمَةٍ، وَ تَحْرِيكِ كُلِّ شَفَةٍ، وَمُسْتَقَرِّ كُلِّ نَسَمَةٍ ، وَ مِثْقالِ كُلِّ ذَرَّةٍ ، وَهَماهِمِ كُلِّ نَفْسٍ هامَّةٍ ، وَما عَلَيْها مِنْ ثَمَرِ شَجَرَةٍ ، أَوْساقِطِ وَرَقَةٍ ، أَوْ قَرارَةِ نُطْفَةٍ، أَوْ نُقاعَةِدَمٍ وَ مُضْغَةٍ ، أَوْ ناشِئَةِ خَلْقٍ وَ سُلالَةٍ، لَمْ يَلْحَقْهُ فِي ذٰلِكَ كُلْفَةٌ ، وَ لَااعْتَرَضَتْهُ فِي حِفْظِ مَا ابْتَدَعَهُ مِنْ خَلْقِهِ عارِضَةٌ ، وَ لَا اعْتَوَرَتْهُ فِي تَنْفِيذِ الْأُمُورِ وَ تَدابِيرِ الْمَخْلُوقِينَ مَلالَةٌ وَ لا فَتْرَةٌ، بَلْ نَفَذَ فِيهِمْ عِلْمُهُ ، وَأَحْصاهُمْ عَدُّهُ ، وَ وَسِعَهُمْ عَدْلُهُ ، وَ غَمَرَهُمْ فَضْلُهُ ، مَعَ تَقْصِيرِهِمْ عَنْ كُنْهِ ما هُوَ أَهْلُهُ .

أَللّٰهُمَّ أَنْتَ أَهْلُ الْوَصْفِ الْجَمِيلِ ، وَ التَّعْدادِ الْكَثِيرِ ، إِنْ تُؤَمَّلْ فَخَيْرُ مَأْمُولٍ ، وَإِنْ تُرْجَ فَأَكْرَمُ مَرْجُوٍّ ، أَللّٰهُمَّ وَ قَدْ بَسَطْتَ لِي فِيما لاأَمْدَحُ بِهِ غَيْرَكَ ، وَلاأُثْنِي بِهِ عَلىٰ أَحَدٍ سِواكَ ، وَلا أُوَجِّهُهُ إِلىٰ مَعادِنِ الْخَيْبَةِ ، وَمَواضِعِ الرِّيبَةِ ، وَ عَدَلْتَ بِلِسانِي عَنْ مَدائِحِ الْآدَمِيِّينَ ، وَالثَّناءِ عَلَى الْمَرْبُوبِينَ الْمَخْلُوقِينَ ، أَللّٰهُمَّ وَلِكُلِّ مُثْنٍ عَلىٰ مَنْ أَثْنىٰ عَلَيْهِ مَثُوبَةٌ مِنْ جَزاءٍ ، أَوْ عارِفَةٌ مِنْ عَطاءٍ ، وَ قَدْ رَجَوْتُكَ دَلِيلاً عَلىٰ ذَخائِرِ الرَّحْمَةِ ، وَكُنُوزِ الْمَغْفِرَةِ .

أَللّٰهُمَّ وَهٰذا مَقامُ مَنْ أَفْرَدَكَ بِالتَّوْحيدِ الَّذي هُوَ لَكَ، وَلَمْ يَرَ مُسْتَحِقًّا لِهٰذِهِ الْمَحامِدِ وَالْمَمادِحِ غَيْرَكَ، وَبي فاقَةٌ إِلَيْكَ، لا يَجْبُرُ مَسْكَنَتَها إِلَّا فَضْلُكَ، وَلا يَنْعَشُ مِنْ خَلَّتِها إِلَّا مَنُّكَ وَجُودُكَ، فَهَبْ لَنا في هٰذَا الْمَقامِ رِضاكَ، وَأَغْنِنا عَنْ مَدِّ الْأَيْدي إِلىٰ سِواكَ، إِنَّكَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ.

اللغة

(السرّ) هو مايكتم و هو خلاف الاعلان و (ضمير) الانسان قلبه و باطنه و الجمع ضمائر على التشبيه بسريرة وسرائر لأنّ باب فعيل إذا كان اسماً لمذكر يجمع كجمع رغيف وأرغفة و رغفان قاله الفيومى ، و في القاموس الضمير السّر وداخل الخاطر و (النجوى) اسم مصدر بمعنى المسارة من انتجى القوم و تناجوا تسارّوا و (التخافت) كالاخفات خلاف الجهر قال الشّاعر :

أُخاطب جهراً إذ لهنّ تخافت وشتّان بين الجهر والمنطق الخفت

و (الخاطر) ما يخطر في القلب من تدبير أمر و نحوه و (العقد) جمع عقده بالضمّ وعقدة كلّ شيء الموضع الذي عقد منه و احكم و (أومضت) المرئة إذا سارقت النظر وأومض البرق إذا لمع لمعاً خفيفاً وأومض فلان أشار اشارة خفية و (الاكنان)والاكنّة جمع الكنّ وهواسم لكلّ مايستتر فيه الانسان لدفع الحرّ والبرد من الأبنية ونحوها وستر كلّ شيء ووقائه قال تعالى :

« وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً » .

قال الشّارح المعتزلي : ويروى أكنة القلوب وهي غلفها واغطيتها قال تعالى

« وَجَعَلْنا عَلىٰ قُلوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ » .

و (غيابة) البئر قعره قال تعالى :

« وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ».

وغيابة كلّ شيء مايسترك منه و (استراق) السّمع الاستماع في خفيّة قال تعالى:

(إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ) .

و (الذّر) جمع ذرّة وهي صغار النّمل و (الهوام) جمع الهامّة و هو كلّ ذات سمّ يقتل كبعض الحيّات وما لايقتل فهو السّامة كالزنبور و قد يطلق الهوام على ما يدبّ من الحيوان كالحشرات و (منفسح) الثمرة بالنون والحاء المهملة من باب الانفعال موضع انفساحها ، ويروى متفسخ الثمرة بالتاء والسّين المشدّدة والخاء المعجمة من باب التّفعل يقال : تفسّخ الشعر عن الجلد زال و (الولايج) المواضع السّاترة جمع وليجة وهي كالكهف يستتر فيه المارّة من مطر أو غيره ويقال : أيضاً في جمعه ولج واولاج و (الغلف) بضمّة أو ضمّتين جمع غلاف ككتاب ويوجد في النّسخ على الوجهين و (الاكمام) جمع الكمّ بالكسر وهو وعاء الطلع وغطاء النّور ويجمع أيضاً على الأكمة و كمام .

و (منقمع) الوحوش من باب الانفعال محلّ الانقماع و الاختفاء ، و في بعض النسخ من باب التفعّل بمعناه و (الغيران) جمع غار وهو ماينحت في الجبل شبه المغارة فاذا اتّسع قيل كهف ، و قيل : الغار الجحر يأوى إليه الوحش أو كلّ مطمئنّ في الأرض أو المنخفض من الجبل و (الالحية) جمع اللّحاء ككساء و هي قشر الشجر و (الامشاج) قيل : مفرد وقيل جمع مشج بالفتح أو بالتحريك أو مشيج وزان يتيم و أيتام أى المختلط

و (المسارب) المواضع الذي يتسرّب فيها المني أى يسيل أو يختفى من قولهم تسرب الوحش إذا دخل في سربه أى جحره و اختفى او مجاري المنى من السرب بمعنى الطريق ، و تفسيرها بالاخلاط التى يتولّد منها المني كما احتمله الشّارح البحراني بعيد (في متراكمها) في بعض النسخ و متراكمها بالواو

و (الأعاصير) جمع الأعصار وهو بالكسر الريح التي تهب صاعداً من الأرض نحو السّماء كالعمود و قيل : التى فيها نار و قيل : التي فيها العصار و هو الغبار الشديد و (العوم) السباحة و سير السّفينة و (بنات الأرض) بتقديم الباء على النون على ما في أكثر النسخ و في بعضها بالعكس و (ذرى) جمع ذروة بالكسر و الضمّ (وغرد)الطاير كفرح وغرّدتغريداً رفع صوته وطرب به و (الحضن) بالكسرمادون الابط إلى الكشح أو الصدر و العضدان ومابينهما ،وحضن الصبيّ من باب نصر جعله في حضنه .

و (ذرت) الشمس تذروذرواً أى طلعت وشرقت و(شرقت) الشمس وأشرقت أى أضاءت و(التّمداد) بالفتح مصدر للمبالغة والتكثيروقال الكوفيون أصله التفعيل الذى يفيد المبالغة قلبت ياؤه الفاً وبالكسر شاذّ و(المحامد) جمع المحمدة بفتح العين و كسرها يقال : حمده كسمعه حمداً ومحمِداً ومَحمَداً ومحمِدة ومحمَدة أثنا عليه

الاعراب

عالم السرّ خبر لمبتداء محذوف بدلالة المقام ، ، و كلمة من في قوله : من ضماير المضمرين بيانية إن كان الضمير بمعنى السرّ و هو الأظهر و بمعنى في على حدّ قوله تعالى :

« إِذا نُودِيَ لِلصَّلوٰةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ».

ان كان بمعنى القلب ، و نجوى المتخافتين على كون من بيانيّة عطف على الضّماير ، و على كونها بمعنى في يكون عطفاً على السّر و الأوّل أظهر لأنّ نجوى المتخافتين ومايتلوه من المعطوفات كلّها من قبيل الاسرار ، وقوله : من ولايج غلف الاكمام حرف من بيانيّة أو تبعيضية على رواية منفسح بالنون والحاء المهملة وصلة أو بيانية على روايته بالتاء و الخاء المعجمة ، وإضافة الغلف إلى الاكمام من قبيل إضافة العام إلى الخاص لإفادة الاختصاص إذ كلّ كمّ غلاف دون العكس ، و جملة لم يلحقه إما حال من فاعل عالم السرّ المصدر به الفصل أو استيناف بيانيّ و الثّاني أظهر

وقوله : فخير مأمول خبر لمبتدء محذوف ، وقوله : بسطت لى فيما لاأ مدح كلمة في إما زائدة أو للظرفيّة المجازية ، و مفعول بسطت محذوف أى بسطت لي القدرة أو اللّسان أو الكلام فيما لا أمدح ، والباء في قوله : عدلت بلساني للتعدية ، ودليلا منصوب إمّا على الحال من مفعول رجوتك أو مفعول له ، و من في قوله : من خلّتها زائدة ، والفاء في قوله : فهب لنا فصيحة

المعنى

اعلم أنّه عليه السلام لما ذكر في الفصول السّابقة عجائب قدرته تعالى و بدايع صنعته ودلائل حكمته وبراهين عظمته أردفها بهذا الفصل للتنبيه على عموم علمه سبحانه بجزئيات الأمور وخفايا الأسرار ، وقد مضى بعض الكلام في هذا المعنى في الخطبة الخامسة و الثمانين و الخطبة التاسعة والأربعين ، و مرّ تحقيق عموم علمه بجميع الأشياء في تنبيه الفصل السّابع من فصول الخطبة الاولى ، إلاّ أنّ هذا الفصل قد تضمن مالم يتضمنه الخطب السابقة ، فانّ فيه مع جزالة اللّفظ وعظم خطر المعنى وفصاحة العبارة وغزارة(١) الفحوى الاشارة إلى أصناف خلقه وأنواع بريّته وعجائب ربوبيته ، وقد أحصا عليه السلام فيه من خفيّات المخلوقات وخبيّات الموجودات ومكنونات المصنوعات مالا يوجد في كلام غيره بل لايقدر عليه (٢) سواه ، تنبيهاً بذلك على برهان علمه تعالى بها ، لأنّ خلقه لها و حفظه و تربيته لكلّ منها و إظهار بدايع الحكمة في كلّ صفة من أوصافها و حال من أحوالها لا يتعقّل إلاّ ممّن هو عالم بها مدرك لحقايقها ، كما قال عزّ من قائل :

(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) .

قال الشّارح المعتزلي و لنعم ماقال : لوسمع أرسطاطالس القائل بأنه تعالى لايعلم الجزئيات هذا الكلام له عليه السلام لخشع قلبه وقفّ شعره واضطرب فكره ، ألا ترى ماعليه من الروّا والمهابة والعظمة والفخامة والمتانة والجزالة مع ماقد اشرب

١ــ الغزيرة الكثيرة الدر من الآبار والينابيع الكثيرة الماء،ق
٢ــ اى على ذلك الاحصاء،منه

من الحلاوة والطلاوة واللطف والسلاسة، لا أرى كلاماً يشبه هذا إلا أن يكون كلام الخالق سبحانه ، فانّ هذا الكلام نبعة من تلك الشجرة ، وجدول من ذلك البحر ، وجذوة من تلك النار كأنّه شرح قوله تعالى :

(وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلاّ هُوَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاّ يَعْلَمُها وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلاّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ) .

فلنعد إلى شرح كلامه عليه‌السلام لعجز اللسان وقصور البيان عن احصاء فضائله و استقصاء خصايصه فأقول قوله:(عالم السّر من ضمائر المضمرين) أراد به أنه خبير بمكتوبات السرائر و محيط بمكنونات الضماير ، لا يعزب عن علمه شيء منها كما قال عزّ من قائل :

(وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى) .

(ونجوى المتخافتين) أى مسارة الذين يسرّون المنطق كما قال تعالى :

(ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلاّ هُوَ رابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاّ هُوَ سادِسُهُمْ وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاّ هُوَ مَعَهُمْ) .

(وخواطر رجم الظنون) يعنى مايخطر بالقلب ممّا يسبق إليه الظّنون من غير برهان (و عقد عزيمات اليقين) أى محكمات العقايد الناشئة عن اليقين التي عقد عليها القلب واطمأنّ إليها النّفس (ومسارق ايماض الجفون) يعنى خفيات(١) إشارة الجفون ، أو المراد بالجفون العيون مجازاً وبالمسارق النظرات الخفية التي للعيون كانّها تسرق النظر لاخفائها فيكون المقصود علمه بالنّظرات الخفيّة للعيون حين تومض أى تلمع لمعا خفيفا يبرز لمعانها تارة و يختفى اخرى عند فتح

---

١ ـ هذا على كون المسارق من سرق كفرح بمعنى خفى والايماض بمعنى الاشارة،منه

الجفون وطبقها كوميض البرق

(و ما ضمنته اكنان القلوب)أى أستارها وأغطيتها (وغيابات الغيوب) أى ستراتها وحجاباتها المانعة من ادراك مافيها (وما أصغت لاستراقه مصائخ الاسماع) يعنى تسمعت و مالت إلى استماعه خفية مخارق الاسماع التي تسمع و تصاخ بها (و مصائف الذرّ ومشاتي الهوام) يعنى المواضع التي يصيف فيها أى يقيم بالصّيف صغار النمل والمواضع التي تشتو فيها أى تأوى بالشتاء حشرات الأرض (و رجع الحنين من المولهات) أراد به ترجيع الصوت وترديد شدة البكاء من النوق و كلّ انثى حيل بينها وبين أولادها (وهمس الأقدام) أخفى مايكون من صوتها

(و منفسح الثمرة من ولايج غلف الأكمام) أى موضع نموّها أو محلّ انقطاعها من بطانة الأكمام والمواضع المستترة منها (ومنقمع الوحوش) محلّ اختفائها (من غيران الجبال) و أغوارها أى جحراتها التي تأوى إليها الوحش (و أوديتها) الضمير راجع إلى الجبال وفي الاضافة توسع (ومختبئى البعوض) موضع اختفاء البق (بين سوق الأشجار وألحيتها) أى بين جذعها وقشرها (ومغرز الأوراق من الأفنان) محلّ و صلها من الاغصان (و محط الامشاج من مسارب الأصلاب) اى انحدار الاخلاط أومحلّ انحدارها (١) من مجارى الأصلاب ومسيلها أو مخفاها قيل في قوله تعالى :

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ).

أى أخلاط من الطبايع من الحرارة والبرودة و الرطوبة واليبوسة ، و قيل : من الأجزاء المختلفة في الاستعداد ، و قيل : أمشاج أى أطوار طوراً نطفة و طوراً علقة و هكذا ، وقيل : أى أخلاط من ماء الرجل وماء المرأة و كلّ منهما مختلفة الاجزاء في الرقة والقوام والخواص ولذلك يصير كلّ جزء منهما مادّة عضووقيل: ألوان فانّ ماء الرّجل أبيض وماء المرأة أصفر فاذا اختلطا اخضرّا ، و كلامه عليه السلام

١- والاول مبنى على كون المحط مصدراً والثانى على كونه اسم مكان ، منه

يؤيد بعض الوجوه كما لايخفى فيكون محطّ الأمشاج مقرّ النطفة من الرّحم أو من الأصلاب على بعض الوجوه في المسارب فافهم

(و ناشئة الغيوم و متلاحمها) أراد أوّل ما ينشأ منها ولم يتكامل اجتماعها وما يلتصق بعضها ببعض ويلتحم (ودرور قطر السحاب في متراكمها) أى سيلان المطر في متكاثف السّحاب ومجتمعها (وماتسفى الأعاصير) أى تذروه وتثيره من التراب و نحوه (بذيولها) بأطرافها التي تجرّها على الأرض و لطف الاستعارة ظاهر (وتعفو الأمطار بسيولها) اى تمحوه و تدرسه من الآثار بمائها الكثير السّائل

(وعوم بنات الأرض في كثبان الرّمال) أراد عليه السلام ببنات الأرض الحشرات والهوام التي تكون في تلال الرّمال و تنشأ فيها ، استعار لحركتها فيها لفظ العوم الذى هو السّباحة فى الماء بمشابهة عدم استقرارها أوغوصها فيها ، وعلى ما في بعض النسخ من تقديم النون فلفظ العوم استعارة لحركة عروق النباتات فيها كأرجل السّابحين و أيديهم في الماء

(ومستقرّ ذوات الأجنحة من الطيور بذرى شناخيب الجبال) وأعالى رؤوسها (وتغريد ذوات المنطق) أى تطريب صاحبات النطق من الأطيار ورفع أصواتها بالغناء (في دياجير الأوكار) وظلماتها (وماأوعته الأصداف) أى حفظته وجمعته من اللّئالي (و حضنت عليه أمواج البحار) من السمك و العنبر وغيرهما ، استعار لفظ الحضن للأمواج في انطباقها بملاحظة شبهها بالحواضن في ضمّ فرخها و بيضها إلى حضنها (وماغشيته) وغطته (سدفة ليل) وظلمتها (أوذرّ عليه شارق نهار) أى طلع عليه الشّمس المضيئة بالنهار

(وما اعتقبت) وتعاقبت (عليه أطباق الدياجير) و أغطية الظلم (وسبحات النور) أى ما يجرى و يسبح عليه النور من سبح الفرس و هو جريه ، والمراد بما تعاقب عليه النور و الظلمة ما تغطيه ظلمة بعد نور ونور بعد ظلمة ، ويحتمل أن يراد تعاقب أفراد كلّ منهما (وأثر كلّ خطوة) أى علامة كلّ مشية تبقى فى الأرض (وحسّ كلّ حركة) و صوتها الخفى (و رجع كلّ كلمة) أرادبه ماترجع به من

الكلام إلى نفسك وتردّده في فكرك ، أوجواب الكلمة أو ترديد الصوت وترجيعه عند التلفظ بالكلمة أو إرجاع النفس للتلفظ بكلمة بعدالوقف على كلمة .

(وتحريك كلّ شفة ومستقر كلّ نسمة) أي كلّ انسان أو كلّ دابة فيها روح ، و مستقرّها إما الصّلب أو الرّحم أو القبر أو مكانه في الدّنيا أوفي الآخرة أو الأعم (ومثقال كلّ ذرّة) يعني وزنها لا المثقال المعروف كما قال تعالى :

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ) .

(وهما هم كلّ نفس هامة) أراد عليه السلام ترديدات الصّوت في الحلق أو تردّداته في الصدر من الهم والحزن من كلّ نفس ذات همة تعزم على أمر (وماعليها) أي على الأرض المفهومة بقرينة المقام و إن لم يسبق لها ذكر في الكلام على حدّ قوله تعالى : كلّ من عليها فان (من ثمر شجرة أو ساقط ورقة أو قرارة نطفة) مستقرّها (أونقاعةدم) أي نقرة يجتمع فيهاالدّم (ومضغة) قطعة لحم بقدرمايمضغ (أو ناشئة خلق) أي الصّورة ينشئها سبحانه في البدن أو الرّوح التي ينفخها فيه (وسلالة) وهي في الأصل ما استلّ واستخرج من شيء وسمّي الولد ونطفة الانسان سلالة باعتبار أنّهما استلا منه ، و في هذه الفقرات إشارة إلى قوله تعالى :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً في قَرارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا العِظامَ لَحماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالِقِينَ) .

ثمّ إنّه بعد بيان عموم علمه بالمخلوقات على اختلاف أنواعها وأصنافها نبّه على تنزّهه سبحانه فيذلك عن صفات البشر فقال (لم يلحقه فيذلك) أي في علمه بالجزئيات المذكورة أو في خلقه لها على اختلاف موادّها وما هيآتها و خواصّها وحالاتها (كلفة) و مشقّة (و لا اعترضته) ومنعته (في حفظ ما ابتدع من خلقه

عارضة) أي حالة أو خصلة مانعة عن الحفظ (و لااعتورته) قيل أحاطت به (في تنفيذ الامور) و إمضائها (وتدابير المخلوقين) و إجراء امورهم على وفق المصلحة والعلم بالعواقب (ملالة) وضجر (ولافترة) أي كسر بعد حدّة ولين بعد شدّة

(بل نفذ فيهم علمه) و أحاط بظواهرهم و بواطنهم لا يعزب عنه شيء منهم (و أحصاهم عدّه) و في بعض النسخ عدوه (ووسعهم عدله و غمرهم) أي غطاهم وشملهم وسترهم (فضله) ونواله (مع تقصيرهم عن كنه ماهو أهله) وحقيقة ماهو مستحقه من الثناء الجميل و الوصف على جهة التعظيم والتبجيل ، وأن يعبد حقّ العبادة ، ويعرف حقّ المعرفة

وفيه تنبيه على حقارة ثنائهم وعبادتهم في جنب جلاله وعظمته واستحقاقه لما هو أهله ليدوم شكرهم وثنائهم و لا يستكثروا شيئاً من طاعاتهم و عباداتهم ، ثمّ إنه لما حمدالله وأثنا عليه ووصفه بأوصاف الكمال ونعوت الكبرياء و الجلال أردفه بالدّعاء والسؤال والتضرّع والابتهال فقال :

(اللهمّ أنت أهل الوصف الجميل) دون غيرك لاتّصافك بالصّفات الحسنى والأمثال العليا (و التعداد الكثير) من النعم والآلاء والمنن والعطايا (إن تؤمل) للكرم و الامتنان (ف)أنت (خير مأمول و إن ترج) للرحمة و الغفران (ف)أنت (أكرم مرجوّ) لأنّ كرمك لايضيق عن سؤال أحد ويدك بالعطاء أعلى من كلّ يد

(اللّهمّ وقد بسطت لي) القدرة (فيما) كناية عن بلاغة الكلام وفصاحة البيان وعذوبة اللّسان (لا أمدح به غيرك ولا اثنى به على أحد سواك) لاختصاصك بالفضل والكمال وتفرّدك بالعظمة والجلال (ولا اوجّهه) أي لا أصرف ماأعطيتنى من الفصاحة والبلاغة في الحمد والمدح (إلى معادن الخيبة ومواضع الريبة) يعني أني اقصر حمدي وثنائي عليك و لا أصرفه إلى أحد غيرك من المخلوقين علماً منّي بأنّهم معادن الخيبة و مظانّ الحرمان ، لأنّ عطاياهم قليلة فانية ، مع أنّهم لا يعطون غالباً فان اعطوا قلّوا و إن لم يعطوا ملّوا ، وعرفانا منّي بأنهم مواضع الرّيبة و التهمة لعدم الاعتماد على إعطائهم و عدم الوثوق بمواعيدهم ، لكونهم عاجزين

محتاجين مفتقرين مثل السّائلين عنهم ، فمن توجّه بحاجة إليهم وأناخ مطايا الرجاء في بابهم فقد تعرّض للحرمان و استحقّ فوت الاحسان

اللهمّ (و) قد (عدلت بلساني عن مدايح الآدميين) إلى مدائحك (والثناء على المربوبين المخلوقين) إلى الثناء عليك

(اللّهم ولكلّ مثن) ومادح (على من) مدحه و (أثناعليه مثوبة من جزاء) مكافاة على ثنائه (أوعارفة من عطاء) مقابلة لمدحه (وقدرجوتك) وقصرت رجائى عليك لكونك (دليلا على ذخائر الرحمة) موصلا إلى أسبابها بالتوفيق و التأييد و العناية و المراد بها عظايم العطايا المذخورة ليوم الحاجة والمعدّة لحال الفاقة (و) أملتك هادياً إلى (كنوز المغفرة) أراد بها خزاين الغفران ومعادن الاحسان و كونه سبحانه هادياًودليلا عليهما باعتبار أنه بيده مفاتيح الكرم والجود وهوولي الرّحمة والمغفرة لكلّ موجد موجود

(اللّهمّ و هذا) المقام الذى أنا فيه مشغول بتعظيمك و توحيدك و خطيب بمحاسن محامدك (مقام من أفردك بالتوحيدالذي هولك) والتمجيدالذى هومختصّ بك (و لم يرمستحقّا لهذه المحامد و الممادح غيرك) لانحصار أوصاف الجمال و نعوت الكمال التي بها يستحقّ الحمد والثناء فيك (وبي) فقر و (فاقة إليك) وهي الحاجة إلى كرمه وإحسانه ورحمته وغفرانه ومرضاته ورضوانه ممالاينجحها أحد من المخلوقين و لا يقدر على رفعها إلاّ ربّ العالمين ولذلك قصره عليه وقال : (لايجبر مسكنتها إلاّ فضلك و لا ينعش من خلّتها إلاّ منّك وجودك) أى لايصلح ذلّ تلك الفاقة و سوء حالها إلاّ فضلك ولا يرفع خصاصتها إلاّ منك (فهب لنا في هذا المقام رضاك ، و أغننا عن مدّالأيدي إلى سواك ، إنّك على كلّ شيء قدير) و بالاجابة حقيق جدير .

قال الشارح المسكين : و أنا أتأسّى في هذا المقام بجدّي أميرالمؤمنين و سيدالوصيّين ، و أتوسّل به إلى حضرة ذي الجلال ، و اناديه بلسان التضرّع والابتهال ، وأقول :

يا ربّي وربّ كلّ شيء قد كثرت ذنوبي ، وجمّت خطيئتي ، وأوقرت الخطايا ظهري ، وأنت الغفور الرّحيم ، العزيز الكريم ، و كثير ما أسألك يسير في وجدك وخطير ما أستوهبك حقير في وسعك ، فاجعل ما أوضحته في شرح هذه الخطبة الشريفة من دلائل توحيدك ، وبراهين تفريدك ، و كشفت الغطاء عنه من شواهد ربوبيّتك ، و أدلّة قدرتك ، وأسرار تدبيرك و حكمتك ، ذخيرة مأمولة ليوم فقري و فاقتي ، وعدّة مرجوّة لحال مسكنتي وحاجتي ، وممحاة لكباير سيأتي ، و وسيلة لارتفاع درجتي ، ولاتقطع رجائي منك ، ولاتبت سببي عنك ، وتفضّل عليّ باتمام شرح الكتاب بمحمّد وآله الأطياب ، إنّك أنت المفضّل الوهّاب .

الترجمة

خداوند تعالى عالم راز وسرّ است از ضميرهاى صاحبان ضمير ، واز نجواى راز گويندگان ، و از خاطرهاى انداخته شدۀ ظن و گمان ، يعني خاطرهائى كه سبقت نمايد بسوى آن ظنّها ، واز آنچه منعقد ميشود درقلب از عزيمتهاى يقين ، و از نظرهاى خفيه چشمها در وقت نگريستن ، و از آنچه كه در بر گرفته است اورا پردهاى قلبها وحجابهاى غيبها ، واز آنچه كه گوش داده است ازبراى نهان شنيدن آن مواضع سوراخ گوشها ، و از جايهاى تابستاني موران و از جاى‌هاى زمستانى جنبندگان ، وازباز گردانيدن آواز آه وناله ازمادران جدا شده ازفرزندان وازصوت نهان قدمها وازجاى روئيدن ميوه از مداخل و بواطن غلافهائى كه در آن ميوه مخلوق ميشود ، واز محل اختفاء وحشها از غارهاى كوهها ، واز رودخانهاى آنها ، واز موضع پنهان شدن پشّها درميان ساقهاى درختان و پوست‌هاى آنها ، و از مكان رستن برگ ها از شاخها وازمحلّ فرود آمدن اخلاط نطفه از مجاري صلبها ، واز تازه برآمده ابرها وبهم پيوسته آنها ، واز ريزان شدن قطرها ازأبرها وبهم برنشسته آنها ، وازآنچه كه ميپاشد آنرا گردبادها بدامنهاى خود ، ومحو مى كند آنرا بارانها بسيل‌هاى خود ، و از فرو رفتن وسيرنمودن حشرات الأرض درتلّهاى ريگها ، و از محل استقرار صاحبان بال‌ها ببلندى هاى سرهاى كوه‌ها ،

وازآوازگردانیدن بنغمات وسرود صاحبان نطق ازمرغان درتاریکی‌های آشیان‌ها واز آنچه که حفظ نموده است آنرا صدف‌ها ، یعنی از لؤلؤ ومروارید ، و دایگی نموده‌است آنرا موج‌های دریاها یعنی ازعنبر وماهی ، واز آنچه که پوشیده آنرا تاریکی شب یا طلوع نموده برآن روشنی دهنده روز ، و از آنچه که پی در پی می‌آید براوطبق‌های ظلمت‌ها ومجاری نور ، وازعلامت هرکام ، وازحس وحرکت هرجسمی از اجسام ، واز بازگردانیدن جواب هرکلمه ، واز حرکت دادن هرلب ، واز قرارگاه هرآفریده ، و ازمقدار هر ذرّه ، واز آوازهای پنهان هرنفس صاحب همّت ، و از آنچه که برزمین است از میوهٔ درختي یا از افتادهٔ برگی یا از آرام گرفتن نطفه یا نقاعهٔ که محلّ اجتماع خونست و مضغه ، یا صورتی که آفریده شده دربدن ونطفهٔ که بیرون کشیده شده ازپشت حیوان .

نرسیده است بذات باری تعالی در این چیزها که آفریده مشقتی ، وعارض نشده‌است اورادرحفظ آنچه که ایجاد فرموده ازمخلوقات عارضهٔ ، واحاطه نکرده اورا در اجراء امورات و تدبیر مخلوقات ملالت وکدورتي ، ونه ضعف و فتوری ، بلکه نافذشده در ایشان علم او ، و بشماره در آورده ایشانرا شمردن او ، و فرا گرفته است ایشانرا عدالت او ، وپوشیده گناهان ایشانرا فضل او با وجود تقصیر کردن ایشان ازپایان رسانیدن آنچه که خداوند سبحانه سزاوار او است ازمراتب معرفت وعبادت .

بار پروردگارا توئی سزاوار اوصاف حسنهٔ بیشمار و اهل شمار نمودن شمارهای بسیار اگر امید گرفته شوی تو ، پس توبهترین امید داشته شدهائی ، واگر رجا بتو باشد پس توگرامی ترین رجا داشته شدگانی

بار خدایا و بتحقیق که گسترانیدی از برای من قدرترا درآنچه که مدح نمیکنم با او غیر تورا ، و ثنا نمیکنم با او برأحدی غیر ازتو ، ومتوجّه نمیکنم مدح وثناء خودرا بسوی مخلوقین که معدن‌های‌نومیدی ومحل‌های تهمت میباشند وباز داشتهٔ زبان مرا از مدحهای آدمیان و ثنا گفتن برمخلوقان که تربیت یافتهٔ

نعمت تو اند .

بار خدایا هرثنا کننده را بر کسی که در حقّ او ثنا گفته ثوابی هست از پاداش آن یا خوبی از عطا کردن ، وبتحقیق که امید گرفتم بتو ازجهت اینکه تو رهنمائی برذخیرهای بخشش ، وخزانهای مغفرت وآمرزش

بارخدایا این مقامی که مشغول هستم بذکرحمد وثنای تومقام کسیست که منحصر دانست تورا بیگانگی که اختصاص دارد بتو ، وندید کسی‌را که مستحق باشد مراین‌ستایشها وثناهارا غیر از ذات تو ، ومراست حاجتی بسوی تو که جبر و اصلاح نمیکند ذلّت آنرا مگر فضل تو ، وبرنمیدارد فقر وفاقت آنرا مگرعطا وجود تو پس ببخش مارا در این مقام رضا وخشنودی خودرا ، ومستغنی کن ما را از دراز نمودن دستها بسوی غیر تو ، بدرستی که تو برآنچه میخواهی صاحب قدرت میباشي .

و من كلام له عليه السلام لما اريد على البيعة و هوالواحد والتسعون من المختار فى باب الخطب

و قد رواه غير واحد من العامة والخاصة حسبما نشير إليه دَعُوني وَالْتَمِسُوا غَيْرِي ، فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وَ أَلْوانٌ ، لا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ ، وَلا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ ، وَإِنَّ الْآفاقَ قَدْ أَغامَتْ ، وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ ، وَاعْلَمُوا أَنّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ ما أَعْلَمُ ، وَلَمْ أُصْغِ إِلىٰ قَوْلِ الْقائِلِ ، وَ عَتْبِ الْعاتِبِ ، وَإِنْ تَرَكْتُمُوني فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ ، وَ لَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ ، وَ أَنَا لَكُمْ وَزِيراً خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً .

اللغة

(غامت) الآفاق وأغامت واغيمت وغيمت تغييماً وتغيمت غطاها الغيم ، وغيم الليل جاء كالغيم و (المحجة) الطريق الواضح و (التنكر) التغير عن حال تسرك إلى حال تكرهها والاسم النكير و (العتب) كالعتاب الملامة و (الوزير) حباء الملك أى جليسه الذى يحمل ثقله ويعينه برأيه

الاعراب

قوله عليه السلام : و أنالكم آه الواو للحال ، و الجملة بعدها منصوبة المحل على الحالية ، وأنا مبتدأ وخير خبره و الظرفان متعلقان به ، ووزيراً و أميراً منصوبان على الحال ، واختلف علماء الأدبية في عامل الحال إذا وقع في مثل هذا المثال ، فمنهم من جعله أفعل التفضيل ، ومنهم من جعله كان محذوفة تامة صلة لاذاوالتقدير أنا إذا كنت لكم وزيراً خيرمني لكم إذا كنت أميراً

وتحقيق ذلك أنهم بعد حكمهم على عدم جواز تقديم الحال على عامله إذا كان اسم تفضيل من حيث ضعفه في العمل لأجل شباهته بالفعل الجامد في عدم قبوله علامة التأنيث والتثنيةوالجمع كمايقبلهاأسماء الفاعلين والمفعولين والصفةالمشبهة فلا يتصرف (١) فيمعموله بالتقديم كما لا يتصرف في الفعل الجامد ، استثنوا من ذلك ما إذا كان اسم التفضيل عاملا فيحالين احداهما مفضلة على الأخرى فانه يجب حينئذ تقديم الحال الفاضلة لخوف اللبس ، ومثلوا له بقولهم هذا بسراً أطيب منه رطباً ، قال سيبويه في المحكي عنه : انتصب بسراً على الحال من الضمير فى أطيب وانتصب رطبا على الحال أيضاً من الضمير المجرور بمن ، والعامل فيهما أطيب بمافيه من معنى المفاضلة بين شيئين ، كأنه قال : هذا في حال كونه بسراً أطيب من نفسه

١- يعنى ان الفعل الجامد لا يتصرف فيه فلا يتصرف فى معموله وكذلك ما أشبهه فيجب تأخير الحال فيهما يقال ما أحسنه مقبلا وهذا أفصح الناس خطيباً . منه

في حال كونه رطباً ، تريد أن تفضل البسر على الرطب ، قال : فأطيب ناب مناب عاملين ، لأنّ التقدير يزيد طيبه في حال كونه بسراً على طيبه في حال كونه رطباً وأشار بذلك (١) إلى التمر ، والمعنى بسره أطيب من رطبه انتهى

و به قال غير واحد من النحاة كالمازني و الفارسي و ابن كيسان و ابن جنى وابن هشام في التوضيح ، وذهب المبرّد و الزّجاج و ابن السّراج والسّيرافي إلى أنّ النّاصب في المثال كان محذوفة تامة صلة لإذا وإذا فان قلت ذلك و هو بلح فالمقدر اذا وان قلته وهو تمر فالمقدر إذ ، والصاحبان المضمران في كان لا المضمر في أطيب ، والمجرور بمن وقدم الظرف يعنى إذا وإذا على أطيب لاتساعهم في الظروف ولهذا جاز كلّ يوم لك ثوب ولم يجز زيد جالسا في الدّار

و كيف كان فقد اتفق الفريقان بعد اختلافهم في عامل الحال على وجوب تقديم أحد الحالين على اسم التفضيل و تأخير الآخر ليظهر الفضل بين المفضّل والمفضّل عليه إذ لو أخّرا جميعاً حصل الالتباس .

فان قيل : إن جعل أحدهما تاليا لأفعل لا يحصل الالتباس ، قلنا يؤدّى إلى الفصل بين أفعل و بين من ومجرورها و هو غير جايز لكونهما بمنزلة الصّلة و الموصول

فان قلت : فكيف فصّل بالظرف في كلام الامام عليه السلام ؟ قلت : ذلك فصل جايز للاتّساع في الظروف بما لا يتّسع في غيره

المعنى

اعلم أنّ المستفاد من الروايات الآتية و غيرها في سبب هذا الكلام هو أنّ خلفاء الجور بعد ما غيّروا سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و سيرته التي كان يسيرها من العدل بالقسمة والمواساة بين الرّعية ، ففضّلوا العرب على العجم ، والموالي على العبيد ، والرؤساء على السفلة ، ، وآثر عثمان أقاربه من بني امية على ساير الناس وجرى على ذلك ديدنهم سنين عديدة ،واعتاد الناس ذلك أزمنة متطاولة حتّى نسوا

١- اى بلفظ هذا منه

سيرة الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان غرض الطالبين لبيعته عليه السلام أن يسير عليه السلام فيهم مثل سيرة من سبق عليه من المتخلّفين من تفضيل الشريف على الوضيع ، و كان عليه السلام تفرّس ذلك منهم وعرفه من وجنات حالهم .

خاطبهم بهذا الكلام إتماما للحجّة و إعلاماً لهم بأنّه عليه السلام إن قام فيهم بالأمر لايجيبهم إلى ما طمعوا فيه من الترجيح والتفضيل

فقال عليه السلام (دعوني والتمسوا غيرى) للبيعة (فانّا مستقبلون أمراً له وجوه و ألوان) و هو إنذار لهم بالحرب و إخبار عن ظهور الفتنة و اختلاف الكلمات وتشتّت الآراء وتفرّق الأهواء، يعني أنّي إن أجبت إلى ملتمسكم فلابدّ من ابتلاء أمر له أحكام صعبة وتكاليف شاقة من محاربة الناكثين والقاسطين والمارقين والتسوية في القسمة و العدل بين الرّعيّة الى غير ذلك وهومما (لا تقوم له القلوب) أى لا تصبر عليه(ولا تثبت عليه العقول) بل تنكره (وانّ الآفاق قد أغامت) أى أظلمت بظهور البدع وخفاء شمس الحقّ تحت سحاب شبه أهل الباطل (والمحجّة قد تنكّرت) أراد به تغيّر الحنيفية البيضاء والملّة الغرّاء وجهالة جادّة الحقّ (واعلموا أنّي إن أجبتكم) إلى ما تلتمسونه منّي (ركبت بكم ما أعلم) أى جعلتكم راكبين على محض الحقّ و أسير فيكم بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (و لم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب) أى لم يأخذني في الله لومة لائم (وإن تركتموني فأنا كأحدكم) يعنى إن تركتموني فهو أنفع لكم وأرفه لحالكم لأنّي حينئذ أكون مثل واحد منكم

والمراد بتركهم إيّاه عدم طاعتهم له و اختيار غيره للبيعة حتى لاتتمّ شرايط الخلافة لعدم النّاصر كما قال في الخطبة الشقشقيّة : لولا حضور الحاضر و قيام الحجّة بوجود النّاصر لألقيت حبلها على غاربها ، وليس الغرض ردعهم عن البيعة الواجبة بل إتمام للحجة وتوطئة لابطال ماعلم عليه السلام منهم من ادعاء الاكراه بعد البيعة كما فعل طلحة والزّبير بعد النّكث

وقوله (ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم) لعلّه عليه السلام أراد أنه إذا تولى الغير أمر الامامة و لم تتم الشرايط في خلافته عليه السلام لم يكن ليعدل عن

مقتضي التقيّة فيكون أكثر الناس إطاعة لوالي الأمر بخلاف ساير النّاس فانّه يجوز عليهم الخطاء

(وأنالكم وزيراً خيرلكم منّي أميراً) يعني وزارتي خير لكم من امارتي، لأنّ فيه موافقة الغرض أو سهولة الحال في الدنيا ، فانّه على تقدير الامارة وبسط اليد يجب عليه القيام بمحض الحق وهوصعب على النفوس ولايحصل به آمال الطامعين بخلاف ما إذا كان وزيراً فانّ تكليف الوزير هو الاشارة بالرأى مع تجويز التأثير في الأمير وعدم الخوف ونحوه من شرايط الأمر بالمعروف، ولعلّ الأمير الذي يولّونه الأمر يرى في كثير من الامور ما يوافق آمال القوم ويطابق أطماعهم ولا يعمل بمايشير الوزير فيكون وزارته أوفق لمقصود القوم

فالحاصل أنّ ماقصد تموه وطمعتم فيه من بيعتي لايتمّ لكم ، و وزارتي أوفق لغرضكم ، والمقصود إتمام الحجّة وإفهام حقيقة الأمر كيلا يعترضوا عليه بعدالبيعة إذا لم يحصل غرضهم منه عليه السلام ولايقولوا : إنّا كنّا عن هذا غافلين ، هذا .

واعلم أنّ ما ذكرته في شرح هذا الكلام له عليه السلام هو الذي ينبغي أن يحمل الكلام عليه وهو أقرب وأظهر ممّا قاله الشّارح البحراني «قد» من أنّ مراده عليه السلام بكلامه ذلك هو التمنّع عليهم لتقوى رغبتهم إليه ، فانّه لابدّ لكلّ مطلوب على أمر من تعزّز فيه و تمنّع ، و الحكمة في ذلك أنّ الطالب له يكون بذلك أرغب فيما يطلب فانّ الطبع حريص على مامنع ، سريع النفرة عمّا سورع إلى اجابته فيه .

و أمّا الشّارح المعتزلي فقد تمشّى فيه على مذهبه وقال : هذا الكلام يحمله أصحابنا على ظاهره ويقولون: إنّه عليه السلام لم يكن منصوصاً عليه بالامامة من جهة الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم و إن كان أولى النّاس بها و أحقّهم بمنزلتها ، لأنه لوكان منصوصاً عليه بالامامة من جهة الرسول صلّى الله عليه وآله لما جازله أن يقول : دعونى والتمسوا غيرى ، و لا أن يقول : و لعلّي أسمعكم و أطوعكم لمن وليتموه أمركم ، ولا أن يقول : وأنالكم وزيراً خير لكم منّى أميراً .

ثمّ ذكر تأويل الامامية بأنّ الخطاب للطالبين منه أن يسير فيهم مثل سيرة الخلفاء بتفضيل بعضهم على بعض في القسمة والعطاء ، فاستعفاهم و سألهم أن يطلبوا غيره ممن يسير بسيرتهما إلى أن قال : و قد حمل بعضهم كلامه عليه السلام على محمل آخر فقال : هذا كلام مستزيد شاك من أصحابه يقول عليه السلام لهم : دعوني والتمسوا غيري ، على طريق التضجر منهم والتسخط لأفعالهم ، لأنّهم كانوا عدلوا عنه من قبل واختاروا غيره عليه فلما طلبوه بعد أجابهم جواب العاتب المتسخّط

ثمّ قال : وحمل قوم منهم الكلام على وجه آخر فقالوا : إنّه أخرجه مخرج التهكّم و السّخرية ، أى أنا لكم وزيراً خير منّى لكم أميراً فيما تعتقدونه كما قال سبحانه :

« ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » .

أى بزعمك و اعتقادك ثمّ قال : واعلم أنّ ما ذكروه ليس ببعيد أن يحمل الكلام عليه لوكان الدّليل قد دلّ على ذلك ، فأمّا إذا لم يدلّ عليه دليل فلايجوز صرف اللّفظ عن ظاهره . و نحن نتمسّك بالظاهر إلى أن يقوم دلالة على مذهبهم تصدّنا عن حمل اللّفظ على ظاهره ، و لوجاز أن يصرف الألفاظ عن ظواهرها لغير دليل قاهر يصدّ عنها لم يبق و ثوق بكلام الله عزّ وجلّ و بكلام رسوله ، انتهى كلامه هبط مقامه .

و أورد عليه المحدّث العلامة المجلسيّ طاب رمسه في المجلّد الثّامن من البحار بعد نقل كلامه بقوله : ولا يخفى على اللّبيب بعدالاغماض عن الأدلّة القاهرة والنّصوص المتواترة لا فرق بين المذهبين في وجوب التّأويل ولايستقيم الحمل على ظاهره إلاّ على القول بأنّ إمامته عليه السلام كان مرجوحاً وأنّ كونه وزيراً كان أولى من كونه أميراً ، وهوينافي القول بالتفضيل الذي قال به ، فانّه عليه السلام إذا كان أحقّ بالامامة وبطل تفضيل المفضول على ما هو الحقّ و اختاره أيضاً كيف يجوز للناس أن يعدلوا عنه إلى غيره و كيف يجوز له عليه السلام أن يأمر الناس بتركه والعدول عنه

إلى غيره مع عدم ضرورة تدعو إلى ترك الامامة ؟ ومع وجود الضّرورة كما جاز ترك الامامة الواجبة بالدّليل جاز ترك الامامة المنصوص عليها ، فالتأويل واجب على التقديرين ولا نعلم أحداً قال بتفضيل غيره عليه ورجحان العدول إلى أحد سواه في ذلك الزمان ، على أنّ الظّاهر للمتأمّل في أجزاء الكلام حيث علّل الأمر بالتماس الغير باستقبال أمر لاتقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول ويتنكّر المحجة و أنّه إن أجابهم حملهم على محض الحقّ ، هو أنّ السّبب في ذلك وجود المانع دون عدم النّص وأنه لم يكن متعيّنا للامامة أو لم يكن أحقّ و أولى به ونحو ذلك

تنبيه

متضمّن لبعض الأخبار المناسبة للمقام ، قال ابن الأثير في المحكيّ عنه في كتاب الكامل : لما قتل عثمان اجتمع أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله من المهاجرين والأنصار و فيهم طلحة و الزّبير فأتوا عليّا عليه السلام فقالوا له لابدّ للناس من إمام ، قال : لاحاجة لي في أمركم فمن اخترتم رضيت به ، فقالوا : ما نختار غيرك وتردّدوا إليه مراراً و قالوا في آخر ذلك : إنّا لانعلم أحداً أحقّ به منك ولا أقدم سابقة ولا أقرب قرابة من رسول الله صلّى الله عليه وآله ، فقال عليه السلام : لاتفعلوا فاني أكون وزيراً خير من أن أكون أميراً ، فقالوا ، والله مانحن بفاعلين حتّى نبايعك .

قال عليه السلام : ففي المسجد فانّ بيعتي لا يكون خفيّاً ولا يكون إلاّ في المسجد و كان عليه السلام في بيته ، و قيل : في حايط لبني عمرو بن منذر ، فخرج إلى المسجد و عليه ازار و قميص و عمامة خز ونعلاه في يده متوكّئاً على قوسه ، فبايعه الناس فكان أوّل من بايعه طلحة بن عبيدالله ، فنظر إليه حبيب بن ذويب فقال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، أوّل من بدأ بالبيعة يد شلاّء لايتمّ هذا الأمر ، و بايعه الزبير وقالا بعد ذلك : إنما صنعنا ذلك خشية على أنفسنا ، وهربا إلى مكّة بعد قتل عثمان بأربعة أشهر وبايعه الناس

وجاؤوا بسعد بن أبي وقاص فقال عليّ عليه السلام : بايع ، قال : لا حتّى يبايع النّاس والله ما عليك منّي بأس ، فقال عليه السلام : خلّوا سبيله ، وجاؤوا بابن عمر فقالوا : بايع

فقال : لا حتى يبايع الناس ، قال : ائتني بكفيل قال ، لا أرى كفيلا ، قال الأشتر : دعني أضرب عنقه قال عليه السلام : دعوه أنا كفيله .

و بايعت الأنصار إلاّ نفراً يسيراً منهم حسان بن ثابت ، و كعب بن مالك ، ومسلمة بن مخلد ، وأبوسعيد الخدري، و محمد بن مسلمة ، والنعمان بن بشير ، وزيد ابن ثابت ، و كعب بن مالك ، ورافع خديج ، و فضالة بن عبيد ، و كعب بن عجرة كانوا عثمانية فأمّا النعمان بن بشير فانه أخذ أصابع نائلة امرئة عثمان التي قطعت و قميص عثمان الذى قتل فيه ، فلحق بالشام فكان معاوية يعلّق قميص عثمان و فيه الأصابع فاذا رأوا ذلك أهل الشام ازدادوا غيظاً وجدّوا في أمرهم

قال : وروى أنهم لمّا أتوا عليّا عليه السلام ليبايعوه قال : دعوني والتمسوا غيري فانّا مستقبلون أمراً له وجوه و ألوان لا تقوم له القلوب و لا تثبت عليه العقول ، فقالوا ننشدك الله ألا ترى مانحن فيه ألاترى الاسلام ؟ ألاترى الفتنة ؟ ألاتخاف الله ؟ فقال : قد أجبتكم و اعلموا! أني إن أجبتكم أركب بكم ما أعلم فان تركتموني فانما أنا كأحدكم إلاّ أنّي من أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه

و روى الشّارح المعتزلي عن الطبري وغيره أنّ الناس غشوه وتكاثروا عليه يطلبون مبايعته وهو عليه السلام يأبى ذلك ويقول : دعونى والتمسوا غيرى فانّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لاتثبت عليه العقول ولاتقوم له القلوب ، قالوا : ننشدك الله ألا ترى الفتنة ؟ ألا ترى إلى ما حدث في الاسلام ؟ ألا تخاف الله ؟ فقال عليه السلام : قد أجبتكم لماأرى منكم واعلموا أنى إن أجبتكم ركبت بكم ماأعلم وإن تركتموني فانّما أنا كأحدكم بل أنا أسمعكم و أطوعكم لمن وليتموه أمركم ، فقالوا : مانحن بتاركيك .

قال عليه السلام : إن كان لابدّ من ذلك ففي المسجد إنّ بيعتي لا يكون خفيّاً ولا يكون إلاّ عن رضاء المسلمين وفي ملاء وجماعة ، فقام والنّاس حوله فدخل المسجد وانثال عليه المسلمون فبايعوه وفيهم طلحة والزبير

و في البحار من المناقب في جمل أنساب الأشراف أنه قال الشعبي في خبر :

لما قتل عثمان أقبل الناس إلى عليّ عليه السلام ليبايعوه ومالوا إليه فمدّوا يده فكفّها، وبسطوها فقبضها حتّى بايعوه

و في ساير التواريخ أنّ أوّل من بايعه طلحة بن عبدالله وكانت أصبعه اصيبت يوم أحد فشلّت، فبصربها أعرابيٌّ حين بايع فقال: ابتدأ هذا الأمر يد شلاء لايتمّ، ثمّ بايعه الناس فى المسجد، ويروى أنّ الرجل كان عبيد بن ذويب فقال: يد شلاء وبيعة لايتمّ

وفى البحار وبويع يوم الجمعة لخمس بقين من ذي الحجّة سنة خمس وثلاثين من الهجرة، و عن المعلّى بن خنيس عن أبي عبدالله عليه السلام انّ اليوم الذي بويع فيه أمير المؤمنين ثانية كان يوم النيروز، هذا

ولمّا بويع عليه السلام انشأ عطيّة هذه الأبيات:

رأيت عليّاً خير من وطىء الحصا ... و أكرم خلق الله من بعد أحمد
وصيّ رسول المرتضى وابن عمّه ... وفارسه المشهور في كلّ مشهد
تخيّره الرّحمن من خير اسرة ... لأطهر مولود و أطيب مولد
إذا نحن بايعنا عليّاً فحسبنا ... ببيعته بعد النبيّ محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم

وانشأ خزيمة بن ثابت

إذا نحن بايعنا عليّاً فحسبنا ... أبو حسن ممّا نخاف من الفتن
وجدناه أولى النّاس بالنّاس انه ... أطبّ قريش بالكتاب و بالسنن
و انّ قريشاً لا تشقّ غباره ... إذا ماجرى يوماً على ضمر البدن
ففيه الذي فيهم من الخير كلّه ... ومافيهم مثل الذي فيه من حسن
وصيّ رسول الله من دون أهله ... وفارسه قدكان في سالف الزّمن
و أوّل من صلّى من الناس كلّهم ... سوى خيرة النسوان والله ذى المنن
وصاحب كبش القوم في كلّ وقعة ... يكون لها نفس الشجاع لدى الذقن
فذاك الذي تثنى الخناصر باسمه ... إمامهم حتّى اغيّب في الكفن

الترجمة

از جملهٔ كلام بلاغت نظام آن إمام عاليمقام است وقتيكه اراده شد بربيعت

بعداز کشته شدن عثمان بی‌ایمان میفرماید :

ترك نمائید مرا از این کار و معاف بدارید و طلب کنید غیر مرا پس بدرستي که ما استقبال نمایند کانیم کاریرا که مر اورا است وجهها و رنگهای گوناگون که نمي‌ایستد وصبر نمینماید آن کار را قلبها ، وثابت نمیشود بر آن عقلها ، وبدرستیکه آفاق واطراف عالم را ظلمت گرفته وراه روشن شریعت تغییر یافته ، وبدانید اینکه بدرستي من اگراجابت نمایم وقبول کنم حرف شما را سوار گردانم شمارا بآنچه که خودم میدانم و گوش نمیدهم بگفتار گوینده و ملامت ملامت کننده ، واگر بگذارید مرا بحال خود ومعذور بدارید پس من میباشم مثل یکی ازشماها ، و شاید اینکه گوش دادن واطاعت نمودن من بیشترازشماها باشد بکسی که والی امرخود قرار بدهید ، و من از برای شما در حالتی که وزیر باشم بهترم ازبرای شما ازمن درحالتی که أمیر باشم

زیرا که درحالت أمارت و بسط ید تکلیف من قیام نمودنست بمحض حق وآن صعب است درحق أکثرمردم ، وأما درحالت وزارت تکلیف من نصیحت است ومشاورت وبس خواه والی امر قبول نماید وخواه قبول ننماید

ومن خطبة له عليه السلام وهى الثانية والتسعون من المختار في باب الخطب

خطب بها بعد انقضاء أمر النهروان ، و هی من خطبه المشهورة رواها غير واحد حسبما تطلع عليه وشرحها في‌ضمن فصلين :

الفصل الاول

أَمّا بَعْدُ أَيُّهَا النّاسُ فَأَنَا فَقَأْتُ عَيْنَ الْفِتْنَةِ ، وَ لَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِىءَ عَلَيْهَا

أَحدٌ غيري بَعْدَ أَنْ ماجَ غَيْهَبُها ، وَاشْتَدَّ كَلَبُها ، فَاسْئَلُونِي قبلَ أَنْ تَفْقِدُونِي فَوَالَّذي نَفْسي بِيَدِهِ لاَ تَسْئَلُونِي عَنْ شَيْءٍ فيما بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ ، وَلاَ عَنْ فِئَةٍ تَهْدِي مِأَةً وَتُضِلُّ مِأَةً ، إِلاَّ أَنْبَأْتُكُمْ بِناعِقِها ، وَقائِدِها ، وَسائِقِها وَمُناخِ رِكابِها ، وَمَحَطِّ رِحالِها ، وَمَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِها قَتْلاً ، وَيَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتاً ، وَلَوْ قَدْ فَقَدْتُمُونِي وَنَزَلَتْ بِكُمْ كَرائِهُ الأُمُورِ ، وَحَوازِبُ الْخُطُوبِ ، لَأَطْرَقَ كَثيرٌ مِنَ السَّائِلِينَ ، وَفَشِلَ كَثيرٌ مِنَ الْمَسْئُولِينَ ، وَذٰلِكَ إِذا قَلَصَتْ حَرْبُكُمْ ، وَشَمَّرَتْ عَنْ ساقٍ ، وَضاقَتِ الدُّنْيا عَلَيْكُمْ ضَيْقاً ، تَسْتَطِيلُونَ أَيّامَ الْبَلاءِ عَلَيْكُمْ ، حَتّى يَفْتَحَ اللهُ لِبَقِيَّةِ الأَبْرارِ مِنْكُمْ ، إِنَّ الْفِتَنَ إِذا أَقْبَلَتْ شَبَّهَتْ ، وَإِذا أَدْبَرَتْ نَبَّهَتْ ، يُنْكَرْنَ مُقْبِلاتٍ ، وَيُعْرَفْنَ مُدْبِراتٍ ، يَحُمْنَ حَوْمَ الرِّياحِ ، يُصِبْنَ بَلَداً ، وَيُخْطِئْنَ بَلَداً .

اللغة

(فقأت) عين الفتنة من باب منع قلعتها وشققتها و (الغيهب) الظلمة و (كلب) الكلب كلباً فهو كلب من باب تعب وهوداء يشبه الجنون يأخذه فيعقر الناس وفي القاموس الكلب بالتحريك صياح من عضّة الكلب الكلب وجنون الكلاب المعترى من أكل لحوم الانسان وشبه جنونها المعترى للانسان من عضّها و (نعق) بغنمه من باب منع وضرب صاح بها لتعود إليه وزجرها ونعق الغراب صاح

و (مناخ) الابل بضمّ الميم موضع اناختها أى مبركها ، وفي شرح المعتزلي يجوز جعله مصدراً كالمقام بالضمّ بمعنى الاقامة و (الركاب) بالكسر المطى اى الابل التي يسار عليها و احدتها راحلة من غير لفظها و الجمع الرّكب ككتب

و (المحطّ) بفتح الميم قال الشارح المعتزلي يجوز كونه مصدراً كالمرد في قوله تعالى : وإنّ مردّنا إلى الله ، و كونه موضعاً كالمقتل و(الرّحال) كأرحل جمع الرّحل و هو مركب للبعير و يقال له راحول أيضاً و (الحوازب) جمع الحازب من حزبه الأمر إذا اشتدّ عليه أوضغطه و (الخطوب) جمع الخطب وهومعظم الأمر و (الاطراق) السّكوت و الاقبال بالبصر إلى الصّدر و (فشل) فشلا فهو فشل من باب تعب وهو الجبان الضّعيف القلب

(إذا قلصت حربكم) بتخفيف اللاّم من باب ضرب أى كثرت و تزايدت ، وفي المصباح قلصت شفته انزوت و قلص الثوب انزوى بعد غسله ، وفي بعض النسخ عن حربكم ، وفي بعض النسخ بالتشديد أى انضمّت واجتمعت و (شبّهت) بالبناء على المعلوم اى جعلت أنفسها شبيهة بالحقّ أوعلى المجهول أى أشكل أمرها والتبس على الناس و (نبهته) من النوم أيقظته و (حام) الطائر حول الماء اذا دار وطاف لينزل عليه و (يخطين) من الخطو وهو المشى

الاعراب

جملة و لو قد فقد تموني إمّا استينافية أو قسمية بحذف المقسم به بدلالة السّياق ، ولو الشرطية بمعنى ان مفيدة للتعليق في الاستقبال إلاّ أنه جيء بالشرط و الجزاء بصيغة الماضي تنبيها على تحقّق وقوعهما لا محالة ، وهو من المحسنات البيانية ، والحرب مؤنث سماعي ولذا انّث الفعل المسند إليه ، و مفعول شمّرت محذوف أيضاً ، وضاقت عطف على شمرت ، وجملة تستطيلون حال من المجرور في عليكم ، و جملة ينكرن مقبلات و يعرفن مدبرات بدل كلّ من جملة إذا أقبلت شبهت وإذا أدبرت نبهت كما في قوله تعالى :

« وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثاماً يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ » .

وجملة يحمن منصوب المحلّ على الحال

المعنى

اعلم أنّ هذا الفصل من كلامه عليه السلام مسوق لاظهار مناقبه الجمّة و فضائله

الدثرة، والتنبيه على علو مقامه ورفعة مكانه والغرض به التعريض على المخاطبين بغفلهتم عن سموّ شأنه وجهالتهم بقدره و عدم معرفتهم به حقّ المعرفة ليرقدوا بذلك عن نوم الغفلة و الجهالة و يعرفوه حقّ المعرفة، و يعظموا قدره و منزلته ويقيموا بوظايف طاعته على مايليق به سلام الله عليه وآله

وأشار عليه السلام أوّلاً إلى فضيلته وشجاعته وكمال مهابته بقوله (أمابعدأيّها النّاس فأنا فقأت عين الفتنة) أى شققتها و قلعتها بشحمها أو أدخلت الاصبع فيها، و هو استعارة لكسر ثورانها و إسكان هيجانها، و المراد بالفتنة إمّا خصوص فتنة أهل البصرة والنهروان كما وقع الاشارة إليه منه عليه السلام في رواية إبراهيم الثقفي و سليم ابن قيس الهلالي الآتية فيذيل شرح الفصل الثاني، أو عموم فتن المنافقين والكافرين و المصدر المحلّى باللام وإن لم يكن مفيداً للعموم بحسب الوضع اللّغوى حسبما قرّر في الاُصول، إلاّ أنّه لاينافي إفادته له بقرينة الحال.

فقد ظهر واتّضح لناظهور الشمس في رابعة النهارأنه عليه السلام ردّ نخوة بأوالكفّار و اعتلائهم يوم بدر، وشموخ انفهم و سموّ غلوائهم يوم اُحد، وكسر صولتهم يوم خيبر وفقأ أعينهم بقتل ابن عبدودّ يوم الأحزاب، وهكذا ساير الحروب والخطوب فقد علمناعلمايقينا أنه لولاسيفه عليه السلام لماقام للاسلام عمود، ولا اخضرّ للايمان عود

و لذلك قدّم المسند إليه على المسند ليفيد التخصيص، و جعل المسند جملة للتقوى كما قرّر في علم المعان، وأكده بقوله (ولم يكن ليجترى عليها أحد غيرى) و تصديق ذلك أمّا في وقعة الجمل والنهروان فلأنّ الناس كانوا لايتجاسرون على قتال أهل القبلة ويخافون من ذلك الاثم والعصيان، وكانوا احسن الظنّ بطلحة والزبير مع كون زوجة رسول الله صلّى الله عليه وآله فيهم

و أهل النّهروان كانوا أهل قرآن و صلاة و اجتهاد وعبادة، وكان النّاس يهابون قتالهم و يقولون كيف نقاتل من يصلّي كصلاتنا و يؤذّن كأذاننا و يصوم كصومنا على ماعرفت في شرح الخطبة السادسة والثلاثين

و كذا التبس الأمر في وقعة صفين ولذلك أمسك مثل خزيمة بن ثابت الانصاري

عن القتال حتّى قتل عمار فتيقّن ضلالة القاسطين وقاتل حتّى قتل كما مرّ مشروحاً في تذييل الكلام الخامس والستين

وأمّا في ساير الوقايع والحروب التي كانت في زمن الرسول صلّى الله عليه وآله

« فَقَدْ زاغَتِ الأَبصارُ وَ بَلَغَتِ القُلوبُ الحَناجِرَ »

و ظنّوا بالله الظّنونا و اضطرب المؤمنون « وزُلزِلوا زِلزالاً شَديداً »

و دارت أعين المنافقين « كَالّذي يُغشى عَلَيهِ مِنَ المَوتِ » و قالوا :

« ما وَعَدَنا اللهُ وَرَسولُهُ إلّا غُروراً » « فَكَفَى اللهُ المُؤمِنينَ القِتالَ »

بوجوده عليه السلام « وَكانَ اللهُ قَوِيّاً عَزيزاً » و انزل في حقه عليه السلام و في عمه حمزة وأخيه جعفر « مِنَ المُؤمِنينَ رِجالٌ صَدَقوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيهِ فَمِنهُم مَن قَضى نَحبَهُ وَمِنهُم مَن يَنتَظِرُ وَما بَدَّلوا تَبديلاً » .

وإلى شدّة تلك الفتن وظلمتها أشار بقوله (بعد أن ماج غيهبها) وكنّى بتموّج ، ظلمتها عن شمول ظلّها لأنّ الظلمة إذا تموجّت شملت أماكن كثيرة غير الأماكن التى تشملها لو كانت ساكنة وإلى غلبة شرّها و أذاها بقوله (واشتدّ كلبها) ثمّ أشار إلى فضيلة علمه بقول ما زال يقوله و هو قوله: (فاسألوني قبل أن تفقدوني) قال الشارح المعتزلي روى صاحب كتاب الاستيعاب وهو أبو عمر محمّد بن عبدالبر عن جماعة من الرّواة و المحدّثين قالوا لم يقل أحد من الصحابه عنهم سلونى إلاّ عليّ ابن أبي طالب، وروى شيخنا أبوجعفر الاسكافي في كتاب نقض العثمانية عن عليّ بن الجعد عن ابن شبرمه قال : ليس لأحد من النّاس أن يقول على المنبر سلوني إلاّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

أقول : وذلك لأنّ الأنواع السّؤلات غير محصورة ولا محصاة ، وأصناف الطلبات غير معدودة ولا مستقصاة ، فبعضها يتعلّق بالمعقول وبعضها بالمنقول ، وبعضها بعالم الشهود وبعضها بعالم الغيب ، وبعضها بماكان وبعضها بما يكون وبعضها بما هو كائن ، وهكذا فلا يمكن الجواب عن هذا كلّه ولا يقدر على مثل ذلك إلاّ من تأيّد بقوّة ربانيّة ، واقتدر بقدرة الهيّة ، ونفث في روعه الرّوح الأمين ، وتعلّم علوم الأولين والآخرين ، وصار منبع العلم والحكمة ، وينبوع الكمال والمعرفة ، وهو أمير المؤمنين و يعسوب الدين ، ووارث علم النبيين وبغية الطّالبين ، وحلاّل مشكلات السائلين فلا ينصب نفسه في هذا المنصب إلاّ جاهل ، ولا يدّعي لنفسه هذا المقام إلاّ تائه غافل ، وفي هذا المقام قال الشاعر :

و من ذا يساميه بمجد و لم يزل ... يقول سلوني ما يحلّ و يحرم
سلوني ففي جنبي علم ورثته ... عن المصطفى مافات منّي به الفم
سلوني عن طرق السموات إنني ... بها عن سلوك الطرق في الارض أعلم
ولو كشف الله الغطا لم أزد بـه ... يقيناً على ما كنت أدرى و أفهم

وقد روينا في التذييل الثاني من شرح الكلام الثالث والأربعين أنّ ابن الجوزي قال يوماً على منبره : سلوني قبل أن تفقدوني ، فسألته امرئة عمّا روي أنّ عليّاً سار في ليلة إلى سلمان فجهّزه ورجع ، فقال : روى ذلك ، قالت: فعثمان ثمّ ثلاثة أيّام منبوذاً في المزابل وعليّ عليه السلام حاضر ، قال : نعم ، فقالت : فقد لزم الخطاء لأحدهما ، فقال : إن كنت خرجت من بيتك بغير اذن زوجك فعليك لعنة الله و إلاّ فعليه ، فقالت : خرجت عايشة إلى حرب عليّ باذن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أولا ؟ فانقطع ولم يحر جواباً

ورووا أيضاً أنّ قتاده دخل الكوفة فالتفت إليه الناس فقال: اسألوني عما شئتم و كان أبوحنيفة حاضراً و هو إذا غلام حدث السنّ ، فقال : اسألوه عن نملة سليمان أكان ذكراً أم أُنثى ، فسألوه فانقطع ، فقال أبوحنيفة كانت انثى فقيل له: بم عرفت ذلك ؟ قال من كتاب الله و هوقوله تعالى قالت نملة و لوكان ذكراً لقال : قال نملة

وذلك لأنّ لفظ النملة يقع على الذكر و الانثى كلفظ الحمامة والشاة (١) و إنما يميّز بينهما بعلامة التأنيث .

فانظر إلى هذين المغرورين المعجبين كيف عييا عن جواب أدنى مسألة فكيف بهما إذا سئلا عن حجب الأسرار ، و سرادقات الأنوار ، والغيب المكنون ، و السرّ المكتوم ، وعجائب الملكوت ، و بدايع الجبروت ، فاشهد أنّ عريف ذلك والخبير بكلّ ذلك لم يكن إلاّ أمير المؤمنين ، ووصيّ رسول ربّ العالمين ، وعنده علم الكتاب كلّه ، و فيه خبر السّماء و خبر الأرض و خبر ما كان ومايكون وماهوكائن إلى يوم القيامة كما قال عزّ من قائل :

(وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلّا في كِتابٍ مُبينٍ) .

أي في إمام مبين وقد سئل عليه السلام في مقامات شتى عن مسائل مشكلة متفرّقة فأجاب عنها بأجوبة شافية تاهت فيها العقول ودهشت بها القلوب حسبما نشير إلى بعضها بعد الفراغ عن شرح الفصل

ثمّ اقسم عليه السلام بالقسم البارّ انه عالم بماهو كائن إلى يوم القيامة وقال: (فوالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم و بين الساعة) إلاّ أنبئتكم به، و نحوه ما رواه في البحار من بصائر الدّرجات باسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : سئل عليّ عليه السلام عن علم النبيّ صلى الله عليه وآله ، فقال : علم النّبيّ صلى الله عليه وآله علم جميع النبيّين وعلم ما كان و علم ماهو كائن إلى قيام السّاعة ، ثمّ قال عليه السلام: و الذى نفسي بيده إنّي لأعلم علم النبيّ وعلم ما كان وعلم ماهو كائن فيما بيني و بين قيام السّاعة (ولا عن فئة تهدى مأة و تضل مأة) تخصيص هذا العدد بالبيان ليس لقصد الاختصاص وإنما هو جار على

١ـ قال ابن الحاجب فى بعض تصانيفه انّ مثل الشاة والنملة والحمامة من الحيوانات فيها تأنيث لفظى ، ولذا كان قول من قال انّ النملة فى قوله تعالى قالت نملة انثى لورود تاء التأنيث فى قالت و هماً ، لجواز أن يكون ذكراً فى الحقيقة وورود تاء التأنيث فى الفعل نظرا الى التأنيث اللفظى ، ولذا قيل افحام قتادة خير من جواب أبى حنيفة ، وهذا هو الحق وقدار تضاه الرضىّ، منه

سبيل المثل وإشارة إلى الكثرة إذ مادون مأة حقير لا يعتدّ به قال الأعشى :

الواهب المأة الهجان وعبدها عوذاً يزجى خلفها أطفالها

و قال أيضاً :

هو الواهب المأة المصطفاة إمّا مخاضاً و إمّا عشاراً

وقد كثر في الأخبار ذكر السبعين على سبيل المثل ، وقيل في قوله سبحانه

(إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ) .

إنّ المقصود به نفي الغفران جملة وإنّما جاء السّبعون مجرى المثل للتكثير و كيف كان فمفهوم العدد ليس بحجّة كما قرّر في الأصول ، والغرض أنّه لاتسألونى عن جماعة هادية لطايفة كثيرة ومضلّة لطائفة كثيرة اخرى (إلاّ أنبأتكم بناعقها) أى الداعي اليها و زاجرها (و قائدها و سائقها و مناخ ركابها و محطّ رحالها) قال الشارح البحراني : استعار عليه السلام أوصاف الابل و رعائها و أصحابها من الناعق والقائد والسائق والمناخ والرّكاب والرّحال للفئة المهدية والضالّة ومن يهديهم ويضلّهم ملاحظة لشبههم بالابل في الاجتماع والانقياد لقائد وراع (ومن يقتل من أهلها) أى أهل الفئة المذكورة (قتلا ويموت منهم موتا)

ثمّ نبّه عليه السلام على أنّه أعظم نعمة أنعم الله سبحانه بوجوده عليهم وأنّ قدره مجهول عندهم و هم غافلون عن فوائد مقامه بين أظهرهم و أنهم سوف يعلمون إذا نزلت بهم الدّواهى وحلّت بهم الرزايا فقال :

(ولو قد فقدتمونى و نزلت بكم كرائه الأمور) أى المصائب التي تكرهها النفوس (وحوازب الخطوب) أى شدايد الأحوال (لأطرق كثير من السائلين) أى أرخوا أعينهم ينظرون إلى الأرض ، و ذلك لصعوبة الأمر وشدّته حتى أنه يبهته عن السؤال و يتحير كيف يسأل (و فشل كثير من المسئولين) أى جبنوا عن ردّ الجواب لجهلهم بعواقب تلك الخطوب و ما يسألون عنه منها (و ذلك إذا قلصت حربكم) أى إطراق السائلين و فشل المسئولين إذا تزايدت حربكم و كثرت أو

انضمّت واجتمعت ، وهو كناية عن شدّتها وصعوبتها ، لأنّ الجيوش إذا اجتمعت كلها واصطدم الفيلقان كان الأمر أصعب و أشدّ من أن تتفرّق ويحارب كلّ كتيبة كتيبة اخرى في بلاد متباعدة ، ومن روى قلصت عن حربكم فالمراد إذا انكشفت كرائه الامور وحوازب الخطوب عن حربكم .

(وشمّرت عن ساق) أى شمّرت الحرب و رفعت السّاتر عن ساقها و هو كناية عن اشتدادها والتحامها على سبيل الاستعارة ، والغرض تشبيه الحرب بالمجد في أمر الساعي فيه ، فانّ الانسان أذا جدّ في السّعي شمّر عن ساقه و دفع ثوبه لئلاّ يعوقه و يمنعه ، و ربما قيل بأنه جار على الحقيقة ، و معنى السّاق الشدّة، أى كشفت عن شدّة و مشقّة وبه فسّر قوله سبحانه :

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ) .

(و ضاقت الدّنيا عليكم ضيقاً) بطروق الخطوب وابتلاء المصائب حالكونكم (تستطيلون أيام البلاء عليكم) و ذلك لأنّ أيام البلاء تكون في نظر الانسان طويلة و أيام السعة والرّخاء قصيرة قال الشاعر :

فأيّام الهموم مقصّصات و أيّام السّرور تطير طيراً

(حتّى يفتح الله لبقيّة الأبرار منكم) يحتمل أن يكون المراد ببقية الأبرار أولادهم و إن لم يكونوا أبراراً في أنفسهم إن كان إشارة إلى ظهور دولة بني العباس إلاّ أنّ الأظهر أنّ المراد هو ظهور الدّولة الحقّة القائميّة عجّل الله له الفرج و أقرّ الله عيون مواليه بظهوره عليه السلام .

(إنّ الفتن إذا أقبلت شبّهت) أى جعلت نفسها أى الأُمور الباطنة شبيهة بالحقّ ، أوأشكل أمرها والتبس على الناس (و إذا أدبرت نبهت) أى أيقظت القوم من نوم الجهالة وظهرت بطلانها عليهم ، ألا ترى أنّ الناس كانوا في بدو فتنة الجمل والنهروان في حيرة واشتباه لايدرون أنّ الحقّ في أيّ الجانبين ، فلمّا انقضت الحرب و وضعت أوزارها ارتفع الاشتباه و تميّز الحقّ من الباطل وانتبه القوم من جهالتهم.

و أكد عليه السلام هذا المعنى بقوله (ينكرن مقبلات) أى لايعرف حالهن في حالة اقبالها (ويعرفن مدبرات) ثمّ وصفها بأنها (يحمن حوم الرّياح) أى يطفن مثل طواف الرّياح (يصبن بلداً و يخطين بلداً) .

تنبيهان الاول

قد قلنا إنّ قوله عليه السلام : سلوني قبل أن تفقدوني كلام ما زال عليه السلام يقوله حتى أنه عليه السلام كان يقوله بعد ما ضربه ابن ملجم لعنه الله و قبل وفاته بيوم كما مرّ في شرح الكلام التاسع والستين ، و نكتة ذلك أنّ اللاّزم على امام الزّمان أن يبذل فيوضاته للمواد القابلة بقدرالامكان .

(لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ) .

روى الصدوق فى التّوحيد قال : حدّثنا أحمدبن الحسن القطان و عليّ بن أحمدبن محمّدبن عمران الدّقاق قال : حدّثنا أحمدبن يحيى بن زكريّا القطان قال: حدّثنا محمدبن العبّاس قال : حدّثنى محمدبن أبىالسّرى قال : حدّثنا أحمدبن عبدالله بن يونس عن سعد الكناني عن الأصبغ بن نباته قال : لما جلس عليّ عليه السلام على الخلافة و بايعه النّاس خرج إلى المسجد متعمّماً بعمامة رسول الله صلى الله عليه و آله لابساً بردة رسول الله صلى الله عليه و آله متنعّلا نعل رسول الله صلى الله عليه و آله متقلّداً سيف رسول الله صلى الله عليه و آله فصعد إلى المنبر فجلس عليه متمكنا ثمّ شبّك بين أصابعه فوضعها أسفل بطنه .

ثمّ قال : يا معشر النّاس سلوني قبل أن تفقدوني هذا سفط (١) العلم هذا لعاب رسول الله صلى الله عليه و آله ، هذا مازقّني رسول الله صلى الله عليه و آله زقّاً زقّاً ، سلوني فانّ عندي علم الأوّلين والآخرين ، أم والله لوثنيت لي الوسادة فجلست عليها لأفتيت أهل التّوراة بتوراتهم حتّى تنطق التّوراة فتقول : صدق عليّ ما كذب لقد أفتا كم بما أنزل الله فيّ ، وأفتيت أهل الانجيل بانجيلهم حتى ينطق الانجيل فيقول : صدق

---

١ ـ السفط بالطاء مايخبى فيه الطيب ونحوه ، مصباح

عليّ ما كذب لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ ، وأفتيت أهل القرآن بقرآنهم حتّى ينطق القرآن فيقول : صدق عليّ ما كذب لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ ، و أنتم تتلون القرآن ليلاً ونهاراً فهل فيكم أحد يعلم ما انزل فيه ، ولولا آية في كتاب الله لأخبرتكم بما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة وهي هذه الآية :

(يَمْحُو اللهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ).

ثمّ قال : سلوني قبل أن تفقدوني فوالّذي فلق الحبّة و برء النّسمة لو سألتموني عن آية آية في ليل نزلت أو في نهاراً نزلت مكّيها ، و مدنيّها ، سفريها ، وحضريها ، ناسخها ، و منسوخها ، محكمها ، و متشابهها ، و تأويلها ، وتنزيلها ، لأخبرتكم .

فقام إليه رجل يقال له : ذعلب و كان ذرب (١) اللّسان بليغا في الخطب شجاع القلب فقال : لقد ارتقى ابن أبي طالب مرقاةً صعبة لأخجلته اليوم لكم في مسألتي إيّاه فقال : ياأميرالمؤمنين هل رأيت ربّك؟ قال : ويلك يا ذعلب لم أكن بالّذي أعبد ربّا لم أره ، قال : كيف رأيته صفه لنا ، قال عليه السلام : ويلك لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقايق الايمان ، ويلك يا ذعلب إنّ ربّي لا يوصف بالبعد و لا بالحركة ولابالسّكون و لا بقيام قيام انتصاب و لا بمجيء ولا بذهاب ، لطيف اللطافة لا يوصف باللّطف ، عظيم العظمة لا يوصف بالعظم ، كبير الكبرياء لا يوصف بالكبر ، جليل الجلالة لا يوصف بالغلظ ، رؤوف الرحمة لا يوصف بالرقة ، مؤمن لا بعبادة ، مدرك لا بمحسّة ، قائل لا بلفظ ، هو في الأشياء على غير ممازجة ، خارج منها على غير مباينة ، فوق كلّ شيء فلا يقال شيء فوقه ، و امام كلّ شيء فلا يقال له امام ، داخل في الأشياء لا كشيء في شيء داخل ، وخارج منها لا كشيء من شيء خارج ، فخرّ ذعلب مغشياً عليه ثمّ قال : تالله ماسمعت بمثل هذا الجواب والله لا عدت إلى مثلها .

١ـ لسان ذريب اى فيه حدة

ثمّ قال عليه السلام : سلوني قبل أن تفقدوني ، فقام إليه الأشعث بن قيس فقال : يا أمير المؤمنين كيف يؤخذ من المجوس الجزية ولم ينزل عليهم كتاب ولم يبعث إليهم نبيّ ؟ قال عليه السلام : بلى يا أشعث قد أنزل الله عليهم كتاباً وبعث إليهم رسولاً حتّى كان لهم ملك سكر ذات ليلة فدعا بابنته إلى فراشه فارتكبها فلما أصبح تسامع به قومه فاجتمعوا إلى بابه فقالوا : أيها الملك دنّست علينا ديننا و أهلكته فاخرج نطهّرك و نقيم عليك الحدّ ، وقال لهم : اجتمعوا واسمعوا كلامي فان يكن لي مخرج ممّا ارتكبت و إلاّ فشأنكم ، فاجتمعوا فقال لهم : هل علمتم أنّ الله لم يخلق خلقا أكرم عليه من أبينا آدم وأمّنا حوّا ؟ قالوا : صدقت أيها الملك ، قال: أفليس قد زوّج بنيه بناته وبناته من بنيه ؟ قالوا : صدقت هذا هو الدّين فتعاقدوا على ذلك فمحا الله تعالى ما في صدورهم من العلم ورفع عنهم الكتاب ، فهم الكفرة يدخلون النّار بلا حساب ، والمنافقون أشدّ حالاً منهم قال الأشعث : والله ما سمعت بمثل هذا الجواب والله لا عدت إلى مثلها أبداً .

ثمّ قال : سلوني قبل أن تفقدوني : فقام رجل من أقصى المسجد متوكّئا على عصاه فلم يزل يتخطأ النّاس حتّى دنا منه فقال : يا أمير المؤمنين دلّني على عمل إذا أنا عملت نجاني الله من النّار .

قال له : اسمع يا هذا ثمّ افهم ، ثمّ استيقن ، قامت الدّنيا بثلاثة : بعالم ناطق مستعمل لعلمه ، و بغنيّ لا يبخل بما له على أهل دين الله ، و بفقير صابر ، فاذا كتم العالم علمه و بخل الغني بما له ولم يصبر الفقير فعندها الويل والثبور ، وعندها يعرف العارفون أنّ الدّار قد رجعت إلى بديّها أي الكفر بعد الإيمان.

أيّها السّائل فلا تغترن بكثرة المساجد و جماعة أقوام أجسادهم مجتمعة وقلوبهم شتّى إنما النّاس ثلاثة : زاهد ، و راغب ، و صابر ، **فاما الزاهد** فلا يفرح بشيء من الدّنيا أتاه ولا يحزن منها على شيء فاته **فاما الصابر** فيتمناها بقلبه فان

أدرك منها شيئاً صرف عنها نفسه لما يعلم من سوء عاقبتها **وأما الراغب** فلا يبالي من حلّ أصابها أم من حرام ، قال له يا أمير المؤمنين فما علامة المؤمن في ذلك الزّمان ؟ قال: ينظر إلى ما أوجب الله عليه من حقّ فيتولاّه و ينظر إلى ما خالفه فيتبرّء منه وإن كان حميماً قريباً قال : صدقت والله يا أمير المؤمنين ، ثمّ غاب الرّجل فلم نره فطلبه الناس فلم يجدوه فتبسم عليّ عليه السلام على المنبر ثمّ قال : مالكم هذا أخي الخضر عليه السلام .

ثمّ قال : سلوني قبل أن تفقدوني ، فلم يقم إليه أحد فحمدالله و أثنا عليه وصلّى على نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم

ثمّ قال عليه السلام للحسن : ياحسن قم فاصعد المنبر فتكلّم بكلام لايجهلك قريش من بعدي فيقولون إنّ الحسن بن عليّ لايحسن شيئاً ، قال الحسن عليه السلام : يا أبه كيف أصعد وأتكلّم وأنت في النّاس تسمع وترى ؟ قال له : بأبي و أمّي أواری نفسي عنك و اسمع و أرى و لا تراني ، فصعد الحسن عليه السلام المنبر فحمدالله بمحامد بليغة شريفة وصلّى على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم صلاة موجزة ثمّ قال : أيّها النّاس سمعت جدّي رسول الله عليه السلام يقول : أنا مدينة العلم وعليّ بابها وهل تدخل المدينة إلاّ من بابها ثمّ نزل، فوثب إليه عليّ عليه السلام فحمله وضمّه إلى صدره

ثمّ قال للحسين : يابنيّ قم فاصعد المنبر وتكلّم بكلام لايجهلك قريش من بعدى فيقولون إنّ الحسين بن عليّ لايبصر شيئاً وليكن كلامك تبعا لكلام أخيك فصعد الحسين عليه السلام المنبر فحمدالله وأثنا عليه وصلّى على نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم صلاة موجزة ثمّ قال : معاشر النّاس سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وهويقول : إنّ عليّا هومدينة هدى فمن دخلها نجى ومن تخلّف عنها هلك، فوثب إليه عليّ عليه السلام فضمّه إلى صدره وقبّله

ثمّ قال : معاشر النّاس اشهدوا أنهما فرخا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ووديعته التي استودعنيها و أنا أستودعكموها ، معاشر الناس ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سائلكم عنهما .

الثانى

اعلم أنّ هذا الفصل من كلامه عليه السلام متضمّن للتنبيه على علمه بالأخبار الغيبية والوقايع الآتية ومايكون بعده إلى يوم القيامة وقد تقدّم في شرح الكلام السادس والخمسين شطر من تلك الوقايع والأخبار .

وقال الشارح المعتزلي في شرح هذا الفصل : اعلم أنه قد أقسم في هذا الفصل بالله الذى نفسه بيده انّهم لايسألون عن أمر يحدث بينهم وبين القيامة إلاّ أخبرهم به و أنّه مامن طائفة من الناس تهتدى بها مأة وتضلّ بها مأة إلاّ وهومخبر لهم إن سألوه برعاتها و قايديها و سايقيها و مواضع نزول ركابها و خيولها ومن يقتل منها قتلا ومن يموت منها موتا ، وهذه الدّعوى منه عليه السلام ليست ادّعاء الرّبوبية ولا ادّعاء النبوّة ولكنه كان يقول إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخبره بذلك .

و لقد امتحنّا اخباره فوجدناه موافقا فاستد للنا بذلك على صدق الدّعوى المذكورة .

كإخباره عن الضربة التي يضرب في رأسه فتخضب لحيته، و إخباره عن قتل الحسين ابنه عليهما السلام وما قاله في كربلا حيث مرّ بها ، و إخباره بملك معاوية الأمر من بعده ، و إخباره عن الحجّاج وعن يوسف بن عمر ، وما أخبره من أمر الخوارج بالنهروان ، وما قدّمه إلى أصحابه من اخباره بقتل من يقتل منهم وصلب من يصلب و إخباره بقتال النّاكثين والقاسطين والمارقين ، واخباره بعدّة الجيش الوارد إليه من الكوفة لمّا شخص عليه السلام إلى البصرة لحرب أهلها ، و إخباره عن عبدالله بن الزّبير و قوله عليه السلام فيه : خبّ ضبّ (١) يروم أمراً (٢) و لا يدركه ينصب حبالة الدّين لاصطياد الدّنيا وهو بعد مصلوب قريش .

١- خبّ الرجل منع ما عنده و نزل المنهبط من الأرض ليجهل موضعه بخلاق فلان خبّ ضبّ أى خداع خبيث مراوغ وقيل خبّ ضبّ اذا كان فاسداً مفسدا مرآةمنه

٢- أى الخلافة

و كإخباره عن هلاك البصرة بالغرق وهلاكها تارة اخرى بالزنج و هو الذى صحفه قوم فقالوا بالريح ، وكإخباره عن الأئمة الذين ظهروا من ولده بطبرستان كالناصر (١) والداعى وغيرهما في قوله عليه السلام : وإنّ لآل محمد صلى الله عليه وآله بالطالقان لكنزاً سيظهره الله إذا شاء دعاة حتّى تقوم باذن الله فتدعو إلى دين الله .

وكإخباره عن ظهور الرّايات السود من خراسان وتنصيصه على قوم من أهلها يعرفون ببنى رزيق بتقديم المهملة وهم آل مصعب منهم طاهر بن الحسين وإسحاق ابن إبراهيم و كانوا هم و سلفهم دعاة الدّولة العباسيّة ، و كإخباره عن مقتل النّفس الزّكيّة (٢) بالمدينة وقوله عليه السلام : انه يقتل عند أحجار الزيت ، و كقوله عن أخيه إبراهيم المقتول يقتل بعد أن يظهر و يُقهر بعد أن يَقهر ، و قوله عليه السلام فيه أيضاً يأتيه سهم عزب (٣) يكون فيه منيته فيابؤس للرامي شلّت يده و وهن عضده .

و كإخباره عن قتلى فخّ وقوله عليه السلام فيهم : هم خير أهل الأرض، أو من خير أهل الأرض و كإخباره عن المملكة العلويّة (٤) بالغرب وتصريحه بذكر كتائته (٥) وهم الذين نصروا أباعبدالله الدّاعي المعلّم، و كقوله يشير إلى عبيدالله المهدى، وهو أوّلهم: ثمّ يظهر صاحب القيروان (٦) الغضّ البضّ (٧) ذو النسب المحض المنتجب من سلالة ذى البداء المسجّى بالرّدا ، و كان عبيدالله المهدى مترفاً مشربا رخص البدن تار الأطراف (٨)

١ـ هو حسن بن على الملقب بالناصر الكبير و ناصر الحق وحسن بن زيد الملقب بالداعى الكبير ومحمد بن زيد الملقب بالداعى الصغير و كان ابتداء امارتهم فى طبرستان فى سنة مأتين وخمسين .

٢ـ هو محمد بن عبدالله المحض ابن الحسن المثنى ابن الحسن «ع» منه .

٣ـ اى لايدرى راميه . ٤ـ هم ادريس بن عبدالله المحض وعشرة من ولده

٥ـ الكتائت فى نسخة الشارح المعتزلى بالتائين و الظاهر انه من الكتيت و هو كما فى القاموس صوت فى صدر الرجل كصوت البكر فى شدة الغيظ و البخيل ويحتمل التحريف فى النسخة ويكون الاصل كتائبه بدله وهى جمع الكتيبة ، منه

٦ـ امراء مصر وقيروان من الاسماعيلية ٧ـ الطرى القوى. ٨ـ التار المسترخى .

وذو البداء إسماعيل بن جعفر بن محمد عليهما السلام لأنّ أباه أبا عبدالله جعفراً عليه السلام سجّاه برداء لمّا مات وادخل إليه وجوه الشيعة يشاهدونه ليعلموا موته وتزول عنهم الشبهة (١) في أمره.

و كإخباره عن بني بويه و قوله عليه السلام فيهم : و يخرج من ديلمان بنو الصياد ، وكقوله فيهم : ثمّ يستشرى أمرهم حتّى يملكوا الزوراء ويخلعوا الخلفاء إشارة إليهم وكان أبوهم صياد السمك يصيد منه بيده مايتقوت هو وعياله بثمنه فأخرج الله تعالى من ولده لصلبه ملوكاً ثلاثة (٢) ونشر ذريتهم حتّى ضربت الأمثال بملكهم وكقوله عليه السلام فيهم: والمترف بن الأجذم تقتله ابن عمه على دجلة، وهو إشارة إلى عز الدّولة بختيار بن معزّ الدولة أبي الحسين وكان معزّ الدّولة أقطع اليد قطعت يده في الحرب وكان ابنه عزّ الدولة بختيار مترفاً صاحب لهو وشرب، قتله عضد الدّولة فنّاخسرو ابن عمه بقصر الجصّ على دجلة في الحرب و سلبه ملكه ، فأمّا خلعهم للخلفاء فانّ معز الدّولة خلع المستكفى ورتب عوضه المطيع ، وبهاء الدولة أبا نصر بن عضد الدّولة خلع الطائع ورتّب عوضه القادر وكانت مدّة ملكهم كما أخبر به عليه السلام .

و كإخباره لعبدالله بن العباس (ره) عن انتقال الأمر إلى أولاده ، فان عليّ بن عبدالله لمّا ولد أخرجه أبوه عبدالله إلى عليّ عليه السلام فأخذه وتفل في فيه وحنّكه بتمرة قد لاكها و دفعه إليه و قال : خذ إليك أبا الأملاك هكذا الرواية الصحيحة وهي التى ذكرها أبو العباس المبرّد في الكامل وليست الرواية التي يذكر فيها العدد بصحيحة ولا منقولة من كتاب معتمد عليه .

و كم له عليه السلام من الاخبار عن الغيوب الجارية هذا المجرى ممّا لو أردنا استقصائه لكسرنا له كراريس كثيرة و كتب السّير يشتمل عليها مشروحة

---

١ ـ اى شبهة الامامة

٢ ـ وهم عماد الدولة على بن بويه ، وركن الدولة حسن بن بويه ، و معز الدولة أحمد بن بويه وولدهم منه

الترجمة

از جمله خطب شریفه آن امام مبین است که اشاره فرموده در آن بکمالات نفسانیه ومقامات معنویه خود وبعضی ازاخبار غیبیه باین نحو که فرموده :

أما بعداز حمد و ثناء الهی ودرود نامعدود برحضرت رسالت پناهي ایگروه خلایق پس من بر کندم چشم فتنه را وحال آنکه نبود هیچ کس که جرأت نماید بردفع آن فتنه غیرازمن بعدازآنکه مضطرب شد ظلمت آن فتنه وسخت گردید شر وأذیت آن ، پس سؤال نمائید ازمن ازمسائل مشکله ومطالب معضله پیش از آنکه نیابید مرا ، پس قسم بخداوندی که نفس من درقبضه اقتدار اواست سؤال نمینمائید ازمن ازچیزی که درمیان شما است ودر میان روز قیامت ونه از گروهی که هدایت نمایند صد کس را و گمراه سازند صد کس دیگر را مگر اینکه خبردهم شما را بخواننده آن و کشندۀ آن وراننده آن ومحل فرود آمدن شتران بار گیر ایشان وجای فرود آوردن بارها باپالانهای ایشان وبآنکه کشته میشود از ایشان کشته شدنی وآنکه می‌میرد ازایشان مردنی

واگر مفقود کنید مرا ونازل بشود برشما امورات مکروهه وحالات شدیده هر آینه سردرپیش اندازند بسیاری ازسائلان ومیترسند بسیاری ازمسئولان ، واین آنزماني است که درهم کشیده شود و جمع شود حرب شما و بردارد رخت را از ساق خود وتنگ باشد دنیا بشما تنگ شدني در حالتیکه دراز شمارید ایام بلا را برخودتان تا آنکه فتح کند خداوند ازبرای بقیّه نیکوکاران ازشما

بدرستی که فتنه‌ها زماني که رو آورند شبهه می‌اندازند مردمانرا وزمانی که پشت بر گردانند آگاه مي‌نمایند ایشانرا ، شناخته نمیشوند آن فتنه‌ها درحالتیکه اقبال میکنند و شناخته می‌شوند در حالتی که ادبار مینمایند ، دوران میکنند وبرمیگردند آنها مثل گردیدن بادها ، میرسند بشهری و تخطي میکنند و دور می گذرند ازشهری دیگر .

الفصل الثانى

ألا إنّ أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أميّة، فإنّها فتنة عمياء مظلمة، عمّت خطّتها، وخصّت بليّتها، وأصاب البلاء من أبصر فيها، وأخطأ البلاء من عمي عنها، وأيم الله لتجدنّ بني أميّة لكم أرباب سوء بعدي كالنّاب الضّروس، تعذم بفيها، وتخبط بيدها، وتزبن برجلها، وتمنع درّها، لا يزالون بكم حتّى لا يتركوا منكم إلّا نافعاً لهم، أو غير ضائر بهم، ولا يزال بلاؤهم حتّى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلّا مثل انتصار العبد من ربّه، والصّاحب من مستصحبه، ترد عليكم فتنتهم شوهاء مخشيّة، وقطعاً جاهليّة، ليس فيها منار هدى، ولا علم يرى، نحن أهل البيت منها بمنجاة، ولسنا فيها بدعاة، ثمّ يفرّج الله عنكم كتفريج الأديم بمن يسومهم خسفاً، ويسوقهم عنفاً، ويسقيهم بكأس مصبّرة، ولا يعطيهم إلّا السّيف، ولا يحلسهم إلّا الخوف، فعند ذلك تودّ قريش بالدّنيا وما فيها لو يرونني مقاماً واحداً ولو قدر جزر جزور، لأقبل منهم ما أطلب اليوم بعضه، فلا يعطونني.

اللغة

(الخطّة) بالضّم الأمر والجهل والخصلة والحالة وشبه القصّة و (النّاب)

الانثى المسنة من النوق و جمعها نيب وأنياب و (الضروس) الناقة السيئة الخلق تعضّ حالبها و (عذم) الفرس يعذم من باب ضرب عضّ أو أكل بجفاء و (خبط) البعير الأرض ضر بها بيده و (زبنت) النّاقة حالبها زبناً من باب ضرب دفعته برجلها فهى زبون بالفتح فعول بمعنى فاعل و (الدرّ) اللّبن.

و(الصاحب من مستصحبه)قال في المصباح :صحبته أصحبة صحبة فأنا صاحب والأصل في هذا الاطلاق لمن حصل له رؤية و مجالسة و كلّ شيء لازم شيئاً فقد استصحبه قاله ابن الفارس و غيره و (الشوه) قبح الخلقة وهو مصدر شوه من باب تعب ورجل أشوه قبيح المنظر وامرأة شوهاء والجمع شوه مثل أحمر وحمراء وحمر وشاهت الوجوه تشوه قبحت و (القطعة)الطائفة من الشيء و القطع جمعها مثل سدرة وسدر و (المنجاة) مصدر بمعنى النجاة واسم مكان و (سام) فلاناً الأمر كلّفه إيّاه أو أولاه إيّاه كسوّمه و أكثرما يستعمل في العذاب و الشرّ و (الخسف) الذّهاب في الأرض والغيبة فيها وفي القاموس سامه خسفاً إذا أولاه ذلاّ و (العنف) مثلّثة ضدّ الرفق .

و (المصبرة) الممزوجة بالصّبر وهووزان كتف عصارة شجر مرّ و يجوز أن يكون المصبرة بمعنى المملوة إلى اصبارها ، قال في القاموس ملاء الكاس إلى اصبارها أى رأسه و أخذه باصباره بجميعه و (حلس)البعير يحلسه غشاه بحلس و هو كساء يجعل على ظهر البعير تحت رحله و الجمع أحلاس كحمل وأحمال و (الجزور) الناقة التي تجزر أى تنحر .

الاعراب

كلمة ايمن اسم استعمل في القسم والتزم رفعه كما التزم رفع لعمر الله ، وهمزته عند البصريين وصل واشتقاقه عندهم من اليمن وهو البركة قالوا ولم يأت في الأسماء همزة وصل مفتوحة غيرها وعند الكوفيين قطع لأنّه جمع يمين عندهم وقد يختصر عنه فيقال : و أيم الله بحذف النون ، ويختصر ثانيا فيقال أم الله بضم الميم و كسرها وقد يدخل عليها اللاّم لتأكيد الابتداء قال الشاعر :

فقال فريق القوم لمّا نشدتهم نعم و فريق ليمن الله ما ندرى

و رفعه بالابتداء وخبره محذوف وجوبا أى أيمن الله قسمى و إذا خاطبت به أحداً تقول : ليمنك كما تقول لعمرك ، و قوله : لا يزالون بكم ، الظرف متعلّق بمحذوف معلوم بقرينة المقام خبر لزال أي لا يزالون قائمين بكم أو موذين بكم أو نحو ذلك، وشوهاء منصوبة على الحالية من فاعل ترد وهو العامل فيها ، و جاهليّة صفة لقطعاً ، وجملة ليس فيها آه إمّا استينافية بيانية أو مرفوعة المحلّ على كونها صفة لفتنتهم أو منصوبة على كونها صفة لقطعاً و الباء في قوله بالدّنيا للبدل على حدّ قول الحماسي :

فليت لى بهم قوماً إذا ركبوا شدّوا الاغارة فرساناً و ركباناً

ومافيها عطف على الدّنيا ، وما موصولة ولفظة لوفي قوله : لويرونني ، حرف مصدر بمعنى ان إلاّ أنها لاتنصب كما تنصب ان قال سبحانه :

« وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ » .

و في قوله ولو قدرجزر جزور بمعنى إن الوصلية و حذف بعده كان كما هو الغالب وقوله : لأقبل متعلّق بتودّ وقوله : فلا يعطونني ، فاعل يعطون ضمير قريش وضمير المتكلّم مفعوله الأوّل وحذف مفعوله الثاني وفي بعض النسخ فلا يعطوننيه باثبات المفعولين كليهما

المعنى

اعلم أنّ هذا الفصل من كلامه عليه السلام متضمّن للاخبار عن فتن بني امية لعنهم الله قاطبة ومايرد على الناس فيها من الشدايد والمكاره وعن انقراض دولتهم بعد سلطنتهم و استيلائهم كما قال عليه السلام (ألا إنّ أخوف الفتن عندى عليكم فتنة بني امية) وإنما كانت أخوف الفتن لشدّتها و كثرة بلوى أهل الدّين بها و عظم رزء المسلمين فيها ويكفي في عظمها هتكهم حرمة رسول الله صلّى الله عليه وآله وقتلهم سبطيه وهدمهم البيت الحرام وإسائتهم الأدب بالنسبة إلى أمير المؤمنين عليه السلام على رؤوس منابر الاسلام ثمانين سنة حتى

راب عليه الصغير وهرم عليه الكبير وأمرهم للناس بالتبرّى منه عليه السلام وقتلهم كلّ من امتنع من ذلك واستيصالهم وتخريب دورهم وتشريدهم من البلاد وجعلهم البدعة سنّة والسّنة بدعة .

كما يشير إلى ذلك كلّه قوله : (فانها فتنة عمياء مظلمة) أى فتنة موجبة للعمى والظّلام لا يهتدى فيها إلى سبيل الحقّ كما لايهتدي الأعمى والسالك في الظلمة إلى النّهج المطلوب .

و محصل المراد انها فتنة موجبة للضّلال والعدول عن منهج الحقّ ، ويحتمل أن يكون من باب التشبيه المحذوف الأداة مبالغة أى فتنة بمنزلة العمياء في كون جريانها على غير استقامة وهى فتنة (عمّت خطّتها) لكونها رياسة كليّة وسلطنة عامّة (وخصّت بليّتها) بأئمّة الدّين ومواليهم المؤمنين و شيعتهم المخلصين من أهل التقوى واليقين (و أصاب البلاء من أبصر فيها) أى من كان ذا بصيرة فيها وهو مصاب بأنواع البلاء لحزنه في نفسه بما يشاهد من أفعالهم السّوئى و قصدهم له بأصناف العقوبة والأذى (وأخطأ البلاء من عمى عنها) أى من كان ذا عمى وجهالة عن تلك الفتنة فهو في أمن وسلامة من اصابة البلية لكونه منقاداً لدعوتهم منساقا تحت رايتهم ، مطيعاً لأوامرهم ممتثلا لنواهيهم (و أيم الله لتجدنّ بني اميّة لكم أرباب سوء بعدي) يطلق الرّب على المالك و المنعم والسيّد و المتمّم و المدبّر والمربّي ويصحّ ارادة كلّ منها في المقام ولايطلق على الاطلاق إلاّ على الله سبحانه

و بيّن جهة السّوء بقوله : (كالنّاب الضّروس تعذم بفيها و تخبط بيدها و تزبن برجلها و تمنع درّها) شبّههم عليه السلام بالنّاقة السّيّئة الخلق المتّصفة بالأوصاف الرّدية المذكورة أراد عليه السلام أنها كما تعضّ بفيها و تضرب بيدها و تدفع حالبها برجلها و تمنع الناس من لبنها فكذلك هؤلاء في أفعالهم الرّديّة وحركاتهم الموذية من قصد الناس بالقتل و الضرب و الأذية و منعهم ما يستحقّونه من بيت المال (لا يزالون) قائمين (بكم) مسلّطين عليكم قاصدين لكم (حتى لا يتركوا منكم) في الأرض ولا يبقوا (إلاّ نافعاً لهم) سالكا مسلكهم ينفعهم في

مقاصدهم (أو غير ضائر بهم) بانكار المنكرات عليهم أى من لا يكون مضراً لهم في امور دولتهم (ولا يزال بلائهم) عليكم (حتي لا يكون انتصار أحدكم) أى انتقامه (منهم إلاّ مثل انتصار العبد من ربّه) و انتقامه من مولاه (و) كانتصار (الصّاحب) الملازم التابع (من مستصحبه) أى ممن اتبعه ولزمه .

و الغرض بذلك إمّا نفى إمكان الانتقام رأساً فيكون المقصود بالاثبات هو النفي أى كما لا يمكن للعبدالانتقام من مولاه وللمستصحب الذي من شأنهالضّعف وعدمالاستقلال الانتصار من مستصحبه ، فكذلك هؤلاء الموجودون في تلك الزمان الناجون من سيف البغي والعدوان لا يمكنهم الانتصـار من بني اميّة و مروان ، لكونهم أذلاّء مقهورين بمنزلة العبيد المملوكين ، و إمّا إثباتالانتصار فيالجملة عند الغيبة بمثل الغيبة والسّب والذّم و نحوها مع الأمن منالوصول إلى المغتاب والمسلوب والمذموم مع إظهار الطّاعة و الانقياد عند الحضور ، و يؤيّد ذلك ما يأتي في رواية الثقفي من الزّيادة و هو قوله عليه السلام : حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلاّ مثل انتصار العبد من ربّه إذا رآه أطاعه وإذا توارى عنه شتمه .

(ترد عليكم فتنتهم شوهاء مخشيّة) أى حالكونها قبيحة عقلا و شرعاً مخوّفة للنفوس مرعّبة للقلوب (و قطعاً جاهليّة) أي طوايف و دفعات منسوبة إلى الجهالة متصفة با لضّلالة لكونها على غير قانون عدل ، و ما يظهر من كلام الشراح من كون المراد بالجاهلية الحالة التي كانت العرب عليها قبل الاسلام من الجهل بالله و رسوله و شرايع الدّين و المفاخرة بالأنساب و الكبر و التجبّر و التعصّب و الأخلاق الذّميمة ، فيه أنّ معنى الجاهلية و إن كان ذلك إلاّ أنّ ظاهرالتركيب لا يساعد حمله على ذلكالمعنى فيالمقام ولو كان مراده عليه السلام ذلك لقال : و قطع الجاهليّة أى قطعاً مثل قطع الجاهلية فافهم .

و قوله عليه السلام : (ليس فيها منار هدى و لا علم يرى) بيان لوجه الجهالة أي ليس فيها إمام هدى يهتدى به ويستضاء بنوره ، ولا قانون عدل يسلك به سبيل الحقّ .

ثمّ أشار عليه السلام إلى برائة ساحتهم من تلك الفتنة بقوله (نحن أهل البيت منها بمنجاة ولسنا فيها بدعاة) أراد نجاتهم من الدخول فيها و من لحوق آثامها و تبعاتها وعدم كونهم من الداعين إليها و إلى مثلها ، و ليس المراد نجاتهم من أذيّتها وخلاصهم من بليّتها لكونهم عليهم السلام أعظم النّاس بليّة و أشدّهم أذيّة فيها ، و كفى بذلك شاهداً شهادة الحسين عليه السلام و أولاده و أصحابه و هتك حريمه و نهب أمواله وما أصاب ساير أئمة الدّين من الطغاة الظالمين لعنهم الله أجمعين .

ثمّ بشّر بظهور الفرج بقوله : (ثمّ يفرّج الله) و يكشف عنكم (كتفريج الأديم) قيل أى ككشف الجلد عن اللّحم حتى يظهر ما تحته .

و قال في البحار : يحتمل أن يكون المراد بالأديم الجلد الذي يلفّ الانسان فيه للتّعذيب لأنّه يضغطه شديداً إذا جفّ ، وفي تفريجه راحة ، و كيف كان فالمقصود انفتاح باب الفرج لهم (بمن يسومهم خسفا) أي يكلّفهم و يولّيهم ذلاً و هوانا أو خسفاً في الأرض (و يسوقهم عنفاً) أي بعنف و شدّة (ويسقيهم بكأس مصبرة) ممزوجة بالصّبر أوالمراد مملوّة إلى اصبارها (ولا يعطيهم إلاّ السّيف ولا يحلسهم إلاّ الخوف) استعار لفظ الاحلاس بمشابهة جعلهم الخوف شعاراً لهم غير منفكّ عنهم كالحلس الملازم للبعير الذي يكسى على ظهره ويلاصق جسده .

قال الشراح : وهذه الفقرات إشارة إلى انقراض دولة بني اميّة بظهور بني العباس و انّ بني العباس أولاهم ذلاً و هواناً و أذاقوهم كأس العذاب طعوماً مختلفة و أروهم عيان الموت ألواناً شتّى كما هو مذكور في كتب السير والتواريخ .

أقول : و الأظهر بملاحظة الزيادات الآتية في رواية سليم بن قيس الهلالي و إبراهيم الثقفي أنها إشارة إلى ظهور السلطنة الالهية والدولة القائميّة ، و على هذا يكون قوله : يسومهم خسفاً إشارة إلى خسف الأرض بجيش السفياني في البيداء كما هو مرويّ في أخبار الرجعة .

ثمّ أشار الى مآل الفرقة المنقلبة من قريش ومنتهى ذلّتهم وضعفهم بقوله:

(فعند ذلك تودّ قريش بالدّنيا ومافيها لويرونني مقاما واحداً ولو قدر جزر جزور لأقبل منهم ما أطلب اليوم بعضه فلا يعطونني) أى حينئذ يتمنّى قريش بدل الدّنيا ومافيها أن يروني مقاماً قصيراً بمقدار جزر جزور فيطيعوني اطاعة كاملة وقدرضيت منهم اليوم بأن يطيعوني إطاعة ناقصة فلم يقبلوا

و يصدّق هذا ما روى في السيّر أنّ مروان بن محمّد وهوآخر ملوك بني امية قال يوم الزاب (١) لمّا شاهد عبدالله بن محمّد بن عليّ بن عبدالله بن العبّاس بازائه في صفّ خراسان : لوددت إنّ عليّ بن أبي طالب تحت هذه الرّاية بدلا من هذا الفتى ، وعلى ما استظهرناه فيكون الاشارة بذلك إلى التمنّي عند قيام القائم عليه السلام

تكملة

اعلم أنّ هذه الخطبة الشريفة ملتقطة من خطبة طويلة أوردها في البحار بزيادة و اختلاف كثير لما أورده السيّد (ره) في الكتاب أحببت أن اورد تمامها توضيحاً للمرام وغيرة على ما أسقطه السيد (ره) اختصاراً أو اقتصاراً من عقايل الكلام فأقول:

روى المحدّث العلاّمة المجلسيّ (ره) من كتاب الغارات لابراهيم بن محمّد

١- الزاب نهر بالموصل روى فى شرح المعتزلى فى شرح الخطبة المأة والرابعة أنه لما نزل مروان بالزاب جرد من رجاله ممن اختاره من أهل الشام والجزيرة و غيرها مأة ألف فارس على مأة ألف فارح ثم نظر اليهم وقال : انها لعدة ولاتنفع العدة اذا انقضت المدة

ولما أشرف عبدالله بن على يوم الزاب فى المسودة و فى أوائلهم البنود السود تحملها الرجال على الجمال البخت ، أقبل مروان على رجل بجنبه وقال ألا تعرفنى من صاحب جيشهم؟ فقال عبدالله بن محمد بن على بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب قال: ويحك من ولد العباس هو؟ قال : نعم، قال: والله لوددت أن عليّ بن أبى طالب مكانه فى هذا الصف، قال: يا أمير المؤمنين تقول هذا لعلى مع شجاعته التى ملاء الدنيا ذكرها قال : ويحك ان علياً (ع) مع شجاعته صاحب دين والدّين غير الملك وانا لنروى عن قديمنا أنه لاشيء لعلى ولالولده فى هذا انتهى ما أهمنا نقله، منه .

الثقفي ، عن إسماعيل بن أبان عن عبدالغفار بن القسم عن المنصور بن عمر عن زر بن حبيش، وعن أحمد بن عمران بن محمّد بن أبي ليلي عن أبيه عن ابن أبي ليلى عن المنهال ابن عمرو عن زرّ بن حبيش قال خطب عليّ عليه السلام بالنّهروان فحمدالله و أثنا عليه ثمّ قال :

أيّها النّاس أما بعد أنا فقأت عين الفتنة لم يكن احد ليجترى عليها غيري ، وفي حديث ابن ابي ليلي لم يكن ليقفاها أحد غيري ولولم أك فيكم ماقوتل أصحاب الجمل ولا أهل صفّين ولا أهل النّهروان ، و أيم الله لولا ان تتكلّموا وتدعوا العمل لحدّثتكم بما قضى الله على لسان نبيّكم لمن قاتلهم مبصراً لضلالتهم عارفاً للهدى الذى نحن عليه .

ثمّ قال : سلونى قبل أن تفقدوني سلوني عمّا شئتم سلوني قبل أن تفقدوني إني ميّت أو مقتول بلى (بلخل) قتل ما ينتظر أشقاها أن يخضبها من فوقها بدم ، وضرب بيده إلى لحيته ، و الذي نفسى بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم و بين الساعة ولا عن فئة تضلّ مأة أو تهدى مأة إلاّ نبأتكم بناعقها وسائقها

فقام إليه رجل فقال : حدّثنا يا أمير المؤمنين عن البلاء ، قال عليه السلام : إنكم في زمان إذا سأل سائل فليعقل و إذا سئل مسؤل فليتثبت ، ألا و إنّ من ورائكم اموراً أتتكم جللا مزوجاً و بلاء مكلحاً ، و الذي فلق الحبّة و برء النسمة أن لو فقدتموني ونزلت بكم كرايه الأمور وحقايق البلاء لقد أطرق كثير من السائلين وفشل كثير من المسؤلين، وذلك إذا قلصت حربكم وشمّرت عن ساق وكانت الدّنيا بلاء عليكم و على أهل بيتي حتّى يفتح الله لبقيّة الأبرار فانصروا أقواماً كانوا أصحاب رايات يوم بدر ويوم حنين تنصروا وتوجروا، ولاتسبقوهم فتصرعكم البلية .

فقام إليه رجل آخر فقال : يا أمير المؤمنين حدّثنا عن الفتن قال : إنّ الفتنة إذا اقبلت شبّهت و إذا أدبرت أسفرت يشبهن مقبلات ويعرفن مدبرات ، إنّ الفتن تحوم كالرّياح يصبن بلداً ويخطين اخرى ، ألا إنّ أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني اميّة إنّها فتنة عمياء مظلمة مطينة عمّت فتنتها وخصّت بليتها وأصاب البلاء من أبصر فيها

و أخطا البلاء من عمى عنها ، يظهر أهل باطلها على أهل حقّها حتى يملاء الأرض عدواناً و بدعاً ، و إنّ أوّل من يضع جبروتها و يكسر عمدها و ينزع أوتادها الله ربّ العالمين .

وأيم الله لتجدنّ بني اميّة أرباب سوءلكم بعدي كالناب الضّروس تعضّ بفيها و تخبط بيديها و تضرب برجليها و تمنع درّها لايزالون بكم حتّى لا يتركوا في مصركم إلاّ تابعاً لهم أوغير ضارّ ، ولايزال بلائهم بكم حتى لا يكون إنتصارأحدكم منهم إلاّ مثل انتصار العبد من ربّه إذا رآه أطاعه ، و إذاتوارى عنه شتمه

وأيم الله لو فرّقوكم تحت كلّ حجر لجمعكم الله شرّ يوم لهم ألا إنّ من بعدى جمّاع شتّى ، ألاإنّ قبلتكم واحدة وحجّكم واحد وعمرتكم واحدة والقلوب مختلفة ثمّ أدخل أصابعه بعضها في بعض فقام رجل فقال : ما هذا ياأمير المؤمنين ؟ قال : هذاهكذا يقتل هذا هذا ويقتل هذا هذا قطعاً جاهلية ليس فيها هدى ولا علم يرى ، نحن أهل البيت منها بنجاة ولسنا فيها بدعاة .

فقام رجل فقال : يا أمير المؤمنين مانصنع في ذلك الزّمان ؟ قال عليه السلام : انظروا أهل بيت نبيكم فان لبدوا فالبدوا ، وإن استصرخوكم فانصروهم توجروا ، ولاتسبقوهم فتصرعكم البليّة .

فقام رجل آخر فقال : ثمّ مايكون بعد هذا يا أمير المؤمنين؟ قال عليه السلام : ثم إنّ الله يفرج الفتن برجل منّا أهل البيت كتفريج الأديم ، بأبى ابن خيرة الاماء يسومهم خسفاً و يسقيهم بكأس مصبرة ، ولا يعطيهم إلاّ السّيف هرجاً هرجا ، يضع السّيف على عاتقه ثمانية أشهر ، ودّت قريش عند ذلك بالدّنيا و مافيها لويرونى مقاماً واحداً قد رحلب شاة أو جزر جزور لأقبل منهم بعض الذى يرد عليهم حتى تقول قريش لوكان هذا من ولد فاطمة لرحمنا ، فيغريه الله ببني امية فجعلهم :

« مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ، سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً » .

بيان

ورواه في البحار أيضاً من كتاب سليم بن قيس الهلالي نحوما رواه من كتاب الغارات مع زيادات كثيرة في آخره و لا حاجة لنا إلى ايرادها و إنما المهمّ تفسير بعض الالفاظ الغريبة في تلك الروّاية فأقول « الجلل » بالضم جمع جليّ وزان ربيّ وهو الأمر العظيم و «مزوجا» في النسخه بالزاء المعجمة و الظاهر انه تصحيف و الصحيح مروجا بالمهملة من راج الريح اختلطت و لايدرى من أين تجيء و يمكن تصحيحه بجعله من زاج بينهم يزوج زوجاً إذا أفسد بينهم وحرش و« كلح» كلوحاً تكثر في عبوس كتلكح و دهر كالح شديد و «طان» الرجل البيت و السطح يطينه من باب باع طلاه بالطين وطينه بالتثقيل مبالغة وتكثير والمطينة فاعل منه ، وفي رواية سليم بن قيس بدلها مطبقة و «جمّاع» النّاس كرمّان اخلاطهم من قبائل شتّى و من كلّ شيء مجتمع اصله و كلّ ماتجمع و انضمّ بعضه إلى بعض و «لبد» بالمكان من باب نصر وفرح لبداً ولبوداً أقام ولزق .

وقوله : «بابى ابن خيرة الاماء» اشارة إلى امام الزمان الغايب المنتظر عجّل الله فرجه وسهّل مخرجه و «هرجاً هرجا» منصوبان على المصدر قال في القاموس هرج النّاس يهرجون وقعوا في فتنة واختلاط وقتل ، وفي رواية سليم بن قيس حتّى يقولوا ما هذا من قريش لوكان هذا من قريش و من ولد فاطمة لرحمنا و «غرى» بالشيء غرى من باب تعب أولع به من حيث لايحمله عليه حامل وأغريته به إغراء .

الترجمة

آگاه باشيد وبدرستى كه ترسناك ترين فتنه‌ها نزد من برشما فتنه بنى‌اميه است پس بدرستى كه آن فتنه فتنه‌ايست كه باعث كورى وظلمت است كه عامست حالة آن بجهة احاطه او بجميع مسلمانان و خاص است بليهٔ آن برخواص أهل ايمان ويقين ، ورسيد بلاء آن بكسيكه صاحب بصيرتست دراو وخطا نمود بلاء از كسى كه كور وبي بصيرت گشت ازآن ، وقسم بخداهر اينه البتة مييابيد بني اميّه را ازبراى خود صاحبان بد بعداز من مثل ناقه بد خلق گزنده در وقت دوشيدن

که دندان میگیرد با دهان خود و میزند با دستهای خود و لگد میزند باپاهای خود ومنع می‌نماید ازشیر خود .

همیشه باشند اذیّت کننده بشما تا اینکه نگذارند از شما أحدی را مگر اینکه فایده دهنده بایشان یا ضرر نرساننده برایشان‌وهمیشه باشد باشما بلاء ایشان تا اینکه نباشد انتقام یکی از شما از ایشان مگر مثل انتقام کشیدن غلام از آقای خود ومثل انتقام کشیدن تابع از متبوع خود ، واردمی‌شود برشما فتنه ایشان در حالتیکه قبیح است و ترسیده‌شده‌وطایفه‌بطایفه که‌منسوبست‌بجهالة که نباشد درمیان آن فتنه‌ها مناره هدایت ونه علامت دیده شده

ماأهل بیت از آن فتنه درنجات‌هستیم ونیستیم درآن‌دعوت کننده‌بمثل آن ، پس از آن بگشاید خداوند آن فتنه را از شما مثل شکافتن و جدا نمودن پوست از گوشت بدست آنکسی که بنماید بایشان ذلّت را ، و براند ایشانرا بدرشتی ، و سیراب می‌نماید ایشانرا با کاسه که‌تلخ‌شده باشد ، وندهد برایشان مگرشمشیر خون آشام ، ونمی‌پوشاند برایشان مگر لباس خوف را پس نزد آن واقعه دوست میدارد قریش عوض دنیا و مافیها اینکه ببینند مرا دریك مکانی اگرچه بوده باشد آن زمان دیدن بقدر کشتن شتر قربانی تا اینکه قبول نمایم از ایشان آنچه را که می‌خواهم ازایشان امروز بعض آنرا پس نمی‌دهند آنرا بمن

ومن خطبة له عليه السلام وهی الثالثة والتسعون من المختار فی باب الخطب

فَتَبارَكَ اللهُ ٱلَّذي لاٰ يَبْلُغُهُ بُعْدُ ٱلْهِمَمِ ، وَلاٰ يَنالُهُ حِسُّ ٱلْفِطَنِ، اَلْأَوَّلُ ٱلَّذي لاٰ غايَةَ لَهُ فَيَنْتَهي ، وَلاٰ آخِرَ لَهُ فَيَنْقَضي .

منها : فَاسْتَوْدَعَهُمْ في أَفْضَلِ مُسْتَوْدَعٍ ، وَأَقَرَّهُمْ في خَيْرِ مُسْتَقَرٍّ ،

تَنَاسَخَتْهُمْ كَرَائِمُ الْأَصْلَابِ ، إِلَىٰ مُطَهَّرَاتِ الْأَرْحَامِ ، كُلَّما مَضَىٰ مِنْهُمْ سَلَفٌ ، قَامَ مِنْهُمْ بِدِينِ اللهِ خَلَفٌ ، حَتَّىٰ أَفْضَتْ كَرَامَةُ اللهِ سُبْحانَهُ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ مَنْبِتاً ، وَأَعَزِّ الْأَرُومَاتِ مَغْرِساً ، مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِياءَهُ ، وَانْتَجَبَ مِنْها أُمَنَاءَهُ ، عِتْرَتُهُ خَيْرُ الْعِتَرِ ، وَأُسْرَتُهُ خَيْرُ الْأُسَرِ ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ الشَّجَرِ ، نَبَتَتْ فِي حَرَمٍ ، وَبَسَقَتْ فِي كَرَمٍ ، لَهَا فُرُوعٌ طِوالٌ ، وَثَمَرَةٌ لا تُنالُ ، فَهُوَ إِمَامُ مَنِ اتَّقَىٰ ، وَبَصِيرَةُ مَنِ اهْتَدَىٰ ، سِراجٌ لَمَعَ ضَوْءُهُ ، وَشِهابٌ سَطَعَ نُورُهُ ، وَزَنْدٌ بَرَقَ لَمْعُهُ ، سِيرَتُهُ الْقَصْدُ ، وَسُنَّتُهُ الرُّشْدُ ، وَكَلامُهُ الْفَصْلُ ، وَحُكْمُهُ الْعَدْلُ ، أَرْسَلَهُ عَلَىٰ حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ، وَهَفْوَةٍ عَنِ الْعَمَلِ ، وَغَبَاوَةٍ مِنَ الْأُمَمِ ، إِعْمَلُوا رَحِمَكُمُ اللهُ عَلَىٰ أَعْلامٍ بَيِّنَةٍ ، فَالطَّرِيقُ نَهْجٌ يَدْعُو إِلَىٰ دارِ السَّلامِ ، وَأَنْتُمْ فِي دارِ مُسْتَعْتَبٍ ، عَلَىٰ مَهَلٍ وَفَرَاغٍ ، وَالصُّحُفُ مَنْشُورَةٌ ، وَالْأَقْلامُ جارِيَةٌ ، وَالْأَبْدانُ صَحِيحَةٌ ، وَالْأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ ، وَالتَّوْبَةُ مَسْمُوعَةٌ ، وَالْأَعْمالُ مَقْبُولَةٌ .

اللغة

(تبارك الله) من البركة وهو كثرة الخير وزيادته يقال : بارك الله لك وفيك و عليك و باركك بالتعدية بنفسه و (النسخ) الازالة والنقل يقال : نسخت الشمس الظل أى أزالته ونسخت الكتاب وانتسخته واستنسخته أى نقلت مافيه و المنقول

منه النسخة بالضمّ و (السلف) كلّ من تقدّمك من آبائك أو قرابتك و الجمع سلاف وأسلاف و (الخلف) بالتحريك الولد الصّالح و يقال : على من حضرمن الحيّ وإذا كان الولد فاسداً يقال خلف بسكون اللاّم وربما استعمل كلّ منهماكان الآخر و (الافضاء) إلى الشيء الوصول و الانتهاء إليه و (المعدن) و زان مجلس منبت الجواهر من ذهب ونحوه و (الاروماتِ) جمع الأرومة بفتح الهمزة و ضمّها أصل الشيء و الجمع أيضاً على الاروم و (غرس) الشجر يغرسه من باب ضرب اثبته في الأرض كأغرسه و (الصّدع) الشقّ في شيء صلب و نبات الأرض قال سبحانه : والأرض ذات الصّدع .

و (العترة) نسل الرجل ورهطه و عشيرته الأدنون من مضى وغبر كذا في القاموس وسيأتي تحقيق الكلام فيه و (اسرة) الرجل وزان غرفة رهطه و عشيرته الأدنون وأهل بيته والجمع اسر كغرب و (بسق) النخل بسوقاً من باب قعد طال قال سبحانه : وَالنَّخْلَ باسِقاتٍ و (الطوال) بالكسر جمع الطويل والطوال بالضمّ و (الشهاب) كلّ شيء مضيء و (الزند) بالفتح فالسكون العود الذى يقدح به النّار و هوالأعلى و السفلى الزندة و (برقت) السماء بروقا وبرقاناً لمعت أو جاء ببرق وبرق الشيء برقا وبريقاً وبرقاناً لمع و (الفترة) مابين كلّ نبيّين ورسولين و (الغباوة) الجهل و قلّة الفطنة و (نهج) الطريق الواضح منه و (المستعتب) يجوز كونه مصدراً ومكاناً من استعتبه أى استرضاه وطلب إليه العتبى أى الرّضا

الاعراب

يجوز في محلّ الموصول أعني قوله عليه السلام : الذى لايبلغه ، الرفع على كونه تابعا لله بكونه بدلا منه أونعتاًله ، والنصب على تقدير المدح أى أعنى الذى اوامدح الذي ، و اضافة البعد إلى الهمم و الحسّ الى الفطن لامية والأوّل إمّا خبر لمبتداء محذوف أو تابع لله .

واستشكل الشارح المعتزلي في الفاء العاطفة في قوله عليه السلام: فينتهى فينقضى، بأنّ الفاء إنّما تدخل فيما إذا كان الثاني غير الأوّل كقولهم ما تأتينا فتحدّثنا و ليس

الثاني ههنا غير الأول لأنّ الانقضاء هو الآخرية بعينها فكأنّه قال: لا آخر له فيكون له آخر وكذلك القول في اللّفظة الأولى

وأجاب بأنّ المراد لا آخر له بالامكان والقوّة فينقضي بالفعل فيما لا يزال، ولا هو أيضاً ممكن الوجود فيما مضى فيلزم أن يكون وجوده مسبوقاً بالعدم وهو معنى قوله فينتهي، بل هو واجب الوجود في الحالين فيما مضى وفي المستقبل وهذان مفهومان متغايران وهما العدم وإمكان العدم فاندفع الاشكال انتهى كلامه

أقول: وفيه نظر إذ الغالب في الفاء العاطفة لجملة على جملة على ما صرّح به علماء الأدب أن يكون مضمون الجملة الثّانية عقيب مضمون الجملة الأولى تقول قام زيد فقعد عمرو، وأمّا اشتراط التغاير بين الجملتين فممنوع، وقد تفيد الفاء كون المذكور بعدها كلاماً مرتّباً في الذكر على ما قبلها لا أنّ مضمونه عقيب مضمون ماقبلها في الزمان كقوله تعالى:

« أُدْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ »

وقوله: « وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّءُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ ».

فانّ ذكر ذمّ الشيء ومدحه يصحّ بعد جرى ذكره ومن هذا الباب عطف تفصيل المجمل على المجمل لأنّ موضع ذكر التفصيل بعد الاجمال قال سبحانه:

« وَنادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ».

وتقول أجبته فقلت لبّيك، ومن هذا علم أنّ شرطية التغاير غير معتبرة فلا حاجة إلى ما تكلّفه في الجواب وإنّما مساق كلام الامام عليه السلام مساق هذه الآية الشريفه ومساق قوله:

« وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً ».

فانّ ذكر نفى الانتهاء للشيء إنّما يصحّ بعد ذكر نفى النهاية والغاية عنه، وكذا ذكر نفى الانقضاء يحسن بعد ذكرنفى الآخر عنه وسيأتي له مزيد توضيح في بيان المعنى، وجملة نبتت في حرم استينافية بيانية، وكذا جملةلها فروع طوال، والفاء في قوله: فهو امام فصيحة، والواو في قوله وانتم في دار مستعتب حالية

و دار في أكثر ما رأيناه من النسخ بالتنوين فلابدّ من جعل مستعتب اسم مكان بدلا منه أو عطف بيان على ما هوالحقّ الذي ذهب إليه الكوفيّون من جواز البيان في النّكرات إلاّ أنه يبعده و يبعدالوصفية أنّ الدارمن المؤنثات السّماعيّة، فكان اللاّزم أن يقال: مستعتبة بالتاء للزوم المطابقة بين الصفة و الموصوف و البيان والمبين في التذكير والتأنيث و إن امكن التصحيح بالتأويل في الموصوف أو عدم لزوم المطابقة في الصفة إذاكانت من أسماء المكان فليتأمل.

و في نسخة الشارح المعتزلي بلا تنوين على الاضافة وهو أولى، فيصحّ على ذلك جعل مستعتب مصدراً فيكون إضافة دار إليه لامية وجعله اسم مكان فتكون الاضافة بيانية، وعلى في قوله على مهل، للاستعلاء المجازى

المعنى

اعلم أنه صدّر هذه الخطبة بتقديس الله سبحانه و تنزيهه عن صفات النّقص والامكان، و عقّبه بذكر وصف الأنبياء و الأولياء، وذيّله بالموعظة و النّصيحة، فقال سلام الله عليه و آله (فتبارك الله) أى ثبت الخير والبركة عنده وفي خزائنه وقيل: أى تعالى الله لأنّ البركة ترجع معناها إلى الامتداد والزيادة و كلّ ما زاد على الشيء فقد علاه، وقيل أصله من البروك وهو الثبات فكأنه قال: والبقاءوالدّوام والثّبات له فهو المستحقّ للتعظيم والثّناء (الذي لايبلغه بعدالهمم و لايناله حسّ الفطن)قدمضى الكلام في شرح هذه الفقرة في الفصل الثّاني من فصول الخطبة الأولى و أقول هنا:

إنّ نعوت الجلال و صفات الكمال لله سبحانه المتعال لمّا كانت غير متناهية ولا محدودة نبّه عليه السلام بذلك على عدم إمكان الوصول إليها و تعذّر إدراكها، إذ

كلّ مدرك متناه محدود ، فالمعنى أنه تعالى لا يبلغه الهمم و القصود على بعدها و علوّها ، ولا يصل إليه إدراك الفطن و إن ذكت واشتدّت في ذكائها وحدّتها و سرعة انتقالها من المبادي إلى المطالب ، بل كلّ سابح في بحار جلاله غريق وكلّ مريد للوصول إلى أنوار جماله حريق .

(الأوّل الذي لا غاية له فينتهي ولا آخر له فينقضي) تقدّم تحقيق الكلام في أوليّته و آخريّته سبحانه في شرح الخطبة الرّابعة و السّتين و الفصل الأوّل من فصول الخطبة التسعين بما لا مزيد عليه ، و المراد هنا أنه تعالى أول الأشياء لا غاية له في البداية فينتهى إليها ، و لا آخر له في النهاية فيكون له الانصرام والانقضاء عندها ، بل هو أزليّ باق غير منقطع الوجود بداية و نهاية ، و برهان ذلك أنّ الغاية والنهاية من عوارض الأجسام ذوات الأوضاع والمقادير تعرض لها بالذّات ، وللواحقها كالأزمنة والحركات، و للأمور المتعلّقة بها كالقوى والكيفيات بالعرض ، والأول سبحانه ليس بجسم ولا جسماني ولا متعلّق به ضرباً من التّعلّق فهو منزّه عن الحدّ والنهاية .

قال السيد ره (منها) أى بعض فصول تلك الخطبة في شرح حال الأنبياء عليهم السلام وهو قوله عليه السلام : (فاستودعهم في أفضل مستودع) وهو أصلاب الآباء (و أقرّهم في خير مستقرّ) وهو أرحام الأمّهات قال سبحانه :

« هُوَ الَّذي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ » .

(تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهّرات الأرحام) أى نقلتهم الأصلاب الكريمة إلى الأرحام المطهّرة من السفاح كما لو وقع عقد النكاح على غير الوجه الشرعي لخلل في لفظ العقد أو في القصد بأن يقع على غير المقصود إنكاحه أو نكاحه أو بغير رضا الطرفين أو أحدهما أو من يعتبر رضاه أو لوقوعه على المحارم

و نحو ذلك . روى عن أمير المؤمنين عليه السلام بطريق العامة عن النبيّ صلى الله عليه وآله في قوله تعالى :

« لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ».

قال : نسباً و صهراً و حسباً ليس في آبائي من لدن آدم سفاح كلّنا بنكاح ، قال الكلبي كتبت للنبيّ صلى الله عليه وآله خمسمأة أمّ فما وجدت فيهنّ سفاحاً ولا شيئاً مما كان عليه أهل الجاهليّة هذا .

و قال الشّارح البحراني : و تناسخ الأصلاب لهم إلى مطهّرات الأرحام نقلهم إليها نطفا ، و كرائم الأصلاب ما كرم منها ، و حقّ لأصلاب سمحت بمثلهم أن توصف بالكرم ، ومطهّرات الأرحام ما طهر منها ، وحقّ لما استعدّ منها لانتاج مثل هذه الأمزجة و قبولها أن تكون طاهرة من كدر الفساد ، و الشّيعة يطهّرون أصول الأنبياء من طرف الآباء والأمهات عن الشرك ، و نحوه قول رسول الله صلى الله عليه وآله نقلنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية .

و في حديث الجابر المرويّ في الفقيه في كيفية خلقة الانسان و ولادته قال: فقلت : يا رسول الله هذه حالنا فكيف حالك و حال الأوصياء بعدك في الولادة ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله مليـّاً ثمّ قال : ياجابر لقد سألت عن أمر جسيم لايحتمله إلاّ ذو حظّ عظيم ، إنّ الأنبياء والأوصياء مخلوقون من نور عظمة الله جلّ ثناؤه يودع الله أنوارهم أصلاباً طيبة وأرحاماً طاهرة يحفظها بملائكته ، و يربّيها بحكمته و يغذو ها بعلمه ، فأمرهم يجلّ عن أن يوصف ، و أحوالهم تدّق عن أن يعلم ، لأنّهم نجوم الله في أرضه ، و أعلامه في بريّته ، وخلفاؤه على عباده ، و أنواره في بلاده ، و حججه على خلقه ، هذا من مكنون العلم و مخزونه فاكتمه إلاّ من أهله.

و بالجملة فالمراد أنه تعالى خلق الأنبياء عليهم السلام و أودع أنوارهم في الأصلاب والأرحام و أخرجهم إلى وجه الأرض على تعاقب الزمان و كرور الأيام ، و أرسلهم تترى لمسيس الحاجة و اقتضاء المصلحة ، و هو الدّلالة على التوحيد و المعرفة ،

و إكمال الدّين والملّة ، ولم يخل الخلق منهم بل (كلّما مضى منهم سلف) وارتحلوا من الدّنيا إلى العقبا (قام منهم بدين الله) و نشر شرايعه و أحكامه (خلف حتى أفضت كرامةالله) وانتهت نبوّته (إلى محمّد صلّى الله عليه و آله) و بلغت بوجوده الشريف سلسلة النّبوة والرسالةالغاية . وأشرقت وجهالأرض بنور جماله ، وأضائت الدّنيا بأشعّة كماله ، وقد كان في عالم المعنى الأصلاب الشامخة والأرحامالمطهرة قشوراً لذلك اللّب أحاطت به احاطة الأشعّة بالسراج ، فهو مفارق لتلك المحالّ الشّريفة في التقدير و إن كان مقارناً لها في التدبير .

و لأجل هذا كان كلّ من انتقل إليه ذلك النّور أشرقت وجهه حتىيعرف بذلك النور إلى أن ينتقل منه إلى رحم الطاهرة ، فيسلب منه النور ويتلألؤ بوجه الحامل إلى أن تضع الجنين فيخرج مشرقاً بما فيه فيسلبالله النور .

روى الصدوق باسناده إلى أبي ذر قال : سمعت رسولالله صلى الله عليه وآله وهو يقول : خلقت أنا و عليّ بن أبي طالب من نور واحد نسبّح الله يمنة العرش قبل أن يخلق آدم بألفي عام ، فلما أن خلق الله آدم عليه السلام جعل ذلك النور في صلبه ولقد سكن الجنة و نحن في صلبه ، و لقد همّ بالخطيئة و نحن فى صلبه ، ولقد ركب نوح بالسفينة و نحن في صلبه ، ولقد قذف إبراهيم عليه السلام فيالنار و نحن في صلبه ، فلم يزل ينقلنا الله عزّ وجل من أصلاب طاهرة إلى أرحام طاهرة حتى انتهى بنا إلى عبدالمطلب ، فقسمنا فجعلني في صلب عبدالله وجعل عليّاً عليه السلام في صلب أبي طالب وجعلفيّ النّبوة والبركة ، وجعل في عليّ الفصاحة والفروسية ، وشقّ لنا اسمين عن أسمائه ، فذوا العرش محمود و أنا محمّد . والله العليّ الأعلى و هذا عليّ .

وعن المناقب لأحمد بن حنبل و النّسائى عن عليّ عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إنّالله خلق خلقه فيظلمة ، ثمّ رشّ عليهم من نوره فمن أصابه من النّور شيء اهتدى ومن أخطأه ضلّ .

ثمّ فسّره عليّ عليه السلام فقال : إنّ الله عزّوجلّ حين شاء تقدير الخليقة و ذرء

البريّة وإبداع المبدعات ضرب الخلق في صور كالهباء قبل وجود الأرض والسماء وهوسبحانه في انفراد ملكوته وتوحّد جبروته ، فأشاع نوراً من نوره فلمع ، وقبساً من ضيائه فسطع ، ثمّ اجتمع ذلك النور في وسط تلك الصور الخفية فوافق صورة نبيّنا محمّد ﷺ وقال الله له : أنت المختار المنتخب وعندك ثابت نوري وأنت كنوز هدايتي ، ثمّ أخفى الخليقه في غيبه وسترها في مكنون علمه ، ثمّ وسّط العالم وبسط الزمان ومرّج الماء و أثار الزبد وأفاج الرّيح ، فطفى عرشه على الماء فسطح الأرض على ظهر الماء ، ثمّ انشأ الملائكة من أنوار ابتدئها و أنوار اخترعها ، و قرن بتوحيده نبوّة محمّد ﷺ ظاهراً فهوأبو الأرواح و يعسوبها كما أنّ آدم عليه السلام أبو الأجساد و سببها ، ثمّ انتقل النور في جميع العوالم عالماً بعد عالم و طبقا بعد طبق و قرنا بعد قرن إلى أن ظهر محمّد ﷺ بالصورة و المعنى في آخر الزمان ، ويطابق هذا الكلام قول عمّي العبّاس بن عبدالمطلب رضى الله عنه قال : يارسول الله أُريد أن أمدحك قال : قل لا يفضض الله فاك قال (ره) :

من قبلها طبت في الظلال و في ... مستودع حيث يخصف الورق
ثمّ انبطت البلاد لا بشر ... أنت و لا مضغة و لا علق
بل نطفة تركب السّفين و قد ... الجمت نسراً و أهله الغرق
وردت نار الخليل مكتتماً ... تجول فيهـا ولست تحترق
تنقل من صالب إلى رحم ... إذا مضى عالم بدا طبق
حتّى احتوى بيتك المهيمن ... من خندف(١) علياتحتها النّطق
وأنت لمّا ولدت أشرقت الأرض ... و ضاءت بنورك الافق
فنحن في ذلك الضياء و في ... النّور و سبل الرّشاد تحترق

(فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً وأعزّ الاورومات مغرساً) يحتمل أن يكون المراد بذلك مكّة زادها الله شرفاً لأنها لمّا سمحت بمثله صلوات الله وسلامه عليه صار أجدر بأن تكون أفضل المعادن وأعزّ الأُصول ، ويشعر به قوله الآتي : نبتت في حرم ، فافهم.

١ ـ خندف وزان زبرج امّ مدركة بن الياس أحد أجداد النبيّ واسمها ليلى كما في القاموس، منه .

والأظهر أن يراد به إما إبراهيم خليل الله أو إسماعيل ذبيح الله، فانّ كلاًّ منهما لما كان محلا لجوهر الرسالة وأصلا لشجرة النبوّة صار حقيقا بأن يكون أفضل المعادن وأعزّ الاصول ، ويستعار لهما هذان اللفظان .

ويناسب ذلك قوله عليه السلام (من الشجرة التي صدع منها أنبيائه وانتجب منها أمنائه) فانّ الأظهر أنّ المراد بها أحدهما عليهما السلام لكون الأنبياء من فروع تلك الشجرة المباركة وانتهاء سلسلة النبوة الخاتمة لمحمّد صلى الله عليه وآله اليهما ، ويعرف ذلك بذكر نسبه الشريف وهو كما في البحار أنه :

محمّد بن عبدالله بن عبدالمطلب واسمه شيبة بن الحمد بن هاشم ، واسمه عمرو بن عبد مناف ، و اسمه المغيرة بن قصى (١) ، واسمه زيد بن كلاب (٢) بن مرّة بن كعب بن لوى (٣) بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، وهو قريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر (٤) بن نزار بن معد (٥) بن عدنان بن ادّ بن اود بن اليسع بن الهميسع بن سلامان بن نبت بن حمل بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ابن تارخ بن ناخور بن ساروع (٦) بن ارغوا بن فالغ (فالع خل) بن عابر، وهو هود بن شالح بن أرفحشد بن سام بن نوح بن ملك بن متوشلخ (٧) بن اخنوخ ، وهو إدريس (٨) بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن انوش بن شيث ، وهو هبة الله بن

١ـ بفتح القاف والصاد وتشديد الياء منه

٢ـ بكسر الكاف وفتح اللام

٣ـ بضم اللام وفتح الواو وتشديد الياء منه

٤ـ بضم الميم وفتح الصاد المعجمة .

٥ـ بفتح الميم والعين المهملة وتشديد الدال است .

٦ـ وفى بعض الروايات بدله شاروع وفى بعضها شروغ بالشين والغين المعجمتين

٧ـ المتوشلخ بميم مفتوحة ثم تاء مشددة ثم واو ساكنة ثم شين معجمة ثم لام مفتوحتين ثم خاء معجمة عن جواهر اللغة .

٨ـ سمى ادريس لكثرة تدريسه كتاب الله

آدم أبي البشر عليه السلام جميعاً .

روى مسلم عن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنّ الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفاني من بني هاشم .

و (عترته خير العتر) و هم الذين أوصى فيهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و قال : إنّي مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي وأنهما ، لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض كهاتين ، وضمّ سبابتيه فقام إليه جابر بن عبدالله الأنصاري فقال : يارسول الله ومن عترتك ؟ قال : عليّ والحسن والحسين والأئمة من ولد الحسين عليهم السلام إلى يوم القيامة رواه الصدوق في كتاب اكمال الدّين ومعاني الأخبار باسناده عن الصّادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله

وقال الصّدوق (ره) في محكيّ كلامه حكى محمّد بن بحر الشيباني عن محمّد بن عبدالواحد صاحب أبي العبّاس تغلب في كتابه الذي سماه كتاب الياقوتة أنه قال حدّثنى أبو العبّاس تغلب قال : حدّثني ابن الأعرابي ، قال :

العترة قطاع المسك الكبار في النافجة و تصغيرها عتيرة، و العترة الريقة العذبة . والعترة شجرة تنبت على باب و جار الضبّ وأحسبه أراد وجار الضّبع لأنّ الذي للضبّ مكو و للضبع وجار ، ثمّ قال : و إذا خرجت الضبّ من و جارها تمرّغت على تلك الشجرة فهي لذلك لاتنمو ولا تكبر ، والعرب تضرب مثلا للذليل و الذلة فيقولون أقلّ من عترة، والعترة ولد الرّجل وذرّيته من صلبه، فلذلك سميت ذرّية محمّد صلى الله عليه وآله وسلم من عليّ وفاطمة : عترة محمّد

قال تغلب : فقلت لابن الأعرابي : فمامعنى قول أبي بكر في السقيفة : نحن عترة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ قال : أراد بلدته وبيضته ، و عترة محمّد صلى الله عليه وآله لا محالة ولد فاطمة عليها السلام ، والدّليل على ذلك ردّ أبي بكر وانفاذ عليّ عليه السلام بسورة برائة وقوله عليه السلام : امرت أن لا يبلغها عنّي إلاّ أنا أو رجل منّي ، فأخذها منه و دفعها

إلى من كان منه دونه فلوكان أبوبكر من العترة نسبادون تفسير ابن الاعرابي أنه أراد البلدة لكان محالا أخذ سورة برائة منه ودفعها إلى علي عليه السلام .

وقد قيل : إنّ العترة الصّخرة العظيمة يتّخذ الضبّ عندها جحراً يأوى إليه و هذا لقلّة هدايته ، و قد قيل إنّ العترة أصل الشجرة المقطوعة التي تنبت من اصولها وعروقها ، والعترة في غيرهذا المعنى قول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لا فرعة ولا عتيرة

قال الاصمعى : كان الرّجل في الجاهلية ينذر نذراً على أنه إذا بلغت غنمه مأة أن يذبح رجبية (١) وعتاير فكان الرّجل ربمابخل بشاته فيصيد الظباء يذبحها عن غنمه عن آلهتهم ليوفى بها نذره وأنشد الحرث بن حلزة :

عنناً باطلا ظلماً كما تعترعن حجرةالربيض الظباء

يعني يأخذونها بذنب غيرها كما يذبح اولئك الظباء عن غنمهم ، و قال الأصمعي : و العترة الريح و العترة أيضاً شجرة كثيرة اللّبن صغيرة يكون (نحوالقامة خل) و يقال : العترة الذكر و عتريعتر عتراً إذاالغظ و قال الرياشي سألت الاصمعي عن العترة فقال هو نبت مثل المرز نجوش ينبت متفرقا

ثمّ قال الصّدوق : العترة عليّ بن أبىطالب عليه السلام وذرّيته من فاطمة وسلالة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وهم الذين نصّ الله بالامامة على لسان نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم وهم اثناعشر أوّلهم عليّ عليه السلام وآخرهم القائم عليهم السّلام على جميع ما ذهبت إليهالعرب من معنى العترة .

وذلك إنّ الأئمة عليهمالسّلام من بين جميع بنيهاشم ومن بين جميع ولد أبيطالب كقطاع المسك الكبار في النافجة و علومهم العذبة عند أهل الحكمة والعقل ، وهم الشجرة التي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصلها و أميرالمؤمنين فرعها والأئمة من ولدها أغصانها وشيعتهمورقهاوعلمهمثمرتها ، وهم عليهمالسّلام اصول الاسلام على معنى البلدة والبيضة

١ـ قال فى القاموس الترجيب ذبح السائك ولعل الرجبية مأخوذ منه م

و هم عليهم السلام الهداة على معنى الصخرة العظيمة التي يتّخذ الضبّ عندها جحراً يأوى إليه لقلّة هدايته ، وهم أصل الشجرة المقطوعة لأنهم وتروا وظلموا وجفوا وقطعوا ولم يوصلوا ، فنبتوا من اصولهم وعروقهم لا يضرّهم قطع من قطعهم وإدبار من أدبر عنهم ، إذ كانوا من قبل الله منصوصاً عليهم على لسان نبيّ الله ، ومن معنى العترة هم المظلومون المؤاخذون بما لم يجرموه ولم يذنبوه ومنافعهم كثيرة .

وهم عليهم السلام ينابيع العلم على معنى الشجرة الكثيرة اللبن ، وهم عليهم السلام ذكران غير اناث على قول من قال إنّ العترة هم الذكر ، وهم جند الله عزّ وجلّ وحزبه على معنى قول الاصمعي إنّ العترة الريح ، قال النبيّ صلى الله عليه وآله : الريح جند الله الأكبر في حديث مشهور عنه ، والريح عذاب على قوم ورحمة للآخرين ، وهم عليهم السلام كذلك كالقرآن المقرون إليهم بقول النبيّ صلى الله عليه وآله : إني مخلف فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي قال الله عزّ وجل :

« وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظّالِمِينَ إِلاّ خَساراً » وقال عزّ وجلّ : « وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هٰذِهِ إِيماناً ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ، وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلىٰ رِجْسِهِمْ وَ ماتُوا وَ هُمْ كافِرُونَ » .

وهم أصحاب المشاهد المتفرقة على المعنى الذي ذهب إليه من قال إنّ العترة هو نبت مثل المرز نجوش ينبت متفرقاً وبركاتهم منبثة في المشرق والمغرب

(واسرته) أى رهطه وعشيرته (خير الاسر) و يدل عليه ما في تفسير الامام عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إنّ الله عزّ وجل خياراً من كلّ ماخلقه : فله من البقاع خيار و له من الليالى والأيام خيار ، وله من الشهور خيار ، وله من عباده خيار ، و لهم من خيارهم خيار .

فامّا خياره من البقاع فمكّة والمدينة وبيت المقدس وإنّ صلاتاً في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلاّ المسجد الحرام والمسجد الأقصى يعني مكّة وبيت المقدّس، وأمّا خياره من اللّيالي فليالي الجمع وليلة النصف من شعبان وليلة القدر وليلة العيد، وأما خياره من الأيام فأيّام الجمع والأعياد، وأمّا خياره من الشهور فرجب وشعبان و شهر رمضان، وأما خياره من عباده فولد آدم عليه السلام، وخياره من ولد آدم من اختاره على علم منه بهم فانّ الله عزّوجلّ لما اختار خلقه اختار ولد آدم عليه السلام، ثمّ اختار من ولد آدم العرب، ثمّ اختار من العرب مضر، ثمّ اختار من مضر، قريشاً، ثمّ اختار من قريش هاشما، ثم اختارني من هاشم، وأهل بيتي كذلك، فمن أحبّ العرب فيحبّني و احبّهم و من أبغض العرب فيبغضني وابغضهم

و نعم ماقيل:

لله في عــالمــه صفوة　　　و صفوة الخلق بنو هاشم
و صفوة الصفوة من هاشم　　　محمّد الطّهر أبو القاسم

ويشهد به أيضاً ماروي بطريق العامة عن عايشة عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: أتاني جبرئيل فقال. قلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أررجلا أفضل من محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، ولم أر ابن أب أفضل من بني هاشم.

وفي رواية ابن عمر أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: إنّ الله اختار خلقه فاختار منهم بني آدم ثمّ اختار بني آدم فاختار منهم العرب، ثمّ اختار العرب فاختار منهم قريشاً، ثمّ اختار قريشا فاختار منهم بني هاشم، ثمّ اختار بني هاشم فاختارني منهم، فلم ازل خياراً من خيار ألا من أحبّ العرب فيحبّني احبّهم ومن ابغض العرب فيبغضني ابغضهم

(و شجرته خير الشجر) أي أصله خير الاصول، و أراد بها إمّا هاشما أو اسماعيل على سبيل الاستعارة، و يجوز أن يراد بها نفسه صلوات الله و سلامه عليه وآله على كون الاضافة بيانية

و يدل عليه ما في البحار من معاني الأخبار باسناده عن جابر قال: سألت أباجعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ:

« كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ».

قال عليه السلام : أمّا الشجرة فرسول الله صلى الله عليه وآله ،وفرعها علي عليه السلام ، وغصن الشجرة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ، و ثمرها أولادها عليهم السّلام ، و ورقها شيعتنا ثمّ قال عليه السلام : إنّ المؤمن من شيعتنا ليموت فيسقط من الشجرة ورقة وإنّ المولود من شيعتنا ليولد فتورق الشجرة ورقة .

وبمعناه أخبار كثيرة ، وقد نظم بعض الشعراء مضمونها وقال :

يا حبذا دوحة في الخلد نابتة	مامثلها نبتت في الخلد من شجر
المصطفى أصلها و الفرع فاطمة	ثمّ اللّقاح عليّ سيّد البشر
و الهاشميّان سبطاه لها ثمر	والشّيعة الورق الملتفّ بالثمر
هذا مقال رسول الله جاء به	أهل الرّواية في العالي من الخبر

وقيل : أراد بالشجرة إبراهيم الخليل وهو بعيد لمنافاته بظاهر قوله (نبتت في حرم) لظهوره في مكّة إلاّ أن يراد به حرم العزّ و المنعة (و بسقت في كرم) أى طالت وارتفعت في العزّ و الكرامة (لها فروع طوال) إن كان المراد بالشجرة إبراهيم أو إسماعيل فالمراد بالفروع الأنبياء من ذرّيتها ، وإن كان المراد بها هاشم أو النبيّ صلى الله عليه وآله فأراد بها الأئمة عليهم السّلام ووصفها بالطول إشارة إلى بلوغها في الشّرف و الكمال منتهى النّهاية (وثمرة لاتنال) كنّى بها عن علوم الأنبياء والأئمة أو مكارم أخلاقهم ومحاسن مآثرهم ، وبعدم نيلها عن شرفها وغموض أسرارها يعني أنها لشرفها وعلوّها لايمكن الوصول اليها ، أو أنها لغموضها و دقّتها لاتصل الأذهان اليها

(فهو إمام من اتّقى وبصيرة من اهتدى) يعني أنّه صلوات الله عليه وآله قدوة المتقين وتبصرة المهتدين لهم فيه اسوة حسنة وهو (سراج لمع ضوئه وشهاب سطع نوره وزند برق لمعه) شبهه عليه السلام بالسراج والشهاب والزند في كونه سبب هداية

الخلق كما أنّ هذه الثلاثة كذلك ، ورشح التشبيه الأول بلمعان الضوء ، و الثّاني بارتفاع النّور ، والثالث ببروق اللّمع ، و يحتمل أن يكون وجه الشبه في الثالث إثارةأنوار الهداية .

(سيرته القصد) والاعتدال (وسنّته الرّشد) والصواب (و كلامه الفصل) بين الحقّ والباطل (و حكمه العدل) خال عن الحرف والميل (أرسله على حين فترة من الرّسل) أى على حين سكون وانقطاع من الرّسل ، وقد تقدّم توضيح ذلك في شرح الخطبة الثامنة والثمانين فتذكر (وهفوة من العمل) أى زلّة منه (وغباوة من الامم) أى غفلة منها ، و ذلك لأنّ خلوّ الزمان من الرسول موجب لكثرة الزلّات وتزايد الغفلات وفرط الجهالات ، فتخصيص إرساله بذلك الزّمان وتلك الحال إشارة إلى كمال تلك النعمة وعظمة هذه الموهبة حيث هداهم بوجوده ﷺ من الضلالة وأنقذهم بمكانه ﷺ من الجهالة ، هذا .

ولمّا فرغ من شرح حال الرّسالة عقّبه بالذكرى والموعظة فقال (اعملوا رحمكم الله على أعلام بيّنة) أى اعملوا الصّالحات على ما دلّت عليها الأعلام البيّنات والمنار الواضحات الظّاهرات ، و كنّى بهاعن أئمه الدّين ومصابيح اليقين فانهم علامات الهدى في غياهب الدّجى (فالطّريق) أى طريق الشريعة (نهج) واضح (يدعو) ويؤدّى (إلى دار السّلام وأنتم في دار مستعتب) أى يمكنكم فيها استعتاب الخالق سبحانه واسترضائه بصالح الأعمال واصلاح الحال ، لأنكم (على مهل وفراغ) أى على امهال وانظار وفراغ من عوائق الموت .

(و) الحال أنّ (الصّحف) أى صحايف أعمالكم (منشورة) لم تطو بعد (و الأقلام) اى أقلام كرام الكاتبين (جارية) لم تجف (والأبدان صحيحة) وسالمة من الأمراض المانعة من القيام لوظايف العبودية (والألسن مطلقه) من الخرس و الاعتقال (و التوبة مسموعة و الأعمال مقبولة) لانّكم في دار التكليف يمكنكم فيها تدارك مافات والورود على ماهو آت ، وأما بعد طيّ الصحف وجفّ الاقلام واعتقال اللسان وخروج الأرواح من الأبدان ، فلا يمكنكم الاستزادة من صالح

العمل ولا الاستعتاب من سيّيء الزّلل كما قال تعالى :

« فَيَوْمَئِذٍ لاَ يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ».

الترجمة

ازجملۀ خطبهای شریفه آنجناب ولایتمآب است که میفرماید : پس بلنداست معبود بحق آن معبودی که نمیرسد بأوهمّتهای بعیده ، ودرك نمینماید اورا إدراك ذكاوتها ، أوّلي كه هیچ غایتي نیست او را پس نهایت برسد ، و آخری ندارد اورا تا اینكه منقضی شود ، بعضي ازاین خطبه درصفت انبیا است میفرماید :

پس أمانت نهاد خداوند متعال ایشانرا در أفضل محلّ أمانتها كه عبارتست ازصلبهای پدران ، وبرقرارفرمود ایشانرا دربهترین مقرها كه عبارتست ازرحمهای مادران ، نقل‌نمود آنهارا صلبهای كریمۀ پدرهابرحمهای پاكیزۀ مادرها ، هرگاه گذشت‌از ایشان سلفی ایستاد بترویج‌دین خدا ازایشان خلفی تا اینكه منجرّ شد كرامت حق سبحانه و تعالی كه عبارتست از منصب نبوّت بمحمّد بن عبدالله صلوات الله وسلامه علیه وآله ، پس بیرون آورد آن بزرگوار را از بهترین معدنها ازحیثیت روئیدن وعزیزترین‌أصلها ازحیثیت‌نشاندن، از درختی كه شكافته وبیرون آورده ازآن پیغمبران خودرا ، وبرگزیده لزآن امینان خودرا .

عترت آنحضرت بهترین عترتها است ، و قبیله آنحضرت بهترین قبیله ها است ، ودرخت آنحضرت بهترین درختها است در حالتیكه روئیده است آن درخت در حرم محترم ، و بلند شده درمجد و كرم ، مر آن درخت راست شاخهای بلند ، ومیوهائی كه دست نمیرسد بآن .

پس آنحضرت‌پیشوای كسیستكه‌متّصف‌است بصفت‌تقوی ، و بینائی كسی‌است كه‌متّصف است بصفت اهتدا ، چراغیست كه‌درخشانست‌روشنائی‌او، وستاره‌ایست كه

ظاهر است نور او ، و آتش زنه‌ایست که برق میدهد لمعان او ، روش آنحضرت میانه روی است ، وطریقهٔ او رشادت است ، وکلام او جدا کننده است میان حق وباطل ، وحکم او عدل است .

فرستاد حق تعالی اورا درحین فتور و انقطاع از پیغمبران ، وزمان لغزش عاملان از عمل ، و وقوع غفلت از امتها ، عمل نمائید خدا رحمت کند برشما برطبق آنچه که دلالت نموده بر آن علامات ظاهره ، پس طریق حق واضح وروشن است که دعوت مینماید ومیخواند بدار سلامت که عبارتست ازجنت ، وحال آنکه شما درسرائی هستید که ممکن است شمارا ترضیهٔ پروردگار ، وبرمهلت وفراغت میباشد در حالتیکه نامهای أعمال نشر کرده شده وپیچیده نیست ، وقلمهای کرام الکاتبین روان‌است، وبدنهاصحیح است و زبانهاروان‌استوگویان ، وتوبه‌شنوده شده است، وعملهامقبول است ، پس فرصت را غنیمت شمارید ووقت را از دست مگذارید

ومن خطبة له عليه السلام وهى الرابعة والتسعون من المختار في باب الخطب

بَعَثَهُ وَ النّاسُ ضُلاّلٌ في حَيرَةٍ ، وَخابِطُونَ في فِتْنَةٍ ، قَدِ اسْتَهْوَتهُمُ الْأَهْواءُ ، وَ اسْتَزَلَّتهُمُ الْكِبْرِياءُ ، وَ اسْتَخَفَّتْهُمُ الْجاهِلِيَّةُ الْجَهْلاءُ، حَيارىٰ في زِلْزالٍ مِنَ الْأَمْرِ ، وَ بَلاءٍ مِنَ الْجَهْلِ ، فَبالَغَ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ فِي النَّصِيحَةِ ، وَ مَضىٰ عَلَى الطَّرِيقَةِ ، وَ دَعىٰ إِلَى الْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .

اللغة

(خابطون) بالخاء المعجمة والباء الموحّدة بعدها الطاء من الخبط وهو السير على غير هدى ، وفي بعض النسخ حاطبون بالحاء المهملة بعدها الطّاء جمع حاطب

وهوالذي يجمع الحطب و (حيارى) بفتح الحاء وضمّها جمع حاير من حار يحار حيرا وحيرة وحيرانا نظر إلى الشيء فغشي عليه ولم يهتد لسبيله فهو حيران وحاير وهم حيارى .

الاعراب

الواو في قوله عليه السلام : والناس آه حالية ، وفي حيرة خبر بعد خبر أو متعلّق بضلال ، ووصف الجاهلية بالجهلاء للتوكيد من قبيل ليل أليل ووتدواتد وداهية دهيا وقوله : حيارى حال من مفعول استخفتهم ، وقوله : في زلزال من الأمر حال مؤكدة من فاعل حيارى على حدّ قوله : فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً .

المعنى

اعلم أنّ المقصود بهذا الفصل تقرير فضيلة النبيّ صلى الله عليه وآله و التنبيه على فوائد بعثته ، وقد مضى بعض القول في ذلك المعنى في شرح الفصل السادس عشر من فصول الخطبة الاُولى و في شرح الفصل الأوّل من فصول الخطبة السادسة و العشرين ، ونقول هنا : قوله عليه السلام.

(بعثه والنّاس ضلال في حيرة) أراد به أنه تعالى بعثه صلى الله عليه وآله وسلم حال كون الناس ضالّين عن طريق الحقّ في حيرة من أمر الدّين (و خابطون في فتنة) أى كانت حركاتهم على غير نظام وكانوا في فتنة وضلال ، وأما على رواية حاطبون فهو استعارة والمراد أنهم جامعون في ضلالهم و فتنتهم بين الغثّ والسمين مأخوذاً من قولهم في المثل : فلان حاطب ليل أى يجمع بين الحقّ والباطل والصّواب والخطاء ، و أصله أنّ الحاطب كذلك يجمع في حبله مالا يبصر .

(قد استهوتهم الأهواء) أى جذبتهم الأهواء الباطلة و الآراء العاطلة إلى مهاوى الهلاك وإلى أنفسها (واستزلّتهم الكبرياء) أى قادهم التكبّر والتجبّر إلى الخطاء والخطل والهفوة والزلل (واستخفّتهم الجاهلية الجهلاء) أى جعلتهم حالة الجاهلية أخفّاء العقول سفهاء الحلوم حال كونهم (حيارى) أى حائرين تائهين مغمورين (في زلزال) و اضطراب (من الأمر) لا يهتدون إلى وجوه مصالحهم

(وبلاء من الجهل) أي ابتلاء بالقتل والغارات ناشئاً من جهالتهم لعواقب الأُمورات (فبالغ ﷺ في النصيحة) للأمة (و مضى على الطريقة) المستقيمة (و دعا إلى الحكمة والموعظة الحسنة) أي دعا إلى سبيل الله بهما امتثالاً لأمر الله سبحانه وهو قوله :

« ادْعُ إِلىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ »

قال الطبرسيّ أي ادع إلى دينه لأنّه السبيل إلى مرضاته ، بالحكمة أي بالقرآن وسمّى القرآن حكمة لأنّه يتضمّن الأمر بالحسن والنهى عن القبيح وأصل الحكمة المنع ومنه حكمة اللجام وإنّما قيل لها حكمة لأنها بمنزلة المانع من الفساد وما لاينبغي أن يختار وقيل : إنّ الحكمة هي المعرفة بمراتب الأفعال في الحسن والقبح و الصّلاح و الفساد ، لأنّ بمعرفة ذلك يقع المنع من الفساد و الاستعمال للصّدق والصّواب في الأفعال والأقوال .

والموعظة الحسنة ، معناه الوعظ الحسن وهو الصّرف عن القبيح على وجه الترغيب في تركه والتزهيد في فعله ، و في ذلك تليين القلوب بمايوجب الخشوع وقيل : إنّ الحكمة هي النبوّة والموعظة الحسنة مواعظ القرآن .

وجادلهم بالتي هي أحسن ، أى ناظرهم بالقرآن وبأحسن ماعندك من الحجج و تقديره بالكلمة التى هى أحسن ، و المعنى اقتل المشركين واصرفهم عماهم عليه من الشرك بالرفق والسكينة و لين الجانب في النصيحة ليكونوا أقرب إلى الاجابة ، فانّ الجدل هو قتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجاج ، وقيل : هو أن يجادلهم على قدر ما يحتملونه كماجاء في الحديث : أُمرنا معاشر الأنبياء أن نكلّم النّاس على قدر عقولهم .

الترجمة

ازجمله خطب شريفه درذكر وصف خاتم نبوّت وبيان منافع بعثت مى فرمايد كه

خداوند عزوجل مبعوث وبرانگیخته فرمود حضرت خاتم الأنبیا محمّد مصطفی ﷺ را وحال آنکه مردمان گمراه بودند درتحیّر وسر گرداني ، وخبط کننده درفتنه وبلا ، بتحقیق که از راه برده بود ایشانرا خواهشات نفسانیّه ، و لغزانیده بود ایشانرا غرور ونخوت شیطانیه ، وسبك گردانیده بود ایشانرا ناداني وجاهلیت درحالتی که حیران بودند ، دراضطراب بودند ازکارخود ، ودرابتلا بودند ازجهالت پس مبالغه فرمود حضرت خاتم الأنبياء علیه‌سلام الرّب الأعلی درنصیحت ، وگذشت برطریقه حضرت عزّت که عبارتست از جادّهٔ شریعت ، و دعوت فرمود مردمانرا بحکمت که برهان وافی است ، و بموعظه که بیان شافی است ولنعم ماقیل :

از ظلمات ضلال راه که بردی برون گر نشدی نوراو شمع ره رهروان

ومن اخرى وهى الخامسة والتسعون من المختار فى باب الخطب

أَلْحَمْدُ للهِ الْأَوَّلِ فَلاَ شَيْءَ قَبْلَهُ ، وَالْآخِرِ فَلاَ شَيْءَ بَعْدَهُ ، وَالظَّاهِرِ فَلاَ شَيْءَ فَوْقَهُ ، وَالْباطِنِ فَلاَ شَيْءَ دُونَهُ .

منها في ذكر الرّسول ﷺ : مُسْتَقَرُّهُ خَيْرُ مُسْتَقَرٍّ ، وَمَنْبِتُهُ أَشْرَفُ مَنْبِتٍ ، في مَعادِنِ الْكَرامَةِ ، وَمَماهِدِ السَّلاَمَةِ ، قَدْ صُرِفَتْ نَحْوَهُ أَفْئِدَةُ الْأَبْرارِ ، وَثُنِيَتْ إِلَيْهِ أَزِمَّةُ الْأَبْصارِ ، دَفَنَ بِهِ الضَّغائِنَ ، وَأَطْفَأَ بِهِ النَّوائِرَ ، أَلَّفَ بِهِ إِخْواناً ، وَفَرَّقَ بِهِ أَقْراناً ، أَعَزَّ بِهِ الذِّلَّةَ ، وَأَذَلَّ بِهِ الْعِزَّةَ ، كَلاَمُهُ بَيانٌ ، وَصَمْتُهُ لِسانٌ .

اللغة

(المهد) والمهاد الفراش وموضع تهيّأ للصبيّ، وجمع الأوّل مهود كفلس وفلوس وجمع الثاني مهد ككتاب و كتب، وأمّا المماهد فلم يضبط فيما رأيته من كتب اللغة، قال الشّارح البحرانيّ : جمع ممهد والميم زايدة، وقال الشّارح المعتزليّ : المهاد الفراش ولما قال عليه السلام . في معادن وهي جمع معدن قال بحكم القرينة و الازدواج ومماهد وإن لم يكن الواحد منها ممهداً كما قالوا : الغدايا والعشايا و مأجورات و مأزورات و نحو ذلك (و ثنيت) الشيء ثنياً من باب رمى إذا عطفته و رددته و (الضغاين) جمع الضّغينة و هي الحقد و (النواير) جمع النائرة و هي العداوة و المخاصمة .

الاعراب

قوله : في معادن الكرامة خبر بعد خبر ، و يجوز كونه صفة أو حالا من الخبر لكونه نكرة غير محضة ، وجملة قد صرفت في محلّ النّصب على الحال ، وقد للتحقيق .

المعنى

صدر هذه الخطبة الشريفة مسوق للثناء على الواجب تعالى باعتبار نعوت العظمة والجلال وصفات العزّة والكمال ، و ذيلها بمدح الرسول والاشارة إلى فوايد البعثة فقال (الحمدلله الأوّل فلا شيء قبله و الآخر فلا شيء بعده) و قد مرّ معنى الأوّل و الآخر في شرح الخطبة الرابعة و الستّين و في شرح الفصل الأوّل من فصول الخطبة التسعين بمالامزيد عليه (والظاهر فلا شيء فوقه والباطن فلا شيء دونه) وقد مرّ معنى الظاهر والباطن في شرح الخطبة الرابعة والستّين أيضاً

وأقول هنا : يحتمل أن يكون المراد بالظاهر والباطن كونه تعالى ظاهراً بآياته و آثار قدرته فلا شيء فوقه من حيث الظهور والجلاء ، بل هو أجلى الأشياء وأظهر ها ، وباطنا من حيث ذاته وحقيقته فلا شيء دونه من حيث البطون والخفاء ، وقد أوضحناه في شرح قوله عليه السلام : كلّ ظاهر غيره غير باطن آه من الخطبة التي

أشرنا إليها ، وأن يكون المراد بالظاهر الغالب القاهر على كلّ شيء فكلّ شيء مقهور دون قدرته ، ذليل تحت عزّته ، و بالباطن العالم بما بطن من خفيّات الأمور فلا شيء دونه أي أقرب منه سبحانه إليه ، هذا .

قال السيّد (ره) (منها) أي بعض فصول تلك الخطبة (في ذكر الرّسول صلّى الله عليه وآله) وبيان شرفه ومناقبه الجميلة وهو قوله (مستقرّه خير مستقرّ ومنبته أشرف منبت) يمكن أن يكون المراد بالمستقرّ والمنبت الأصلاب الشامخة والأرحام المطهّرة ، وأن يكون المراد بالأول مكّة وبالثاني الطيبة (في معادن الكرامة) أي الرسالة أو ماهو أعمّ من هذه (ومماهد السّلامة) أي المهد المتّصفة بالسّلامة من الأدناس والأرجاس ، والبرائة من العيوب الظاهرة والباطنة (قد صرفت نحوه أفئدة الأبرار) أي صرف الله سبحانه أفئدتهم إليه (وثنيت إليه أزمّة الأبصار) أي عطفت إليه أزمّة مطايا البصاير والقلوب ، وهذا كلّه كناية من التفات الخلق إليه وتلقّيهم له بقلوبهم ومحبّة الأبرار له عليه السّلام إجابة لدعوة إبراهيم الخليل عليه السّلام حيث قال :

« رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلٰوةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ » .

أي أسكنت بعض ولدي وهو إسماعيل عليه السّلام ومن ولد منه ، وعن العيّاشي عن الباقر عليه السّلام نحن هم ونحن بقية تلك الذرّية ، وفي المجمع عنه عليه السّلام أنّه قال نحن بقية تلك العترة . وقال كانت دعوة إبراهيم لنا خاصّة .

و قوله : فاجعل افئدة من الناس أراد بعضهم وهم المؤمنون الأبرار كما اشير في كلام الامام عليه السّلام وصرّح به الباقر عليه السّلام في رواية العياشي قال : أما أنه لم يعن الناس كلّهم أنتم أولئك ونظراؤكم إنما مثلكم في النّاس مثل الشعرة البيضاء في الثور الأسود أومثل الشّعرة السّوداء في الثور الأبيض ، ينبغي للناس أن يحجّوا هذا البيت ويعظموه لتعظيم الله إياه ، وأن تلقونا حيث كنّا نحن الأدلاء على الله .

وفي الصّافي عن الكافي عنه عليه السلام في قوله تعالى : تهوی إليهم ، ولم يعن البيت فيقول إليه، فنحن والله دعوة إبراهيم.

و عن الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام و الأفئدة من الناس تهوى إلينا ، وذلك دعوة ابراهيم حيث قال افئدة من النّاس تهوى إليهم .

وروى عليّ بن إبراهيم عن الصّادق عليه السلام أنه تعالى عنى بقوله : وارزقهم من الثمرات ، ثمرات القلوب أى أحبّهم إلى النّاس ليأتوا إليهم (دفن به الضغاين وأطفأ به النّوائر) أى أخفى بوجوده الشّريف الاحقاد العربيّة بعد أن كانت ظاهرة علانية ، و أطفابه نوائر العداوات و خصومات الجاهلية بعد أن كانت مشتعلة ملتهبة و (الف به) على الاسلام (اخواناً) كما كان بين أمير المؤمنين عليه السلام و سلمان (وفرق به) على الشرك (أقرانا) كما كان بين حمزة وأبي لهب (أعزّ به الذلة وأذلّ به العزّة) أى أعزّ به ذلّة الاسلام و أذلّ به عزّة الكفر ، فقد رفع الاسلام سلمان فارس و قد وضع الكفر أبالهب (كلامه بيان) للأحكام (وصمته لسان) لحدود الحلال و الحرام ، أراد أنّ سكوته صلى الله عليه وآله وسلم كان كالتكلّم و البيان في الاشتمال على الفائدة ، فانّ سكوت المعصوم في مقام التقرير حجّة كقوله وأيضاً ربماكان يسكت عن بعض المطالب إفهاماً للناس عدم جواز خوضهم فيها .

الترجمة

ازجمله خطبهای دیگر آنحضرتست حمد وثنا خداوند را سزاست که أوّلست پس نیست هیچ چیز پیش ازاو ، وآخر است پس نیست هیچ چیز بعد ازاو ، وظاهر یست پس نیست هیچ چیز بالاتر ازاو در ظهور وجلا ، وباطنی است پس نیست هیچ چیز نزدیکتر ازاو بأشیاء .

و بعض دیگر ازاین خطبه در ذکر رسالتمآب صلوات الله وسلامه علیه وآله است :محل استقرار او بهترین محل استقرارهاست ، و مکان روئیدن او شریفترین روئیدنها اسب ، ثابت است در معدنهای بزرگواری و کرامت ، و مواضع أمنیّت وسلامت ، درحالتی که گردانیده شده بطرف اوقلبهای نیکوکاران ، ومیل داده شده

بسوی او مهارهای بصیرتهای مؤمنان ، دفن کرد وبرطرف فرمود بوجود شریف او کینه‌های دیرینه را ، وخاموش‌نمود وزایل فرمود بسبب ذات او آتشهای عداوت درسینه‌های پر کینه ، والفت داد بواسطهٔ اومیان برادران ازأهل ایمان ، وپراکنده ساخت بجهة او اقران را از مشرکان ، عزیز گردانید بأو ذلّت اسلام را ، وذلیل گردانید بأوعزّت کفررا کلام او بیان شرایع وأحکام است ، وسکوت اوزبانیست حدود حلال و حرام را ، از جهة اینکه تقریر معصوم مثل فعل او وقول او حجّت و سند شرعیست .

ومن كلام له عليه السلام وهو السادس والتسعون من المختار في باب الخطب

وَلَئِنْ أَمْهَلَ اللهُ الظَّالِمَ فَلَنْ يَفُوتَ أَخْذُهُ، وَهُوَ لَهُ بِالْمِرْصَادِ عَلَىٰ مَجَازِ طَرِيقِهِ ، وَبِمَوْضِعِ الشَّجَىٰ مِنْ مَسَاغِ رِيقِهِ ، أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَظْهَرَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَيْكُمْ ، لَيْسَ لِأَنَّهُمْ أَوْلَىٰ بِالْحَقِّ مِنْكُمْ ، وَلَكِنْ لِإِسْرَاعِهِمْ إِلَىٰ بَاطِلِ صَاحِبِهِمْ، وَإِبْطَائِكُمْ عَنْ حَقِّي ، وَلَقَدْ أَصْبَحَتِ الْأُمَمُ يَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا، وَأَصْبَحْتُ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي، إِسْتَنْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَادِ فَلَمْ تَنْفِرُوا ، وَأَسْمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا ، وَدَعَوْتُكُمْ سِرّاً وَجَهْراً فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا، وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا ، أَشُهُودٌ كَغُيَّابٍ ، وَعَبِيدٌ كَأَرْبَابٍ ، أَتْلُو عَلَيْكُمُ الْحِكَمَ فَتَنْفِرُونَ مِنْهَا ، وَأَعِظُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْبَالِغَةِ فَتَتَفَرَّقُونَ عَنْهَا ، وَأُحُثُّكُمْ عَلَىٰ جِهَادِ أَهْلِ الْبَغْيِ فَمَا آتِي عَلَىٰ آخِرِ قَوْلِي

حَتّىٰ أراكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أيادي سَبا، تَرْجِعُونَ إلىٰ مَجالِسِكُمْ، وَتَتَخادَعُونَ عَنْ مَواعِظِكُمْ، أُقَوِّمُكُمْ غُدْوَةً، وَتَرْجِعُونَ إلَيَّ عَشِيَّةً كَظَهْرِ الحَنِيَّةِ، عَجَزَ المُقَوِّمُ، وَأعْضَلَ المُقَوَّمُ.

أيُّها الشّاهِدَةُ أبْدانُهُمْ، الغائِبَةُ عَنْهُمْ عُقُولُهُمْ، المُخْتَلِفَةُ أهْواؤُهُمْ المُبْتَلىٰ بِهِمْ أُمَراؤُهُمْ، صاحِبُكُمْ يُطِيعُ اللهَ وَأنْتُمْ تَعْصُونَهُ، وَصاحِبُ أهْلِ الشّامِ يَعْصِي اللهَ وَهُمْ يُطِيعُونَهُ، لَوَدِدْتُ وَاللهِ إنَّ مُعٰوِيَةَ صارَفَني بِكُمْ صَرْفَ الدِّينارِ بِالدِّرْهَمِ، فَأخَذَ مِنّي عَشَرَةَ مِنْكُمْ وَأعْطاني رَجُلاً مِنْهُمْ، يا أهْلَ الكُوفَةِ مُنِيتُ مِنْكُمْ بِثَلاثٍ وَإثْنَتَيْنِ، صُمٌّ ذَوُو أسْماعٍ، وَبُكْمٌ ذَوُو كَلامٍ، وَعُمْيٌ ذَوُو أبْصارٍ، لا أحْرارُ صِدْقٍ عِنْدَ اللِّقاءِ، وَلا إخْوانُ ثِقَةٍ عِنْدَ البَلاءِ، تَرِبَتْ أيْدِيكُمْ، يا أشْباهَ الإبِلِ غابَ عَنْها رُعاتُها، كُلَّما جُمِعَتْ مِنْ جانِبٍ تَفَرَّقَتْ مِنْ آخَرَ، وَاللهِ لَكَأنّي بِكُمْ فِيما أخالُ أنْ لَوْ حَمِسَ الوَغىٰ، وَحَمِيَ الضِّرابُ، قَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أبي طالِبٍ انْفِراجَ المَرْأةِ عَنْ قُبُلِها، وَإنّي لَعَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبّي، وَمِنْهاجٍ مِنْ نَبِيّي، وَإنّي لَعَلَى الطَّرِيقِ الواضِحِ، ألْقُطُهُ لَقْطاً.

أُنْظُرُوا أهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ، فَالْزَمُوا سَمْتَهُمْ، وَاتَّبِعُوا أثَرَهُمْ، فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدًى، وَلَنْ يُعِيدُوكُمْ في رَدًى، فَإنْ لَبَدُوا فَالْبُدُوا،

وَإِنْ نَهَضُوا فَانْهَضُوا، وَلاَ تَسبِقُوهُمْ فَتَضِلُّوا، وَلاَ تَتَأَخَّرُوا عَنْهُمْ فَتَهْلِكُوا، لَقَدْ رَأَيْتُ أَصحَابَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم فَمَا أَرَى أَحَداً مِنْكُمْ يُشْبِهُهُمْ، لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعْثاً غُبْراً، قَدْ بَاتُوا سُجَّداً وَقِيَاماً، يُرَاوِحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِمْ وَخُدُودِهِمْ، وَيَقِفُونَ عَلَى مِثْلِ الْجَمْرِ مِنْ ذِكْرِ مَعَادِهِمْ، كَأَنَّ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ رُكَبُ الْمِعْزَى مِنْ طُولِ سُجُودِهِمْ، إِذَا ذُكِرَ اللهُ هَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى تَبُلَّ جُيُوبَهُمْ، وَمَادُوا كَمَا يَمِيدُ الشَّجَرُ يَوْمَ الرِّيحِ الْعَاصِفِ، خَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ، وَرَجَاءً لِلثَّوَابِ.

اللغة

(رصد) فلانا من باب نصر رقبه كترصده والمرصاد الطريق و المكان يرصد فيه العدوّ و (الشجى) ماينشب في الحلق من عظم أو غيره وموضع الشجى هوالحلق نفسه و (المساغ) اسم مكان من ساغ الشّراب سوغا سهل مدخله قال الشاعر :

و ساغ لي الشّراب و كنت قبلا | أكاد أغصّ بالماء الفرات

ويقال أيضاً سغت الشّراب اسوغه أى أوصلته إلى المعدة باللزوم و التّعدية و (ظهر) عليه غلب و (الرعاة) كالرعاء بالهمز جمع الراعي و هو كلّ من ولي أمر قوم و القوم رعيّته و (الاستنفار) الاستنصار أو طلب النّفور و الاسراع إلى الجهاد و (تنفرون) منها من نفرت الدّابة نفوراً من بابى نصر و ضرب شرد و (أيادي سبا) مثل يضرب للمتفرّقين وأصله قوله تعالى عن أهل سبا : و مزّقناهم كلّ ممزّق ، وسبأ بالهمزة وزان جبل يصرف ولا يصرف وهو بلدة بلقيس ولقب ابن يشحب بن يعرب بن قحطان اسمه عبد شمس و (الأيادى) جمع الأيدى و هو جمع اليد ، قال الرّضىّ : وهو كناية عن الابناء و الاسرة لأنّهم في التقوى و البطش بهم بمنزلة الأيدي، و يقال ذهبوا أيدى سبا و أيادى سبا الياء ساكنة و كذلك الألف

هكذا نقل المثل أى ذهبوا متفرّقين ، و هما اسمان جعلا اسما واحداً مثل معدى كرب ضرب المثل بهم لأنّهم لما غرق مكانهم وذهبت جنّاتهم تبدّدوا في البلاد .

روى الطبرسيّ في تفسير سورة سبا في قصة تفرّق أولاد سبا عن الكلبي عن أبي صالح قال : ألقت طريفة الكاهنة إلى عمرو بن عامر الذي يقال له مزيقيا بن ماء السّما و كانت قد رأت في كهانتها أنّ سدّ مارب سيخرب و أنّه سيأتي سيل العرم فيخرب الجنّتين ، فباع عمرو بن عامر أمواله وسار هو وقومه حتّى انتهوا إلى مكة فأقاموا بها وما حولها فأصابتهم الحمى ، وكانوا ببلد لايدرون فيه ما الحمى ، فدعوا طريفة فشكوا إليها الذي أصابهم فقالت لهم : قد أصابني الذي تشكون وهو مفرّق بيننا ، قالوا : فماذا تأمرين ؟ قالت : من كان منكم ذاهمّ بعيد وجمل شديد و مزاد جديد فليلحق بقصر عمان المشيد و كانت ازد عمان (١) ، ثمّ قالت : من كان منكم ذا جلد وقسر وصبر على ازمات الدّهر فعليه بالاراك من بطن مرّ (نمر خل) وكانت خزاعة ، ثمّ قالت : من كان منكم يريد الرّاسيات في الوحل المطعمات في المحل فليلحق بيثرب ذات النخل وكانت الأوس و الخزرج ، ثمّ قالت: من كان منكم يريد الخمر الخمير والملك و التأمير و ملابس التّاج والحرير فليلحق ببصرى و عوير ، وهما من أرض الشّام وكان الذين سكنوها آل خفية بن غسان ، ثمّ قالت : من كان منكم يريد الثياب الرقاق والخيل العتاق و كنوز الأرزاق والدّم المهراق فليلحق بأرض العراق وكان الذين سكنوها آل جذيمة الابرش ومن كان بالحيرة و آل محرق

(وتتخادعون) قال في القاموس : تخادع فلان أرى أنّه مخدوع وليس به ، «انتهى» ولا يجوز ارادة هذا المعنى في المقام بل الأظهر أنّه من قولهم سوق خادعة مختلفة متلونة وخلق خادع متلوّن أى تختلفون وتتلوّنون في قبول الوعظ ولكنه يبعده لفظة عن ، اللّهم إلاّ أن يضمن معنى الاعراض فافهم ، و يأت له معنى آخر إنشاء الله .

و (الحنية) وزان غنية القوس والجمع حنى وحنايا و (المقوّم) الأوّل

١ـ وكانت ازد عمان أى كانت القبيلة الملحقة لقصر عمان .

على زنة الفاعل والثاني على زنة المفعول و (تربت) أيديكم كلمة يدعابها على الانسان قال في القاموس: ترب كثرترابه و صار في يده التّراب و لزق بالتراب وخسر وافتقرتربا و متربا ويداه لاأصاب خيرا ، وعن النّهاية هذه الكلمة جارية على ألسن العرب لا يريدون بها الدّعاء على المخاطب و لا وقوع الأمر بها كما يقولون : قاتل الله و قيل : معناه لله درّك ، قال : و كثيراً يرد للعرب ألفاظ ظاهرها الذمّ وإنما يريدون بها المدح كقولهم لا أب لك ولا أمّ لك ولا أرض لك ونحوذلك

و (خال) الشيء يخاله أى ظنّه وتقول خلت اخال بكسر الهمزة و بالفتح لغة بني أسد كما في أكثر النسخ و (حمس) كفرح اشتدّ و (حمى) كرضى اشتدّ حرّه و (القطه لقطا) في أكثر النسخ بالقاف المثناة و الطاء المهملة من الالتقاط وفي بعضها الفظه لفظا بالفاء والظاء المعجمة أى ابينه بيانا و (لبد) الشيء بالأرض من باب نصرالتصق بها و (الجمر) جمع جمرة وهي النّار الموقدة و (ركب المعزى) جمع الرّكبة بالضم فيهما و (هملت) عينه هملا من باب نصر وضرب فاضت

الاعراب

قوله عليه السلام : فلن يفوت أخده برفع أخذه على الفاعلية و المفعول محذوف أى لن يفوته أخذه ، و قوله : على مجاز طريقه بدل من قوله بالمرصاد ، و قوله : ليظهرنّ منصوب بأن مضمرة فيمحلّ رفع على الابتداء ، وجملة ليس لأنّهم مرفوعة المحلّ على الخبر وجملة المبتداء والخبر جواب القسم ، و يحتمل أن يكون جملة ليظهرنّ فقط جواب القسم لامحلّ لها من الاعراب وجملة ليس لأنهم استينافاً بيانيّاً

و قوله : أشهود كغيّاب استفهام تقريرى أو توبيخى و في بعض النّسخ بلا همز و عليه فهو خبر محذوف المبتداء، و أيادى سبا منتصب على اقامته مقام المصدر أى متفرّقين تفرّق أيادى سبا ، و يجوز أن يكون حالا مؤكدة بتقدير المضاف أى مثل أيادى سبا ، وقوله: أيّها الشاهدة برفع الشاهدة صفة محذوف الموصوف وجملة كلّما جمعت بدل بعض من جملة غاب عنها آه على حدّ قوله سبحانه .

«أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ» .

المعنى

اعلم أنّ المقصود بهذه الخطبة الشريفة ذمّ أصحابه عليه السلام وتوبيخهم على تثاقلهم من جهاد معاوية وأصحابه لعنهم الله، وصدّر الكلام بالتهديد والتعريض لأهل الشام أو لأصحابه كما سيأتي من نسبة الظلم إليهم فقال عليه السلام (و لئن أمهل الله الظالم) ومتّعه في دار الدّنيا (فلن يفوته أخذه) وعقوبته كما قال تعالى:

«وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ».

قال أبو القاسم البلخي معناه: و لا يحسبنّ الذين كفروا أنّ إملاءنا لهم رضا بأفعالهم و قبول لها بل هو شرّ لهم لأنّا نملي لهم وهم يزدادون إثما يستحقّون به العذاب الأليم، فالمقصود أنه سبحانه وإن أمهل الظالم وهو مغمور في ظلمه مستبشر بجوره ولكنه مدركه لا محالة وآخذه بالنّكال العظيم والعذاب الأليم.

(و هو له بالمرصاد) وعليه طريق العباد فلا يفوته أحد وهو من ألفاظ الكتاب العزيز قال تعالى: إنّ ربك لبالمرصاد، قال الطبرسيّ: والمعنى أنّه لا يفوته شيء من أعمالهم لأنّه يسمع ويرى جميع أقوالهم وأفعالهم كما لا يفوت من هو بالمرصاد وروى عن عليّ عليه السلام أنّه قال: معناه إنّ ربّك قادر على أن يجزى أهل المعاصى جزائهم و عن الصّادق عليه السلام أنه قال: المرصاد قنطرة على الصراط لا يجوزها عبد بمظلمة عبد، وقال عطا: يعني يجازى كلّ أحد وينتصف من الظالم للمظلوم انتهى

أقول: ما رواه عن الصادق عليه السلام هو المعنى الحقيقى للمرصاد وما رواه عن عليّ عليه السلام بيان للمراد عن كونه سبحانه على المرصاد ومحصّله أنه تعالى أجلّ و أعلى من أن يكون في المكان لأنّ ذلك من صفات الامكان فلابد من حمل كونه بالمرصاد على التوسع و المجاز وإرادة عدم إمكان الهرب والفوت منه كما لا يمكن الفوت ممن هو بالرّصد والترقب وهذا هو المراد أيضاً بقوله (على مجاز طريقه) و نظيره قوله (و بموضع الشجى من مساغ ريقه) أراد أنّه سبحانه يكاد أن يغصّه بشجيء

عقوباته ويشجوه بغصص نقماته بما هوعليه من رحب بلعومه وسوغه اللذايذ .

ثمّ أردف عليه السلام ذلك بالقسم البارّ بظهور أهل الشّام عليهم وقال (أما والذي نفسي بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم) ونبّه على دفع ما لعلّهم يتوهّمون من كون علّة ظهورهم وغلبتهم كونهم على الحقّ وكون أصحابه عليه السلام على الباطل بقوله : (ليس لأنهم أولى بالحقّ منكم) وأنتم أولى بالباطل منهم .

وأشار إلى علّة الظهور بقوله (ولكن لاسراعهم إلى باطل صاحبهم و إبطائكم عن حقّي) أراد بذلك أنّ ظهورهم عليكم ليس من جهة كونهم أهل حقّ و كونكم أهل باطل حتّى يوجب ذلك تخاذلكم عن جهادهم و إنما ظهورهم من أجل اتفاق كلمتهم واجتماعهم على طاعة إمامهم الباطل واختلاف آرائكم وتشتت أهوائكم فى طاعة الامام الحقّ ، ومن المعلوم أنّ مدار الفتح والظفر والنصرة والغلبة في الحرب على الاتفاق والاجتماع بطاعة الجيش للرّئيس الموجب لانتظام أمرهم لا على حقيّة العقيدة و إلاّ لما ظهر أهل الشرك على أهل التوحيد أصلا ، والوجدان كثيراً ما يشهد بخلافه .

وأوضح عليه السلام هذا المعنى بقوله (ولقد أصبحت الأمم يخاف ظلم رعاتها وأصبحت أخاف ظلم رعيّتي) و غرضه عليه السلام بذلك الحاق التقصير و اللاّئمة في المغلوبيّة عليهم و الاشارة إلى أنّ له الحجّة على الحقّ لا لهم عليه مع التنبيه على كونهم ظالمين في حقّه عاصين له، فانّ شأن الرعيّة الخوف من الوالي وبه يستقيم له أمور الولاية وينتظم أمور الرّعية ، وأما إذا كان الأمر بالعكس فلا يكون له حينئذ في الرّعية رأى نافذ و يختلّ الأمر و يطمع فيه و في رعيّته غيره كما هو معلوم بالوجدان ومشاهد بالعيان .

و من كان خبيراً بأحواله عليه السلام في خلافته وتأمل مجاري حالاته مع رعيّته عرف صدق هذا الكلام وظهر له أنّه عليه السلام كان كالمحجور عليه لا يتمكّن من إظهار ما في نفسه ، إذ العارفون بحاله والمخلصون له كانوا قليلين ، وكان السّواد الأعظم

لا يعتقدون فيه الأمر الذي يجب اعتقاده فيه ، وكان يعامل معهم بالتقيّة ، و يداري معهم بحسن التدبير والسّلوك والاناة مع ما كان يشاهده عليه السلام منهم غير مرّة من التمرّد و العصيان كما أشار اليه بقوله (استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا و أسمعتكم فلم تسمعوا و دعوتكم سرّاً و جهراً فلم تستجيبوا) دعوتي (و نصحت لكم فلم تقبلوا) نصيحتي .

ثمّ شبّههم عليه السلام بقوله (أشهود كغيّاب) بالغائبين مع كونهم شاهدين ، لأنّ ثمرة المشاهدة هو الاستفادة والانتفاع ومع عدمها فالشاهد والغائب سواء .

و كذلك شبّههم بقوله عليه السلام (وعبيد كأرباب) بالأرباب مع كونهم عبيداً ، وهو إمّا من باب القلب ومبنيّ على المبالغة أى أنتم أرباب من صناديد العرب ورؤسائها ولكنكم كالعبيد في رزالة النفس و دنائة الهمة ، أو المراد أنّكم عبيد ورعاياي مفترض طاعتي عليكم ولكنكم تأبون عنها وتمرّدون عنها كالسادات، وهذا أنسب بالفقرة السّابقة ، أو أنّ أخلاقكم أخلاق العبيد من الخلاف والنفاق ودنائة الأنفس والتواني والتخاذل وأنتم مع ذلك تدّعون الاستقلال وتتكبّرون وتتغرّون وتستبدّون بالآراء كالأرباب والأحرار .

ثمّ أشار عليه السلام إلى وجوه تقصيرهم بقوله (أتلو عليكم الحكم) الحسنة (فتنفرون منها وأعظكم بالموعظة البالغة فتتفرّقون عنها وأحثكم على جهاد أهل البغي) أراد به أهل الشّام (فما اتى على آخر قولى حتّى اريكم متفرّقين) مثل تفرّق (أيادى سبا ترجعون إلى) بيوتكم و (مجالسكم وتتخادعون عن مواعظكم) أي تتلوّنون وتختلفون معرضين عن قبول المواعظ ، وقال الشّارح المعتزلي : أى تمسكون عن الاتعاظ من قولهم : كان فلان يعطى ثمّ خدع أى امسك واقلع ، وقال الشّارح البحراني : المخادعة هي الاستغفال عن المصلحه أى أنّهم إذا رجعوا من مجلس وعظه أخذ كلّ منهم يستغفل صاحبه عن تذكّر الموعظة ويشغله بغير ذلك من الأحاديث وإن لم يكن عن قصد خداع بل تقع منهم صورة المخادعة .

(أقوّمكم غدوة) باصلاح أخلاقكم وإرشادكم إلى السّداد والرشاد (وترجعون

إلى عشيّة كظهر الحنيّة) أى معوّجين كظهر القوس منحرفين عن مكارم الأخلاق (عجز المقوّم) أراد به نفسه الشريف (و أعضل المقوّم) أراد به قومه أى أشكل تقويمهم وأعياني دائهم علاجا .

ثمّ ناداهم عليه السلام بذكر معايبهم تنفيراً لهم عنها فقال : (أيها) الفئة (الشاهدة أبدانهم الغائبة عنهم عقولهم) لعلّ المراد بغيبة العقول ذهابها أو عدم قيامهم بما تقتضيها والثاني أظهر (المختلفة أهوائهم المبتلى بهم اُمراؤهم) اى ابتلى اُمراؤهم بسبب نفاقهم بسوء الحال و عدم انتظام الأمر (صاحبكم يطيع الله و أنتم تعصونه) و هو إشارة إلى اتصافهم برذيلة مخالفة الأمر مع كون أميرهم مطيعاً لله سبحانه (وصاحب أهل الشّام يعصي الله وهم يطيعونه) وهو اشارة إلى اتصاف أهل الشّام بفضيلة الطاعة مع كون أميرهم عاصيا له تعالى و جعل ذلك مقايسة بينهم ليظهر الفرق فيدركهم الغيرة .

ثمّ أردفه لتحقيرهم وتفضيل عدوّهم عليهم في البأس والنجدة فقال (لوددت والله إنّ معاوية) لعنه الله (صارفني بكم صرف الدّينار بالدرّهم فأخذ منّي عشرة منكم و أعطاني رجلا منهم) ولا يخفى ما في هذا الكلام من وجوه التحقير حيث جعل عليه السلام أهل الشّام بمنزلة الذهب وجعل أصحابه بمنزلة الفضّة و رجّح واحداً منهم على عشرة من أصحابه حيث و دّ مبادلتهم به و أكّد ذلك بالقسم البارّ واللاّم و إنّ .

ثمّ نبّه على ما ابتلى به منهم فقال (يا أهل الكوفة منيت منكم بثلاث واثنتين) أي ابتليت منكم بخمس خصال و إنّما لم يجمع الخمس لكون الثلاث من جنس والاثنتين من آخر ، أولكون الثلاث ايجابية والاثنتين سلبية .

أمّا الثلاث الأول فهو أنّكم (صمّ ذوو أسماع وبكم ذوو كلام وعمي ذوو أبصار) توصيفهم بها مع أضدادها و ارد في مقام التعجّب و معرض التوبيخ حيث إنّ المقصود بخلق هذه الجوارح و الآلات في الانسان انتفاعه بها وصرفه لها في

المصالح الدينيّة و الدّنيوية لينتظم بها أمر معاشه ومعاده و إذا لم تنتفع بها كان واجدها وفاقدها سواء، و أحرى أن يلحق بالبهايم والأنعام بل هو أضلّ سبيلا.

و أما الثنتان الباقيتان فنبّه عليهما بقوله (لا أحرار صدق عند اللّقاء) أى لا يرى منكم عند الحرب ولقاء الأبطال ما يصدق حرّيتكم من البأس و النّجدة و الشّجاعة، بل يشاهد منكم صفات العبد من التخاذل ودنائة الهمة وبقوله (ولا إخوان ثقة عندالبلاء) أى لستم ممّن توثق باخوّتكم عند الابتلاء بالنوازل (تربت أيديكم) دعا بعدم إصابة الخير (ياأشباه الابل غاب عنها رعاتها كلّما جمعت من جانب تفرّقت من آخر) شبّههم عليه السلام بالابل الموصوفة و عقّبه بذكر وجه الشبه وهو فقد الانتظام بفقدان الراعي الناظم و أشار به إلى عصيانهم له و كونهم مطلقى العنان بمنزلة من لا أمير لهم.

(والله لكأني) أبصر (بكم فيما أخال) و أظنّ بظهور الامارات و المخايل التي توجب الظن (أن لوحمس الوغا) وعظم الحرب (وحمى الضراب) واشتدّحرّ الطّعان (قد) تفرّقتم و (انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج المرئة عن قبلها) قال الشّارح المعتزلي: أى وقت الولادة، و قال البحراني: شبّه انفراجهم عنه بانفراج المرئة عن قبلها ليرجعوا إلى الانفة وتسليم المرئة قبلها وانفراجها عنه إما وقت الولادة أووقت الطعان «انتهى» وقيل: تسليم المرئة لقبلها وانفراجها عنه وقت الولادة أو وقت الطعان و التشبيه في العجز و الدّنائة و الغرض إرجاع القوم إلى الانفة والحميّة وتنبيههم على الخطاء في تفرّجهم وعدم انقيادهم له عليه السلام.

أقول: وجميع ما قالوه كما ترى مما ينفرّعنه الذوق السّليم ويأباه الطبع المستقيم لاسيّما التأويل بوقت الطّعان أقبح سماجة ولعلّ الأظهر أن يجعل الانفراج عن القبل كناية عن الانفراج عن الولادة أو مجازاً مرسلا بعلاقة كون القبل محلّ الولادة و يكون المراد بالتشبيه الاشارة إلى شدّة محبّتهم في الانفراج و منتهى رغبتهم في التفرّق عنه فانّ المرئة في حال المخاض على غاية الشدّة و الاضطراب لا شيء أحبّ اليها من الطلق والانفراج فاذا طلقت استراحت و رجعت إليها نفسها

وسكن وجعها ، والغرض بذلك توبيخهم ولومهم وتشبيه حالتهم عند حضور الجهاد و اشتعال نائرة الحرب بحالة المرئة التي أخذها المخاض و وجع الولادة ، و حسن هذا المعنى مما لايخفى على أُولى الأذهان السليمة والأفهام المستقيمة، هذا .

و يحتمل بعيداً أن يكون أصل الرواية عن قبلها بفتحتين وإن كان النسخ لايساعده ، في القاموس والقبل محركة ضرب من الخرز يؤخّذ بها (١) ، أو شيء من عاج مستدير يتلألؤ يعلّق في صدر المرئة .

ثمّ عاد عليه السلام في ذكر مناقبه الجميلة المحركة لهم الى اتّباعه و متابعته فقال عليه السلام (و إنّي لعلى بيّنة) و حجّة واضحة (من ربّي) وهي الآيات الباهرة و الأدلة الزّاهرة المفيدة لمعرفته و توحيده سبحانه (و منهاج) وجادّة مستقيمة (من نبيّي) وهى السّنة النّبويّة و الطريقة المصطفويّة على صاحبها أفضل الصّلاة والسّلام والتحية (وانّي لعلى الطريق الواضح) وهو طريق الدّين ونهج الشّرع المبين (أُلقطه) من بين الطرق الضلال (لقطا) ولعلّ في التعبير بلفظ اللقطة إشارة إلى غلبة طرق الضلال و كثرتها وتنبيها على أنّ سالك طريق الهدى يحتاج إلى الجدّ و الاجتهاد و الاهتمام حتّى يميّزه من بينها و يلتقطه من ههنا و ههنا ، فانّ سالك طريقة مكتنفة بالشوك والقتاد من جانبيها يحتاج إلى أن يلتقط المنهج التقاطاً .

ثمّ نبّه على وجوب طاعته وملازمته فقال (انظروا أهل بيت نبيكم) أراد به نفسه الشريف والطّيبين من أولاده الأئمة الأحد عشر (فالزموا سمتهم) أي جهتهم وطريقتهم (و اتّبعوا أثرهم) و علل وجوب الاقتداء و الايتمام لهم بقوله (فلن يخرجوكم من هدى ولن يعيدوكم في ردى) أى ردى الجاهلية والضّلال القديم ، فانّهم خير امّة اخرجت للنّاس يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر ، و فيه تعريض على أنّ متابعة غيرهم توجب الخروج من الهدى والعود إلى الرّدى

«أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ»

١ــ أى يسخر ، لغة .

(فان لبدوا فالبدوا) أي إن قعدوا عن طلب الخلافة أوالجهاد ولزموا البيوت فتابعوهم (وإن نهضوا فانهضوا) أي إن قاموا بالخلافة فانصروهم (ولا تسبقوهم) فيما لم يأمروكم به و لا تفعلوا ذلك (فتضلّوا) لأنّ متقدّم الدّليل شأنه الضّلال عن القصد (ولاتتأخّروا عنهم) فيمايأمرونكم به ولا تخالفوهم (فتهلكوا) لأنّ المتخلف عن الهاد يتيه عن الرشاد فلا يدرى انههلك في أيّ واد.

ثمّ نبّه عليه السلام على بعض أوصاف الأصحاب الأنجاب للتهييج والالهاب فقال عليه السلام و(لقد رأيت أصحاب محمّد ﷺ)وهم الذين أدركوا صحبته بالايمان وماتوا بالايمان (فما أرى أحداً منكم يشبههم) في الزّهد و الورع و الخوف و الخشية من الحقّ سبحانه (لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً) أي متغيّرى الشّعر و مغبّر الرّؤس من غيراستحداد ولاتنظف من قشف العبادة و كثرة الرياضة (قد باتوا) وأحيوالياليهم (سجّدا و قياماً يراوحون بين جباههم و خدودهم) أي يسجدون بالجبهة مرّة وبالخدود اُخرى تذلّلا وخضوعا (ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم)كناية عن قلقهم و اضطرابهم من خوف المعاد (كانّ بين أعينهم ركب المعزى من طول سجودهم) و أراد ببين أعينهم جباههم مجازاً يعنى أن جباههم من طول السجود وكثرة مسّ الأرض صارت كركب المعزى وثفنات البعير في الغلظة والخشونة (إذا ذكرالله هملت أعينهم) وسالت (حتّى تبلّ جيوبهم) وفي بعض النسخ جباههم بدل جيوبهم و بلّها ممكن في حال السّجود (و ما دوا كما يميد الشجر) أي اضطربوا مثل اضطراب الشجر(يوم الريح العاصف خوفا من العقاب ورجاء للثواب) يعنى أنّ اضطرابهم تارة يكون من الخوف والوجل واُخرى من الرجاء والاشتياق وهذا هو شأن المؤمن المخلص الآخذ بين مرتبتى الخوف و الرجاء والآمل من الله الحسنى إنّه الغفور الرّحيم ذو المنّ العظيم.

تكملة

هذا الكلام له عليه السلام يشبه أن يكون ملتقطامن خطبة طويلة قدّمنا روايتها من كتاب الاحتجاج والارشاد في شرح الخطبة التاسعة والعشرين ، وتقدّم أيضاً بعض

فقراتها في التنبيه الثاني من شرح الكلام السّابع والثلاثين في ضمن رواية سليم ابن قيس الهلالي ، فتذكر .

الترجمة

از جملهٔ کلام آن قدوهٔ أنام است میفرماید :

و اگر مهلت بدهد خداوند ظالم را پس هر گز فوت نمیشود از او عقوبت او و حق تعالی مرظالم را برمحل ترقب و نگهبانی است برمکان گذشتن راه او و بموضع چیزهای گلوگیر است ازجای فرو بردن آب دهان او ، آگاه باش قسم بآن خدائی که نفس من درقبضهٔ اقتدار او است هرآینه غالب شدن این قوم که عبارت باشند ازأهل شام بشمانیست بجهة اینکه ایشان أقرب بحق‌اندازشما ، ولکن بجهة شتافتن ایشانست بسوی باطل صاحب خودشان و اهمال نمودن شما است از حق من، و هرآینه بتحقیق که صباح کردند امّتها درحالتیکه مي‌ترسند از ستم والیان‌خودشان، وصباح کردم من درحالتیکه میترسم از جور رعیّت خود

طلب یاری کردم از شما بجهة جهاد پس یاری نکردید ، و شنواندم شما را قول حق را پس گوش ندادید ، وخواندم شمارا بحق درنهان وآشکار پس اجابت نکردید ، ونصیحت نمودم شما را پس قبول ننمودید آیا شما حاضران هستید مثل غایبان ، وغلامان هستید مثل خواجه گان ، تلاوت میکنم بشماحکمتهای حسنه را پس رم میکنیدازآن، وموعظه میکنم شمارا با موعظهٔ بالغه پس پراکنده میشوید ازآن ، وترغیب میکنم‌شمارا برجهادأهل‌بغی‌وظلم‌پس‌نمي‌آیدبمن‌آخر گفتارخودم تا اینکه میبینم شمارا متفرّق‌میشویدمثل‌متفرّق‌شدن‌أولادسبا،برمیگردید بمجالس خودتان واختلاف مینمائید از مواعظ خودتان، راست میگردانم‌شمارادربامداد وباز میگردید بسوی من درشبانگاه مانند پشت کمان کج شده ، عاجزشدراست سازنده ومشکل‌شدراست شده .

ای‌جماعتیکه حاضراست بدنهای ایشان وغایب‌است ازایشان عقلهای ایشان مختلف است خواهشهای‌ایشان‌مبتلااست‌بجهة‌ایشان‌امیران ایشان، صاحب‌شما اطاعت

میکند خدایرا وشماعصیان مینمائید اورا ، وصاحب أهل شام‌نافرمانی میکند حق‌را و ایشان اطاعت مینمایند او را ، هرآینه دوست میدارم قسم بخدا اینکه معاویه صرافی کند با من‌شمارا مثل صرافی دینار بدرهم پس بگیرد ازمن ده نفر ازشمارا وعوض دهد بمن یکنفر ازأهل شام را

ای أهل کوفه مبتلا شدم من از شما بسه خصلت و دو خصلت أما سه خصلت اینست که : هستید کران صاحب گوشها ، گنگان صاحب گفتار ، کوران صاحب چشمها ، أمّا دوخصلت اینست که : نیستید آزادگان راست دروقت ملاقات شجاعان ونه‌برادران محل وثوق و اطمینان هنگام ابتلاءات زمان، خاک‌آلود باددستهای شما

ای أمثال شتران درحالتیکه غایب باشد ازایشان‌شتربانان‌ایشان که هروقت جمع کرده شوند ازطرفی پراگنده شوند از طرف دیگر ، قسم بخدا گوئیا میبینم شمارا درآنچه ظن و خیال‌میکنم‌اینکه‌اگرشدّت‌بیابدجنگ وسخت شود حرارت کارزاربتحقیق که منکشف شوید از پسر أبی‌طالب همچه منکشف شد زن اززائیدن خود ، و بدرستیکه من برحجّت وبیّنه هستم ازجانب پروردگار خود ، و برجادّه مستقیمه‌هستم از جانب پیغمبر خود ، وبدرستیکه من برراه روشن میباشم که پیدا میکنم آن راه را پیدا کردنی .

نظر نمائید بسوی أهل بیت پیغمبر خودتان پس لازم شوید بسمت ایشان ، ومتابعت نمائید أثر ایشانرا ، پس هرگز خارج نمیکنند ایشان شما را ازهدایت ، وهرگز برنمیگردانند ایشان شما را بضلالت و هلاکت ، پس اگر باز ایستند از طلب أمری باز ایستید شما ، و اگر بایستند بأمری بایستید شما ، وپیشی نگیرید بایشان پس گمراه شوید ، وپس نیفتید از ایشان پس هلاك شوید .

و بتحقیق دیدم من أصحاب حضرت رسالتمآب صلی‌الله‌علیه‌وآله‌وسلم را پس ندیدم‌هیچیکی از شما را که شبیه ایشان باشید ، بتحقیق که بودند ایشان صباح میکردند ژولیده موی غبارآلوده سر بتحقیق که شب را بروز می‌آوردند درحالتیکه سجده کنندگان وایستادگان‌بودند، راحت‌مینمودند میان پیشانی‌ورخسارهای‌خودشان‌را

يعني گاهى بپيشاني سجده مينمودند و گاهى رويشانرا بزمين مينهادند، ومى‌ايستادند برمثال أخگر از ياد كردن قيامت ومعاد خودشان گوئيا كه ميان چشمان ايشان زانوهاى بزاست كه پينه بسته است ازدرازي سجدهٔ ايشان، هر گاه ذكر شود خداوند سبحانه ريزان ميگرديد آب چشمهاى ايشان تا آنكه تر ميشد گريبانهاى ايشان از اشك چشم، و مضطرب‌ميشدندمثل مضطرب شدن و جنبيدن درخت در روز باد تند بسبب ترسيدن از عذاب، وبسبب اميدوارى برثواب.

ومن كلام له عليه السلام وهو السابع والتسعون من المختار في باب الخطب

و يستفاد من كتاب الغارات انه قاله بعد أمر الخوارج والنهروان ورواه في البحار عن المسيّب بن نجبة الفزارى نحوه وسنشير إليه إنشاءالله.

وَاللهِ لاٰ يَزالُونَ حَتّىٰ لاٰ يَدَعُوا لِلّهِ مُحَرَّماً إِلاّٰ اسْتَحَلُّوهُ، وَلاٰ عَقْداً إِلاّٰ حَلُّوهُ، وَحَتّىٰ لاٰ يَبْقىٰ بَيْتُ مَدَرٍ وَلاٰ وَبَرٍ إِلاّٰ دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ، وَنَبا بِهِ سُوءُ رَعْيِهِمْ، وَحَتّىٰ يَقُومَ الْباكِيانِ يَبْكِيانِ: باكٍ يَبْكي لِدينِهِ، وَباكٍ يَبْكي لِدُنْياهُ، وَحَتّىٰ يَكُونَ نُصْرَةُ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ الْعَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ: إِذا شَهِدَ أَطاعَهُ، وَإِذا غابَ اغْتابَهُ، وَحَتّىٰ يَكُونَ أَعْظَمَكُمْ فيها عَناءً أَحْسَنُكُمْ بِاللهِ ظَنّاً، فَإِنْ أَتاكُمُ اللهُ بِعافِيَةٍ فَاقْبَلُوا، وَإِنِ ابْتُليتُمْ فَاصْبِرُوا، فَإِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقينَ.

اللغة

(محرماً) في أكثر النسخ و زان مقعد بفتح الميم و تخفيف الراء و هو ما

حرّمه الله سبحانه و الجمع محارم ، و عن بعضها محرّماً بضم الميم وتشديد الرّاء و جمعه محارم و محرمات (و نبأ) منزله به بتقديم النون على الباء اذا لم يوافقه و (رعيهم) في أكثر النسخ بالياء المثناة التحتانية مصدررعا يرعى بمعنى الحكومة و الامارة ،وفي بعض النسخ بالتاء الفوقانية مصدر ورع يقال ورع يرع بالكسرفيهما ورعا ورعة وهو التقوى و (ابتليتم) بالبناء على المفعول .

الاعراب

خبر زال محذوف أى لا يزالون على الجور أو ظالمين ، و إضافة نصرة أحدكم و نصرة العبد من اضافة المصدر إلى فاعله ، و أعظمكم بالنصب خبر كان قدّم على اسمها وهوأحسنكم ويروى برفع الأوّل ونصب الثاني على العكس والأوّل أنسب

المعنى

اعلم أنّ المقصود بهذا الكلام الاشارة إلى شدّة طغيان بني اميّة و ما يصيب المسلمين منهم من الجوروالظلم والأذية وصدّر الكلام بالقسم البار تحقيقاً وتصديقاً فقال (واللهلا يزالون) ظالمين(حتّى لا يدعوالله محرماً إلاّ استحلوه) أى عدّوه حلالا و استعملوه استعمال المحلّلات و لا يبالون به ، ويشهد بذلك ما صدر منهم من القتل و اتلاف النّفوس الّتي لا تحصى ، فاذا كان حالهم في أعظم الكباير ذلك فكيف بغيرها .

(ولا) يتركوا (عقداً إلاّ حلّوه) والمراد به إمّا العقد والعهود المعاهدة بينهم و بين الناس فالمراد بحلّها نقضها ، وأول ما وقع من ذلك ما كان من معاوية حيث نقض المعاهدة بينه وبين الحسن عليه السلام ، و إمّا العهود المأخوذة عليهم من الله تعالى وهو أحكام الدّين و قوانين الشرع المبين فيكون حلّها عبارة عن مخالفتها وعدم العمل بها (وحتّى لايبقى بيت مدر ولا وبر إلاّ دخله ظلمهم) أراد ببيت المدر مايعمل من الطين والجصّ ونحوه في القرى والبلدان ، وببيت الوبر الخباء والخيم المتخذة من الشعر و الصوف والوبر و نحوها في البوادى (ونبابه سوء رعيهم) أى

ضره وخالفه سوء امارتهم أو سوء تقويهم .

(وحتّى يقوم الباكيان يبكيان باك يبكي لدينه وباك يبكي لدنياه) لعلّ المراد بالباكي لدينه من لم يكن متمكّنا من اظهار معالم الدّين من القيام بوظائف شرع سيّد المرسلين ، و بالباكي لدنياه من كان مصاباً بنهب الأموال و مبتلى بسوء الحال (و حتّى يكون نصرة أحدكم من أحدهم كنصرة العبد من سيّده إذا شهد أطاعه وإذا غاب اغتابه) الظاهر أنّ المراد بالنصرة في المقامين هو الانتصار فيكون المجرّد بمعنى المزيد و قد مرّ نظير هذه العبارة في الخطبة الثّانية و التّسعين وأوضحنا معناها هنالك .

قال الشّارح المعتزلي : و قد حمل قوم هذا المصدر أى نصرة أحدكم على الاضافة إلى المفعول ، و كذلك نصرة العبد و تقدير الكلام حتى يكون نصرة أحد هؤلاء الولاة أحدكم كنصرة سيّد العبد السّيء الطريقة إياه ، ومن في الموضعين مضافة إلى محذوف تقديره من جانب أحدهم ومن جانب سيّده

قال الشّارح : و هذا ضعيف لما فيه من الفصل بين العبد و بين قوله إذا شهد أطاعه ، و هو الكلام الذى إذا استمر المعنى جعل حالا من العبد لقوله(١) من سيّده .

أقول : لعلّ مراد الشّارح بما ذكره في وجه الضعف من استلزام الفصل هو اختلال نظام الكلام من حيث المعنى لا من حيث التركيب النحوى ، فانّ الاتساع في الظروف و شبهها ممّا هو معروف ، و الفصل بهما بين اجزاء الكلام بما لا يسوغ لغيرهما مشهور مأثور ، نعم اختلال المعنى لا ريب فيه فانّ محصل معنى الكلام على ما ذكره القوم حتى يكون منصورية أحدكم من جانب أحدهم كمنصورية العبد من جانب سيده ، و على ذلك فلا يلايمه قوله عليه السلام : إذا شهد أطاعه «آه» فان ظاهر هذا الكلام يعطي كونه بيانا لحالة نصرة العبد سيّده بمعنى ناصريته له ، لا لحالة منصوريته منه فافهم .

(و حتى يكون أعظمكم فيها) أى في هذه الفتنة المفهومة بسياق الكلام

١ـ متعلق بالفصل

(عناء)وجهداً (أحسنكم بالله ظنا) لظهور أنّ حسن الظن بالله من صفات المؤمنين والأولياء الكاملين ، ومعلوم أنّ عداوتهم لهم تكون أشدّ ، وعنائهم وتعبهم منهم يكون أكثر وآكد (فان أتاكم الله بعافية) و نجاة من تلك البلية (فاقبلو) ها بقبول حسن واشكروا له سبحانه (وإن ابتليتم) واصبتم بمصيبة (فاصبروا) عليها وتحاملوا بها (فان العاقبة للمتقين) والله لا يضيع أجر المحسنين .

تنبيه

اعلم أنّ المستفاد من كتاب الغارات لابراهيم الثقفي على ماحكى عنه في البحار أنّ هذا الكلام قاله أمير المؤمنين عليه السلام بعد واقعة النّهروان بعد ما رجع إلى الكوفة و أغار سفيان بن عوف العامرى بأمر معاوية على الانبار على ماتقدّم تفصيله في شرح الخطبة السّابعة والعشرين .

قال صاحب الغارات بعد ما أورد شطراً من الآثار في غارة سفيان : و عن ثعلبة بن يزيد الحماني أنّه قال : بينما أنا في السّوق إذ سمعت منادياً ينادى الصّلاة جامعة ، فجئت اُهرول والناس يهرعون فدخلت الرّحبة فاذا عليّ عليه السلام على منبر من طين مجصّص و هو غضبان قد بلغه أنّ اُناساً قد أغاروا بالسّواد ، فسمعته يقول : أما وربّ السّماء والأرض ثمّ ربّ السّماء والأرض إنّه لعهد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إنّ الاُمّة ستغدر بى .

وعن المسيب بن نجبة الفزاري أنّه قال : سمعت عليّاً عليه السلام يقول : إنّي قد خشيت أن يدال هؤلاء القوم عليكم ، بطاعتهم إمامهم ومعصيتكم إمامكم ، وبأدائهم الأمانة وخيانتكم ، وبصلاحهم في أرضهم وفسادكم في أرضكم ، وباجتماعهم على باطلهم وتفرقكم عن حقّكم حتّى تطول دولتهم وحتى لايدعوا الله محرما الاّ استحلّوه حتى لا يبقى بيت و بر و لا بيت مدر إلاّ دخله جورهم وظلمهم حتى يقوم الباكيان باك يبكى لدينه و باك يبكى لدنياه ، وحتّى لا يكون منكم إلاّ نافعاً لهم أو غير ضارّ بهم ، وحتى يكون نصرة أحدكم منهم كنصرة العبد من سيّده إذا شهد أطاعه وإذا غاب سبّه ، فان أتاكم الله بالعافية فاقبلوا وإن ابتلاكم فاصبروا ، فانّ العاقبة

للمتقين ، هذا .

و أقول : لا يخفى على الناقد الخبير بالأخبار والمطلع على الآثار أنّ ما أخبر به أمير المؤمنين عليه السلام و أشار إليه في هذا الكلام من عموم جور بنى اميّة ، وانتهاكهم المحارم ، و استحلا لهم الدّماء و اضرارهم بالمسلمين ، و سعيهم في اطفاء نور ربّ العالمين ، فقد وقع كلّه مطابقا لما اخبر به .

فقد روى في البحار من كتاب سليم بن قيس الهلالي عن أبان عن سليم وعمر ابن أبي سلمة قالا : قدم معاوية لعنه الله حاجاً في خلافته المدينة بعد ما قتل أمير المؤمنين صلوات الله عليه وصالح الحسن عليه السلام و في رواية اخرى بعد ما مات الحسن عليه السلام و استقبله أهل المدينة فنظر فاذا الذي استقبله من قريش أكثر من الأنصار ، فسأل عن ذلك فقيل : إنّهم محتاجون ليست لهم دواب

فالتفت معاوية إلى قيس بن سعد بن عبادة فقال : يا معشر الأنصار مالكم لا تستقبلونى مع اخوانكم من قريش .

فقال قيس وكان سيّد الأنصار وابن سيدهم : اقعدنا يا أمير المؤمنين ان لم يكن لنا دواب ، قال معاوية : فأين النواضح ، فقال قيس: أفنيناها يوم بدر واحد وما بعدهما في مشاهد رسول الله صلى الله عليه وآله حين ضربناك وأباك على الاسلام حتى ظهر أمر الله وانتم كارهون ، قال معاوية : اللّهم غفراً (١) .

قال قيس : اما إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال سترون بعدى اثرة ، ثم قال : يامعاوية تعيّرنا بنواضحنا والله لقد لقيناكم عليها يوم بدر وأنتم جاهدون على اطفاء نور الله وأن يكون كلمة الشّيطان هى العليا ، ثمّ دخلت أنت وأبوك كرهاً في الاسلام الذي ضربناكم عليه ، فقال معاوية : كأنّك تمنّ علينا بنصرتكم إيّانا فللّه و لقريش بذلك المنّ والطّول ، ألستم تمنّون علينا يامعشر الأنصار بنصرتكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو من قريش و هو ابن عمّنا ومنّا ؟ فلنا المنّ و الطّول أن جعلكم الله أنصارنا

١ـ أى اللّهمّ اغفر لى غفراً واللّهمّ افتتاح للكلام والخطاب لقيس أى اغفر ما وقع منى واستر معائبى، بحار.

وأتباعنا فهدا كم بنا .

و قال قيس : إنّ الله بعث محمّداً صلّى الله عليه وآله رحمة للعالمين ، فبعثه إلى النّاس كافّة وإلى الجنّ والانس والاسود والأحمر والأبيض ، اختاره لنبوّته واختصّه برسالته فكان أوّل من صدقه و آمن به ابن عمّه عليّ بن أبي طالب عليه السلام و أبوطالب يذبّ عنه ويمنعه و يحول بين كفّار قريش وبين أن يروعوه ويؤذوه ، وأمر أن يبلغ رسالة ربه فلم يزل ممنوعا من الضيم والأذى حتى مات عمّه أبوطالب وأمر ابنه بموازرته فوازره و نصره وجعل نفسه دونه في كلّ شدة وضيق و كلّ خوف، واختصّ الله بذلك عليّاً عليه السلام من بين قريش وأكرمه من بين جميع العرب والعجم، فجمع رسول الله صلّى الله عليه وآله جميع بني عبدالمطلب فيهم أبوطالب و أبولهب و هم يومئذ أربعون رجلا ، فدعا رسول الله صلّى الله عليه وآله ونادمه عليّ عليه السلام ورسول الله صلّى الله عليه وآله في حجر عمّه أبيطالب فقال : أيّكم ينتدب أن يكون أخي ووزيري ووصيّي وخليفتي في امّتي ووليّ كلّ مؤمن من بعدي ، فأمسك القوم حتى أعادها ثلاثاً فقال عليّ عليه السلام : أنا يا رسول الله فوضع رأسه في حجره وتفل في فيه وقال : اللّهم املأ جوفه علماً و فهماً و حكماً ، ثمّ قال لأبي طالب : يا أباطالب اسمع الآن لابنك وأطع فقد جعله الله من نبيّه بمنزلة هارون من موسى ، وآخا صلّى الله عليه وآله بين عليّ عليه السلام وبين نفسه .

فلم يدع قيس شيئاً من مناقبه عليه السلام إلاّ ذكرها واحتجّ بها، وقال : منهم جعفر ابن أبي طالب الطّيار في الجنّة بجناحين اختصّه الله بذلك من بين النّاس ، ومنهم حمزة سيّد الشّهداء ، ومنهم فاطمة سيّدة نساء أهل الجنّة ، فاذا وضعت من قريش رسول الله صلّى الله عليه وآله وأهل بيته و عترته الطيّبين فنحن والله خير منكم يا معشر قريش واحبّ إلى الله و رسوله وإلى أهل بيته منكم ، لقد قبض رسول الله صلّى الله عليه وآله فاجتمعت الانصار إلى أبي ثمّ قالوا نبايع سعداً فجائت قريش فخاصمونا بحجّة عليّ و أهل بيته وخاصمونا بحقّه وقرابته فما يعدو قريش أن يكونوا ظلموا الأنصار وظلموا آل محمّد صلّى الله عليه وآله ، ولعمري ما لأحد من الأنصار ولا لقريش ولا لأحد من العرب والعجم في الخلافة حقّ مع عليّ بن أبيطالب عليه السلام وولده من بعده .

فغضب معاوية و قال يابن سعد عمّن أخذت هذا؟ و عمّن رويته؟ و عمّن سمعته؟ أبوك أخبرك بذلك وعنه أخذته؟

فقال قيس: سمعته و أخذته ممّن هو خير من أبي و أعظم عليّ حقا من أبي، قال: من؟ قال: عليّ بن أبي طالب عليه السلام عالم هذه الامّة وصديقها الذي انزل الله فيه

«قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ».

فلم يدع آية نزلت في عليّ عليه السلام إلاّ ذكرها.

قال معاوية: فانّ صديقها أبو بكر و فاروقها عمر و الذى عنده علم الكتاب عبدالله بن سلام.

قال قيس: أحقّ هذه الاسماء وأولى بها الذي انزل الله فيه:

«أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ».

والذي نصبه رسول الله بغدير خم فقال: من كنت مولاه أولى به من نفسه فعليّ أولى به من نفسه، و قال في غزوة تبوك أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لانبيّ بعدي.

وكان معاوية يومئذ بالمدينة فعند ذلك نادى مناديه و كتب بذلك نسخة إلى أعماله الا برئت الذّمة ممن روى حديثاً في مناقب عليّ وأهل بيته وقامت الخطبة في كلّ مكان على المنابر يلعن عليّ بن أبي طالب والبرائة منه والوقيعة في أهل بيته واللّعنة لهم بما ليس فيهم عليهم السلام.

ثمّ انّ معاوية لعنه الله مرّ بحلقة من قريش فلمّا رأوه قاموا إليه غير عبدالله بن عبّاس، فقال له: يابن عبّاس ما منعك من القيام كما قام أصحابك إلاّ لموجدة عليّ بقتالى إيّاكم يوم صفّين، يابن عبّاس إنّ عمّي عثمان قتل مظلوما، قال ابن عبّاس: فعمر بن الخطاب قد قتل قبله مظلوما، قال: فتسلم الأمر إلى ولده وهذا ابنه قال: إنّ عمر قتله مشرك، قال ابن عبّاس: فمن قتل عثمان؟ قال: قتله المسلمون، قال: فذلك أدحض لحجّتك و أحلّ لدمه ان كان المسلمون قتلوه

وخذلوه فليس إلاّ بحقّ .

قال : فانّا كتبنا في الآفاق ننهى عن ذكر مناقب عليّ وأهل بيته فكفّ لسانك يابن عبّاس واربع على نفسك ، قال : فتنهانا عن قرائة القرآن ؟ قال : لا ، قال : فتنهانا عن تأويله؟ قال : نعم ، قال : فنقرأه ولانسأل عمّا عنى الله به ؟ قال : نعم، قال : فأيّما أوجب علينا قرائته أو العمل به ؟ قال : العمل به ، قال : فكيف نعمل حتى نعلم ما عنى الله بما انزل علينا ؟ قال: يسأل ممّن يتأوّله على غير ما تتأوله أنت وأهل بيتك ، قال : إنّما نزل القرآن على أهل بيتي فأسأل عنه آل أبي سفيان وآل أبي معيط واليهود والنّصارى والمجوس ؟ قال : فقد عدلتني بهؤلاء ؟ قال : لعمرى ما اعدلك بهم إلاّ إذا نهيت الامّة أن يعبدوا الله بالقرآن و بما فيه من أمر أونهى أوحلال أوحرام أوناسخ أو منسوخ أوعام أو خاص أو محكم أومتشابه وان لم تسأل الامّة عن ذلك هلكوا واختلفوا و تاهوا ، قال : فاقرؤوا القرآن ولا ترووا شيئاً مما أنزل الله فيكم ومما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واروو ا ما سوى ذلك .

قال : ابن عباس : قال الله تعالى في القرآن :

« يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ يَأْبَى اللهُ إِلاّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ » .

قال معاوية : يابن عبّاس اكفني عن نفسك وكفّ عنّي لسانك و ان كنت لابدّ فاعلا فليكن سرّاً و لا يسمعه أحد علانية ، ثمّ رجع إلى منزله فبعث إليه بخمسين ألف درهم وفي رواية اخرى مأة ألف درهم

ثمّ اشتد البلاء بالامصار كلّها على شيعة عليّ عليه السلام وأهل بيته و كان أشدّ النّاس بلية أهل الكوفة لكثرة من بها من الشّيعة واستعمل عليها زيادا ضمّها اليه مع البصرة و جمع له العراقين وكان يتتبع الشيعة وهو بهم عالم ، لأنّه كان منهم قد عرفهم و سمع كلامهم أوّل شيء، فقتلهم تحت كلّ كوكب وتحت كلّ حجر و مدر ، و أخافهم و قطع الأيدي والأرجل منهم وصلبهم على جذوع النّخل وسمل أعينهم

و طردهم و شردهم حتى انتزحوا على العراق فلم يبق بها أحد منهم إلاّ مقتول أو مصلوب أو طريد أو هارب .

و كتب معاوية إلى أعماله وولاته في جميع الأرضين والأمصار ألايجيز والأحد من شيعة عليّ ولا من أهل بيته ولا من أهل ولايته الذين يروون فضله ويتحدّثون بمناقبه شهادة .

و كتب إلى أعماله : انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبّيه وأهل بيته و أهل ولايته الذين يروون فضله و يتحدّثون بمناقبه فادنوا مجالسهم و أكرموهم وقرّبوهم و شرّفوهم و اكتبوا إليّ بما يروى كلّ واحد منهم فيه باسمه و اسم أبيه و ممّن هو .

ففعلوا ذلك حتّى أكثروا في عثمان الحديث وبعث إليهم بالصّلات والكساء وأكثر لهم القطايع من العرب والموالى فكثروا في كلّ مصر وتنافسوا في المنازل والضياع واتسعت عليهم الدّنيا فلم يكن أحد يأتي عامل مصر من الأمصار و لا قرية فيروى في عثمان منقبة أو يذكر له فضيلة إلاّ كتب اسمه و قرب و شفع فمكثوا بذلك ما شاءالله .

ثمّ كتب إلى أعماله إنّ الحديث قد كثر في عثمان وفشا في كلّ مصر ومن كلّ ناحية فاذا جائكم كتابي هذا فادعوهم إلى الرّواية في أبي بكر و عمر فانّ فضلهما وسوابقهما أحبّ الىّ وأقرّ لعيني وأدحض لحجّة أهل هذا البيت وأشدّ عليهم من مناقب عثمان و فضله ، فقرء كلّ قاض و أمير من ولاية كتابه على النّاس وأخذ النّاس في الرّوايات فيهم وفى مناقبهم .

ثمّ كتب نسخة جمع فيها جميع ماروى فيهم من المناقب والفضايل وأنفذهما إلى عماله و أمرهم بقرائتها على المنابر في كلّ كورة وفي كلّ مسجد ، و أمرهم أن ينفذوا إلى معلّمي الكتاتيب أن يعلّموها صبيانهم حتى يرووها ويتعلّموها كما يتعلّمون القرآن حتّى علّموها بناتهم و نسائهم و خدمهم و حشمهم فلبثوا بذلك ما شاءالله .

ثمّ كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان : انظروا من قامت عليه البينة أنه يحبّ عليّا و أهل بيته فامحوه من الدّيوان ولا تجيزوا له شهادة .

ثمّ كتب كتاباً آخر : من اتّهمتموه و لم تقم عليه بيّنة فاقتلوه ، فقتلوهم على التّهم والظّن والشّبه تحت كلّ كوكب حتّى لقد كان الرّجل يسقط بالكلمة فيضرب عنقه .

ولم يكن ذلك البلاء في بلد أشدّ ولا أكبر منه بالعراق ولا سيّما بالكوفة حتّى أنّ الرّجل من شيعة عليّ وممّن بقى من أصحابه بالمدينة وغيرها ليأتيه من يثق به فيدخل بيته ثمّ يلقى عليه ستراً فيخاف من خادمه ومملوكه فلا يحدّثه حتى يأخذ الأيمان المغلّظة عليه ليكتمنّ عليه.

و جعل الأمر لا يزداد إلاّ شدة و كثر عندهم عدوّهم و أظهروا أحاديثهم الكاذبة في أصحابهم من الزور والبهتان فينشأ النّاس على ذلك ولا يتعلّمون إلاّ منهم ومضى على ذلك قضاتهم وولاتهم وفقهاؤهم .

و كان أعظم النّاس في ذلك بلاء و فتنة القرّاء المراؤون المتصنّعون الذين يظهرون لهم الحزن و الخشوع و النّسك ويكذبون ويعلمون الأحاديث ليحظوا بذلك عندولاتهم ، ويدنو لذلك مجالسهم، ويصيبوا بذلك الأموال والقطايع والمنازل حتّى صارت أحاديثهم تلك و رواياتهم في أيدى من يحسب أنّها حقّ وأنها صدق فرووها وقبلوها وتعلّموها وعلّموها وأحبّوا عليها و أبغضوا وصارت بأيدى النّاس الذين لا يستحلّون الكذب ويبغضون عليه أهله فقبلوها وهم يرون أنها حقّ ولو علموا أنّها باطل لم يرووها و لم يتديّنوا بها ، فصار الحقّ في ذلك الزّمان باطلا ، والباطل حقاً ، والصّدق كذباً ، والكذب صدقاً .

وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ليشملنكم فتنة يربو فيها الوليد ، وينشأ فيها الكبير يجرى الناس عليها و يتخذونها سنّة ، فاذا غيّر منها شيء قالوا أتى النّاس منكراً غيّرت السنّة .

فلمّا مات الحسن بن علي عليه السلام لم يزل البلاء والفتنة يعظمان ويشتدّان فلم

يبق وليّ الله إلاّ خائفاً على دمه ، وفي رواية اخرى إلاّ خائفاً على دمه أنّه مقتول ، و إلاّ طريداً و شريداً ، و.لم يبق عدوّ الله إلاّ مظهر الحجّة غير مستتر ببدعته و ضلالته الحديث .

ألا لعنة الله على القوم الظّالمين و سيعلم الّذين ظلموا آل محمّد صلى الله عليه وعليهم أيّ منقلب ينقلبون .

الترجمة

ازجملهٔ کلام بلاغت نظام آن امام أنام است که اشاره فرموده در آن بأعمال قبیحه بني امیه و گفته :

بخدا سوگند که همیشه باشندبنی امیه تا اینکه نگذارند مر خداوند عالم را حرامی مگر که حلال شمارند آن را ، ونه گرهی از گرههای دین مگر اینکه بگشایند آن را ، و تا اینکه باقی نماند خانهٔ از کلوخ ساخته شده و نه خیمهٔ از پشم برپا بوده مگر اینکه داخل شود در او ظلم آنها ، و متزلزل سازد آن را بدی حکومت و أمارت ایشان تا آنکه برخیزد دو شخص گریه کننده که گریه کند یك گریه کننده گریه کند از برای دین خود ، و گریه کنندهٔ دیگر گریه کند از برای دنیای خود . وتااینکه باشد انتقام کشیدن یکی از شما از یکی ازایشان مثل انتقام کشیدن بنده ازمولای خود باین وجه که اگرحاضر باشد نزد مولایش اطاعت او را مینماید ، و هر گاه غائب باشد از اوغیبت او میکند، تا آنکه باشد بزرگترین شما از روی مشقّت نیکوترین شما از روی گمان و امیدواری بخدا پس اگر عطا کند خداوند شما را سلامتی و عافیتی پس قبول نمائید ، و اگرمبتلا شوید ببلائی پس صبر نمائید پس بدرستي که عاقبت کار پرهیزکاران راست .

ومن خطبة له عليه السلام وهى الثامنة والتسعون من المختار في باب الخطب

نَحْمَدُهُ عَلىٰ ما كانَ، وَ نَسْتَعِينُهُ مِنْ أَمْرِنا عَلىٰ ما يَكُونُ، وَ نَسْئَلُهُ الْمُعافاةَ في الْأَدْيانِ، كَما نَسْئَلُهُ الْمُعافاةَ في الْأَبْدانِ.

عِبادَ اللهِ أُوصِيكُمْ بِالرَّفْضِ لِهٰذِهِ الدُّنْيَا التّارِكَةِ لَكُمْ وَإِنْ لَمْ تُحِبُّوا تَرْكَها، وَ الْمُبْلِيَةِ لِأَجْسامِكُمْ وَ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ تَجْدِيدَها، فَإِنَّما مَثَلُكُمْ وَ مَثَلُها كَسَفْرٍ سَلَكُوا سَبِيلاً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوهُ، وَ أَمُّوا عَلَماً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوهُ، وَ كَمْ عَسَى الْمُجْرِي إِلَى الْغايَةِ أَنْ يَجْرِيَ إِلَيْها حَتّىٰ يَبْلُغَها، وَما عَسىٰ أَنْ يَكُونَ بَقاءُ مَنْ لَهُ يَوْمٌ لا يَعْدُوهُ، وَ طالِبٌ حَثِيثٌ يَحْدُوهُ فِي الدُّنْيا حَتّىٰ يُفارِقَها، فَلا تَنافَسُوا في عِزِّ الدُّنْيا وَ فَخْرِها، وَلا تُعْجَبُوا بِزِينَتِها وَ نَعِيمِها، وَلا تَجْزَعُوا مِنْ ضَرّائِها وَ بُؤْسِها، فَإِنَّ عِزَّها وَ فَخْرَها إِلَى انْقِطاعٍ، وَ إِنَّ زِينَتَها وَ نَعِيمَها إِلىٰ زَوالٍ، وَ ضَرّاءَها وَ بُؤْسَها إِلىٰ نَفادٍ، وَ كُلُّ مُدَّةٍ فِيها إِلَى انْتِهاءٍ، وَ كُلُّ حَيٍّ فِيها إِلىٰ فَناءٍ، أَوَ لَيْسَ لَكُمْ في آثارِ الْأَوَّلِينَ مُزْدَجَرٌ، وَ في آبائِكُمُ الْماضِينَ تَبْصِرَةٌ وَ مُعْتَبَرٌ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ، أَوَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْماضِينَ مِنْكُمْ لا يَرْجِعُونَ، وَإِلَى الْخَلَفِ الْباقِينَ لا يَبْقَوْنَ، أَوَلَسْتُمْ تَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيا يُمْسُونَ

وَ يُصْبِحُونَ عَلىٰ أحْوالٍ شَتّىٰ: فَمَيِّتٌ يُبْكىٰ، وَآخَرُ يُعزىٰ وَصَريعٌ مُبْتَلىٰ وَعايِدٌ يَعُودُ، وَآخَرُ بِنَفْسِهِ يَجُودُ، وَطالِبٌ لِلدُّنيا وَالْمَوْتُ يَطْلُبُهُ، وَغافِلٌ وَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ، وَعَلىٰ أثَرِ الْماضي ما يُمْضي الْباقي، ألا فاذْكُرُوا هادِمَ اللَّذاتِ، وَمُنَغِّصَ الشَّهواتِ، وَقاطِعَ الْأُمْنِيّاتِ عِنْدَ الْمُساوَرَةِ لِلأعْمالِ الْقَبيحَةِ، وَاسْتَعينُوا اللهَ عَلىٰ أداءِ واجِبِ حَقِّهِ، وَما لا يُحْصىٰ مِنْ أعْدادِ نِعَمِهِ وَإحسانِهِ.

اللغة

(عافاه) الله من المكروه معافاة وعافية وهب الله له العافية من العلل والبلاء كأعفاه و العافية دفاع الله عن العبد و (رفضت) الدّنيا رفضاً من باب نصر وضرب تركتها و (سفر) بسكون العين جمع سافر كركب و راكب وصحب و صاحب و (جرى) الفرس جرياوأجريته أنا أرسلته وحملته على السير و (حثثت) الانسان على الشيء حثّا من باب قتل حرضته عليه و ذهب حثيثاً أى مسرعاً و (حدوت) بالابل حثثتها على السير بالحداء و زان غراب وهو الغناءلها وحدوته على كذا بعثتهعليه و (الصّريع) من الأغصان ما تهدّل و سقط إلى الأرض ومنه قيل للقتيل صريع، و في بعض النّسخ ضريع بالضاد المعجمةمن ضرع ضرعاوزان شرف ضعف، وأضرعته الحمى أوهنته و (المساورة) المواثبة.

الاعراب

قوله. و كم عسى المجرى، أما لفظة كم استفهاميّة للتحقير بمعنى أيّ مدّة، وعسى فعل من أفعال المقاربة مفيد للرجاء و الطمع، والمرفوع بعده في مثل عسى زيد أن يخرج اسمه وان مع الفعل في محلّ النصب على الخبر أى رجا زيد الخروج وقال الكوفيّون: ان مع الفعل في محلّ رفع بدلا ممّا قبله بدل الاشتمال كقوله تعالى

« لا يَنْهيكُمُ اللهُ عَنِ الَّذينَ لَمْ يُقاتِلوكُمْ » إلىٰ قوله « أَنْ تَبرُّوهُمْ »

أى لاينهيكم الله عن أن تبرّوهم وعلى هذا فمعنى عسى زيد أن يخرج يتوقّع ويرجا خروج زيد ، والأشهر الأوّل هذا .

و قد يقع ان مع الفعل فاعلا له مستغنا به عن الخبر لكونه حينئذ تامّا بمعنى قرب تقول عسي أن يخرج زيد أى قرب خروجه .

وقال الرّضي انّ من ذهب إلى أنّ أن مع الفعل في عسى زيد أن يخرج خبر عسى ، جاز أن يقول في عسى أن يخرج زيد أنّ أن يخرج خبر أيضاً و هو من باب التنازع يعنى يجوز في المثال جعل زيداسماً لعسى وأن مع الفعل خبراً مقدّماله في محلّ النّصب فيضمرفى الفعل ضميرعايد إلى زيد ، كما يجوزجعل زيد فاعلا للفعل وجعل عسى مسنداً إلىان والفعل مستغنى بهما عن الخبر .

إذا عرفت ذلك فأقول : إنّلفظة عسىفي قوله عليه السلام كم عسى ناقصة والمجرى اسمها وان يجرى إليهاخبرها ، وفيقولهوماعسى أن يكون بقاء من له يوم لايعدوه تامّة وقعت بعد ما النافية و أن يكون فيمحل الرّفع على الفاعل ويكون تامةأيضاً بمعنى يوجد ، و الواو في قوله وطالب آه للحال والضمير في قوله عليه السلام يحدوه عايد إلى من الموصولة والفاء فيقوله عليه السلام : فلا تنافسوا فصيحة ، والهمزة فيقوله عليه السلام أوليس لكم استفهام على سبيل الانكار الابطالى ويحتمل جعلها تقريراً بمابعدالنفى كماذهب إليه الزمخشرى فيقوله :

« أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ » .

ومثلها الهمزة فيقوله أولستم ترون آه ، وما في قوله عليه السلام ما يمضى الباقي مصدرية أو زايدة .

المعنى

اعلم أنّ هذه الخطبة الشريفة مسوقة للوصيّة بالتّقوى والأمر برفض الدّنيا

والتنفير عنها بذكر معايبها ومثالبها، وافتتح الكلام بحمد الملك المتعال واستعانة الرّب ذي الجلال لأنّ ذكره سبحانه مفتاح للمطالب، ووسيلة إلى المآرب فقال:

(نحمده على ما كان و نستعينه من أمرنا على ما يكون) تخصيص الحمد بماكان والاستعانة بما يكون من حيث إنّ الثّناء على النعمة موقوف ومترتب على وقوعها فيمامضى، وطلب العون على أمر لا يتصوّر إلاّ فيما يأتي وماهو بصدد أن يفعله

(ونسأله المعافاة في الأديان كما نسأله المعافاة في الأبدان) فانّ الأديان لها سقم و شفاء كما للأبدان، ومرض الأولى أشدّ وآكد وتأثيره أكثر و أزيد، ولذلك قدّم طلب العافية لها، لأنّ مرض الأبدان عبارة عن انحراف المزاج الحيواني عن حدّ الاعتدال، ونقصانه يقع على الأعضا والجوارح الظاهرة، ومرض الأديان عبارة عن ميل القلب عن الصراط المستقيم والمنهج القويم، و تأثيره يقع على القلب، وضرره يعود إلى القوّة القدسيّة ونعم ما قيل:

وإذا مرضت من الذّنوب فداوها بالذكر إنّ الذكر خير دواء
والسّقم في الأبدان ليس بضائر و السّقم في الأديان شرّ بلاء

(عباد الله أوصيكم بالرفض لهذه الدّنيا التاركة لكم وان لم تحبّوا تركها) أمر برفض الدّنيا وتركها ونفّر عنها بالتنبيه على أنها تاركة لكم لامحالة، مفارقة إياكم و إن كانت محبوبة عندكم عزيزاً عليكم فراقها، فانّ طبعها التّلطف في الاستدراج أوّلا والتّوصّل إلى الاهلاك آخراً، و هي كامرأة تتزيّن للخطاب حتّى إذا نكحوها ذبحتهم فمن كان ذا بصيرة لا يعقد قلبه على محبّة محبوبة كذلك، ولا يخاطب امرأة شأنها ذلك.

وقد روى انّ الصادق عليه السلام كان يقول لأصحابه: يا بني آدم اهربوا من الدّنيا إلى الله وأخرجوا قلوبكم عنها فانكم لا تصلحون لها ولا تصلح لكم ولا تبقون لها ولا تبقى لكم هى الخداعة الفجاعة المغرور من اغترّ بها، و المفتون من اطمأنّ إليها، الهالك من أحبّها وأرادها.

وروى انّ عيسى عليه السلام كوشف بالدّنيا فرآها في صورة عجوزهتماء(١) عليها من كلّ زينة فقال عليه السلام لها : كم تزوّجت؟ قالت : لا احصيهم ، قال فكلّهم مات عنك أم كلّهم طلّقك ؟ قالت: بل كلّهم قتلت ، فقال عيسى عليه السلام : بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين ، و كيف تهلكينهم واحداً بعد واحد ولا يكونون منك على حذر .

ثمّ نبّه عليه السلام على عيب لها آخر بقوله (والمبلية لأجسادكم وان كنتم تحبّون تجديدها) و هذا الوصف أيضاً منفرّعنها ، لأنّ تجديد الأجساد والأبدان إذا كان محبوباً للانسان و كانت الدّنيا حائلة بينه وبين محبوبه مانعة له عن نيله و وصوله بسهام الأسقام و نشاشيب الأمراض و الأوصاب فمن شأنها أن تبغض و ترفض و تجتنب ولا تحب .

قال بعض الحكماء : الأيّام سهام والنّاس أغراض والدّهر يرميك كلّ يوم بسهامه ، و يخترمك بلياليه و أيّامه، حتى يستغرق جميع أجزائك ، فكيف بقاء لسلامتك مع وقوع الأيام بك ، و سرعة الليالي في بدنك ، لو كشف لك عما أحدثت الأيام فيك من النّقص لاستوحشت من كلّ يوم يأتي عليك ، واستثقلت ممرّ الساعات بك ، ولكن تدبير الله فوق تدبير الاعتبار .

ثمّ ضرب عليه السلام للدّنيا مثلا في قصر مدّتها بقوله (فانّما مثلكم و مثلها كسفر سلكوا سبيلا فكأنّهم قد قطعوه ، وأمّوا علماً فكأنهم قد بلغوه) جعل أهل الدّنيا والكائنين فيها بمنزلة المسافرين، جعلها بمنزلة سبيل يسلكه المسافر ، وجعل سرعة سيرهم وانتقالهم فيها وقربهم من الموت الذى هو آخر منازلها بمنزلة قطع المسافر منازله ، وبلوغ قاصد علم ومنار مقصده ، يعنى أنهم في حال كونهم غير قاطعين له كأنّهم قاطعون له ، وفى حال كونهم غير بالغين له كأنهم بالغون له ، لأنه لما قرب زمان احدى الحالتين من زمان الحالة الأخرى شبّهوا وهم في الحال الأولى بهم أنفسهم وهم على الحالة الثّانية ولنعم ماقيل

يا راقد اللّيل مسروراً بأوّلها ... إنّ الحوادث قد يطرقن أسحاراً

١- أى الساقطة أسنانها اوالمنكسرة ثنايا ها من أصولها .

أفنى القرون التي كانت منعمة كرّ الجديدين إقبالا و إدبارا
كم قد أبادت صروف الدهر من ملك قد كان في الدّهر نفّاعاً وضرّاراً
يا من يعانق دنياً لابقاء لها يمسي ويصبح في دنياه سفاراً
هلاّ تركت من الدّنيا معانقة حتّى تعانق في الفردوس أبكاراً
إن كنت تبغي جنان الخلد تسكنها فينبغي لك أن لاتأمن النّارا

(وكم عسى المجري إلى الغاية أن يجرى إليها حتّى يبلغها) يعني أىّ مدّة يرجو ويطمع المرسل مركوبه إلى وصول غاية ارساله إليها حتى يصلها ، والغرض منه تحقيرمايرجوه من مدّة الجرى وهي مدّة الحياة أى لاتظنن لهاطولا ولاتغترن بتماديها فانها عن قليل تنقضى وتنصرم ، وفي هذا المعنى قال عليه السلام في الدّيوان :

ألا إنّما الدّنيا كمنزل راكب أناخ عشيّاً وهوفي الصّبح راحل

(وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لايعدوه) يعني ما قرب وجود البقاء لمن له يوم لا يجاوزه ، وهو تحقيرلمايؤمل من مدّة البقاء أى بقاء من له يوم ليس وراءه بقاء وهويوم الموت ليس بشيء يعتدّ به (و) الحال انه له(طالب حثيث يحدوه في الدّنيا حتى يفارقها) لعلّه أراد بالطالب الحثيث الموت وكنى بحدائه له عن سوق أسباب الموت ومقدّماته التي هي كرّ اللّيالي ومرّ الأيام له إليه .

و إذا كانت الدّنيا بهذه المثابة (فلا تنافسوا) أى لا تحاسدوا و لا تضنّوا (في عزّ الدّنيا وفخرها ولاتعجبوا بزينتها ونعيمهاولا تجزعوا من ضرّائهاوبؤسها) نهى عن المنافسة فيها والاعجاب بها والجزع منها معلّلا وجوب الانتهاء عن الأوّل بقوله (فانّ عزّها وفخرها إلى انقطاع) و ماكان منقطعاً لا يحرص عليه لبيب و لا ينافس فيه أريب ، و علّل وجوب الانتهاء عن الثاني بقوله (و زينتها و نعيمها إلى زوال) وماكان زائلا لايرغب إليه العاقل ولا يعجب به إلاّجاهل ، وعن الثّالث بقوله (وضرّائها وبؤسها إلى نفاد) وماكان نافداً فانيا أحرى بأن يصبرعليه ولايجزع منه (وكلّ مدّة فيها إلى انتهاء) سواء كانت مدّة عزّومنعة أو زينة ونعمة أوضرّ وشدّة (وكلّ حيّ فيها إلى فناء) سواء كان ذى شرف ورفعة أو ذلّ ومحنة أوابتهاج ولذّة

وكلّ شباب أو جديد إلى البلى   و كلّ امرء يوماً إلى الله صائر

(أوليس لكم في آثار الأوّلين) من الاخوان والأقران والالآف والأسلاف (مزدجر وفي آبائكم الماضين) الأقربين منهم والأبعدين (تبصرة ومعتبر إن كنتم تعقلون) بلى في النظر إلى ادنى ماجرى عليهم تبصرة واعتبار ، والفكر في أهون مالاقوه تذكرة وانزجار عدالى ذكر المنقول إلى الثرى والمدفوع إلى هول ماترى

هوى مصرعاً في لحده و توزّعت   مواريثه أرحامه و الأواصر

وأنحوا على أمواله بخصومة«يخضمونها خ»   فما حامد منهم عليها و شاكر

فيا عامر الدّنيا و يا ساعياً لها   و يا آمناً من أن تدور الدّوائر

كيف أمنت هذه الحالة وأنت صائر إليها لا محالة (أولم تروا إلى الماضين منكم لايرجعون) فما لهم يذهبون ولايعودون ، أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا فناموا (وإلى الخلق الباقين لايبقون) بل يمضون ارسالا ويحتذون مثالا قال قسّ ابن ساعدة الأيادى :

في الأولين الذاهبين من القرون لنا بصائر   ورأيت قومي نحوها يمضي الأكابر والأصاغر

لا يرجع الماضى إليّ ولامن الباقين غابر   أيقنت أنى لامحالة حيث صار القوم صائر

وقال زهير بن أبى سلمى :

ألاليت شعرى هل يرى الناس ما أرى   من الأمر أو يبدولهم ما بداليا

بدى لى أنّ النّاس تفنى نفوسهم   و أموالهم و لا أرى الدّهر فانياً

و إني متى أهبط من الأرض تلعة(١)   أجد أثراً قبلى جديداً و عافيا

أراني إذا أصبحت أصبحت ذاهوى   فثمّ إذا أمسيت أمسيت عادياً

إلى حفرة (٢) أهوى اليها مضمّة   يحثّ إليها سايق من ورائيا

كأنّي وقد خلّفت سبعين حجّة (٣)   خلعت بها ان منكبى ردائيا

بدالى انّي لست مدرك ما مضى   و لا سابق شيئاً إذا كان جائياً

١ـ التلعة اسم ماعلى من مسيل الوادى وماسفل

٢ـ الحفرة القبر .   ٣ـ الحجة السنة .

وماأنأرى نفسيتقيها(١)عزيمتي و ما أن تقى نفسى كرائم ماليا
ألا لا أرى على الحوادث باقيا و لا خالداً إلاّ الجبال الرّواسيا
و إلاّ السّماء و البلاد و ربّنا و أيّامنا معدودة و اللّياليا
أراني إذا ما شئت لا قيت آية تذكّرني بعض الذى كنت ناسيا
ألم تر أنّ الله أهلك تبّعاً و أهلك لقمان بن عاد وعادياً (٢)
وأهلك ذا القرنين من قبل مايرى و فرعون جبّار معاً و النّجاشيا
ألا لا أرى ذا امّة أصبحت به فتتركه الأيام و هي كماهيا
ألم تر للنعمان كان بنجوة (٣) من الشّر لو أنّ امرء كان ناجياً
فغيّر عنه رشد عشرين حجّة من الدّهر يوم واحد كان غاديا
فلم أر مسلوباً له مثل ملكه أقلّ صديقاً صافياً و مواليا
فأين الذي قدكان يعطى جياده (٤) بأرسانهنّ والحسان الحواليا(٥)
و أين الذين قدكان يعطيهم القرى بغلاّتهنّ و المئين الغواليا (٦)
و أين الذين يحضرون جفانه إذا قدّمت ألقوا عليها المراسيا(٧)
رأيتهم لم يشركوا (٨) بنفوسهم منيّته لمّا رأوا انهاهيا

هذا ولمّا ارشد عليه السلام إلى الاتّعاظ بأحوال السّلف الماضين و بفناء الغابرين الباقين نبّه على اختلاف حالات أهل الدّنيا ليستدلّ به السامعون على عدم بقائها ويستفيدوا به عبرة اخرى فقال (أولستم ترون أهل الدّنيا يمسون ويصبحون على أحوال شتّى) وحالات مختلفة (ف)منهم (ميّت يبكى) عليه ويشقّ الجيوب لديه ويخرج

١ـ تقيها تصونها ٢ـ عادياً هو أبوالسمول كان له حصين يقال له الابلق
٣ـ النجوة بالجيم الارتفاع لغة ٤ـ والفرس الجواد بين الجودة جمعه جياد
٥ـ والحوالى لعله جمع الحولى وهو ما أتى عليه حول من ذى الحافر وغيره منه
٦ـ الغوالى الابل الغالية الاثمان لغة
٧ـ وقدر راسية لاتبرح مكانها لعظمها ق
٨ـ لم يشركوا أى لم يواسوه بنفوسهم .

من سعة قصره إلى ضيق قبره و يحثّون بأيديهم عليه التراب ويكثرون عنده التلدّد و الانتحاب (و آخر يعزّى) و يسلّى اذا يئس عن برء عليله أو جزم بموت خليله (وصريع مبتلى) بأنواع الأوجاع والأسقام وطوارق الأمراض و الآلام (و عائد يعود) المريض عند المرض ويتحسّر عليه إذا شاهده على غصص الجرض (و آخر بنفسه يجود) ابلس عنه زوّاره و عوّاده وأسلمه أهله وأولاده وغضّوا بأيديهم عينيه ومدّوا الى جنبيه يديه ورجليه وهو في سكرة ملهثة وغمرة كارثة وأنّة موجعة وسوقة مكربة وجذبة متعبة .

(و) منهم (طالب للدّنيا) ساع لها (والموت يطلبه) ويحثّه حتّى يدخله في حفرته (و) منهم (غافل) عمّا خلقه الله لأجله (وليس بمغفول عنه) بل الله عالم به و مجزيه بأعماله (و على أثر الماضي مايمضي الباقي) قال سيّد العابدين عليه السلام في هذه المعنى :

إذا كان هذا نهج من كان قبلنا ... فانّا على آثارهم نتلاحق
فكن عالماً أن سوف تدرك من مضى ... ولو عصمتك الرّاسيات الشّواهق

ثمّ أمرهم عليه السلام بذكر الموت و وصفه بلوازمه المنفّرة عنه فقال عليه السلام (ألا فاذكروا هادم اللّذات) الدنيوية (ومنغّص الشهوات) النفسانية (وقاطع الامنيّات) والآمال الباطلة (عند المساورة) و المواثبة (للأعمال القبيحة) لترتدعوا بذكره عنها (واستعينوا الله) سبحانه واطلبوا منه التوفيق (على أداء واجب حقّه) الذى أوجبه عليكم و هو الاتيان بالطّاعات والقيام بوظايف العبادات (و) على أداء واجب (مالايحصى من أعداد نعمه واحسانه) الذي أنعمه عليكم وأحسنه إليكم وهو القيام بوظايف الحمد والثبات بمراسم الثناء .

قال عليه السلام في بعض كلماته : أيّها النّاس إنّ لله في كلّ نعمة حقّاً ، فمن أدّاه زاده ، ومن قصّر عنه خاطر بزوال النعمة وتعجّل العقوبة ، فليراكم الله من النعمة وجلين ، كما يراكم من الذنوب فرقين .

الترجمة

ازجمله خطب شريفهٔ آنحضرت است که متضمن تنفير ازدنيا و از محبت آن غدّار بی وفا است چنانچه فرموده : حمد ميكنيم خداوند را بر آنچه بوده است از نعمتها ، واستعانت مينمائيم ازخدا ازكارهای خود بر آنچه ميباشد ، وسؤال ميكنيم از او بذل عافيت را دربدنها همچنانكه سؤال ميكنيم از او بذل عافيت را در دينها

ای بندگان خدا وصيت ميكنم شما را بترك نمودن اين دنيائی كه ترك نماينده است شمارا واگرچه دوست نداريد ترك نمودن اورا ، وكهنه كننده است جسدهای شما را و اگرچه دوست داريد تازگی آنهارا ، پس بدرستيكه مثل شما و مثل دنيا همچو مسافرانيست كه روند براهی پس گويا كه ايشان قطع نموده باشند آنراه را ، وقصد نمايند نشانه وعلامتي را پس گويا كه ايشان رسيده باشند بآن مقصد ، وچه قدر مدترا اميد ميگيرد شخصی كه جاری كننده است مركب خودرا بسوی غايتی جاری نمودن آن را بسوی آن غايت تا برسد بآن ، وچه چيز اميد گرفته ميشود باقی ماندن كسيكه اوراست يك روزی كه تجاوز نمينمايد از آن وحال آنكه اوراست طلب كننده شتاباننده كه ميراند اورا دردنيا تا اينكه مفارقت نمايد ازآن .

پس حسد وبخل نكنيد بريكديگر درعزّت دنياوفخرآن ، وخوشحال ودلشاد نشويدبزينت ونعمت آن ، وجزع ننمائيد از دشواری وسختی آن ، ازجهة اينكه عزّت و فخر آن منتهی ميشود بانقطاع ، ونعمت و زينت آن منتهی ميشود بزوال وفنا ، ودشواری وسختی آن منجرّ ميشود بنيستی ونابودی ، وهرمدّتي كه در او است ميكشد بانتهاء ، وهر زنده كه دراو است بازميگردد بفناء

آيا نيست مر شما را دراثرهای پيشينيان و درپدران گذشتگان شما بينائی و عبرت اگر بوده باشيد تعقل كننده ، آيا نگاه نميكنيد بسوی گذشتگان از خودتان كه باز نمی گردند ، وبسوی خلفهائی باقي ماندگان كه باقي نميمانند.

آيا نيستيد شما كه می بينيد أهل دنيارا كه شام وصباح مينمايند برحالتهای

مختلفه : پس بعضی مرده است که براو گریه میکنند ، و بعضی را سرسلامتي مى‌دهند ، وبعضى ديگرضعيف است مبتلا بأنواع مرضها ، وبرخى عيادت كننده‌است بيمار را كه ميرود بعيادت ، و ديگرى درحال جان دادنست ، ويكى طلب كننده است دنيارا وحال آنكه مرگ طلب مى‌كند اورا ، و يكى هست كه بيخبر است از آخرت وحال آنكه غفلت نشده ازاو در هيچ حالت ، وبراثر گذشته است گذشتن باقي مانده .

آگاه باشيد پس ياد آوريد مرگ را كه شكننده لذتها است و مكدّر نمايندۀ شهوتها و قطع كننده آرزوها است در هنگام جستن براى أعمال قبيحه وحركات ناشايست ، و طلب يارى نمائيد ازخدا برأدا كردن حق واجب اوراوأدا كردن‌آنچيزى كه‌شمرده نمى‌شود از شمارهاى نعمتها واحسان بى‌پايان آن . والله أعلم بالصّواب .

ومن اخرى وهى التاسعة والتسعون من المختار فى باب الخطب

خطب بها فى الجمعة الثالثة من خلافته كما فى شرح المعتزلى :

أَلْحَمْدُ لِلّهِ النّاشِرِ فِي الْخَلْقِ فَضْلَهُ ، وَالْباسِطِ فِيهِمْ بِالْجُودِ يَدَهُ ، نَحْمَدُهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ ، وَنَسْتَعِينُهُ عَلى رِعايَةِ حُقُوقِهِ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لا إِلهَ غَيْرُهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَرْسَلَهُ بِأَمْرِهِ صادِعاً ، وَبِذِكْرِهِ ناطِقاً ، فَأَدّى أَمِيناً ، وَمَضى رَشِيداً ، وَخَلَّفَ فِينا رايَةَ الْحَقِّ ، مَنْ تَقَدَّمَها مَرَقَ ، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْها زَهَقَ ، وَمَنْ لَزِمَها لَحِقَ ، دَلِيلُها

مَكيثُ الْكَلامِ، بَطيءُ الْقيامِ، سَريعٌ إِذا قامَ، فَإِذا أَنْتُمْ أَلَنْتُمْ لَهُ رِقابَكُمْ، وَ أَشَرْتُمْ إِلَيْهِ بِأَصابِعِكُمْ، جاءَهُ الْمَوْتُ فَذَهَبَ بِهِ فَلَبِثْتُمْ بَعْدَهُ ماشاءَ اللهُ حَتّى يَطْلَعَ اللهُ لَكُمْ مَنْ يَجْمَعُكُمْ وَ يَضُمُّ نَشْرَكُمْ، « فَلا تَطْمَعُوا في عَيْنِ مُقْبِلٍ تَأْيَسُوا خ » فَلا تَطْمَعُوا في غَيْرِ مُقْبِلٍ، وَلا تَيْأَسُوا مِنْ مُدْبِرٍ، فَإِنَّ الْمُدْبِرَ عَسى أَنْ تَزِلَّ إِحْدى قائِمَتَيْهِ وَ تَثْبُتَ الْأُخْرى فَتَرْجِعا حَتّى تَثْبُتا جَميعاً، أَلا إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ صلّى الله عليه وآله وسلّم كَمَثَلِ نُجُومِ السَّماءِ، إِذا خَوى نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ. فَكَأَنَّكُمْ قَدْ تَكامَلَتْ مِنَ اللهِ فيكُمُ الصَّنائِعُ، وَأَراكُمْ ما كُنْتُمْ تَأْمُلُونَ.

اللغة

(الرّشد) إصابة الصّواب و قيل الاستقامة على طريق الحقّ مع تصلّب فيه، وبهما فسّر قوله سبحانه: « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل » (ومرق) السهم من الرّمية خرج عن المرمى و (زهق) الشّيء من باب منع بطل وهلك و (المكيث) البطيء و(خوى) النجم مال للمغيب و (الصنائع) جمع الصنيعة وهي الاحسان.

الاعراب

فضله و يده منصوبان على المفعولية، وغيره منصوب على الوصف، و صادعا و ناطقاً حالان من مفعول ارسله و يحتمل كون الأول حالا من امره والثّاني من ذكره على نحو قوله:

« هٰذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ».

وأميناً ورشيداً منصوبان على الحال أيضاً، وجملة من تقدّمها في محل النّصب صفة للراية، ودليلها بالرفع مبتدا ومكيث الكلام خبره.

المعنى

اعلم أنّ هذه الخطبة الشريفة من جملة الأخبار الغيبيّة لأمير المؤمنين عليه السلام أخبر فيها بما يكون بعده عليه السلام من أمر الأئمة عليهم السلام وأعلم النّاس بموته عليه السلام بعد اشتهار أمره و اجتماع الخلق له ، و افتتح بالحمد و الثّناء و الشهادة بالتّوحيد والرّسالة وذكر وصف الرسول صلّى الله عليه وآله أولا فقال عليه السلام :

(الحمدلله الناشر) أى المفرّق (في الخلق فضله) و احسانه (و الباسط فيهم بالجوديده) أى نعمته من باب اطلاق اسم السّبب على المسبّب أو بسط اليد كناية عن العطاء (نحمده) سبحانه (في جمع اموره) الصادرة عنه سواء كان من قبيل العطاء والنعمة أو البلاء و الشّدة ، فانّ كلّ ما صدر عنه سبحانه نعمة كان أو غيرها جميل اختيارىّ يستحق به حمداً وثناء ، ولازم حقّ العبوديّة ومقتضى كمال المعرفة القيام بوظايف الحمد في كلّ باب ، والرّضاء بالقضاء على جميع الأحوال.

ولاحاجة إلى ماتمحّله الشّارح البحراني «ره» وتكلّفه من أنّ الحمدبالشّدايد اللّاحقة باعتبار كونها من نعمه أيضاً فانها إذا قوبلت بصبر جميل استلزمت ثواباً جزيلا كما قال تعالى : وبشّر الصّابرين ، وظاهر أنّ أسباب النّعم نعم .

(و نستعينه على رعاية حقوقه) الواجبة والاتيان بها سواء كانت حقوقا مالية كالخمس و الزّكاة و الحجّ و نحوها ، أو غير مالية كساير ما أوجبه على عباده (و نشهد أن لا إله غيره وأنّ محمّداً) صلّى الله عليه وآله (عبده ورسوله) ذكر الشهادتين في هذه الخطبة كأكثر الخطب لما روى من أن كلّ خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليدالجذماء (أرسله) سبحانه (بأمره صادعا) أى مظهراً مجاهراً امتثالا لقوله سبحانه

« فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ » .

(وبذكره ناطقا) اطاعة لما أمره بقوله :

« فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ » .

(فادى) ما حمّله (اميناً) مؤتمناً (و مضى) إلى الحقّ (رشيداً) صائباً (وخلّف فينا راية الحقّ) المراد بها إما الثقلان المخلّفان أعنى كتاب الله والعترة ، أو الثقل الأكبر فقط ، والاستعارة عنهما بالراية باعتبار أنّهما يهتدى بهما السّالكون في سبيل الله كما أنّ الرّاية سبب الهداية في منازل الدّنيا (من تقدّمها) ولم يعتدّ بها (مرق) من الدّين مروق السهم من الرّمية (و من تخلّف عنها) و لم يتابعها (زهق) وهلك في الوادى الضّلالة (ومن لزمها) ولم يفارق عنها (لحق) بالحقّ وأصاب الصّواب في كلّ باب .

قال الشّارح البحراني : أشار براية الحقّ إلى كتاب الله وسنّته وأشار بتقدّمها والتّخلف عنها إلى طرفي الافراط و التفريط من فضيلة الاستقامة عليها أى أنّ من كان تحتها لاحقاً بها فهو على حاقّ الوسط من الفضايل ، ومن تقدّمها كان على طرف الافراط و قد تعدّى في طلب الدّين و أغلى فيه على جهل منه كما فعلت الخوارج ومن تخلّف عنها كان على طرف التفريط والتقصير فهلك في طرق الضّلال والحيرة

(دليلها) أى دليل تلك الراية، وأراد به حاملها، أو الدّليل الذي يكون قدام الراية ويتبعه حاملها فانّ المسافرين والقوافل ربما يكون معهم راية ودليل يتقدّمهم الدليل ويتبعه حامل الراية ويكون سيرها معه ويتبعهما المسافرون ويسيرون بهما ، والاحتمال الثّاني أظهر ، وعلى كلّ تقدير فاستعار به عن نفسه الشريف سلام الله عليه وآله ووجه الاستعارة على الاحتمال الأوّل واضح ، لأنه عليه السلام حامل الكتاب والعالم بما فيه ، وأمّا على الثّاني فلعلّه باعتبار أنّ الكتاب لا يفارقه وهو لا يفارق الكتاب كما يدلّ عليه اخبار الثقلين و أنّه عليه السلام امام الكتاب ، لكونه مفسّراً له مظهراً عمّا فيه .

وقوله :(مكيث الكلام) أى بطيئه يعني أنّه عليه السلام ذو تدبّر وتثبّت في أقواله ، فانّ قلّة الكلام من صفات المدح ، و كثرته من صفات الذمّ ، ومن هنا قيل : لسان العاقل من وراء قلبه فاذا أراد الكلام تفكّر فان كان له قال وإن كان عليه سكت ، و قلب الجاهل من وراء لسانه فان همّ بالكلام تكلّم به من غير تروٍّ سواء كان له أم عليه ،

ويأتي عنه عليه السلام نظيره في أواخر الكتاب .

وقوله (بطيء القيام) اشارة إلى تأنّيه في الأمور فانّ التؤدة من صفات العقل والتسرّع من صفات الجهل .

روى في الوسائل عن الصّدوق باسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لمحمّد بن الحنفية قال عليه السلام : من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطاء ، و من تورّط في الأمور غير ناظر في العواقب فقد تعرض لمفظعات النّوائب ، والتدبير قبل العمل يؤمنك من الندم ، و العاقل وعظه التجارب ، وفي التجارب علم مستأنف ، وفي تقلّب الأحوال علم تجارب الرّجال .

وفيه من مجالس الشيخ باسناده عن أبي قتادة القمّي قال : قال أبو عبدالله عليه السلام ليس لحاقن رأى ، ولا لملول صديق ، ولا لحسود غني ، وليس بحازم من لا ينظر في العواقب والنظر في العواقب تلقيح للقلوب .

و من محاسن البرقي مسنداً عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال : أتي رجل رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : علّمني يا رسول الله فقال صلى الله عليه وآله : عليك باليأس ممّا في أيدى النّاس فانّه الغنى الحاضر ، قال : زدني يا رسول الله ، قال صلى الله عليه وآله : ايّاك والطمع فانّه الفقر الحاضر ، قال : زدني يارسول الله ، قال صلى الله عليه وآله : إذا هممت بأمر فتدبّر عاقبته فان يك خيراً ورشداً فاتبعه ، وان يك غياً فاجتنبه .

والأخبار في هذا المعنى كثيرة ، وفيه قال الشاعر :

و كلّ أناة في المواطن سودد ... و لا كأناة من قدير محكم
و ما الرّاى الاّ بعد طول تثبّت ... و لا الحزم إلاّ بعد طول تلوّم

وقوله عليه السلام (سريع إذا قام) يعني انه إذا ظهر له بعد التثبّت والتروّى وجه المصلحة في القيام بأمر بادر إليه وقام به سريعاً وانتهض الفرصة .

ثمّ أخذ عليه السلام يذكّرهم بموته بقوله : (فاذا أنتم ألنتم له رقابكم) و هو كناية عن طاعتهم له وانقيادهم لأمره (وأشرتم إليه بأصابعكم) و هو كناية عن الاجلال (جائه الموت فذهب به) .

قال الشّارح المعتزلي : نقل أنّ أهل العراق لم يكونوا أشدّ اجتماعاعليه من الشهر الذى قتل فيه ، وجاء في الأخبار أنّه عليه السلام عقد للحسن عليه السلام ابنه على عشرة آلاف ، ولأبي أيّوب الأنصاري علىعشرة آلاف ، ولفلان وفلان حتّى اجتمع له مأة ألف سيف ، و أخرج مقدمته أمامه يريد الشّام فضربه اللعين ابن ملجم وكان من أمره ماكان وانقضت تلك الجموع وكانت كالغنم فقدراعيها (فلبثتم بعده ماشاءالله) عدم التعيين لمدّةاللبث إشارة إلى طولها (حتىيطلع الله) ويظهر (لكم منيجمعكم و يضمّ نشركم) أى تفرّقكم وأشار عليه السلام بـه إلى الامام المنتظر أعنى المهدى صاحب الزّمان عليه السلام ، وقيل : أشاربه إلى قائم بنىالعباس بعد انقضاء دولة بنيامية و الأوّل أظهر .

(فلا تطمعوا في غيرمقبل) قال المجلسيّ (ره) : أى من لم يقبل على طلب هذا الأمر ممّن هو أهله فلا تطمعوا فيه ، فانّ ذلك لاختلال بعض شرايط الطلب كما كان شأن أكثر أئمتنا عليهم السلام ، وقيل : أراد بغير المقبل من انحرف عن الدّين بارتكاب منكر ، فانه لا يجوز الطمع في أن يكون أميراً لكم ، و في بعض النسخ فلا تطعنوا في عين مقبل أى من أقبل على هذا الأمر من أهل البيت فلا تدفعوه عما يريد .

(و لا تيأسوا من مدبر) قال المجلسيّ (ره) : أى من أدبر عن طلب الخلافة ممّن هو أهل لهافلا تيأسوا من عوده واقباله على الطّلب ، فانّ ادباره يكون لفقد بعض الشّروط كقلّة الناصر (فانّ المدبر عسىأن تزلّ احدىقائمتيه) وهو كناية عن اختلال بعض الشروط (وتثبت الاخرى) وهو كناية عن وجود بعضها (فترجعا حتّى تثبتاجميعاً)وهو كناية عناستكمال الشرايط، ولاينافيالنّهى عنالاياس النّهى عن الطّمع ، لأنّ عدم اليأس هو التجويز ، والطّمع فوق التجويز ، أو لأنّ النهى عن الطمع في حال عدم الشروط والاعراض عن الطّلب لذلك أيضاً ، و النّهى عن الاياس لجواز حصول الشرايط هذا .

و قوله عليه السلام : (ألا إنّ مثل آل محمّد كمثل نجوم السّماء) أراد به الأئمة الاثنى عشر سلام الله عليهم أجمعين ، وتشبيههم بالنجوم إمّا من حيث أنهم يهتدى بهم في سبيل الله كما يهتدى بالنّجم في ظلمات البرّ والبحر قال سبحانه :

« وَعَلامَاتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ».

ويدلّ عليه ما في تفسير عليّ بن إبراهيم في قوله تعالى :

« هُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها في ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ »

قال : النّجوم آل محمّد ، وقدمرّ توضيح ذلك بمالامزيد عليه فيشرح الخطبةالرّابعة ، وإمّا من حيث أنّهم كلّما مضى منهم امام قام مقامه آخركالنجوم (اذاخوى نجم) اى مال للمغيب (طلع نجم) آخر .

ثمّ بشّرهم بقوله : (فكأنّكم قد تكاملت من الله فيكم الصنايع) أى النّعم والآلاء (وأراكم) الله (ماكنتم تاملون) أى لا تيأسوا عسى الله أن يأتي بالفرج عن قريب ، و المتحقق الوقوع قريب و إن كان بعيداً ، و يمكن أن يكون ارائة المخاطبين مأمولهم في الرّجعة ، والله العالم .

الترجمة

از جملهٔ خطب شريفهٔ ديگر آن امام أنام است كه فرموده :

حمد وسپاس خداوند را سزاست كهپراكنده كننده است در ميانخلق فضل واكرامخودرا، وگستراننده‌درميان ايشانبجود وبخششاحسانوانعام خودرا حمد ميكنيماورادرهمه‌كارهاى او، وطلبيارى ميكنيم ازاوبررعايتحقّهاى او، وشهادت ميدهيم آنكه نيست هيچ معبودى بحق غير ازاو ، وآنكه محمّد بن عبدالله صلوات‌الله عليه وآله بنده ورسول اواست ، فرستاده اورا درحالتي كه اظهار كننده بود امر اورا ، و گوينده بود ذكر او را ، يا اينكه فرستاده او را بأمرخود در حالتي كه شكافنده بودآن امر بيضهٔ شركرا ، و بذكر خود در حالتيكه گوينده بود آن

ذكر حقّ را .

پس أدا نمود حضرت خاتم نبوّت أوامر وأحكام حق را درحالتيكه امين بود درتبليغ رسالت ، و گذشت بسوى خقّ درحالتى كه راستكار يا مستقيم بود برطريق هدايت ، و واپس گذاشت در ميان ما علم حق را كه عبارت باشد از كتاب الله و عترت ، چنان علميكه هر كس بپيش افتاد از او خارج شد از دين وملّت ، وهر كس تخلّف نمود ازآن هلاك شد دربيابانهاى ضلالت ، وهر كه ملازم شد آنرا لاحق گرديد بارباب كمال وسعادت .

دليل وحامل آن علم صاحب تأنّي است درتكلّم نمودن ، وصاحب بطوء است درايستادن ، يعنى كلام وقيام او بافكر وتدبير وبا ملاحظهٔ مآل كار وعاقبت‌انديشى است ، وصاحب سرعت است آن وقتيكه ايستاد بأمرى از امور اسلام ، واينها همه اشاره است بنفس شريف خود آن امام عليه‌السلام چنانچه ميفرمايد .

پس زمانيكه شما نرم نموديد براى او گردنهاى خودرا باطاعت و تسليم ، واشاره نموديد بسوى آن بأنگشتان خود از روى اجلال وتعظيم ، بيايد بسوى او مرگ پس ببرد اورا ، پس درنگ نمائيد بعدازاو بمقدارى كه خواهد خدا تااينكه ظاهرسازد خداوند از براى‌شما كسى‌را كه جمع كند شمارا وبهم‌آورد پراگنده‌گى شمارا ، پس‌طمع نكنيد دركسيكه اقبال ننمايد بخلافت ، ومايوس وناامید نشويد از كسيكه ادبار نمايد بخلافت از جهة اينكه اين ادبار كننده شايد كه بلغزد يكى از دو قائمه او ، و اين كنايه است از انتفاء بعض شرائط ، وثابت شود قائمه ديگر او ، واين كنايه است از وجود بعض شرايط ، پس رجوع نمايند هردوقائمه تا اينكه ثابت شوند هردوتا ، واين كنايه است از استكمال شروط .

آگاه باشيدبدرستيكه مثل أهلبيت پيغمبر صلوات‌الله‌عليه‌وآله مثل ستارهاى آسمانست هر گاه ميل كند بغروب ستارهٔ طلوع نمايد ستارهٔ ديگر پس گوياشما بتحقيق كامل شده ازجانب خدا درحق شمانعمتها واحسانها ، ونموده بشماچيزى‌را كه بوديد آرزوميكرديد آنرا واين بشارت است مرايشانرا بقرب فرج و كرامت .

ومن اخرى وهى المأة من المختار فى باب الخطب

ومن الخطب التى تشتمل على ذكر الملاحم

الأَوَّلُ قَبْلَ كُلِّ أَوَّلٍ، وَالْآخِرُ بَعْدَ كُلِّ آخِرٍ، بِأَوَّلِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لاَ أَوَّلَ لَهُ، وَ بِآخِرِيَّتِهِ وَجَبَ أَنْ لاَ آخِرَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ شَهادَةً يُوافِقُ فِيهَا السِّرُّ الْإِعْلاَنَ، وَالْقَلْبُ اللِّسانَ، أَيُّهَا النَّاسُ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي، وَلاَ يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ عِصْيانِي، وَلاَ تَتَرامَوْا بِالْأَبْصارِ عِنْدَما تَسْمَعُونَهُ مِنِّي، فَوَ الَّذي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَءَ النَّسْمَةَ، إِنَّ الَّذي أُنَبِّئُكُمْ بِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، ما كَذِبَ الْمُبَلِّغُ، وَلاَ جَهِلَ السَّامِعُ، لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلىٰ ضِلِّيلٍ قَدْ نَعَقَ بِالشَّامِ، وَفَحَصَ بِراياتِهِ في ضَواحي كُوفانَ، فَإِذا فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ، وَاشْتَدَّتْ شَكِيمَتُهُ، وَثَقُلَتْ فِي الْأَرْضِ وَطْأَتُهُ، عَضَّتِ الْفِتْنَةُ أَبْناءَها بِأَنْيابِها، وَماجَتِ الْحَرْبُ بِأَمْواجِها، وَبَدا مِنَ الْأَيّامِ كُلُوحُها، وَمِنَ اللَّيالِي كُدُوحُها، فَإِذا أَيْنَعَ زَرْعُهُ، وَقامَ عَلىٰ يَنْعِهِ، وَهَدَرَتْ شَقاشِقُهُ، وَبَرَقَتْ بَوارِقُهُ، عُقِدَتْ راياتُ الْفِتَنِ الْمُعْضِلَةِ، وَأَقْبَلْنَ كَاللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، وَالْبَحْرِ الْمُلْتَطِمِ، هٰذا وَكَمْ يَخْرُقُ الْكُوفَةَ مِنْ قاصِفٍ، وَيَمُرُّ عَلَيْها مِنْ عاصِفٍ، وَعَنْ قَليلٍ تَلْتَفُّ الْقُرُونُ بِالْقُرُونِ، وَيُحْصَدُ الْقائِمُ، وَيُحْطَمُ الْمَحْصُودُ.

اللغة

(الملحمة) الوقعة العظيمة القتل مأخوذة من التحم القتال أى اشتبك واختلط اشتباك لحمة (١) الثوب بالسدى و (النسمة) محركة الريح كالنسيم ثم سميت بها النفس و الجمع نسم مثل قصبة و قصب و (ضليل) وزان سكيت الكثير الضلال و (نعق) الراعى لغنمه من باب ضرب صاح بها وزجرها و (فحص) القطا التراب اتخذ فيه مفحصاً بفتح الميم والحاء وهو يجثمه والموضع الذى تبيض فيه و (ضاحية) البلد ناحيته القريبة منه.

و (الكوفان) الكوفة قال الفيومى : و هى مدينة مشهورة بالعراق قيل : سميت كوفة لاستدارة بنائها ، لأنه يقال تكوف القوم إذا اجتمعوا واستداروا ، وفي القاموس الكوفة بالضم الرملة الحمراء المستديرة أو كل رملة يخالطها حصباء ومدينة العراق الكبرى وقبة الاسلام ودار هجرة المسلمين، مصرها سعد بن أبى وقاص، وكان منزل نوح عليه السلام وبنى مسجدها ، سميت بها لاستدارتها واجتماع الناس بها، ويقال لها : كوفان و يفتح ، و كوفة الجند لأنه اختطت فيها خطط العرب أيام عثمان خططها السائب بن الاقرع الثقفى ، أو سميت بكوفان وهو جبل صغير فسهلوه واختطوا عليه ، أو من الكيف القطع لأن ابرويزا قطعه لبهرام ، أو لأنها قطعة من البلاد و الأصل كيفة فلما سكنت الياء وانضم ما قبلها جعلت واواً ، أو من قولهم هم في كوفان بالضم ويفتح و كوفان محركة مشددة الواو أى في عز ومنعة ، أولأن جبل ساتيد ما محيط بها ، اولأن سعدا لما ارتاد هذه المنزلة للمسلمين قال لهم تكوفوا ، أولأنه قال كوفوا هذه الرملة أى نحوها ،

و (فغر) الفم فغراً من باب نصر ونفع انفتح، وفغرته فتحته يتعدى ولا يتعدي و (الفاغرة) اصول النيلوفر ويستعار للفم باعتبار انفتاحها يقال : وفغرت فاغرته أى انفتح فوه و (الشكيمة) في اللجام الحديدة المعترضة في فم الفرس فيها الفاس والجمع شكائم ، يقال : فلان شديد الشكيمة أنف أبي لاينقاد ، لأن شدة الشكيمة

١ـ اللحمة بالفتح ماينسج عرضا والضم لغة

و قوتها تدلّ على قوّة الفرس و (الوطاء) الدوس بالقدم و الوطأة الأخذة الشديدة والضغطة و (كلح) يكلح من باب منع ، كلوحاً و كلاحاً بضمهما تكشر في عبوس و (الكدوح) بالضمّ جمع كدح وهو الخدش واثر الجراحة .

و (أينع) الزّرع وزان أكرم ، وكذلك ينع من باب منع وضرب ينعاً إذا نضج وحان قطافه وقام على ينعه أى على نضجه فيكون مصدراً : ويحتمل أن يكون جمع يانع مثل صحب وصاحب واليانع الثمر الناضج و (هدر) البعير هدراً من باب ضرب صوّت و (الشقاشق) جمع الشقشقة بالكسر وهو شيء يشبه الرّية يخرج من فم البعير عند الهياج و يقال للخطيب ذوشقشقة تشبيهاً له بالفحل و منه الخطبة الشقشقيّة وقد مرّ .

و (المعضلة) كالمشكلة لفظاً ومعنى يقال : أعضل الأمر أى أشكل وأعضلنى الأمر أى أعياني يتعدّى ولايتعدّي ، وداء عضال لايهتدى بعلاجه و (المظلم) كمحسن الكثير الظلام و (التطم) البحر ضرب أمواجه بعضها بعضاً فهو يلتطم و (حصد) الزرع قطعه بالمنجل و (الحطم) الكسر .

الاعراب

الأوّل خبر لمبتداء محذوف ، و الضمير في ما تسمعونه راجع إلى الكلام المستفاد بالسّياق على حدّ قوله تعالى « توارت بالحجاب » أى الشّمس ، أو يجعل ما موصولة والضميرراجعاً إليها ، وعن النّبيّ متعلّق بمقدّرخبرأنّ أى صادر عن النبيّ أومأخوذ عنه ونحوذلك . وجملة ما كذب المبلّغ استيناف بياني ، واللاّم في قوله لكأنّى جواب قسم محذوف ، وكأنّ للتقريب ، وفاغرته بالضمّ فاعل فغرت ، وعلى في قوله على ينعه للاستعلاء المجازي ، وكم في قوله كم يخرق خبرية بمعنى كثير على حدّ قوله سبحانه :

« كَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا » .

ومن قاصف تميز لكم ، وعن في قوله وعن قليل بمعنى بعد على حدّ قوله :

« عَمَّا قَلِيلٍ لَتُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ».

المعنى

اعلم أنّ هذه الخطبة الشريفة من الخطب التي تشتمل على ذكر الملاحم والوقايع العظيمة التي اتفقت بعده عليه السلام أخبر فيها عمّا يكون قبل كونه ، وافتتحها بأوصاف العظمة و الكمال لله المتعال فقال (الأوّل قبل كلّ أوّل و الآخر بعد كلّ آخر) قد مضى تحقيق الكلام مستقصى في أوّليته و آخريّته سبحانه و أنّه لاشيء قبله و بعده في شرح الخطبة الرابعة و السّتين والرابعة والثمانين و الخطبة التسعين .

وأقول هنا إنّ قوله الأوّل قبل كلّ أوّل ، اخبار عن قدمه ، وقوله والآخر بعد كلّ آخر ، اخبار عن استحالة عدمه ، يعني أنه تعالى قديم أزلي ودائم أبدي وهو أوّل الأوايل و آخر الأواخر ، فلو فرض وجود شيء قبله لزم بطلان قدمه ، ولو فرض وجود شيء بعده لزم جواز عدمه ، و كلاهما محال لتنافيهما لوجوب الوجود

ولابأس بتحقيق الكلام في قدمه تعالى فنقول : إنّ القديم على ماحقّقه بعض المتألّهين له معنيان بل معان ثلاثة :

أحدها القديم الزّماني، وهوأن لايكون للزّمان ووجوده ابتداء والله سبحانه لايتّصف بالقدم بهذا المعنى ، لأنه تعالى بريء عن مقارنة الزّمان والتغيّروالتقدّر بالمقدار ، سواء كان مقداراً قارّاً كالجسم والخطّ ، أو غير قار كالزّمان .

والثاني القديم الذاتي ، وهو أن لايكون ذاته من حيث ذاته مفتقراً إلى غيره حتّى يكون متأخّراً عنه بالذّات ، ولا أن يكون معه شيء آخر معيّة بالذات حتّى يتأخّرا جميعاً عن شيء ثالث تأخّراً بالذّات ، فانّ المعية الذاتية بين شيئين هوأن لايمكن انفكاك أحدهما نظراً إلى ذاته عن صاحبه ، و هذا المعنى يستلزم أن يكون كلاهما معلولى علّة واحدة ، فانّ الذّاتين إذا لم يكن بينهما علاقة ذاتية

افتقارية بأن يكون إحديهما سبباً للاخرى ، أو يكونا جميعاً مسبّبين عن ثالث موجب لهما ، فيجوز عند العقل انفكاك كلّ منهما عن صاحبه ، فكانت مصاحبتهما لابالذّات بل بالاتفاق في زمان أو نحوه .

فالحق تعالى إذ هو مبدء كلّ شيء كان الزّمان مخلوقا له متأخّراً عنه ، فلم يكن قديماً بالزّمان ، فهو قديم بالذّات لأنّ ذاته غير متعلّق بشيء فلا شيء قبله قبليّة بالذات ، ولامعه معيّة بالذات لما علمت ، وإذ كلّ ماسواه مفتقر الذات إليه فيكون متأخّراً عنه فيكون حادثاً .

فظهر بذلك عدم جواز كون شيء قبله أومعه ، لأنّه لوكان معه شيء لم يكن الله سبباً موجداً له ، بل يلزم أن يكون ثالث موجداً لهما ، و لوكان قبله شيء لكان ذلك القبل خالقا والخالق مخلوقا له .

و تحقّق من ذلك بطلان قول من قال إنّ العالم قديم ، لأنّه إن أراد به أنّه قديم بالذات فهو يناقض كونه عالما مفتقراً إلى غيره ، وإن أراد أنّ ذاته مع ذات البارى فحيث ذات البارى لم يكن له وجود في تلك المرتبة أصلا ، وإن قال إنّه قديم بالزّمان فالزّمان ليس الاّ كمية الحركة وعددها والحركة ليست حقيقتها الاّ الحدوث والتجدّد ، فكذلك كلّ مافيها أومعها فعلم بذلك أن لا قديم بالذّات إلاّ الأوّل تعالى .

وإذا اطلق على غيره كان بمعنى ثالث نسبى غير حقيقى وهوأن يكون مامضى من وجود شيء أكثر ممامضى من وجود شيء آخر وهوالقديم العرفي هذا .

ولما عرفت أنّ معنى أوليّته سبحانه كونه قديما بالذات ومبدءاً للموجودات ومعنى آخريّته كونه أبدياًو غاية الغايات تعرف بذلك أنه سبحانه (بأوليته وجب أن لا أوّل له وبآخريّتة وجب أن لاآخر له) يعني أنّه سبحانه لما كان بذاته أولا آخراً لايمكن أن يكون لذاته أوّل وبداية ، ولا له آخر ونهاية ، كمالايمكن أن يكون له أوّل سبقه ، ولاله آخر بعده .

ويوضح ذلك رواية ميمون البان التي تقدّمت في شرح الخطبة الرابعة والثمانين

قال : سمعت أباعبدالله عليه السلام وقد سئل عن الأوّل والآخر، فقال : الأوّل لاعن أوّل قبله ولا عن بدىء سبقه ، وآخر لاعن نهاية كما يعقل عن صفة المخلوقين ، ولكن قديم أوّل آخر لم يزل ولايزول بلا بدىء ولا نهاية ، لا يقع عليه الحدوث ولايحول من حال إلى حال ، خالق كلّ شيء .

قال بعض شرّاح الحديث ، البدىء فعيل بمعنى المصدر أى البداية لوقوعه في مقابل النهاية ، وعن الثانية بمعنى إلى ، والمراد أنّ أوّليته تعالى لا عن ابتداء وآخريّته لا إلى نهاية ،فهوالأوّل لميزل بلاأوّل سبقهولابدايةله، وهوالآخرلايزول بلا آخر بعده ولا نهاية له .

وقوله عليه السلام: ولكن قديم أوّل آخر بتركالواو العاطفةاشارةإلىأنّ أوليّتهعين آخريتهليدلّ على أن كونهقديماًليس بمعنىالقديمالزمانيأىالامتدادالكمي بلانهاية إذ وجوده ليس بزماني سواءكان الزّمان متناهياً أوغيرمتناه وإلاّ لزم التغيّروالتجدّد فيذاته بل وجوده فوق الزمان ، والدّهر نسبته إلىالأزل كنسبته إلى الأبد ، فهو بما هو أزليّ أبديّ ، وبما هوأبديّ أزليّ ، وأنّه وإن كان مع الأزل والأبد ، لكنه ليس في الأزلولا في الأبد حتّى يتغيّر ذاته ، وإليه الاشارة بقوله : لا يقع عليه الحدوث إذ كلّ زمان وزماني وإن لم يكن ذا بداية فهو حادث اذ كلّ من وجوده مسبوق بعدم سابق فهو حادث .

و قوله عليه السلام لايحول من حال إلى حال ، إمّا تفسير للحدوث ، و إمّا إشارة إلى أن لا تغيّر أصلا في صفاته كما لاتغيّرفي ذاته ، فليست ذاته ولا صفاتهالحقيقية واقعة في الزمان والتّغير .

وقوله عليه السلام خالق كلّ شيء ، كالبرهان لما ذكر ، فانه تعالى لماكان خالق كلّشيء سواء كان خالقاً للزمان و الدّهر ، فيكون وجوده قبل الزّمان قبلية بالذات لا بالزمان ، و إلاّ لزم تقدّم الزّمان على نفسه وهو محال ، فاذا حيث هو تعالى لا زمان ولا حركة ولا تغيّر أصلا فهو تعالى أوّل بما هوآخر وآخر بما هو أوّل ، نسبته إلى الآزال والآباد نسبة واحدة ومعيّة قيّومية غيرزمانيّة .

(وأشهد أن لاإله إلاالله شهادة يوافق فيها السّر الاعلان والقلب اللّسان) أى شهادة صادرة عن صميم القلب خالصة عن شوْب النفاق والجحود هذا .

ولمّا كان قصده عليه السلام اخبارهم عمّا يكبر في صدورهم ويضعف عنه قلوبهم ويكاد أن ينسبوه إلى الكذب فيه لاجرم أيّههم أوّلا وحذّرهم عن التكذيب بقوله : (أيّها الناس لايجرمنّكم شقاقى) أى لايحملنّكم معاداتي وخلافي على أن تكذّبوني (ولا يستهوينكم عصياني) أى لايذهبنّ معصيتي بهواكم و عقلكم ، و قيل : أى لا تستهيمنّكم و يجعلكم هائمين وهو قريب ممّا قلناه (ولا تتراموا بالابصار عند ما تسمعونه منّي) أى لاينظر بعضكم بعضاً فعل المنكر المكذّب عند سماع الاخبار الغيبية منّى (فوالذي فلق الحبّة) أى خلقها أوشقّها باخراج النبات منها (وبرء النّسمة) أى خلق النّفس الانساني وأوجدها (انّ الذي أُنبئكم به) ما أقوله من تلقاء نفسي فتسرعوا وتبادروا إلى تكذيبي ، وانما هو متلقا ومأخوذ (عن النّبيّ الصّادق الأمين (صلى الله عليه وآله) أجمعين (ما كذب المبلّغ ولاجهل السّامع) أراد بالمبلّغ رسول الله صلى الله عليه وآله في تبليغه عن الله سبحانه وبالسّامع نفسه الشّريف ، فيكون فيه إشعار بأنّ مايخبرهم به مأخوذ من الله سبحانه .

قال الشّارح المعتزلي : و المبلّغ و السّامع نفسه ، يقول : ما كذبت على الرّسول تعمداً ولاجهلت ما قاله فانقل عنه غلطا ، والأوّل أظهر هذا .

و لمّا وطّن نفوس السّامعين لقبول ما يقوله ونحّاهم من الاستيحاش شرع في مقصده وما هو بصدده من الاخبار عمّا سيكون فقال(لكأنّى) أى تاالله لكأنّي (أنظر إلى ضلّيل) أى إلى رجل كثير الضلال واختلف في هذا الرّجل فقيل : إنّه السّفياني الموعود ، وقيل : إنّه معاوية ، وقيل : بل يمكن أن يريد به شخصاً آخر يظهر بعد بالشام ، والأشبه كما في شرح المعتزلي أنّه أراد به عبدالملك بن مروان .

واستبعد الشّارح كون المراد به معاوية بأنّ ظاهر الكلام يدلّ على انسان ينعق فيما بعد و معاوية كان في أيّام أمير المؤمنين عليه السلام نعق بالشام و دعاهم إلى نفسه ، واستقرب عبدالملك بأنّ هذه الصّفات والامارات كان فيه أتمّ منها في غيره

فانه (قد نعق بالشام) أى صاح فيه حين دعا أهله إلى نفسه ، أوصاح بهم و زجرهم حين الشّخوص إلى العراق (و فحص براياته في ضواحى كوفان) أى أخذ نواحى كوفة مفحصاً لراياته كما تأخذ القطاة في الأرض مفحصاً لها ، وذلك حين شخص عبدالملك بنفسه إلى العراق وقتل مصعباً واستخلف الأمراء من بشربن مروان أخيه وغيره عليه حتى انتهى الأمر إلى الحجّاج .

(فاذا فغرت فاغرته) أى انفتح فوه وهو استعارة لاقتحامه للناس وافتراسه لهم بالفتك والقتل كما يفتح الأسد فاه عند افتراس فريسته .

و ما في شرح المعتزلي و غيره من أنّ تأنيث الفاغرة للفتنة لا يفهم معناه ، بل الظّاهر أنّ التأنيث بملاحظة أصل المعنى المستعار منه على ما قدّمناه .

(واشتدّت شكيمته) وهو كناية عن شدّة بأسه وقوّته ، لأنّ الفرس القوىّ شديد الرأس يحتاج إلى قوّة الشكيمة (و ثقلت في الأرض وطأته) وهو كناية عن شدّة جوره و ظلمه قال الشارح المعتزلي : و ذلك حين ولي الحجاج على العراق فصعب الأمر جداً و عند ذلك (عضّت الفتنة أبنائها بأنيابها) شبّه الفتنة بحيوان صائل وأثبت لها النّاب على سبيل التخييل ورشح الاستعارة بذكر العضّ وأراد بأبناء الفتنة أهلها ، والمراد أنه اذا قوى سلطنة ذلك الضّليل كثر الفتن و يقع أهلها في الشدّة و الألم .

قال الشارح و هو اشارة إلى تفاقم الفتن بين عبد الملك و بين الخوارج وعبدالرّحمن بن الأشعث (و ماجت الحرب بأمواجها) كالبحر المتلاطم التيار المتراكم الزّخار (وبدا من الأيام كلوحها) نسبة الكلوح إلى الأيام من التوسّع في الاسناد وأرادبه كثرة مايلقى النّاس فيها من العبوس وسوء الحال و كذلك نسبة الكدوح إلى الليالي في قوله (و من اللّيالي كدوحها) و هو إشارة إلى مايبتلى به النّاس فيها من المصائب الشبيهة بآثار الجراحات والخدوش والجنايات .

(فاذا أينع زرعه) أراد به انتظام أمره و كمال شوكته (وقام على ينعه) أى على نضجه و كماله (و هدرت شقاشقة) و هو إشارة إلى ظهور طغيانه و بأسه

(و برقت بوارقه) أى سيوفه و رماحه البارقة (عقدت رايات الفتن المعضلة) أى الموجبة للاعضال والاشكال أو التي يعيي عن رفعها وعلاجها (وأقبلن كاللّيل المظلم) وجه تشبيهها بالليل كونها لايهتدى فيها إلى حقّ كما لايهتدى في ظلمة اللّيل إلى المقصد (والبحر الملتطم) أى كثير الأمواج وتشبيهها به في عظمها ، وفي التّوصيف بالملتطم اشارة إلى خلط الخلق فيها بعضهم ببعض و محق بعضهم بعضا كما يلتطم الأمواج بعضها بعضاً هذا .

وقال الشارح أراد بعقد رايات الفتن الموصوفة بالأوصاف المذكورة ماوقع بعد عبدالملك من حروب أولاده مع بني المهلّب وحروبهم مع زيد بن عليّ عليه السلام والفتن الكائنة بالكوفة أيّام يوسف بن عمر وخالد القسرى وعمر بن هبيرة وغيرهم وماجرى فيها من الظلم واستيصال الأموال وذهاب النفوس .

وإلى ذلك أشار عليه السلام بقوله (هذا و كم يخرق الكوفة) أى يجوبها ويقطعها (من) ريح (قاصف) وهى التي تقصف كلّ مامرّت عليه (وتمرّ عليها من) ريح (عاصف) قال الشارح البحراني : استعار وصفى القاصف والعاصف لمايمرّ بها ويجرى على أهلها من الشدائد .

ثمّ قال عليه السلام (و عن قليل تلتفّ القرون بالقرون و يحصد القائم و يحطم المحصود) أى بعد برهة من الزّمان تجتمع الأمم بالأمم و تختلط أجيال النّاس بعضهم ببعض ، وحصد القائم وحطم المحصود ، قيل : اشارة إلى عموم البلاء ، و حصد القائم كناية عن قتل القوى ، وحطم المحصود كناية عن استيصال الضّعيف .

وقال الشارح البحرانى : كنّى عليه السلام بالتفاف بعضهم ببعض عن اجتماعهم في بطن الأرض ، و استعار لهم لفظ الحصد و الحطم لمشابهتهم الزّرع يحصد قائمه ويحطم محصوده ، فكنّى بحصدهم عن قتلهم أوموتهم ، وبحطم محصودهم عن فنائهم وتفرّق أوصالهم فى التراب .

وقال الشارح المعتزلي : و هو كناية عن الدّولة العبّاسية التي ظهرت على دولة بنى اميّة ، ويحصد القائم ويحطم المحصود كناية عن قتل الأمراء من بنى اميّة

في الحرب ، ثم قتل الماسورين منهم صبراً ، فحصد القائم قتل المحاربة، وحطم الحصيد القتل صبراً ، وهكذا وقعت الحال مع عبدالله بن عليّ وأبي العبّاس السّفاح .

وقيل : التفافهم كناية عن جمعهم في موقف الحساب أوطلب بعضهم مظالمهم من بعض ، وحصدهم عن ازالتهم عن موضع قيامهم أى الموقف وسوقهم إلى النّار ، وحطمهم عن تعذيبهم في نارجهنم ، والله العالم بحقايق الكلام .

الترجمة

از جملهٔ خطب دیگر است که متضمّن اخبارات غیبیه است ومشتمل میباشد برذکر واقعه‌های عظیمه میفرماید : خداوند تعالی اولی است پیش از هر أوّل وآخری است بعداز هرآخر ، بمقتضای أوّل بودنش واجبست که نبوده باشد هیچ أوّل مراورا ، وبمقتضای آخر بودنش واجبست که نبوده باشد هیچ آخر مر اورا و شهادت میدهم آنکه نیست هیچ معبودی بحق غیراز واجب الوجود بالذات چنان شهادتی که موافقت نماید در اوباطن با ظاهر وقلب با زبان .

ای مردمان باید که باعث‌نشود شمارا عداوت ومخالفت من برتکذیب من ، ومتحیّر نگردانٔد شما را نافرماني کردن با من ، ومیندازید دیدها را بیکدیگر نزد شنیدن اخبار غریبه از من ، پس قسم بحق آنکسیکه شکافت دانه را و خلق فرمود انسانرا بدرستی که آنچه خبرمیدهم شمارابآن اخذشده‌است ازپیغمبر صلّی الله علیه وآله دروغ نگفته رسانندهٔ آنخبر که عبارتست ازپیغمبر ، و جاهل نبوده شنوندهٔ آن که عبارتست از نفس نفیس خود .

گویا که نگاه میکنم بمردی که متصف است بنهایت گمراهی که بانك زده درشام ، ومنزل‌أخذ میکند بعلمهای خودش در اطراف کوفه ، پس هر گاه که گشوده شود دهان او ، وسخت شود دهنهٔ لجام او ، و گران شود در زمین گام زدن او ، بگزد فتنه پسران خودرا بدندانهای خود ، و موج زند جنك بموجهای خود ، و ظاهر میشود از روزها بسیاری عبوس و ترش روئی او ، و از شبها أثرهای جراحت او .

پس چون بسرحد کمال رسد زراعت آنمرد گمراه ، وبایستد بر کمال خود و آواز دهد شقشقهای او که عبارتست ازچیزهائی که مثل شش ازدهن شتر بیرون می‌آید در حال مستی ، و درخشان شود شمشیرها و نیزهای براق او ، بسته شود علمهای فتنها ، و روی آورند مانند شب تاریك و مثل دریاهای موّاج ، فرا گیر این مطلب را ، وبسا میشود که بدرّد کوفه را باد سخت شکننده ، وبگذرد بکوفه باد تند جهنده ، و این کنایه است ازشدّتها ومصیبتها که وارد میشود بأهل کوفه و بعداز زمان قلیلی جمع شود قرنها باقرنها ، و مختلط شود گروهی با گروهی ، ودرویده می‌شود ایستاده ، وشکسته میشود درویده‌شده ، واین کنایه‌است‌ازاستیصال وهلاك شدن صاحب قوت وصاحب ضعف .

و من خطبة له عليه السلام يجرى هذا المجرى و هى المأة والواحدة من المختار فى باب الخطب

وَ ذٰلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ اللهُ فيهِ الْأَوَّلينَ وَ الْآخِرينَ لِنِقاشِ الْحِسابِ ، وَجزاءِ الْأَعْمالِ ، خُضُوعاً قِياماً ، قَدْ أَلْجَمَهُمُ الْعَرَقُ ، وَرَجَفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ فَأَحْسَنُهُمْ حالاً مَنْ وَجَدَ لِقَدَمَيْهِ مَوْضِعاً ، وَ لِنَفْسِهِ مُتَّسَعاً .

منها : فِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، لاٰ تَقُومُ لَها قائِمَةٌ ، وَ لاٰ تُرَدُّ لَها رايَةٌ ، تَأْتيكُمْ مَزْمُومَةً مَرْحُولَةً يَحْفِزُها قائِدُها ، وَيَجْهَدُها راكِبُها، أَهْلُها قَوْمٌ شَديدٌ كَلَبُهُمْ ، قَليلٌ سَلَبُهُمْ ، يُجاهِدُهُمْ في سَبيلِ اللهِ ، قَوْمٌ أَذِلَّةٌ عِنْدَ الْمُتَكَبِّرينَ ، فِي الأَرْضِ مَجْهُولُونَ ، وَ فِي السَّماءِ مَعْرُوفُونَ ،

فَوَيْلٌ لَكِ يا بَصْرَةُ عِنْدَ ذٰلِكَ مِنْ جَيْشٍ مِنْ نِقَمِ اللهِ لاٰ رَهَجَ لَهُ وَ لاٰ حِسَّ، وَسَيُبْتَلىٰ أَهْلُكَ بِالْمَوْتِ الْأَحْمَرِ، وَالْجُوعِ الْأَغْبَرِ.

اللغة

(ناقشته) مناقشة استقصيته في الحساب (والقطع) قطعة كسدر و سدرة وهى الطائفة من الشيء قال الشارح المعتزلي: قطع اللّيل جمع قطع وهو الظّلمة قال تعالى:

«فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ».

و لعلّه سهو و (زممت) البعير زمّاً شددت عليه زمامه فهو مزموم و (الرّحل) كلّ شيء يعد للرّحيل من وعاء المتاع ومركب البعير والحلس والرّسن وجمعه رحال و أرحل مثل سهام و أفلس و (جهدت) الدّابة وأجهدتها حملت عليها في السّير فوق طاقتها و (الكلب) محرّكة الشر والاذى و (السّلب) محركة أيضاً ما يأخذه أحد القرنين في القتال من قرنه ممّا يكون عليه من ثوب أو سلاح أو درع أو غيرها و (النقم) جمع نقمة وهى العقوبة و (الرهيج) محرّكة الغبار.

الاعراب

خضوعاً قياماً منصوبان على الحال من مفعول يجمع، وجملة لا تقوم مرفوعة المحلّ على أنّها وصف لفتن، وجملة تأتيكم استينافيّة أوحال من مفعول تقوم وجملة يحفزها آه حال من فاعل تأتيكم، ومجهولون وصف ثان لقوم.

المعنى

اعلم أنّ هذه الخطبة الشريفة تجرى مجرى الاخبار عن الملاحم أيضاً كالخطبة السّالفة حيث إنها مشتملة على فصلين، والفصل الثاني منها من هذا القبيل، و أمّا الفصل الأوّل فمتضمّن لبيان بعض أهوال يوم القيامة وشدايدها، و قد مضى الكلام فيها مفصّلا في الفصل الثّالث من فصول الخطبة الثانية والثمانين وشرحه.

و قال عليه السلام هذا (و ذلك يوم يجمع الله فيه الأوّلين و الآخرين) كما قال تعالى في سورة هود.

« وَ ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النّاسُ وَ ذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ » و في سورة الواقعة : « قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلىٰ مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ»

و انما جمعهم (لنقاش الحساب وجزاء الأعمال) أى ليناقش في حسابهم ويستقصى فيه ويجزى كلّ جزاء عمله ، إن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشرّاً .

« فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّمٰواتُ وَ الْأَرْضُ إِلّا ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعّالٌ لِما يُرِيدُ »

« وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّمٰواتُ وَالْأَرْضُ إِلّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ » .

(خضوعاً قياماً) أى خاضعين خاشعين من هول المعاد ، قائمين لربّ العباد (قد ألجمهم العرق) أى بلغ محلّ لجامهم من كثرة التزاحم و الاجتماع وشدّة الحرارة قال الطبرسي في تفسير قوله تعالى :

« يَوْمَ يَقُومُ النّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ » .

المعنى يوم يقوم النّاس من قبورهم لأمر ربّ العالمين ولجزائه أو حسابه ، وجاء في الحديث انّهم يقومون في رشحهم إلى انصاف آذانهم ، وفي حديث آخر يقومون حتّى يبلغ الرشح إلى أطراف آذانهم .

وفي الحديث عن سليم بن عامر عن المقداد بن الأسود قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول إذا كان يوم القيامة ادنيت الشمس من العباد حتى تكون الشّمس بقدر ميل أو ميلين ، قال سليم فلا أدرى أمسافة الأرض أو الميل الذي تكحل به العين ثمّ قال

صهرتهم الشّمس فيكونون في العرق بقدر أعمالهم ، فمنهم من يأخذه إلى عقبه ، و منهم من يلجمه إلجاما ، قال : فرأيت رسول الله ﷺ يشير بيده إلى فيه قال يلجمه إلجاما .

(و رجفت بهم الأرض) لعلّه اشارة إلى الرّجفة في النفخة الثّانية على ما اشير إليها فى قوله سبحانه :

« إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها ، وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها ، وَقالَ الْإِنْسانُ ما لَها ، يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها ».

(فأحسنهم حالا) فىهذا اليوم (من وجدلقدميه موضعاً ولنفسه متّسعاً) و هو اشارة إلىشدّة الضيق على النّاس فيه هذا والفصل الثاني الذى التقطه السيّد (ره) .

منها قوله عليه السلام (فتن كقطع اللّيل المظلم) في عدم الاهتداء فيها إلى النهج الحقّ والصّراط المستقيم (لا تقوم لهاقائمة) أى لاتنهض لدفعهاقائمة قائمة أولاتقوم لهاقائمة من قوائم الخيل ، وهو كناية عنعدم امكان مقابلتها بالحرب وعدمالتمكن من قتال أهلها ، أو لاتقوم لها بنية أو قلعة قائمة ، بل تخرب وتنهدم فيكون كناية عن قوّتهم و كذلك قوله عليه السلام (ولا تردّ لها راية) أى لا تنهزم راية من راية تلك الفتنة ولا تفرّ بل تكون غالبة دائماً ، أو لا ترجع لحربها راية من الرّايات التي هربت عنها .

ثمّ شبّهها بناقة تامّة الأدوات كاملة الآلات و استعار لها أوصافها فقال (تأتيكم مزمومة مرحولة) أى كناقة معدّة للركوب عليها زمامها و رحالها (يحفزهاقائدها) أى يسوقها بشدّة ، و أراد بالقائد أعوانها (ويجهدها راكبها) أى يوقعها فى الجهد و المشقّة و يحمل عليها في السّير فوق الطّاقة ، و أراد بالرّاكب أرباب تلك الفتنة و كنّى بالحفز والجهد عن سرعتهم ومبادرتهم إليها (أهلها قوم شديد كلبهمقليل سلبهم) أى شديد شرّهم و أذاهم و قليل ما سلبوه

من الخصم اذ همّتهم القتل لا السّلب كما قال الشاعر :

هم الأسود أسود الغاب همّتها   يوم الكريهة في المسلوب لا السّلب

و اختلف في تلك الفتنة و أهلها : فقال الشّارح المعتزلى : إشارة إلى ملحمة تجرى فى آخر الزمان ولم يأت بعد ، واستقربه المحدّث المجلسى «ره» في البحار، وقال الشارح البحراني : اشارة إلى فتنة صاحب الزنج لا تصافهم بشدّة الكلب و قلّة السّلب إذ لم يكونوا أصحاب حرب وعدّة وخيل كما يعرف ذلك من قصتهم المشهورة وسيذكر طرف منها في شرح بعض الخطب الآتية وهى الخطبة المأة والثامنة و العشرون.

واستبعده في البحار بأنّ مجاهديهم لم يكونوا على الأوصاف التي أشار إليها بقوله (يجاهدهم في الله قوم أذلّة عند المتكبّرين في الأرض مجهولون وفي السّماء معروفون) إلاّ أن يقال : لشقاوة الطّرف الآخر أمدّهم الله بالملائكة ، وهم مجهولون في الأرض لعدم كونهم من أبناء الدنيا المشهورين بنعيمها ، و معروفون فى السماء لكونهم من أهل العلم و العرفان يعرفهم ربّهم بالطّاعة و يعرفهم ساير الملائكة بالعبادة ولا يخفى بعده ، و قال الشّارح المعتزلي : كونهم مجهولين في الأرض لخمولهم قبل هذا الجهاد .

ثمّ خاطب عليه‌السلام البصرة على سبيل انذار أهلها و قال (فويل لك يا بصرة عند ذلك من جيش من نقم الله لا رهج له و لا حسّ)قال الشّارح البحراني و هو اشارة إلى فتنة الزنج وظاهر أنّهم لم يكن لهم غبار ولا أصوات إذ لم يكونوا أهل خيل ولا قعقعة لجم فاذا لا رهج لهم ولا حسّ ، وظاهر كونهم من نقم الله للعصاة وان عمت الفتنة اذ قلما تخصّ العقوبة النّازلة بقوم بعضهم كما قال تعالى :

« وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خاصَّةً » .

وفيه أنّ ظاهر عبارته عليه‌السلام مشعر بكون هذا الجيش غير ما اخبر به أوّلا فاذا كان الأوّل اشارة إلى صاحب الزّنج و جيشه حسبما زعمه الشارح فكيف يمكن جعل ذلك اشارة إليهم أيضاً وان كانوا بالأوصاف المذكورة ، وقال الشارح المعتزلي كنّى عليه‌السلام بهذا الجيش عن طاعون يصيبهم حتى يبيدهم .

أقول : و الأولى و كول علم ذلك إليهم عليهم السلام لأنّ أهل البيت أدرى بما فيه ثمّ قال (وسيبتلى أهلك بالموت الأحمر والجوع الأغبر) الموت الأحمر امّا كناية عن الوباء ووصفه بالحمرة لشدّته ووصف الجوع بانه أغبر لأنّ الجايع يرى الآفاق كانّ عليها غبرة وظلاماً كما في شرح المعتزلي ، أو الأول كناية عن قتلهم بالسيف كما قيل ، أو عن هلاكهم بالغرق كما في شرح البحراني ، قال و وصف الجوع بالأغبر لأنّ شدة الجوع ما اغبر معه الوجه لقلة مادّة الغذاء أو ردائته أولأنّه يلصق بالغبراء وهي الأرض .

أقول : و يمكن أن يكون وصف الجوع به من حيث كونه ناشئاً من كثرة اغبرار الأرض وجدبها بقلّة الأمطار ، والله العالم .

تنبيه

قد تقدّم في أوّل تنبيهات الكلام الثالث عشر خطبة طويلة له عليه السلام خطب بها بعد الفراغ من قتال أهل البصرة وهى متضمّنة لأكثر فقرات هذه الخطبة ومشتملة على زيادات كثيرة فعليك بالرجوع اليها فانه لايخلو من منفعة .

الترجمة

و از جمله خطب شريفه آنسرور عالميان و امام متقيانست كه جارى شده در موضع اخبار از ملاحم مثل خطبه سابقه ميفرمايد :

وآن يعنى روز قيامت روزيستكه جمع ميكند خداوند عالم اوّلين وآخرين را ازبراى استقصاء ودقّت نمودن درحساب ، وجزا دادن برعملها در حالتيكه همه خضوع كننده باشند و ايستاده بجهة أمر پروردگار ، بتحقيق كه رسيده باشد عرق بدهان ايشان از كثرت حرارت وشدّة ازدحام خلقان ، وبلرزد برايشان عرصه زمين پس نيكوترين ايشان از حيثيت حال كسيست كه بيابد بجهة قدمهاى خود مكانى وبجهة نفس خود محلّ وسعت وفضائى

از جملهٔ فقرات اين خطبه كه متضمّن اخبار ازوقايع آتيه است اينست كه فرموده

فتنه‌هائی‌است مثل پارهای شب تاریك که برنخیزد ازبرای دفع آن جماعتی ایستاده ، وبازنگرداند ازبرای او علم برپا شده ، بیاید بسوی شما مانند شتریکه أفسار کرده باشد وپالان برنهاده درحالتی که میراند آنرا باشدّت کشندهٔ آن ، و بمشقّت میأندازد آنرا سوار شوندهٔ آن ، أهل فتنه‌ها گروهی هستند که شدید باشد أذیّت و شرارت ایشان ، وکم باشد ثیاب و سلاح دریافت نشده.ازخصم ایشان وآن کنایه از این است که غرض ایشان کشتن خصم است نه غنیمت بردن ، جهاد میکند با ایشان گروهی که خواز وذلیل باشند درنزد متکبرین ، کم نام‌باشند درنزد أهل زمین ، مشهور باشند درپیش أهل آسمان برین .

پس وای باشد تورا ای بصره از لشگریکه پدید آید از غضب وعقوبة خدا در حالتیکه نباشد آن لشگر را گرد وغباری ، ونه حس وحرکتی ازجهة اینکه ایشان را خیل وقعقعه سلاح نباشد ، و بزودی مبتلا شوند أهل تو أی بصره بمرگ سرخ که کشته شدنست باشمشیر ، وبگرسنگی غبار آلوده .

و من خطبة له عليه‌السلام و هی الماة و الثانية من المختار فی باب الخطب

و شرحها في فصلين :

الفصل الاول

أُنْظُرُوا إِلَى الدُّنيا نَظَرَ الزَّاهِدِينَ فِيها ، الصّادِفِينَ عَنْها ، فَإِنَّها وَ اللهِ عَمّا قَلِيلٍ تُزِيلُ الثّاوِيَ السّاكِنَ ، وَ تَفْجَعُ الْمُتْرَفَ الْآمِنَ ، لا يَرْجِعُ ما تَوَلّى مِنْها فَأَدْبَرَ ، وَلا يُدْرى ما هُوَ آتٍ مِنْها فَيُنْتَظَرُ ، سُرُورُها مَشُوبٌ

بِالْحُزْنِ، وَجَلَدُ الرِّجالِ فيها إِلَى الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ، فَلا تَغُرَّنَّكُمْ كَثْرَةُ ما يُعْجِبُكُمْ فيها لِقِلَّةِ ما يَصْحَبُكُمْ مِنْها، رَحِمَ اللهُ امْرَءً تَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ، وَاعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ، فَكَأَنَّ ما هُوَ كائِنٌ مِنَ الدُّنيا عَنْ قَليلٍ لَمْ يَكُنْ، وَكَأَنَّ ما هُوَ كائِنٌ مِنَ الْآخِرَةِ عَمّا قَليلٍ لَمْ يَزَلْ، وَكُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ، وَكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ، وَكُلُّ آتٍ قَريبٌ دانٍ.

منها أَلعالِمُ مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ، وَكَفى بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَنْ لا يَعْرِفَ قَدْرَهُ، وَإِنَّ مِنْ أَبْغَضِ الرِّجالِ إِلَى اللهِ لَعَبْدٌ وَكَّلَهُ اللهُ إِلى نَفْسِهِ، جائِرٌ عَنْ قَصْدِ السَّبيلِ، سائِرٌ بِغَيْرِ دَليلٍ، إِنْ دُعِيَ إِلى حَرْثِ الدُّنيا عَمِلَ، وَإِنْ دُعِيَ إِلى حَرْثِ الْآخِرَةِ كَسِلَ، كَأَنَّ ما عَمِلَ لَهُ واجِبٌ عَلَيْهِ، وَكَأَنَّ ما وَنى فيهِ ساقِطٌ عَنْهُ.

اللغة

(صدفت) عنه أصدف من باب ضرب اعرضت و صدفت المرئة فهي صدوف وهي التي تعرض وجهها عليك ثمّ تصدف عنك و (ثوى) بالمكان وفيه وربّما يتعدّى بنفسه من باب رمى يثوى ثواء بالمدّ أقام فهو ثاو قال تعالى :

«وَما كُنْتَ ثاوِياً في أَهْلِ مَدْيَنَ».

و (فجعه) يفجعه من باب منع وجعه كفجّعه أو الفجع أن يوجع الانسان بشيء يكرم عليه فيعدمه و (اترفته) النعمة أطغته و المترف وزان مكرم المتروك يصنع مايشاء ولايمنع و (الجلد) محركة الشّدة والقوّة فهوجلد وجليداى شديد قوى

و (النّقض) كالانتقاض ضد الابرام وفي بعض النسخ منتقض بدل منقض و (ونى) في الأمر يني ونياً من باب وعد ضعف وفتر فهو وان ، قال سبحانه : « وَلاتَنِيافي ذِكْري»

الاعراب

الفاء في قوله فأدبر عاطفة للجملة على جملة الصّلة وفي قوله فلا تغرّنـّكم فصيحة ، و جملة رحم الله امرء دعائية لا محلّ لها من الاعراب ، و عن في قوله عن قليل بمعنى بعد ، و كذلك في قوله عليه السلام عمّا قليل وما زايدة على حدّ قوله سبحانه :

« عَمّا قَليلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمينَ » .

واللاّم في قوله العالم من عرف قدره للجنس والتعريف لقصد الحصر مبالغة ومن في قوله عليه السلام انّ من أبغض الرّجال لعبد زايدة في اسم إنّ ولعبد بالرّفع خبرها كما زيدت في اسم كان في قوله تعالى :

« وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ ».

وإليه ذهب الكسائى في قوله عليه السلام : إنّ من أشدّ النّاس عذاباً يوم القيامة المصوّرون وفي نسخة للشارح المعتزلي لعبداً بالنّصب و كذلك جائراً وسائراً فيكون حينئذ من للتبعيض و هي مع مدخولها خبر ان مقدّماً ولعبداً اسم لها ، وجايراً و سايراً يحتملان الحال والوصف .

المعنى

اعلم أنّ هذا الفصل من الخطبة متضمّن للتّزهيد عن الدّنيا و التّنفير منها بالتنبيه على عيوبها المرغّبة عنها ، و قد مضى الكلام في هذا المعنى مستوفا في الخطبة الثانية والعشرين وشرحها وفي غيرها من الخطب السّالفة وقال عليه السلام هنا : (انظروا إلى الدّنيا نظر الزّاهدين فيها الصّادفين عنها) قد مرّ تحقيق معنى الزّهد وبيان مراتبه واقسامه بمالا مزيد عليه في شرح الخطبة التاسعة والسبعين وقدّمنا هنالك بعض الأخبار الواردة فيه ونورد هنا بعض مالم نروه فأقول :

روى في الكافي عن علي بن إبراهيم عن علي بن محمد القاساني عمّن ذكره عن عبدالله بن القاسم عن أبي عبدالله عليه السلام قال إذا أراد الله بعبد خيراً زهّده في الدّنيا وفقّهه في الدّين وبصّره عيوبها ومن اُوتيهنّ فقد اُوتي خير الدّنيا والآخرة

وقال عليه السلام : لم يطلب أحد الحقّ من باب أفضل من الزّهد في الدنيا ، وهو ضدّ لما طلب أعداء الحقّ قلت : جعلت فداك ممّاذا ؟ قال : من الرغبة فيها .

وقال عليه السلام ألا من صبّار كريم فانّما هي أيّام قلائل إلاّ أنّه حرام عليكم أن تجدوا طعم الايمان حتّى تزهدوا في الدّنيا .

قال : وسمعت أباعبدالله عليه السلام يقول إذا تخلّى المؤمن (١) من الدّنيا سما و وجد حلاوة حبّ الله و كان عند أهل الدّنيا كأنّه قد خولط و انّما خالط القوم حلاوة حبّ الله فلم يشتغلوا بغيره .

قال :وسمعته يقول إنّ المؤمن إذا صفا ضاقت به الأرض حتى يسمو .

و باسناده عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام إنّ من أعون الأخلاق على الدّين الزّهد في الدّنيا،هذا.

و لما أمر عليه السلام بالنّظر إلى الدّنيا نظر الزّاهدين المعرضين من الأنبياء والمرسلين والأئمة المعصومين وغيرهم من عباد الله الصّالحين ، وأوجب اقتفاء آثارهم والتأسّي بهم علل ذلك بقوله (فانّها والله عمّا قليل تزيل الثاوى السّاكن وتفجع المترف الآمن) مؤكدا بالقسم البارّ تنزيلا للمخاطبين منزلة المنكر لما شاهد منهم رغبتهم إليها واعتمادهم بها ، يعني أنّ من شأنها نقل المقيمين السّاكنين بها إلى دار الآخرة وافجاع المنعمين الآمنين بحيلولتها بينهم وبين مايحبّونه ، فاذا كان شأنها ذلك فكيف الأمن بها والرّكون إليها شعر :

هب الدّنيا إليك تساق عفواً ... أليس مصير ذاك إلى انتقال

و ما دنياك إلاّ مثل فيء ... أظلّك ثمّ آذن بالزّوال

(لايرجع ماتولّى منها فأدبر ولا يدرى ماهو آت منها فينتظر) يعني ما كنت

١ـ لعلّه من أخلّ بالشى اذا تركه وغاب عنه

مبتهجاً به فيها من الشباب و القوّة والنعمة والعزّة واللّذة قد أدبر و تولّى ومضى وانقضى فلا رجوع له اخرى ، وما يأتي بعد ذلك فهو غير معلوم لك اذ لاتدرى أنّه نعمة أو نقمة ، عزّة أو ذلّة ، ثروة أو مسكنة ، حياة أم ممات ، ضيق أو سعة ، وبالجملة لا تدرى انه ملايم لطبعك فتنتظر أو مناف له فتنفر ، قال الشّاعر :

واضيعة العمرلا الماضي انتفعتُ به و لا حصلت على علم من الباقي

(سرورها مشوب بالحزن وجلد الرّجال فيها إلى الضّعف والوهن) و هذا مدرك بالوجدان مشاهد بالعيان إذ قلّ ماترى مسروراً فيها و مبتهجاً بها إلاّ ومبتلا في كلّ لمحة و آن بفوت مطلوب أو فقد محبوب ، ونرى بضاضة الشّباب مبدلة بحوانى الهرم ، وغضارة الصحّة موهونة بنوازل السّقم (فلايغرّنّكم كثرة مايعجبكم فيها) من عزّ و سلطان و جنود و أعوان وحصون ومقاصر و ضياع ودساكر ونساء وبنين وعشيرة وأقربين والقناطير المقنطرة من الذّهب والفضّة و الانعام و الخيل المسوّمة (لقلّة ما يصحبكم منها) اذليس الاّ كفن و حنوط و قطن و عود قال الشاعر :

فما تزوّد ممّا كان يجمعه إلاّ حنوطاً غداة البين في خرق
وغير نفحة أعواد شببن له وقل ذلك من زاد لمنطلق(١)

ثمّ دعا ﷺ وترحّم لاولى الفكر بقوله (رحم الله امرء تفكر) في أمر نفسه و مبدئه و معاده (فاعتبر) أى فكان ذا اعتبار و اتّعاظ (واعتبر فابصر) أى أوجب اعتبار حاله نور بصيرة و ذلك إنّما يحصل بالانقطاع من الشّهوات و التّجافي عن الامنيات .

قال أبوالحسن موسى بن جعفر عليه السلام لهشام بن الحكم: ياهشام من سلّط ثلاثاً على ثلاث فكأنّما أعان على هدم عقله : من أظلم نور تفكره بطول أمله ، ومحى طرايف حكمته بفضول كلامه ، وأطفأ نور عبرته بشهوات نفسه فكأنّما أعان هواه على هدم

١ـ النفحة من العود القطعة منه ونفحة القوس المتروك منه و شببن له اى رفعن له من شب الفرس شباباً ومشبوبا رفع بيديه،منه

عقله . ومن هدم عقله أفسدعليه دينه ودنياه .

ثمّ نبّه على سرعة انقضاء متاع الدّنيا بقوله: (فكأنّ ما هوكائن من الدّنيا عن قليل لم يكن) يعني أنّ ما هوكائن من الدّنيا من زبرجها وزخارفها ولذايذها سيصير بعد زمان قليل معدوماً فكأنّه لم يكن موجوداً أصلا ولم يكن شيئاً مذكوراً .

ونبّه على سرعة لحوق الآخرة بقوله (وكأنّ ماهوكائن من الآخرة عما قليل لم يزل) يعني أنّ ماهوكائن من شدايد الآخرة وأحوالها وأهوالها بعد زمان قليل قصير يكون موجوداً ثانياً ، و الاتيان بلفظ كأنّ في المقامين للتقريب و تشبيه وجود الدّنيا بعدمه في الأوّل وتنزيل عدم الآخرة منزلة الوجود في الثاني تأكيداً ومبالغة في قصر زمان تصرم الدنيا وقلّة زمان لحوق الآخرة .

ثمّ قال (و كلّ معدود منقض) أراد أنّ أيّام العمر ولياليه وساعاته وأنفاس الحياة معدودة محصاة، و كلّ ماهى معدودة فهى منقضة منصرمة ومنقضية منتهية (و كلّ متوقع آت و كلّ آت قريب دان) فكلّ متوقّع قريب دان ، وأراد بالمتوقّع الموت .

ونظير هذه الفقرة من كلامه عليه السلام قول قس بن ساعدة الأيادي :
مالى أرى النّاس يذهبون ثم لايرجعون ، أرضوا فأقاموا ، أم تركوا فناموا اقسم قس قسما إنّ فى السماء لخبراً، وفي الأرض لعبراً ، سقف مرفوع ، ومهاد موضوع ونجوم تمور ، وبحار لاتغور ، اسمعوا أيّها النّاس وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، و كلّ ماهو آت آت هذا ، قال السّيد (ره)

(منها) أى بعض فصول تلك الخطبة قوله عليه السلام (العالم من عرف قدره و كفى بالمرء جهلا أن لايعرف قدره) يعنى أنّ العالم الكامل الحقيق بأن يطلق عليه اسم العالم حقيقة من اتّصف بعرفان قدره وعدم تجاوز طوره ، ومن لم يعرف ذلك فهو حقيق بأن يطلق عليه اسم الجاهل ، وذلك كاف في جهالته ، و المراد بقدره مقداره المعيّن و محلّه المرسوم و مرتبته المقرّرة له في الوجود ، و ذلك إنّما يكون بكمال العقل .

كما قال الصّادق عليه السلام : ما اخال رجلا يرفع نفسه فوق قدرها إلاّ من

خلل في عقله .

وفي رواية اخرى عنه عليه السلام ما هلك امرء عرف قدره .

يعنى انّ من عرف قدره ولم يتعدّ طوره المرسوم له في دايرة الوجود وعرف أنّه ما هو ولأىّ شيء خلق خلص من ظلمات الجهالة ، ونجى من بوادى الهلاكة لأنّه يلازم قدره المقدّر و مقامه المعيّن و يسلك الطّريق المؤدّى إلى النّجاة ، ويحترز من طرفي التفريط والافراط .

ويوضح ذلك ما رواه في الكافي عن عدّة من أصحابنا عن أحمد بن محمّد مرسلا قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: دعامة الانسان العقل، والعقل منه الفطنة والفهم و الحفظ والعلم وبالعقل يكمل ، وهو دليله ومبصره ومفتاح أمره فاذا كان تأييد عقله من النّور كان عالماً حافظاً ذاكراً فطناً فهماً، فعلم بذلك كيف ولم وحيث ، وعرف من نصحه ومن غشّه ، فاذا عرف ذلك عرف مجراه و موصوله ومفصوله ، و أخلص الوحدانيّة لله و الاقرار بالطّاعة ، فاذا فعل ذلك كان مستدركاً لما فات و وارداً على ماهو آت يعرف ما هو فيه و لأيّ شيء هو ههنا ومن أين يأتيه وإلى ماهو صائر وذلك كلّه من تأييد العقل .

يعني انّ قيام أمر الانسان و نظام حاله بالعقل فهو له كالعمود للبيت ومنه يحصل الفطنة و سرعة ادراك الأُمور على الاستقامة ، ويحصل الفهم والحفظ و العلم وبه يكمل الانسان ، وهو دليله على الحقّ وموجب لكونه ذا بصيرة ومفتاح لأمره به يفتح ما اغلق عليه من الأُمور الدينية والدنيويّة والمسائل المعضلة الغامضة ، فاذا كان عقله مؤيّداً بالنّور أى بنور الحقّ وخلى عن شوائب الأوهام ، وكان عالماً بما يحتاج إليه ، حافظاً لعلمه بحيث لا يتطرّق عليه سهو أو نسيان أصلا أو غالباً ، ذاكراً لربّه فطناً فهماً في غاية الكمال من القوّتين النظرية والعملية ، فعلم بذلك كيف أى كيفيّة الأعمال و الأخلاق ، أو كيفية السّلوك إلى الآخرة و الوصول إلى الدّرجات العالية ، أوحقايق الأشياء وحقيقة نفسه أهومن المقرّبين أم من المبعدين ولم أى علّة الأشياء و علل وجودها و مايؤدّى إليها كعلّة الأخلاق الحسنة حتّى

يكتسبها وعلّة الأخلاق الرّذيلة حتّى يجتنبها ، أو يتفكر في علّة العلل وساير العلل المتوسّطة ، أو يتفكّر في علّة وجوده و أنّه إنّما خلقه الله للمعرفة و الطّاعة ، وحيث اى يعلم مواضع الأمور ويعرف مقام نفسه فيضعها فيه ولا يتعدّى قدره ، وعرف النّاصح له ممّن غشّه فيقبل النّصح من الأوّل وإن كان عدوّاً له ، و يحترز من تدليس الثاني و إن كان صديقاله: فاذاعرف ذلك عرف مجراه أى سبيله الذى يجرى فيه إلى الحقّ أو يعلم انه متوجه إلى الآخرة فيعمل بمقتضى هذا العلم ولا يتشبّث بالدّنيا وشهواتها، وموصوله ومفصوله ، أى ماينبغى الوصل معه من الأعمال والاشخاص وما ينبغى الفصل منه ، و اخلص الوحدانيّة لله سبحانه ، و علم أنه الواحد الحقيقى لاجزءله عقلا و ذهنا و خارجاً و لا شريك له أصلا ، وأقرّ بأنّه لا يستحقّ الطاعة غيره ، فاذا فعل ذلك أى الاخلاص والاقرار ، كان مستدركاً في غابر الزمان لمافات منه في سالف الأيّام من التكاليف التي كان يلزم عليه القيام بها ، واستدراكها انّما هو بالتوبة والقيام بوظايفها ، ووارد على ماهو آت من الأعمال الحسنة أو المراتب العالية ، يعرف ما هوفيه أى النّشاة الفانية وفنائها ومعائبها ، ولأىّ شيء هوههنا يعنى يعرف أنه انما أنزله الله تعالى إلى دار الدّنيا للمعرفة وتحصيل السّعادات الأُخروية ، فيبذل همّته وجهده فيها ، ومن أين يأتيه أى النّعم والخيرات ، و يعلم موليها فيشكره و يتوكّل عليه و يتوسّل به لا بغيره أو الأعمّ منها و من البلايا والشرور و الآفات و المعاصى ، فيعلم أنّ المعاصي من نفسه الامارة و من الشّيطان فيحترس منهما ، وإلى ماهو صائر أى الموت وأحوال القبر وأهوال الآخرة ونعيمها وعذابها ، أوالأعمّ منها ومن درجات الكمال ودركات النقص ، وذلك كلّه من تأييد العقل أى من ثمرات كون العقل مؤيداً بالنّور حسبما عرفت فافهم واغتنم هذا .

وقد ظهر بما ذكرنا كلّه أنّ العالم من كمل عقله وعرف قدره ولازم مقامه ولايرفع نفسه فوق قدرها ولايتعدى وظيفته ولايدعى الانيّة له فانّ الرياسة لاتصلح إلاّ لأهلها (و انّ من أبغض الرّجال إلى الله) سبحانه المغضوب عنده المصروف عنه نظر العناية الأزليّة و الألطاف الرّبانيّة (لعبد) استبدّ برأيه واستقلّ بظنّه

ف (و كله الله إلى نفسه) وجعل و كوله و اعتماده عليها حيث زعم لنفسه الاستقلال وتمرّد عن طاعة الرّب المتعال فهو (جائر عن قصد السّبيل) الموصل له إلى قرب الرّحمن المؤدّى له إلى روض الجنان (سائر بغير دليل) ينجيه من المهالك ومن سار بغير دليل فهالك .

والمراد بالدليل من يدلّه على مناهج الدّين ويرشده إلى شرايع الشرع المبين ، وهم امناء الرّحمن وأبواب الايمان وحملة أسرار الجليل وتراجمة الوحى والتنزيل ، من تخلّف عنهم هلك ومن تقدّمهم مرق ومن لازمهم لحق.

(ان دعى) هذا الرّجل المبغوض (إلى حرث الدّنيا) استعارة للأفعال والأعمال المتوقّع نفعها وثمرتها فيها من التجارة والزّراعة والفلاحة ونحوها (عمل) واشتغل به واستغرق اوقاته فيه (و ان دعى إلى حرث الآخرة) استعارة للطّاعات والعبادات التي ترجى ثمرتها فيها (كسل) وتوانى و اعرض و نآ بجانبه (كأنّ ما عمل له) أى لنفسه من اشغال الدّنيا (واجب عليه وكأنّ ماونى فيه) من أعمال الآخرة (ساقط عنه) مع أنّ ما كسل عنه أولى بالقيام و ما اشتغل بـه أحرى بالسقوط .

الترجمة

ازجمله خطب شريفهٔ آن امام مبين وولىّ مؤمنين است كه فرموده :

نظر نمائيد بسوى دنيا نظر همچه كساني كه زاهد شوند در دنيا واعراض نمايند ازآن ، پس بدرستى كه آن دنيا بحقّ خدا بعداز اندك زماني زايل ميسازد مقيم آرام گرفته را ، و فجعه مى‌آورد بى باك وايمن را بآن ، نميگردد آنچه كه روگردان شد از آن پس پشت كرد ، و دانسته نميشود آنچيزيكه آينده است از آن تا اينكه انتظار كشيده شود ، شادى آن آميخته شده باندوه ، و قوّة مردان در آن منتقل است بسوى ضعف وسستى .

پس البته مغرور ننمايد شمارا زيادتي آنچيزيكه خوش آينده شما است در آن ازجهة قلت وكمى چيزيكه مصاحب وهمراه باشد شمارا ازآن كه عبارتست از

قطن و کفن ، رحمت کند خداوند مردیرا که تفکّر کند پس عبرت بگیرد وعبرت بگیرد پس صاحب بصیرت شود پس گویا آنچه واقع است در دنیا پس‌از اندگی نبوده است ، وگویا آنچه که واقع خواهد شد از آخرت پس دراندك زمانی ثابت وموجود است ، و هر شمرده شد بنهایت خواهد رسید ، وهر انتظار کشیده شده خواهد آمد ، وهر آینده نزدیکست وقریب .

بعض دیگر از فصلهای آن خطبه اینست که فرموده : عالم کسیست که بشناسد قدرخودرا و کفایت مینماید بمرد از حیثیت جهالت ونادانی آنکه نشناسد قدر خودرا ، وبدرستی که از دشمن ترین مردان بسوی خدا هرآینه بنده‌ایست که واگذارد خدای تعالی اورا با نفس خودش ، عدول کننده باشد از میانه راه حق ، سیر کننده باشد بدون راه نما ، اگر خوانده شود بسوی کشت وزراعت دنیا عمل میکند و مشغول شود ، و اگر خوانده شود بسوی کشت وزراعت آخرت کسالت میگیرد وکاهل میباشد ، گویا آنچه که عمل کرد ازبرای خود از امور دنیاواجب است براو ، وگویا آنچه که کاهلی نمود درآن از امور آخرت ساقط است ازاو

الفصل الثانى

منها وَ ذٰلِكَ زَمانٌ لاٰ يَنْجُو فيهِ إِلاّ كُلُّ مُؤْمِنٍ نُوَمَةٍ ، إِنْ شَهِدَ لَمْ يُعْرَفْ ، وَإِنْ غابَ لَمْ يُفْتَقَدْ ، أُولٰئِكَ مَصابِيحُ الْهُدىٰ ، وَأَعْلامُ السُّرىٰ ، لَيْسُوا بِالْمَسايِيحِ وَلاَ الْمَذاييعِ الْبُذُرِ ، أُولٰئِكَ يَفْتَحُ اللّٰهُ لَهُمْ أَبْوابَ رَحْمَتِهِ ، وَ يَكْشِفُ عَنْهُمْ ضَرّاءَ نِقْمَتِهِ ، أَيُّهَا النّاسُ سَيَأْتي عَلَيْكُمْ زَمانٌ يُكْفَأُ فيهِ الْإِسْلامُ كَما يُكْفَأُ الْإِناءُ بِمائِهِ « بِمافيهِ خ » ، أَيُّهَا النّاسُ

إِنَّ اللهَ تَعالىٰ قَدْ أعاذَكُمْ مِنْ أنْ يَجُورَ عَلَيْكُمْ وَ لَمْ يُعِذْكُمْ مِنْ أنْ يَبْتَلِيَكُمْ ، وَ قَدْ قالَ جَلَّ مِنْ قائِلٍ « إِنَّ في ذٰلِكَ لَآياتٍ وَ إِنْ كُنّا لَمُبْتَلِينَ » .

قال السيد (ره) قوله : كلّ مؤمن نؤمة ، فانّما أراد الخامل الذكر القليل الشرّ ،والمساييح جمع مسياح وهو الذي يسيح بين النّاس بالفساد والنمائم ،والمذاييع جمع مذياع وهو الذى إذا سمع لغيره فاحشة أذاعها و نوّه بها ، والبُذُر جمع بذور وهو الذي يكثر سفهه ويلغو منطقه .

اللغة

(نؤمة) وزان همزة في بعض النسخ بالواو وفي بعضها بالهمزة قال ابن الأثير فى المحكى عن النهاية في حديث علىّ عليه السلام انه ذكر آخر الزمان والفتن ثمّ قال : خير أهل ذلك الزمان كلّ مؤمن نؤمة بوزن الهمزة الخامل الذّكر لا يؤبه به و في القاموس نؤمة كهمزة امير مغفل أو خامل .

أقول: ولعلّه مأخوذ عن النّوم لأنّ الانسان إذا نام يخمل ويخمل عنه ، ويؤيده ما في القاموس قال النوم النعاس أو الرّقاد كالنيام بالكسر والاسم النئمة بالكسر وهو نائم ونؤم ونؤمة كهمزة وصرد

و (السّرى) كالهدى سير عامة الليل وقوله تعالى : أسرى بعبده ليلا ، تأكيد

و (المذياع) من لا يكتم السّر بل يذيعه ويفشيه ويظهره أو ينادى به في النّاس

و (البذر) جمع بذور كزبر وزبور وصبر وصبور قال الشارح المعتزلى : وهو الذى يذيع الأسرار و ليس كما قال الرضى (ره) فقد يكون الانسان بذوراً وإن لم يكثر سفهه ولم يلغ منطقه ، بأن يكون علنة مذياعا من غير سفه ولا لغو .

أقول : و يؤيّده ما في القاموس قال البذور والبذير النّمام و من لا يستطيع كتم سرّه، ورجل بذر ككتف وبيذار وبيذارة وتبذار كتبيان و بيذراتى كثير الكلام

و (يكفا) بالبناء على المفعول من كفاه كمنعه وصرفه و كلبه قلّبه و «نوّه» بها

أى رفعها .

الاعراب

جملة ليسوا بالمسابيح منصوبة المحلّ على الحال وتحتمل البدل من الخبر وقوله عليه السلام : وقد قال جلّ من قائل ، جملة وقد قال حال مؤكّدة من فاعل يعذّكم وجملة جلّ حال من فاعل قال، ومن قائل تميز لرفع ابهام النّسبة في جلّ إلى فاعله

المعنى

اعلم أنه أشار في هذا الفصل الى مايكون بعده من غلبة الفساد والشرور على أهل الزّمان و عدم النجاة فيه إلاّ لأهل الايمان كمال قال عليه السلام (و ذلك زمان لا ينجو فيه إلاّ كلّ مؤمن نؤمة) أراد به خامل الذكر منهم المشتغل بربّه عنهم كما فسّره بقوله (إن شهد لم يعرف وإن غاب لم يفتقد) يعنى أنه إن حضر مجالس أهل ذلك الزمان لا يعرفوه وإن غاب عنهم لا يفتقدوه ، أى لا يسألون عنه ولا يقولون : أين هو و كيف صار ومايصنع ،وذلك لكونه بمعزل عنهم و عدم انتفاعهم بوجوده ، و سنشير إلى فوايد العزلة وثمراتها بعد الفراغ من شرح الفصل .

(اُولئك مصابيح الهدى وأعلام السّرى) يهتدى لهم السّالكون في سبيل الله ويصلون بنور وجودهم إلى حظائر القدس (ليسوا بالمسابيح) أى الذين يسيحون و يجرون بين الناس بالفساد و النميمة (و لا المذاييع البذر) أى الذين يذيعون الأسرار ويفشون الفواحش (اُولئك يفتح الله لهم أبواب رحمته) ورأفته (ويكشف عنهم ضرّاء نقمته) وشدّة عقوبته وفي بعض النسخ يفتح الله بهم ويكشف بهم آه ، أى ببركات وجودهم ينزل الخيرات ويكشف النقمات .

ثمّ أخبر عليه السلام عما يكون بعده من الفتن والفساد فقال عليه السلام : (أيّها الناس سيأتي عليكم زمان يكفأ فيه الاسلام كما يكفأ الاناء بمائه «بمافيه») قال الشّارح البحراني شبّه عليه السلام قلبهم للاسلام بقلب الاناء بما فيه ، ووجه الشبه خروج الاسلام عن كونه منتفعاً به بعد تركهم للعمل به كما يخرج ما في الاناء الذى كبّ عن الانتفاع ، يعنى أنه يأتي زمان ينقلب فيه الاُمور الدّينيّة إلى أضدادها ولايبقى من الاسلام إلاّ

اسمه ولا من الكتاب إلاّ درسه ، وأشار عليه السلام إلى أنّ ذلك منه سبحانه ليس من باب الظلم والجور ، بل من باب الاختيار والامتحان ، ليجزى الذين أحسنوا الحسنى جزاء أعمالهم، ويذيق الذين عملوا السّوء نكال وبالهم وهوقوله :

(أيّها النّاس إنّ الله قد أعاذكم) أى عصمكم (من أن يجور عليكم) وقد قال : ومار بّك بظلام للعبيد (ولم يعذكم) أى لم يعصمكم (من أن يبتليكم) ويختبركم ، يعنى أنه إذا غلب على أهل الزمان الفساد لايلجأهم الى الصّلاح والسّداد ولكن يتركهم و اختيارهم امتحاناً لهم و اختباراً (و قد قال جلّ من قائل) في سورة المؤمنين بعد حكاية حال سفينة نوح عليه السلام (إنّ في ذلك لآيات وإن كنّا(١) لمبتلين) قال الطّبرسيّ : أى في أمر نوح والسّفينة وهلاك أعداء الله دلالات للعقلاء يستدلّون بها على التوحيد وإن كنّا مختبرين إياهم بارسال نوح ووعظه وتذكيره ومتعبّدين عبادنا بالاستدلال بتلك الآيات على قدرتنا ومعرفتنا

أقول : غرضه عليه السلام من الاستدلال بالآية الشريفة الاشارة إلى أنّ عادة الله سبحانه جارية في الأمم الماضية و القرون الخالية ، و كذلك في غابر الزّمان ومستقبل الأيام على اختبار عباده و ابتلائهم لاظهار جودة العبد ورداءته ليثبت تمام العيار في قالب الامتحان و يعاقب النّاقص الجوهر بالخزى و الخذلان ، و قد مرّ في شرح الخطبة الثانية والسّتين تحقيق معنى البلاء والابتلاء ولاحاجة إلى الاعادة، هذا.

وينبغي التنبيه على امور : الاول

في فوائد العزلة وخمول الذكروهى على ما ذكره أبوحامد الغزالى : تنقسم إلى فوايد دينيّة ودنيويّة ، والدّينية تنقسم إلى ما يمكن من تحصيل الطاعات في الخلوة و المواظبة على العبادة والفكر و تربية العلم ، و إلى تخلص من ارتكاب المناهى يتعرّض لها الانسان بالمخالطة كالرياء والغيبة والسّكوت عن الأمر بالمعروف

١ـ قوله سبحانه : و ان كنا أى انا كنا فهى مخففة من المثقلة و يجوز أن يكون اسمها ضمير الشأن أى انه كنا .

و النهى عن المنكر ، و مسارقة الطبع من الاخلاق الردّية و الأعمال الخبيثة من جلساء السّوء .

وأمّا الدّنيوية فتنقسم إلى مايمكن من التحصيل بالخلوة كتمكن المحترف في خلوته إلى ما يخلص من محذورات يتعرّض لها بالمخالطة كالنّظر إلى زهرة الدنيا وإقبال الخلق عليها وطمعه في النّاس وطمع النّاس فيه وانكشاف سترمروته بالمخالطة والتأذّي بسوء خلق الجليس في مرائه أو سوء ظنه أونميمته أومحاسدته أو التأذّى بثقله و تشويه خلقته ، و إلى هذا ترجع مجامع فوائد العزلة ، فلنحصر ستّ فوائد :

الفائدة الاولى

التفرّغ للعبادة والفكروالاستيناس بمناجاةالله عن مناجاة الخلق والاشتغال باستكشاف أسرار الله في أمرالدنيا والآخرة وملكوت السّماوات و الأرض ، فانّ ذلك يستدعى فراغاً و لا فراغ مع المخالطة ، فالعزلة وسيلة إليه ، و لذلك كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في بدو أمره يتبتّل في جبل حرّا ويختار العزلة لنفسه حتى بعث و أُمر بالتبليغ ، فخالط النّاس وكان ببدنه معهم وبقلبه مقبلا على الله ، ولايحجب مخالطتهم عن توجّهه بالباطن ، ولن يسع الجمع بين المخالطة ظاهراً والاقبال باطناً إلاّ قوّة النبوّة و الولاية ، فلا ينبغى أن يغترّ كلّ ضعيف بنفسه فيطمع في ذلك ، فانّ المخالطة مانعة لهم عن الفكر والذكر ، والعزلة أولى بهم .

ولذلك قيل لبعض الحكماء : ماالذى أرادوا بالخلوة واختيار العزلة ؟ فقال : يستدعون بذلك دوام الفكرة وتثبّت العلوم في قلوبهم ليحيوا حياة طيّبة ويذوقوا حلاوة المعرفة .

و قيل لبعض الرّهبان : ما أصبرك على الوحدة ؟ فقال : ما أنا وحدى أنا جليس الله تعالى إذا شئت أن يناجيني قرأت كتابه، وإذاشئت أن أُناجيه صلّيت .

وقيل : بينما أُويس القرني جالس إذا أتاه رجل فقال له أُويس : ما جاء بك ؟

قال : جئت لآنس بك ، فقال أويس : ما كنت أرى أنّ أحداً يعرف ربّه فيأنس بغيره

وقال الفضيل إذا رأيت الليل مقبلا فرحت به وقلت أخلو بربّي ، وإذا رأيت الصّبح أدركني استرجعت كراهة لقاء الناس وأن يجيئني من يشغلني عن ربّي .

وقال بعض الصّالحين : بينما أنا أسير في بعض بلاد الشّام إذا أنا بعابد خارج من بعض تلك الجبال ، فلمّا نظر إليّ تنحى إلى أصل شجرة وتستّر بها ، فقلت : سبحان الله تبخل عليّ بالنّظر إليك ؟ فقال : يا هذا إنّي أقمت في هذا الجبل دهراً طويلا أعالج قلبي في الصّبر عن الدّنيا وأهلها فطال في ذلك تعبي وفني فيه عمري ، فسألت الله تعالى أن لا يجعل حظّي من أيّامي في مجاهدة قلبي ، فسكّنه الله تعالى عن الاضطراب وألفه الوحدة والانفراد ، أنا نظرت إليك فخفت أن أقع في الأمر الأوّل ، فاليك عنّي فانّي أعوذ من شرّك برب العارفين وحبيب القانتين ، ثمّ صاح واغمّاه من طول المكث في الدّنيا ، ثم حوّل وجهه عنّي ، ثمّ نفض يديه وقال : إليك عنّي يا دنيا لغيري فتزيّني و أهلك فغرّي ، ثمّ قال سبحان من أذاق قلوب العارفين من لذّة الخدمة و حلاوة الانقطاع إليه ما ألهى قلوبهم عن ذكر الجنان و عن الحور الحسان ، وجمع همّتهم في ذكره فلا شيء ألذّ عندهم من مناجاته ، ثمّ مضى وهو يقول : قدّوس قدّوس .

فاذاً في الخلوة انس بذكر الله واستكثار من معرفة الله ، وفي مثل ذلك قيل:

و إنّي لأستغشى و ما بي غشوة لعلّ خيالا منك يلقى خياليا
و أخرج من بين الجلوس لعلّني أحدّث عنك النفس بالسرّ خاليا

قال بعض الحكما : إنّما يستوحش الانسان من نفسه لخلوّ ذاته عن الفضيلة فيكثر حينئذ ملاقاة النّاس ويطرد الوحشة عن نفسه بالكون معهم ، فاذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة ويستخرج العلم والحكمة ، وقد قيل : الاستيناس بالنّاس من علامات الافلاس .

فقد وضح بذلك كلّه أنّ التجرّد والعزلة في حقّ الخواصّ أفضل من المخالطة بالناس ، لأنّ غاية العبادات وثمرة المعاملات أن يموت الانسان عارفا بالله محبّاً له

ولا محبّة إلاّ بالانس الحاصل بدوام الذكر ، ولا معرفة إلاّ بدوام الفكر وفراغ القلب شرط في كلّ واحد منهما ، ولا فراغ مع المخالطة .

الفائدة الثانية

التخلّص بالعزلة عن المعاصى التي يتعرّض الانسان غالباً لها بالمخالطة ويسلم منها في الخلوة ، وهي أربعة : الغيبة ، والرّياء ، والسّكوت عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومسارقة الطبع من الأخلاق الرّديئة والأعمال الخبيثة التي يوجبها الحرص على الدّنيا .

أما الغيبة فانّ التحرّز منها مع المخالطة عظيم لا ينجو منها إلاّ الصدّيقون لأنّ عادة الناس كافة التمضمض بأعراض النّاس والتّفكه والتنقّل بحلاوتها ، وهى طعمتهم ولذّتهم ، وإليها يستروحون من وحشتهم في الخلوة ، فان خالطتهم ووافقتهم أثمت وتعرّضت لسخط الله ، وإن سكتّ كنت شريكاً ، والمستمع أحد المغتابين ، وإن أنكرت أبغضوك وتركوا ذلك المغتاب و اغتابوك ، فازدادوا غيبة إلى غيبة ، وربّما تعدّوا عن الغيبة إلى الاستخفاف والاستهزاء والشتم .

وأما الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فمن خالط النّاس فلابدّ له من مشاهدة المنكرات ، فان سكت عصى الله به ، وإن أنكر تعرّض لأنواع من الضرر والأذى ، وفي العزلة خلاص من ذلك ، فانّ الأمر في اهماله شديد ، و القيام به شاق ، فانّه كجدار مائل يريد الانسان أن يقيمه فيوشك أن يسقط عليه ، فاذا سقط عليه يقول : ياليتنى تركته مائلا ، نعم لو وجد أعواناً أمسكوا الحايط حتّى يحكمه بدعامة لاستقام ، و أنت اليوم لاتجد الأعوان فدعهم وانج بنفسك قال الشّاعر :

وكم سقت في آثاركم من نصيحة و قد يستفيد البغضة المتنصّح

و أما الرياء فهو الداء العضال الذى يعسر الاحتراز منه على الأوتاد والأبدال وهو إمّا في العبادات أو فى العادات وقد مرّ تحقيق الكلام في الأوّل في شرح الخطبة الثّالثة و العشرين و عرف هنالك أنّ الاعتزال من النّاس علاجه

ودوائه النّافع له .

وأمّا الثاني أعني الرّياء في العادات فكلّ من خالط النّاس داراهم و من داراهم راآهم و من راآهم وقع فيما وقعوا فيه و هلك ، و أقل ما يلزم فيه النّفاق فانك إن ترى متعادين ولم تلق كلّ واحد منهما بوجه يوافقه صرت بغيضا إليهما جميعاً ، وإن جاملتهما كنت عن شرار النّاس .

قال عليه السلام انّ من شرار النّاس ذاالوجهين يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه

وفي الكافي باسناده عن ابن أبي يعفور عن أبي عبدالله عليه السلام من لقى المسلمين بوجهين ولسانين جاء يوم القيامة وله لسان من نار .

و عن عبد الرّحمن بن حماد رفعه قال : قال الله تبارك وتعالى لعيسى عليه السلام ياعيسى لتكن لسانك في السرّ والعلانية لساناً واحداً و كذلك قلبك ، إني أحذ رك نفسك و كفى بى خبيرا لا يصلح لسانان في فم واحد ولا سيفان في غمد واحد ولاقلبان في صدر واحد و كذلك الأذهان .

و أقلّ ما يجب في مخالطة الناس اظهار الشوق و المبالغة فيه ولايخلو ذلك عن كذب إمّا في الأصل وإمّا في الزيادة و اظهار الشفقة بالسؤال عن الأحوال بقولك كيف أنت و كيف أهلك و أنت في الباطن فارغ عن همومه وهو نفاق محض و آية ذلك أنّك تقول كيف أنت و يقول الآخر كيف أنت ، فالسّائل لا ينتظر بالجواب والمسؤول يشتغل بالسؤال ولايجيب ، و ذلك لمعرفتهم بأنّ ذلك عن رياء وتكلّف ، ولعلّ القلوب لا تخلو من ضغائن الأحقاد والألسن تنطق بالسؤال .

قال بعضهم : انّى لأعرف أقواماً كانوا لا يتلاقون و لو حكم أحدهم على صاحبه بجميع ماله لبذله ، وأرى الآن أقواماً يتلاقون ويتسائلون حتّى عن الدّجاجة في البيت ، ولو انبسط أحدهم لحبّة من مال صاحبه لمنعه ، هل هذا إلاّ مجرّد الرّياء والنّفاق ، و كلّ ذلك مذموم بعضه محرّم وبعضه مكروه ، وفي العزلة خلاص منه ، فانّ من لقي الخلق ولم يتخلّق بأخلاقهم مقتوه واستثقلوه واغتابوه وتشمّروا لايذائه فيذهب دينهم فيه ويذهب دينه ودنياه في الانتقام منهم .

وأما مسارقة الطبع ممايشاهده من اخلاق النّاس وأعمالهم فهوداءدفين قلّما يتنبّه له العقلا فضلا عن الغافلين ، فلا يجالس الانسان فاسقامدّة مع كونه منكراً عليه في باطنه إلاّ ولوقاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لأدرك بينهماتفرقة في النفرة عن الفساد، فاستثقاله اذ يصير الفساد بكثرة المشاهدة هيناً على الطبع فيسقط وقعه و استعظامه له ، وانّما الوازع عنه شدّة وقعه في القلب ، فاذا صار مستصغراً بطول المشاهدة أو شك أن تنحلّ القوّة الوازعة ويذعن الطبع للميل إليه أولمادونه ومهما طالت مشاهدته للكبائر من غيره استصغر الصّغاير واستحقرها من نفسه .

ولذلك يزدرى إلى الأغنياء نعمة الله عليه ، فتؤثر مجالستهم في أن يستصغر ما عنده و تؤثر مجالسة الفقراء في استعظام ما ابيح له من النعم و كذلك النظر إلى المطيعين والعاصين وهذا تأثيره فى الطبع .

فمن يقصر نظره على ملاحظة أحوال أولياء الدّين والسّلف الصّالحين في العبادة والمجاهدة والزّهد عن الدّنيا لايزال ينظر إلى نفسه بعين الاستصغار ، وإلى عبادته بعين الاستحقار فيجتهد في العبادة ويرغب في الطاعة ويزهد في الدّنيا استكمالا و استتماماً للاقتداء بهم و الحذو بمثلهم و من نظر إلى غالب أهل الزمان و رأى اعراضهم عن الله وإقبالهم على الدّنيا واعتيادهم المعاصى استعظم أمر نفسه بأدنى رغبة في الخير يصادفها في قلبه ، وذلك هو الهلاك ويكفى في تغيير الطبع مجرّد سماع الخير والشّر فضلا عن مشاهدته .

فبهذه النكتة يعرف سرّ قوله : عند ذكر الصّالحين ينزل الرّحمة ، وإنّما الرّحمة دخول الجنة ولقاء الحقّ ، و لا ينزل عند ذكر الصّالحين عين ذلك ولكن سببه الذي هو انبعاث الرغبة من القلب وحركة الحرص على الاقتداء بهم و الاستنكاف عمّا هو ملابس له من القصور والتقصير ، ومبدء الرحمة فعل الخير ومبدء فعل الخير الرغبة ومبدء الرغبة ذكر أحوال الصّالحين فهذا معنى نزول الرحمة .

ويفهم من فحوى ذلك أنّ عند ذكر الفاسقين تنزل اللعنة، لأنّ كثرة ذكرهم تهوّن على الطبع أمر المعاصي واللعنة هى البعد من الحقّ ومبدء البعد هو المعاصي

والاعراض عن الله بالاقبال على الحظوظ العاجلة والشّهوات الحاضرة المحظورة ، ومبدء المعاصي سقوط ثقلها وتفاحشها عن القلب ، ومبدء سقوط الثقل وقوع الانس بها بكثرة السّماع ، و إذا كان هذا حال ذكر الصّالحين و الفاسقين فما ظنّك بمشاهدتهم ومخالطتهم.

و قد مرّ في شرح الخطبة الخامسة و الثّمانين وشرح الكلام الثالث عشر أخبار كثيرة في النهى عن مجالسة أهل المعاصي والبدع ومخالطتهم ، وظهر هناك أنّ مجالستهم منساة للايمان محضرة للشّيطان ، فعليك بمراجعة المقامين .

وبالجملة فقد ظهر ممّا ذكرنا أنّ الطبيعة سرّاقة تستفيد الخير و الشّر من مشاهدة الغير ، فعليك بالفرار من الناس ، إذ لاترى منهم إلاّ ما يوجب زيادة حرصك على الدّنيا و غفلتك عن الآخرة ، و يهوّن عليك المعصية و يسقط وقعها عن قلبك .

وممّا يوضح سقوط وقع المعاصى من القلوب بكثرة المشاهدة أنّ أكثر الناس إذا رأوا مسلماً أفطر في شهر رمضان من غير عذر استبعدوا ذلك استبعاداً يكاد يفضى إلى اعتقادهم كفره ، و ربّما يشاهدون من يخرج الصّلاة عن أوقاتها ويترك بعضها احياناً ولاتنفر عنه طباعهم كما تنفرون عن المفطر في شهر رمضان ، مع أنّ الصّلاة أفضل من الصيام قطعاً ولا سبب لذلك إلاّ أنّ الصّلاة تتكرّروا لتساهل فيها يكثر فيسقط وقعها بالمشاهدة عن القلب . بخلاف الصّوم .

فعليك بالعزلة والوحدة إلاّ من الجليس الصّالح الذى يوجب مجالسته الرغبة في الطاعات والميل إلى العبادات ، وينفّرك مصاحبته عن الدنيا وزخارفها وشهواتها ويشوّقك مخالطته إلى الرّغبة في الآخرة ونعيمها ودرجاتها .

الفائدة الثالثة

الخلاص من الفتن و الخصومات و صيانة الدّين والنفس عن الخوض فيها و التّعرّض لأخطارها و قلّما تخلو البلاد عن تعصّبات و خصومات فالمعتزل في

سلامة منها .

روى أبوسعيد الخدرى أنّه ﷺ قال يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شعف الجبال و مواقع القطر يفرّ بدينه من الفتن من شاهق إلى شاهق .

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام خير النّاس رجل ممسك بعنان فرسه كلّماسمع هيعة (١) طار إليها أو رجل في شعفة في غنيمة ويعبدالله حتى يأتيه الموت .

وروى عبدالله بن مسعود أنّه ﷺ قال : سيأتي على النّاس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلاّ من فرّ بدينه من قرية إلى قرية ومن شاهق إلى شاهق ومن جحر إلى جحر كالثعلب الذى يروغ ، قيل له : ومتى ذلك يارسول الله ؟ قال ﷺ : إذا لم تنل المعيشة إلاّ بمعاصى الله ، فاذاكان ذلك الزّمان حلّت العزوبة قالوا : و كيف يارسول الله و قد أمرتنا بالتزويج ؟ قال ﷺ : إذا كان ذلك الزّمان كان هلاك الرّجل على يد أبويه، فان لم يكن له أبوان فعلى يدى زوجته وولده ،فان لم يكن فعلى يدى قرابته ، قالوا وكيف ذلك يارسول الله؟ قال: يعيّرونه بضيق اليد فيتكلّف مالايطيق حتى يورده ذلك موارد الهلكة .

وهذا الحديث وإن كان في العزوبة إلاّ أنّه يدلّ على حسن العزلة إذلايستغنى المتأهّل عن المعيشة والمخالطة ، ثمّ لاينال المعيشة إلاّ بمعصية الله حسبمااستفيد من الرّواية .

قيل : لما بنى عروة قصره بالعقيق ولزمه قيل له : لزمت القصروتركت مسجد رسول الله ﷺ؟ فقال : رأيت مساجدكم لاهية،وأسواقكم لاغية،والفاحشة في فجاجكم

١- قال جارالله الهيعة الصيحة التى يفزع منها أصلها من هاع يهيع اذا جبن والشعفة رأس الجبل والمعنى خيرالناس رجل أخذ بعنان فرسه واستعد الجهاد فى سبيل الله ورجل اعتزل الناس وسكن فى بعض رؤوس الجبال فى غنم له قليل يرعاها و يكتفى بها فى أمر معاشه ويعبدالله حتى يأتيه الموت، منه

عالية ، وفيما هناك عمّا أنتم فيه عافية ، فاذا الحذرمن الخصومات و مثارات الفتن احدى فوايدالعزلة .

الفائدة الرابعة الخلاص من شرالناس

فانّهم يؤذونك مرّة بالغيبة ، ومرّة بسوءالظن والتّهمة ، ومرّة بالاقتراحات و الاطماع الكاذبة التي يعسر الوفاءبها، وتارة بالنميمةوالكذب ، فربما يرون منك من الأعمال أو الأقوال مالا تبلغ عقولهم كنهه فيتخذون ذلك ذخيرة يدّخرونها لوقت تظهر فيه فرصة للشر ، فاذا اعتزلتهم استغنيت من التّحفظ عن جميع ذلك .

ولذلك قال بعض الحكماء لغيره : أُعلّمك بيتين خير من عشرة آلاف دراهم ، قال : ماهما ؟ قال :

اخفض الصّوت إن نطقت بليل ... و التفت بالنّهار قبل المقال

ليس للقول رجعة حين يبدو ... بقبيح يكون أو بجمال

و لا شكّ أنّ من اختلط بالنّاس و شاركهم في الأعمال لا ينفكّ من حاسد وعدوّ يسيء الظّن به ويتوهّم انه يستعدّ لمعاداته ونصب المكيدة عليه وتدسيس غائلة ورائه ، والنّاس مهما اشتدّ حرصهم على أمريحسبون كلّ صيحة عليهم هم العدوّ وقد اشتدّ حرصهم على الدّنيا فلا يظنّون بغيرهم إلاّ الحرص عليها قال المتنبى :

إذا ساء فعل المرءساءت ظنونه ... و صدّق ما يعتاده من توهّم

و عادى محبّيه بقول عدائه ... فأصبح في ليل من الشّك مظلم

وقد قيل : معاشرة الأشرار تورث سوء الظّن بالابرار ، و أنواع الشر الّذى يلقاه الانسان من معارفه وممّن يختلط به كثيرة ، ولا حاجة إلى تفصيلها وفي العزلة خلاص من جميعها .

وعن الحسن عليه السلام أنه أراد الحجّ فسمع بذلك ثابت البناني فقال له : بلغني أنك تريد الحجّ فأحببت أن أصحبك ، فقال له الحسن عليه السلام : ويحك دعنا نتعاشر بستر الله علينا إنّي أخاف أن نصطحب فيرى بعضنا من بعض مانتماقت عليه .

وهذه إشارة إلى فايدة اخرى في العزلة ، وهو بقاء السرّ على الدّين والمروّة

و الأخلاق و الفقر و سائر العورات ، و قد مدح الله سبحانه المتسترين فقال : « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » قال الشاعر:

و لا عار أن زالت عن الحر نعمة ولكن عاراً أن يزول التجمل

ولايخلو الانسان في دينه ودنياه وأخلاقه وأفعاله عن عورات الأولى في الدين والدنيا ستر ها ولاتبقى السلامة مع انكشافها .

قال أبو الدرداء : كان الناس ورقا لاشوك فيه فالناس اليوم شوك لا ورق فيه فاذا كان هذا حكم زمانه وهو في أواخر القرن الأول فما حال أمثال زماننا .

وقال أبو الدرداء أيضاً : اتقوا الله واحذروا الناس فانهم ما ركبوا ظهر بعير إلا أدبروه ولا ظهر جواد إلا عقروه ولا قلب مؤمن إلا خربوه .

و قال بعضهم : أقل المعارف فانه أسلم لدينك وقلبك و أخف لسقوط الحقوق عنك ، لأنه كلما كثرت المعارف كثرت الحقوق وعسر القيام بالجميع .

وقال آخر : أنكر من تعرف ، ولا تتعرف إلى من لا تعرف .

الفائدة الخامسة

أن ينقطع طمع الناس عنك وطمعك عن الناس، فأما انقطاع طمع الناس عنك ففيه منافع كثيرة فان رضاء الناس لا تضبط و أغراضهم لا تدرك والاشتغال باصلاح النفس أولى من الاشتغال باتيان مقصود الغير وتحصيل رضائه .

و من أهون الحقوق وأيسرها حضور الجنازة وعيادة المريض وحضور الولائم وزيارة الأحباء ، وفيها تضييع الأوقات وتعرض للآفات ، وربما تعوق عن بعضها العوائق والموانع وتستقبل فيها المعاذير ولا يمكن اظهار كل الأعذار فيقولون قمت في حق فلان وقصرت في حقنا ، ويصير ذلك سببا للعداوة

فقد قيل : من لم يعد مريضاً في وقت العيادة فقد اشتهى موته مخافة الخجالة إذا عاد المريض إلى السلامة ، ومن عمم الناس كلهم بالحرمان رضوا عنه كلهم ولو خصص البعض استوحشوا ، ولو قام بحقوق الجميع لم يف له طول الليل والنهار

ولوتجرّد به فكيف من له مهمّ يشغله في دينه أو دنياه ، ومن هنا قيل كثرة الأصدقاء كثرة الغرناء. وقال الشّاعر :

عدوّك من صديقك مستفاد فلا تستكثرنّ من الصّحاب
فانّ الدّاء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

و أما انقطاع طمعك عنهم فهو أيضاً فائدة أُخرى جزيلة ، فانّ من نظر إلى زهرة الدّنيا و زينتها تحرّك و انبعث بقوّة الحرص و طمعه ، ولايرى إلاّ الخيبة في أكثر الأحوال فيتأذّى بذلك ، و مهما اعتزل لم يشاهد ، و متى لم يشاهد لم يشته ولم يطمع ، ولذلك قال الله سبحانه :

«وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلىٰ ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيٰوةِ الدُّنيا».

وقال ﷺ : انظروا إلى من هودونكم ولاتنظروا إلى من هو فوقكم فانه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم .

و قال بعضهم : كنت أُجالس الأغنياء فلم أزل مغموماً كنت ارى ثوبا أحسن من ثوبى وفرساً أفره من دابتي ، فجالست الفقراء فاسترحت .

و بالجملة فمن شاهد زينة الدّنيا فإمّا أن يقوى دينه و يقينه فيصبر فيكون محتاجاً إلى أن يتجرع مرارة الصّبر ، وهوأمرّ من الصّبر أوتنبعث رغبته فيحتال في طلب الدّنيا فيهلك هلاكا مؤبّداً ، أمّا في الدّنيا فبالطمع الذي يخيب في أكثر الأوقات فليس كلّ من يطلب الدّنيا يتيسّر له .

ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه تجرى الرّياح بمالاتشتهى السفن

وامّا في الآخرة فبايثاره زينة الحياة الدّنيا على متاع الآخرة ، ولذلك قال ابن الاعرابى :

إذا كان باب الذّلّ من جانب الغنى سموت إلى العليا من جانب الفقر

الفائدة السادسة

الخلاص من مشاهدة الثقلاء والسّفهاء و مقاساة حمقهم وأخلاقهم ، فانّ رؤية

الثقيل هي العمى الأصغر .

قال جالينوس : لكلّ شيء حمّى و حمّى الرّوح النظر إلى الثقلاء ، و قال الشّافعي : ماجالست ثقيلا إلاّ وجدت الجانب الذى يليه من بدني أثقل عليّ من الجانب الآخر .

ويحكى انّه دخل أبوحنيفة على الأعمش فقال له : إنّ من سلب الله كريمتيه عوّضه الله عنهما ما هوخير منهما فما الذى عوّضك ؟ فقال له في معرض المطايبة عوّضنى عنهما أنّه كفاني رؤية الثقلاء و أنت منهم .

و هذه فوائد العزلة وثمراتها بعضها متعلّق بالدّنيا وبعضها متعلّق بالآخرة ، والله سبحانه وليّ التوفيق وإليه مصير العاقبة .

الثانى

في النّميمة ، و هو اسم من نمّ الحديث ينمّه من بابي ضرب وقتل سعى به ليوقع فتنة أو وحشة فهو نمّ ونمّام قال تعالى :

« وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ »

قال في التّفسير : أى لا تطع كثير الحلف بالباطل لقلّة مبالاته بالكذب ، وصاحب المهانة أى قلّة الرّاى والتّميز أو صاحب الذّلة والحقارة عندالله سبحانه ، والقارع في النّاس المغتاب ، والقتّاة السّاعي بين الناس بالنميمة طلباً للفساد وضرب بعضهم ببعض ، والبخيل بالمال كثير المنع منه والمتجاوزعن الحقّ الغشوم الظّلوم و الاثيم الفاجر ، وقيل معتد في ظلم غيره أثيم في ظلم نفسه ، عتلّ بعد ذلك زنيم أى هو مع كونه منّاعاً للخير معتدياً أثيما فاحش سيّء الخلق ، و زنيم اى دعيّ ملصق إلى قوم ليس منهم وقال سبحانه :

« وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ »

قيل: إنّها كانت تنمّ على رسول الله صلى الله عليه وآله و قال رسول الله صلى الله عليه وآله في رواية الكافي: ألا انبئكم بشراركم؟ قالوا بلى يا رسول الله، قال: المشّاؤون بالنّميمة المفرّقون بين الأحبّة الباغون للبراء المعائب.

و عن أبي ذرّ عنه صلى الله عليه وآله قال: من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حقّ شانه الله بها في النار يوم القيامة.

وعن أبي الدّرداء عنه صلى الله عليه وآله قال أيّما رجل أشاع على رجل كلمة و هو منها بريء ليشينه بها في الدّنيا كان حقّاً على الله أن يذيبه بها يوم القيامة في النار.

و يقال اتّبع رجل حكيماً سبع مأة فرسخ في سبع كلمات، فلما قدّم عليه قال: إنّي جئتك للّذي أتاك الله من العلم أخبرني عن السّماء وما أثقل منها، وعن الأرض و ما أوسع منها، وعن الصّخر وما أقسى منه، وعن النّار وما أحرّ منها، وعن الزمهرير وما أبرد منه، وعن البحر و ما أغنى منه وعن اليتيم وما أذلّ منه؟

فقال له الحكيم: البهتان على البريء أثقل من السّماوات، و الحقّ أوسع من الأرض، و القلب القانع أغنى من البحر، والحرص و الحسد أحرّ من النّار، والحاجة إلى القريب إذا لم ينجح (١) أبرد من الزمهرير، وقلب الكافر أقسى من الحجر، والنّمام إذا بان أمره أذلّ من اليتيم هذا.

و ينبغي أن يعلم أنّ مراد النّمام بنميمته إمّا إرادة السّوء للمحكىّ عنه، أو إظهار الحب للمحكىّ له أو التفرّج بالحديث والخوض في الفضول و الباطل، وعلى كلّ تقدير فاللاّزم للمحكيّ له عندما سمع النّميمة أمور ستّة:

الأوّل أن لا يصدّقه لأنّ النّمام فاسق وهو مردود الرّواية قال تعالى:

« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ ».

وقد روى إنّ عمربن عبدالعزيز دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئاً فقال له

١ـ انجح حاجته قضاها منه

عمر : إن شئت نظرنا في أمرك فان كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية: إن جائكم فاسق ، وإن كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية : همّاز مشّاء بنميم ، و إن شئت عفونا عنك ، قال : العفو لا أعود إليه أبداً .

الثّاني أن ينهاه عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله قال الله تعالى :

« وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ » .

روى في بعض مؤلفات أصحابنا من ارشاد القلوب أنّ رجلا دخل على عليّ بن الحسين عليهما السلام و قال له : إنّ فلاناً لايزال يذكرك في قصصه بشرّ ، فقال عليه السلام له : يا هذا والله ما راعيت حقّ مجالسة الرّجل حيث نقلت الينا حديثه و خنته فيما ائتمنك به . ولا أدّيت حقّي أيضاً حين أعلمتنى ما أكره ، أما علمت أنّ النّمام من سكان النّار ؟ ولكن قل له : إن الموت يعمّنا ، و القبر يضمّنا ، والقيامة تجمعنا ، والله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين ، نقلناه بالمعنى .

الثّالث أن يبغضه في الله فانّه بغيض عند الله ، ويجب بغض من يبغضه الله تعالى وأيضاً فانّه قد واجهك بما لم يواجهك به من حكى عنه ، حيث استحياك وذكرك بسوء في غيبتك و النمام ذكرك بسوء في مواجهتك و لم يستح منك ، وقد قيل : سبّك من بلّغك ، روى إنّ أمير المؤمنين عليه السلام سعى إليه برجل ، فقال : ياهذا نحن نسأل عمّا قلت فان كنت صادقاً مقتناك ، وإن كنت كاذباً عاقبناك ، و إن شئت أن نقيلك أقلناك ، فقال : أقلنى يا أمير المؤمنين .

الرّابع ألاّ تظن بأخيك الغائب السوء لقوله تعالى :

«إِجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ».

قال رجل لعبدالله بن عامر وكان أميراً : بلغني أنّ فلاناً أعلم الأمير أنى ذكرته بسوء قال : قد كان ذلك ، قال : فأخبرني بما قال حتى أظهر كذبه عندك ، قال : ماأحبّ أن أشتم نفسى بلساني ، وحسبي أنّى لم اصدّقه فيما قال ، ولا أقطع عنك الوصال .

الخامس أن لايحملك ماحكى لك على التجسّس والبحث عن حقيقة ماقاله لقوله تعالى: ولا تجسّسوا .

السّادس أن لاترضى لنفسك ما نهيت النّمام عنه ولا تحكى نميمته فتكون نمّاماً ومغتاباً وتكون قد أتيت ما نهيت عنه .

روى كعب الأخبار أنّ بني اسرائيل أصابهم قحط فاستسقى موسى عليه السلام مرّات فماسقوا ، فأوحى الله تعالى إليه أني لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمّام قد أصرّ على النّميمة ، فقال موسى عليه السلام : ياربّ من هو دلّني عليه حتى اخرجه من بيننا قال : ياموسى أنهيكم عن النميمة وأكون نمّاماً ، فتابوا جميعاً فسقوا .

بقي الكلام في السعاية وهي النميمة إلاّ أنها إذا كانت إلى من يخاف من جانبه كالسلطان والأمير ونحوهما تسمّى سعاية وهي أقبح من النميمة و أفحش منها لما يترتّب عليها من المضارّ .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : السّاعي بالناس إلى النّاس لغير رشدة ، قيل : يعني ليس بولد حلال ، وذكرت السعاية عند بعض الصّالحين فقال : ماظنّكم بقوم يحمد الصّدق من كلّ طائفة من النّاس إلاّ منهم .

و رفع بعض السعاة إلى الصاحب بن عباد رقعة نبّه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرته فوقّع على ظهرها : السّعاية قبيحة و إن كانت صحيحة فان كنت أجريتها مجرى النّصح فخسرانك فيها أفضل من الرّبح ، ومعاذالله أن نقبل مهتوكا في مستور ، ولولا أنّك في خفارة شيبتك لقابلناك بما يقتضيه فعلك في مثلك ، فتوقّ يا ملعون العيب ، فانّ الله أعلم بالغيب الميّت رحمه الله ، واليتيم جبره الله ، و المال ثمره الله ، والساعي لعنه الله .

وبالجملة فشرّ النمام عظيم وخطره جسيم ينبغي التوقّي منه والحذر من نميمته كيلا تقع في طول حسرة وندامة .

فقد روى حمّاد بن سلمة أنّه باع عبداً وقال للمشترى مافيه عيب إلاّ النميمة قال : قد رضيت ، فاشتراه فمكث الغلام أيّاماً ثمّ قال لزوجة مولاه : إنّ سيّدى

لا يحبّك و هو يريد أن يتسرّى عليك فخذى الموسى و احلقى من شعر قفاه عند نومه شعرات حتى اسحره عليها فيحبّك ، ثم قال للزّوج : إنّ امرأتك اتخذت خليلا و تريد أن تقتلك فتناوم لها حتى تعرف ذلك ، فتناوم لها فجائت المرئة بالموسى فظنّ أنّها تريد قتله فقام إليها فقتلها ، فجاء أهل المرئة و قتلوا الزوج ووقع القتال بين القبيلتين واشتدّ الفساد في البين ..

الثالث

في اذاعة الاسرار وإفشاء الفواحش وقد نهى عنهما فى الشرع الأنور لما فيهما من الأذى والتهاون بحقّ الاخوان والاصدقاء ، وحذر عن الثانى في الكتاب الكريم قال تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » .

ولا يخفى دلالته على المقصود ، فانّ افشاء الفاحشة لا يكون إلاّ عن محبّة اشاعتها وإن كان حبّ الاشاعة أعمّ ، إذ يصدق على حبّ شيوعها بين المؤمنين وإن لم يكن الاشاعة من المحبّ نفسه .

وحذّر عن الأوّل في غير واحد من الأخبار ، مثل ما روى في الكافي باسناده عن عبدالله بن سنان قال: قلت له : عورة المؤمن على المؤمن حرام ؟ قال :نعم: قلت: تعنى سفلويه ؟ قال : ليس حيث تذهب إنما هو إذاعة سرّه .

و عن زيد عن أبي عبدالله عليه السلام قال : فيما جاء في الحديث عورة المؤمن على المؤمن حرام قال عليه السلام : ما هو أن ينكشف فترى منه شيئاً إنّما هو تروى عليه أو تعيبه .

وعن محمد بن عجلان قال : سمعت أباعبدالله عليه السلام يقول : إنّ الله عزّ وجلّ عيّر أقواماً بالاذاعة في قوله :

« وَإِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذاعُوا بِهِ »

فإيّاكم و الاذاعة .

و عن محمّد بن مسلم قال: سمعت أباجعفر عليه السلام قال: يحشر العبد يوم القيامة و ماندى (١) دماً فيدفع إليه شبه المحجمة (٢) أو فوق ذلك فيقال: هذا سهمك من دم فلان ، فيقول : ياربّ إنّك لتعلم أنّك قبضتني وماسفكت دماً ، فيقول : بلى سمعت من فلان رواية كذا و كذا فرويتها عليه فنقلت حتّى صارت إلى فلان الجبار فقتله عليها فهذا سهمك من دمه، هذا .

و يتأكّد الحرمة في إذاعة أسرار الأنبيا و الأئمة عليهم السلام ويدلّ عليه ما في الكافي باسناده عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزوجلّ :

« وَ يَقْتُلُونَ الأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ » .

فقال : أما والله ما قتلوهم بأسيافهم ولكن أذاعوا سرّهم و أفشوا عليهم فقتلوا .

وعن يونس بن يعقوب عن بعض أصحابه عن أبي عبدالله عليه السلام قال : ما قتلنا من أذاع حديثنا قتل خطاء ولكن قتلنا قتل عمد .

و عن محمّد الخزاز عن أبي عبدالله عليه السلام قال : من أذاع علينا حديثنا فهو بمنزلة من جحدنا حقّنا .

وعن نصر بن ساعد مولى أبي عبدالله عن أبيه عليهما السلام : قال سمعت أباعبدالله عليه السلام يقول : مذيع السرّ شاك ، و قائله عند غير أهله كافر . ومن تمسّك بالعروة الوثقى فهو ناج ، قلت : ما هو ؟ قال التّسليم .

وعن أبي خالد الكابلي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال : إنّ الله جعل الدّولتين دولتين : دولة آدم وهى دولة الله ، ودولة إبليس ، فاذا أراد الله أن يعبد علانية كانت دولة آدم ، وإذا أراد الله أن يعبد في السرّ كانت دولة إبليس ، والمذيع لما أراد الله

١ـ ما ندى أى ما اراق دما .

٢ـ المحجمة ما يحجم به الحجام وحرفته الحجامة ككتابة لغة

ستره مارق من الدّين •

وعن عبدالرّحمن بن الحجاج عن أبي‌عبدالله عليه السلام قال : من استفتح نهاره باذاعة سرّنا سلّط الله عليه حزّ الحديد وضيق المحابس ، هذا •

و الأخبار في هذا المعنى كثيرة ، و فيما رويناه كفاية لمن له دراية ، والله الهادي •

الترجمة

بعض دیگر از این خطبه اشاره است بفساد زمان بني‌امیه وبني‌مروان وحال روزگار سایرمخالفان چنانچه فرموده :

و آن زمان زمانی است که نجات نیابد در آن مگر هر مؤمني که گمنام باشد ، اگر حاضر شود آن مؤمن در مجالس نشناسند اورا ، واگر غایب شود نجویند اورا ، ایشانند چراغهای هدایت درصراط مستقیم ، ونشانهای سیروحرکت در شب بسوی منهج قویم ، نیستند در میان مردمان گردش کنندگان با فساد وسخن‌چینی ، ونه‌فاش سازندگان اسرار وعیبهای بندگان ، ایشان‌میگشاید حقتعالی ازبرای ایشان درهای رحمت خودرا ، وببرد از ایشان شدت عقوبت خودرا .

ای گروه مردمان زود باشد که بیاید برشما زماني که سرنگون کرده می‌شود در او اسلام همچنانکه سرنگون میشود ظرف با آنچه در او است ، ای جماعت مردمان بدرستي که خداوند تعالی نگاه داشته شما را از اینکه ظلم وجور نماید در حق شما ونگه نداشته شما را از اینکه امتحان نماید شمارا ، و گفته در حالتی که بزرگ است از حیثیت گویندگی « إنّ في ذلك لآيات و إن كنّا لمبتلين » یعني بدرستي که دراین نشانها و علامتهای است و اگرچه هستیم ما آزمایش و امتحان کنندگان .

و من خطبة له عليه السلام و هى المأة والثالثة من المختار في باب الخطب

خطب بها عند خروجه إلى البصرة و قد تقدم مختارها بخلاف هذه الرواية وهي الخطبة الثالثة والثلاثون.

أمّا بعد فإنّ الله سبحانه بعث محمّداً صلّى الله عليه وآله و ليس أحد من العرب يقرء كتاباً، ولا يدّعي نبوّة ولا وحياً، فقاتل بمن أطاعه من عصاه، يسوقهم إلى منجاتهم، و يبادر بهم السّاعة أن تنزل بهم، يحسر الحسير، و يقف الكسير، فيقيم عليه حتّى يلحقه غايته إلاّ هالكاً لا خير فيه، حتّى أراهم منجاتهم، و بوّأهم محلّتهم، فاستدارت رحاهم، واستقامت قناتهم، وأيم الله لقد كنت في ساقتها حتّى تولّت بحذافيرها، واستوسقت في قيادها، ما ضعفت ولا جبنت، ولا خنت ولا وهنت، و أيم الله لأبقرنّ الباطل حتّى أخرج الحقّ من خاصرته.

اللغة

(المنجاة) محلّ النّجاة ويحتمل المصدر و (حسر) البصر يحسر حسوراً من باب قعد كلّ و انقطع من طول مدى ونحوه وهو حسير، و حسر البعير ساقه حتّى أعياه كأحسره، و حسر البعير أيضاً من باب ضرب و فرح أعيا كاستحسر

فهو حسير يتعدّى و لا يتعدّي و ناقة (كسير) مكسورة و (استوسقت) الابل اجتمعت و (فياد) و زان كتاب حبل يقاد و مضى تفسير ساير الألفاظ في شرح الخطبة المشار إليها المتقدّمة.

الاعراب

جملة ليس أحد حال من فاعل بعث والرابط الواو ، وجملة يسوقهم حال من فاعل قاتل والرابط الضمير ، و قوله ان تنزل بهم إما بدل من السّاعة أو مفعول له ليبادرأى مخافة أن تنزل بهم على حدّ قوله تعالى :

« يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا »

أى كراهة أن تضلّوا ، و إلاّ هالكا إما استثناء من مفعول يلحقه أو من الضّمير في عليه و الثاني أظهر لأنّه كان مقيماً على الهالك و غيره إلاّ أنّ الالحاق إلى الغاية كان مختصّا بغير الهالك فحسن الاستثناء .

فان قلت : إذا كان اقامته عليهما على السواء فما معنى الاستثناء من الضمير ؟

قلت : إنّه صلى الله عليه وآله وإن كان مبعوثا إلى الناس كافة مقيماً عليهم مريداً لالحاقهم إلى الغاية طامعاً في إيمانهم جميعاً ، إلاّ أنّ اللّحوق المترتب على الالحاق الذى كان غاية للاقامة لما لم يكن ممكنا في حقّ الهالك فجاز الاستثناء من كلّ من الاقامة و الالحاق باعتبار اللّحوق المترتّب عليهما ، و وجه أظهرية الاستثناء في الثاني هو أن ترتب اللّحوق عليه بلا واسطة و على الأوّل مع الواسطة فافهم ، و يوضح ما ذكرته من كونه مقيماً على الكلّ حريصاً على ايمانهم وإن لم يؤمنوا قوله تعالى :

« أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى » و قوله « إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .

المعنى

اعلم أنّه قد تقدّم في شرح الخطبة الثالثة و الثّلاثين أنه عليه السلام خطب بهذه

الخطبة عند الخروج لحرب أهل الجمل و أنّ غرضه عليه السلام منه التّنبيه على أنّ حربه عليه السلام معهم إنّما هي لاقامة الحقّ وإزالة الباطل، وتقدّم أيضاً تحقيق الكلام فيها وفي توضيح أكثرفقراتها ولا حاجة إلى إعادة ما تقدّم ونذكر هنا مالم يسبق ذكره ثمة فنقول :

قوله عليه السلام : (أمّا بعد فان الله سبحانه بعث محمّداً صلّى الله عليه وآله وليس أحدمن العرب) حين بعثه (يقرء كتاباً ولا يدّعى نبوّة) وهو محمول على بعض العرب أى الغالب منهم أو المراد بالكتاب الكتاب الحق إن اُريد بهم العموم فلا ينافي وجود الصحف المحرّفة من التوراة والانجيل والزبور بينهم حسبما مرّت إليه الاشارة .

(فقاتل بمن أطاعه من عصاه) أى جاهد باستعانة المؤمن الموحّد العاصى المتمرّد (يسوقهم إلى منجاتهم ويبادر بهم الساعة أن تنزل بهم) أى يسارع بهم إلى الارشاد و الهداية و يعجل في انقاذهم من الجهالة مخافة أن تنزل بهم السّاعة على ما هم عليه من العمى والضلالة فيستحقّوا بذلك السّخط و العقاب ويستوجبوا به أليم العذاب .

(يحسر الحسير و يقف الكسير فيقيم عليه حتى يلحقه غايته) يقول عليه السلام إنّه كان ينقطع الغىّ العاجز و يقف المكسور فكان الرّسول صلّى الله عليه وآله لا يزال مقيماً عليه حتى يلحقه الغاية و يوصله الغرض و هو من باب الاستعارة شبّه النّاس في سلوكهم طريق الآخرة بإبل يساربها في الأسفار وأثبت لهم وصف الحسيروالكسير الذي هو من أوصاف الابل .

والمراد أنّ من عجز ووقف قدم عقله في سلوك طريق الحقّ لضعف في اعتقاده أو قصور في آلة إدراكه لا يزال النبيّ صلّى الله عليه وآله مقيماً عليه آخذاً بعضده جاذباً له بأنواع التدبير و الجواذب إلى ما يمكن من العقيدة المرضيّة والأعمال الزّكيّة التي هى الغاية القصوى من خلقة الانسان .

و قريب من ذلك ما في شرح المعتزلي قال : هذا الكلام من باب الاستعارة والمجاز يقول عليه السلام : كان النبيّ صلّى الله عليه وآله لحرصه على الاسلام وإشفاقه على المسلمين

و رأفته بهم يلاحظ حال من تزلزل اعتقاده أو عرضت له شبهة أو حدث عنده ريب لايزال يوضح له ويرشده حتّى يزيل ما خامر سرّه من وساوس الشّيطان و يلحقه بالمخلصين من المؤمنين و لم يكن ليقصّر في مراعاة أحد من المكلّفين في هذا المعنى (إلاّ هالكا لا خير فيه) أصلا لعناده و إصراره على الباطل ومكابرته للحقّ كأبي جهل وأبي لهب و نظرائهما (حتّى أريهم منجاتهم و بوّئهم محلتهم) أراد بهما دين الاسلام إذ به ينجي في العقبى وينزل في أشرف المنازل ويؤتى .

(فاستدارت) به عليه السلام (رحاهم و استقامت قناتهم) كنّى باستدارة رحاهم عن انتظام أُمورهم لأنّ الرّحى لا تستدير إلاّ بعد تكامل الآلة و انتظام أدواته ، و أراد باستقامة قناتهم ظهور قهرهم وغلبتهم وحصول القوّة لهم ، لأنّ القناة سبب للقوّة ولا تستقيم إلاّ في حال الظفر والغلبة .

(وأيم الله لقد كنت في ساقتها حتى تولّت بحذافيرها) قال الشّارح المعتزلى هذا الضّمير المؤنّث يرجع إلى غير مذكور لفظاً ، والمراد الجاهليّة كأنها جعلها مثل كتيبة مصادمة لكتيبة الاسلام ، و جعل نفسه من الحاملين عليها بسيفه حتى فرّت وأدبرت و أتبعها يسوقها سوقا وهى مولية بين يديه حتى أدبرت بحذافيرها أى كلّها عن آخرها (و استوسقت في قيادها) أى اجتمعت في ذلّ الانقياد كالابل التي تستوثق في قيادها .

ثمّ أشار عليه السلام إلى شجاعته وأمانته بقوله : (ماضعفت) في القتال (ولاجبنت) من لقاء الأبطال (و لا خنت) في تبليغ أمر الله (و لا وهنت) في إقامة دين الله (وأيم الله) سبحانه (لأبقرنّ الباطل حتى اخرج الحقّ من خاصرته) تقدّم معناه فيما سبق فليراجع ثمة .

تكملة

هذه الخطبة رويها المحدّث العلامة المجلسيّ (ره) في البحار من ارشاد الشيخ بنحو آخر أوجبت الحال ايرادها قال :

لما توجّه أمير المؤمنين صلوات الله عليه إلى البصرة نزل الرّبذه فلقاه بها

آخر الحاجّ فاجتمعوا ليسمعوا من كلامه وهو في خبائه قال ابن عباس رضىالله عنه فأتيته فوجدته يخصف نعلا فقلت له عليه السلام : نحن إلى أن تصلح أمرنا أحوج منا إلى ما تصنع فلم يكلّمني حتى فرغ من نعله ثمّ ضمّها إلى صاحبتها و قال عليه السلام لي : قوّمهما، فقلت : ليس لهما قيمة ، قال : على ذلك (١) قلت : كسردرهم ، قال عليه السلام : والله لهما أحب إليّ من أمركم هذا إلاّ أن أقيم حقاً أو أدفع باطلا ، قلت : إنّ الحاجّ اجتمعوا ليستمعوا من كلامك فتأذن لى أن أتكلّم فان كان حسناً كان منك وإن كان غير ذلك كان منّى ، قال عليه السلام : لا ، أنا أتكلّم ، ثمّ وضع عليه السلام يده على صدرى وكان شثن الكفّين فالمنى ثمّ قام فأخذت بثوبه وقلت : نشدتك (٢) الله و الرّحم قال عليه السلام : لا تنشدني ثمّ خرج فاجتمعوا عليه فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال :

أمّا بعد فانّ الله بعث محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم وليس في العرب أحد يقرء كتابا ولا يدّعى نبوّة فساق الناس إلى منجاتهم ، أم والله مازلت في ساقتها ما غيّرت ولا بدّلت ولا خنت حتى تولّت بحذا فيرها ، مالي و لقريش ، أم والله لقد قاتلتهم كافرين و لأقاتلنّهم مفتونين ، و إنّ مسيرى هذا عن عهدإليّ فيه ، أم والله لأبقرنّ الباطل حتى يخرج الحقّ من خاصرته ، ماتنقم منّا قريش إلاّ أنّ الله اختارنا عليهم فادخلناهم في حيّزنا وأنشد :

أدمت لعمرى شربك المحض خالصاً و أكلك بالزّبد المقشرة التمرا
و نحن وهبناك العلاء و لم تكن علياً وحطنا حولك الجردو السمرا (٣)

و لمّا نزل عليه السلام بذيقار أخذ البيعة على من حضره ، ثمّ تكلّم فأكثر من الحمدلله والثناء عليه والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثمّ قال:

قد جرت أمور صبرنا عليها و في أعيننا القذى تسليماً لأمر الله

١- أى على ذلك التحقير الذى تظهره ، بحار .
٢- لعله نشده على أن يدع الكلام اليه ظنا منه أن المصلحة فى ذلك
٣- الجرد فضاء لانبات فيه و السمرة بالضم من شجر الطلح والجمع سمر ومضى فى شرح الخطبة الثالثة والثلاثين لهمامعنى آخر أحسن من ذلك فليتذكر، منه

فيما امتحننا به رجاء الثّواب على ذلك و كان الصّبر عليها أمثل من أن يتفرّق المسلمون و يسفك دمائهم نحن أهل البيت و عترة الرّسول صلّى الله عليه و آله و أحقّ الخلق بسلطان الرّسالة و معدن الكرامة الّتي ابتدأ الله بها هذه الأمّة ، و هذه طلحة و الزّبير ليسامن أهل النّبوة ولا من ذرّية الرّسول صلّى الله عليه و آله حين رأيا أنّ الله قد ردّ علينا حقّنا بعد أعصر لم يصبرا حولا واحداً و لا شهراً كاملا حتّى وثبا علىّ دأب الماضين قبلهما ليذهبا بحقى ويفرّقا جماعة المسلمين عنّى ثمّ دعا عليه السلام عليهما .

الترجمة

از جمله خطب عالية المضامين آن امام مبين است که فرموده :

أما بعد از حمد خدا ودرود برحضرت مصطفی صلّى الله عليه و آله پس بدرستی که حقتعالی برانگیخت محمّد بن‌عبدالله صلّى الله عليه و آله را درحالتیکه نبود هیچ احدی ازعرب که بخواند کتاب حق را ، ونه دعوی نبوتي بكند ، ونه وحی وخطابی را ازجانب خدا ، پس مقاتله کرد بمعونة کسانیکه اطاعت نمودند اورا با کسانی که معصیت ونافرماني کردند باودرحالتی که میراند ایشانرا بجانب راستکاری .

ومبادرت مینمودبرایشان برساعت موت که مبادانازل شود برایشان درحالتی که عاجز ميشد عاجز شونده و میایستاد شکسته پس اقامت مینمود ختمی مآب سلام‌الله علیه وآله وثابت قدم میشد برآن عاجزپریشان وشکسته ناتوان تااینکه میرسانید هریك از ایشانرا بمقصد خودشان مگر کسیکه در هلاکت بوده که درآن هیچ امید خیری وصلاحی نبوده باشد .

تااینکه‌بنمود بمردم محل نجاةایشانرا ،وجای دادایشانرادرمقام خودشان ، پس دوران نمودآسیای ایشان ، وراست شد نیزه ایشان .

و سوگند بخدا بتحقیق که بودم من از جمله راننده های لشکر جهالت وضلالت تا اینکه باز گشتند آن لشکر بتمامي ، ومجتمع شدند در قید و ریسمان خودشان که جامع ایشان بود درحالتي که ضعیف نشدم ونترسیدم وخیانت ننمودم

وسستى نكردم ، وقسم بخدا هرآينه البته ميشكافم باطل را تااينكه بيرون آورم حق را از تهى گاه آن .

ومن خطبة له عليه السلام وهى المأة و الرابعة من المختار في باب الخطب

و شرحها في فصلين :

الفصل الاول

حَتّىٰ بَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله شَهيداً وَ بَشيراً وَ نَذيراً خَيْرَ الْبَرِيَّةِ طِفلاً ، وَأَنْجَبَها كَهْلاً ، وَأَطْهَرَ الْمُطَهَّرِينَ شيمَةً ، وَأَجْوَدَ الْمُسْتَمْطَرِينَ دَيِّمَةً ، فَما أَحْلَوْلَتْ لَكُمُ الدُّنْيا في لَذّاتِها ، وَلا تَمَكَّنْتُمْ مِنْ رَضاعِ أَخْلافِها ، إِلاّ مِنْ بَعْدِ ما صادَفْتُمُوها جائِلاً خِطامُها ، قَلِقاً وَضينُها ، قَدْ صارَ حَرامُها عِنْدَ أَقْوامٍ بِمَنْزِلَةِ السِّدْرِ الْمَخْضُودِ ، وَحَلالُها بَعيداً غَيْرَ مَوْجُودٍ ، وَصادَفْتُمُوها وَاللهِ ظِلاًّ مَمْدُوداً إِلىٰ أَجَلٍ مَعْدُودٍ ، فَالْأَرْضُ لَكُمْ شاغِرَةٌ ، وَأَيْديكُمْ فيها مَبْسُوطَةٌ ، وَأَيْدِي الْقادَةِ عَنْكُمْ مَكْفُوفَةٌ ، وَسُيُوفُكُمْ عَلَيْهِمْ مُسَلَّطَةٌ ، وَسُيُوفُهُمْ عَنْكُمْ مَقْبُوضَةٌ ، أَلا إِنَّ لِكُلِّ دَمٍ ثائِراً ، وَلِكُلِّ حَقٍّ طالِباً ، وَإِنَّ الثّائِرَ في دِمائِنا كَالْحاكِمِ في حَقِّ نَفْسِهِ ، وَهُوَ اللهُ الَّذي لا يُعْجِزُهُ مَنْ طَلَبَ ، وَلا يَفُوتُهُ مَنْ هَرَبَ ، فَأُقْسِمُ بِاللهِ

يا بَني أُمَيَّةَ عمّا قَليلٍ لَتَعرِفُنَّها في أَيْدي غَيرِكُمْ ، وَفي دارِ عَدُوِّكُمْ .

اللغة

(الكهل) بفتح الأوّل من جاوز الثلاثين ، وقيل من بلغ الأربعين ، وقيل من جاوز أربعا وثلاثين إلى إحدى وخمسين و(جادت) السماء جوداً بالفتح أمطرت وقيل الجود المطر الغزير و (المستمطرين) في أكثر النسخ بصيغة المفعول و هو الأظهر وفي بعض النسخ بصيغة الفاعل و (الدّيمة) المطر الدّايم في سكون .

و (احلولى) الشيء صار حلواً و (الرّضاع) بالفتح مصدر رضع الصّبىّ أمّه بالكسر اى امتصّ ثديها و (الأخلاف) جمع خلف بالكسر وهو حلمة ضرع الناقة أو نفس الضرع لكلّ ذات خفّ وظلف و (الخطام) بالكسر ما يقاد به البعير و(قلق) ككتف المضطرب المتحرّك الذي لايستقرّ في مكانه و(الوضين) بطان منسوج بعضه ببعض يشدّ به الرّحل على البعير كالحزام للسّرج .

وقال الشّارح المعتزلي ما يشدّ به الهودج على بطن البعير كالبطان للقتب و التصدير للرحل و الحزام للسرج و (المخضد) عطف العود اللّين يقال خضدت العود فانخضد أي ثنيته فانثنى من غير كسر و خضدت الشجر أى قطعت شوكه و السدر المخضود الذي انثنى أغصانه من كثرة الحمل أو الذي قطع شوكه فصار ناعما أملس .

و (شغرت) الأرض كمنعت أى لم يبق بها أحد يجمعها ويضبطها وبلدة شاغرة برجها اذا لم تمنع من غارة أحد ، وعن النهاية قيل الشغر الاتساع و منه حديث عليّ عليه السلام فالأرض لكم شاغرة أى واسعة و (الثار) الدّم والطّلب به و ثار به كمنع طلب دمه كثاره وقتل قاتله والثائر الذى لايبقى على شيء حتى يدرك ثاره

الاعراب

شهيداً وبشيراً ونذيراً منصوبات على الحال من مفعول بعث ، وخير البرية

والمعطوفات عليه منصوبات على الوصف وتحتمل الحال أيضاً، وطفلا و كهلا منصوبان على الحال أيضاً واضافة أطهر إلى المطهّرين معنويّة ، وشيمة تميز ، و إضافة أجود إلى المستمطرين معنوية أيضاً بمعنى من إن كان المضاف إليه بصيغة المفعول كما في أكثر النسخ و بمعنى اللام إن كان بصيغة الفاعل .

وديمة تميز على الأوّل وعلى الثاني يحتمل التميز و هو الأظهر و يحتمل أن يكون مفعولا للمستمطرين فتدبّر ، والفاء في قوله : فالأرض فصيحة ، وعن في قوله عمّا قليل بمعنى بعد، ومازايدة كما مرّ غير مرّة.

المعنى

اعلم أنّ صدر هذا الفصل من كلامه عليه السلام مسوق لذكر محامد رسول الله صلى الله عليه وآله ومناقبه ، وبعده اشارة إلى بيان حال بني اميّة لعنهم الله قاطبة ، وذيله اخبار بما سيكون من مآل حال بني اميّة و تنبيه على أنهم يسعون في دماء عترة الرّسول فينتقم الله منهم ويجزيهم بما كسبت أيديهم ، والله عزيز ذو انتقام .

قال عليه السلام (حتّى بعث الله محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم شهيداً) على أوصيائه و اُمّته و على الأنبياء و اُممهم كما قال تعال :

« وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هَؤُلاءِ » .

وقد مرّ تحقيق هذه الشهادة في شرح الخطبة الاحدى والسّبعين بما لا مزيد عليه فليراجع إليه (وبشيراً ونذيراً) وهما من ألفاظ الكتاب العزيز قال تعالى :

« إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ »

قال الطبرسيّ أرسلناك يا محمّد بالحقّ قيل : بالقرآن ، وقيل : بالاسلام ، وقيل على الحقّ بشيراً من اتّبعك بالثواب ، و نذيراً من خالفك بالعقاب ولا تسأل عن أصحاب الجحيم أى لا تسأل عن أحوالهم ، وفيه تسلية للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ قيل له :

إنّما أنت بشير و نذير و لست تسأل عن أصحاب الجحيم و ليس عليك اجبارهم على القبول منك .

(خير البريّة طفلا) لأنّ الخيريّة إنّما هى بالأعمال الصّالحة و الأخلاق الفاضلة ، و التسديد بسلوك سبيل الحقّ و هو صلى الله عليه وآله منذ أيّام طفوليته وصباه كان ملازماً لذلك سابقاً فيه على غيره .

(و أنجبها كهلا) أى أفضلها ، و قيل : أكرمها فلقد كان صلى الله عليه وآله في حال كهوليّته ودعوته منبع كلّ كرم وفضل (أطهر المطهرين شيمة) أى طبيعة و جبلة و خلقا لم تدنسه الجاهلية بأنجاسها ، و لم تلبسه من مدلهمّات ثيابها (و أجود المستمطرين ديمة) أى أجود الأشخاص الذين يطلب منهم الأمطار و يرجى منهم الاحسان (١) ، أو أكثر جوداً للّذين يطلبون البذل و الانعام ، وعلى كلّ تقدير فقد شبّهه عليه السلام بالسّحاب الماطر و الغيث الهاطل ، و أراد بذلك كثرة جوده وعطاياه ، فلفظ المستمطرين استعارة للراجين أوالمرجوّين منهم الاحسان ، وذكر الجود والدّيمة ترشيح للاستعارة ، هذا .

وقوله عليه السلام : (فما احلولت لكم الدّنيا في لذّاتها) قال الشارح المعتزلي الخطاب لمن في عصره من بقايا الصّحابة و لغيرهم من التّابعين الذين لم يدركوا عصر النّبي صلى الله عليه وآله وقيل : الخطاب لبني امية وأمثالهم ، والأوّل أوفق بظاهر المخاطبة ، والثّاني أظهر بملاحظة سياق الكلام والفقرات الآتية .

وكيف كان فالمعنى أنّه ما صارت لكم الدّنيا حلواً في لذّاتها (ولاتمكنتم من رضاع أخلافها) استعارة بالكناية شبه عليه السلام الدّنيا بناقة مرضعة تنتفع بها ويمتصّ من ثدييها ، والجامع وجوه الانتفاع وأثبت لها الأخلاف تخييلا وذكر الرّضاع ترشيح ، و المقصود أنّكم ما تمكنتم من الانتفاع بالدّنيا والابتهاج بلذّاتها (إلاّ من بعد ما صادفتموها) أى أصبتموها و وجدتموها (جائلا خطامها قلقا وضينها)

١- هذا مبنى على كون المستمطرين بصيغة المفعول و اضافة اجود اليه بمعنى من والثانى مبني على كونه بصيغة الفاعل و كون الاضافة بمعنى اللام، فافهم .

استعارة بالكناية أيضاً وذكر الخطام والوضين تخييل وذكر الجولان والقلق ترشيح قال المحدّث المجلسيّ (ره) : و الغرض عدم تمكّنهم من الانتفاع بالدّنيا وصعوبتها عليهم وعدم انقياد حالهم كما يستصعب النّاقة على راكبها إذا كانت جائلة الخطام قلقة الوضين لا يثبت رحلها تحت راكبها .

أقول : و الأظهر عندى أنّ الغرض بذلك الاشارة إلى أنهم لم يتمكّنوا من الانتفاع بالدّنيا ومن رضاع أخلافها وتولية أمرها إلاّ من بعد ما أصابوها وليس لها صاحب ولا فيها أمر وسلطان حقّ يمنعهم من تولى أمرها والتّصرف فيها بمنزلة ناقة ليس لها صاحب ولا لها راكب فانّ النّاقة إذا كان لها راكب يركبها يمسك خطامها ويشدّ وضينها ويملك أمرها ويمنع من تسلّط الغير عليها ، فجولان الخطام واضطراب الوضين إنّما يكونان مع عدم من يملك أمرها وبتلك الحال يتمكّن منها من يصادفها .

و يؤيد ما ذكرته قوله (قد صار حرامها عند أقوام بمنزلة السدر المخضود) فانه ظاهر في أنّ المراد بالأقوام الخلفاء المتقدّمين الذين ولوها بلا وجه شرعيّ فانجرّ الأمر منهم إلى بني اميّة وتداولوها بينهم دولة جاهلية هذا .

و تشبيه الحرام بالسّدر المخضود إشارة إلى كثرة أكلهم له ورغبتهم به إن كان المخضود بمعنى المعطوف من كثرة الحمل ، وإن كان بمعنى مقطوع الشّوك فوجه الشّبه أنّ نواهي الله سبحانه ووعيداته على فعل الحرام تجرى مجرى الشوك للسّدر في كونها مانعة منه زاجرة عنه كما يمنع الشوك عن اجتناء ثمرة السّدر ولما كان هؤلاء الأقوام قد اغمضوا عن النّواهي والوعيدات ولم يبالوا بها فصار الحرام عندهم بمنزلة السّدر النّاعم الأملس الخالي عن الشّوك في سهولة التناول (و) من أجل عدم المبالات أيضاً صار (حلالها بعيداً غير موجود) أى بين هؤلاء الأقوام أو بين عموم الناس لعدم دليل لهم يرشدهم إلى الحلال وينقذهم من الحرام

ثمّ نبّه عليه السلام على سرعة زوال الدّنيا و انقضائها بقوله (وصادفتموها والله ظلاّ ممدوداً إلى أجل معدود) تهديداً لهم عن الابتهاج بها و تحذيراً عن الاغترار بلذّاتها .

ثمّ أشار إلى تسلّطهم في الأرض وتمكّنهم من التصرف فيها بأيّ نحو شاءوا وقال (فالأرض لكم شاغرة) أى ليس بها حام يحميها ولا أمير يضبطها و يمنعكم منها بل هى مخلاة لكم أو أنها غير ضيقة عليكم وأنتم فيها في اتساع (وأيديكم فيها مبسوطة) بالجور و العدوان ووجوه التصرّف بأىّ نحو كان (وأيدي القادة) أى الولاة الحقّ (عنكم مكفوفة) لقلّة النّاصر والمعين وغلبة الشقاق والنّفاق (وسيوفكم عليهم مسلّطة وسيوفهم عنكم مقبوضة) و كأنه إشارة إلى وقعة كربلا وما كان من بني اميّة وتابعيهم فيها من سفك الدّماء

ونبّه عليه السلام على أنّ الدّم الذى سفكوه لا يكون هدراً ، وأنّ له طالباً يطلبه فقال (ألا إنّ لكلّ دم ثائراً و لكلّ حق طالباً وأنّ الثائر في دمائنا) والطّالب لحقنّا (كالحاكم في حقّ نفسه) يستوفي حقه بنفسه ويحكم بعلمه من غير افتقار إلى بيّنة وإثبات وحكم حاكم آخر (وهو الله الذى لا يعجزه من طلب ولا يفوته من هرب) أى لا يعجزه مطلوب ولا يفوته هارب بل ينتقم منه ويأخذ بقوده

و لا يخفى ما في هذه الفقرات من التأكيد والتهديد ، حيث استفتح الكلام أوّلا بكلمة ألا الاستفتاحية المفيدة للايقاظ و التّنبيه ، و أكّده بكلمة إنّ و الّلام والجملة الاسميّة ، وعقّبه بأنّ ثائر دمهم هو الله القوىّ العزيز الشّأن ، ووصفه بأنه حاكم مختار غير مفتقر وقادر قاهر مدرك مقتدر .

ثمّ لا يخفى ما فى حصر ثائرهم في الله ، فانّ دمائهم قد سفكت بالله ولله وفي سبيل الله ، فحرىّ لها أن يكون ثائرها هو الله تعالى ، لاضافة تلك الدّماء الطيّبة إليه سبحانه وتعلّقها عليه دون غيره .

و يشير إلى ذلك المعنى ما في زيارته عليه السلام : السّلام عليك ياثار الله و ابن ثاره، فانّ معنى الاضافة هو أنهم عليهم السلام لمّا قتلوا مظلومين في سبيل الله ، ولم يسفك دمائهم إلاّ أن قالوا : ربنا الله ، فصار تلك الدّماء حقيقاً بأن تضاف إليه سبحانه وتكون حقّاً له مختصة به تعالى ، ويحقّ له جلّ شأنه أن يكون ثائرها بالاستقلال بالانتقام أو نصرة من وليّه على القصاص وقد قال تعالى :

« وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً »

روى فى الكافي عن الصّادق عليه السلام أنّها نزلت في الحسين عليه السلام لوقتل أهل الأرض به ما كان مسرفاً ، هذا .

ويجوز أن يكون الاضافة في ثارالله تشريفاً وتكريماً ، فانّ الله أجلّ وأعلى من أن يوصف بأوصاف الجسم ويكون له ثار ودم ونحوهما ، وإنما يضاف إليه بعض الأشياء إظهاراً لرفعة شأنه وعلوّ قدره ، كما يقال روح الله وبيت الله

ثمّ إنّه لماهدّدهم بانتقام الله منهم أخبرهم بزوال الملك عنهم فقال عليه السلام: (فاقسم بالله يا بني اُمية عما قليل لتعرفنّها) أى الخلافة والامارة ، أو الدّنيا كما هى مرجع الضماير المتقدّمة (في أيدى غيركم وفي دار عدوّكم) وقد وقع الأمر بموجب اخباره عليه السلام ، فانّ الأمر بقى في أيدى بني اميّة نيفاً وثمانين سنة ، ثمّ عاد إلى البيت الهاشمي ، وانتقل إلى أشدّ النّاس عداوة لهم أعنى بني العباس

قال الشارح المعتزلى سارعبدالله (١) بن عليّ بن عبدالله بن العباس في جمع عظيم للقاء مروان بن محمّد بن مروان ، وهو آخر خلفاء الاُمويّين ، فالتقيا بالزّاب من أرض الموصل ومروان في جموع عظيمة واعداد كثيرة ، فهزم مروان ، واستولى عبدالله بن عليّ على عسكره ، و قتل من أصحابه قتلا عظيماً ، و فرّ مروان هارباً حتى أتى الشام وعبدالله يتبعه فسار إلى مصر فاتّبعه عبدالله بجنوده ، فقتله بنوصير الاشمونين من صعيد مصر ، وقتل خواصه وبطانته كلّها

وقد كان عبدالله قتل من بني اميّة على نهرابى فطرس من بلاد فلسطين قريباً من ثمانين رجلا قتلهم مثلة، واحتذى أخوه داود بن عليّ بالحجاز فعله، قتل منهم قريبا من هذه العدّة بأنواع المثل .

و كان مع مروان حين قتل ابناه عبدالله وعبيدالله ، و كانا وليّى عهده ، فهربا

١ـ وهو عمّ السفاح جهّزه السفاح لقتال مروان بن محمد المشهور بالحمار، منه

في خواصهما إلى اسوان من صعيد مصر ، ثمّ صارا إلى بلاد النّوبة و نالهم جهد شديد وضرّ عظيم .

فهلك عبدالله بن مروان في جماعة ممّن كان معه قتلا وعطشا وضرّاً ، وشاهد من بقى منهم أنواع الشدائد وضروب المكاره.

و وقع عبيدالله في عدّة ممن يجامعه من أهله و مواليه في البلاد مستترين راضين أن يعيشوا سوقة بعد أن كانوا ملوكاً ، فظفر بعبيدالله أيّام السّفاح فحبس فلم يزل في السّجن بقيّة أيّام السّفاح ، وأيّام المنصور ، و أيّام المهدى ، وأيّام الهادى ، و بعض أيام الرّشيد و أخرجه الرشيد و هو شيخ ضرير ، فسأله عن خبره فقال حبست غلاماً بصيراً و اخرجت شيخا ضريراً ، و قتل عبدالله بن عليّ بدمشق خلقا كثيراً من أصحاب مروان وموالى بني امية وأتباعهم ، ونزل عبدالله على نهر ابي فطرس فقتل من بني امية هناك بضعا و ثمانين رجلا و ذلك في ذى القعدة من سنة اثنتين وثلاثين ومأة .

و روى أبوالفرج الاصفهاني في كتاب الأغاني قال : نظر عبدالله بن عليّ في الحرب إلى فتى عليه ابهة الشرف وهو يحارب مستقبلا فناداه يافتى لك الأمان ولو كنت مروان بن محمّد قال : إن لاأكنه فلست بدونه ، فقال : لك الأمان ولو كنت من كنت فأطرق ثم أنشد :

أذلّ الحياة ذكرة الممات فكلاّ أراه طعاما و بيلا

و إن لم يكن غيراحداهما فسيراً إلى الموت سيراً جميلا

ثمّ قاتل حتّى قتل فاذا هوابن مسلمة بن عبدالملك بن مروان .

أقول: انقراض الدّولة الأمويّة واستيصالهم وقتل نفوسهم كان بيد عبدالله بن محمّد المكنّى بأبي العباس الملقب بالسّفاح ، و هو أوّل خلفاء العبّاسية كماصرّح به وباسمه ولقبه في القاموس ، و المعروف أنّ اسمه أحمد ، وقد بويع له بالخلافة يوم الجمعة لثلاث عشرة ليله خلت من شهر الرّبيع الأوّل سنة اثنتين وثلاثين ومأة صعد المنبر يوم بويع وخطب النّاس ، فقام إليه السيد الحميري فأنشده :

ر دتكموها يا بني هاشم فجددّوا من آيها الطامسا
ردتكموها لاعلى كعب من أمسى عليكم ملكها نافسا
ردتكموها فالبسوا تاجها لاتعدموا منكم له لابسا
خلافة الله و سلطانه و عنصر كان لكم دارسا
قد ساسها قبلكم ساسة لم يتركوا رطبا ولا يابسا
لو خيّر المنبر فرسانه ما اختار إلاّ منكم فارسا
والملك لوشودر في سائس لما ارتضى غيركم سايسا
لم يبق عبدالله بالشام من آل أبى العاص امرءاً عاطسا
فلست من أن تملكوها إلى هبوط عيسى منكم آيسا

وقد روى حديثه مع بني امية ابومخنف لوط بن يحيى بطرز غريب و نهج عجيب، بعبارات فصيحة ، وألفاظ بليغة أحببت ايرادها بعينها .

قال حديث السّفاح لمّاجلس على كرسيّ الامارة للخلافة وسبب قتل بني اميّة على يده تحريض العبد سديف مولا بني هاشم رضى الله عنه

قال حدّثنا محمّد بن قتادة عن زيد بن عليّ أنه كان في مجلس رسول الله ﷺ وقد سمع أنّ ملك بني امية إذا ماد وانقضى رجعت الخلافة إلى بني العبّاس ، وأول من وليّها السّفاح ، وقد تسامعت به ملوك الأرض وأذعنوا له بالطّاعة وخطبوا له في مشارق الأرض ومغاربها ، وقد نقش اسمه على الدّراهم، وخافت الملوك والتجأت إليه الامم و هربت من سطوته شياطين العرب و العجم ، وتطايرت بنو اميّة شرقا وغربا و سهلا و جبلا مخافة من سلطانه وشدّة بأسه وسيفه وقهره ، ولما كان بينهم من الضغاين والحقود القديمة والامور السالفة .

ثمّ إنهم كتبوا إليه يطلبون منه الامان ، ويسألونه التعطف والاحسان ، وأن لايؤآخذهم بما كان من المداخلة ، وأن يجعلهم أهل بطانته وظهارته وأهل مملكته

فكتب لهم كتابا وذكر لهم أنه غير غنيّ عنهم وأنه يحتاج إلى خدمتهم ، وضمن لهم الأموال والعطايا والاقطاع .

واجتمع إليه منهم الكبير والصّغير ، والرّؤسا وآل زياد وآل مروان و آل

يزيد بن معاوية فلمّا اجتمعوا كلّهم إليه وكان عدّتهم سبعين ألف فارس ويقدمهم يزيد بن عبدالملك بن مروان ساروا في رتبتهم وعددهم حتى قدموا الأنبار ودخلوا إلى أبي العباس أحمد السفّاح على مراتبهم، وأعدّ لهم كراسي من الذهب والفضة ليجلسوا عليها يسلّمون عن يمينه وشماله.

ثمّ إنّه جعل منهم أمراء وحجابا وندما ووكلاء وكانوا يجلسون من حوله وأقرب النّاس إليه وأعزّهم عليه وكان الخاص والعام يتعجبون منه ومن فعله بهم ويقولون ما رأينا رجلا أعجب من هذا الرّجل قطّ، يقرّب أعدائه ويقفى أشغالهم ويعطيهم أمواله وضياعه، وكان العاقل يقول إنما يفعل بهم ذلك ليبيدهم وينعم عليهم حتى يجتمعوا ويتكاملوا ثمّ يأخذهم أخذة شديدة فينذرهم.

قال أبوالحسن: فبينما ذات يوم جالس على مرتبته وبنو اميّة من حوله وعليهم الدّروع المطرزة بطراز الذهب والعمايم الملوّنة متقلدين بالسيوف المحلاّة بالذهب والفضة، وفى أوساطهم المناطق المحلاّة بالجوهر.

إذ دخل بعض حجابه وهو مذعور، فقال له: يا أمير المؤمنين العجب كلّ العجب، فقال له: وما ذلك العجب؟ قال: يا أمير المؤمنين إنّ على الباب رجلا ذميم المنظر عظيم المخبر شخب اللّون رثّ الأطمار وعلاه الغبار ممّا حلّ به من الأسفار ومن تحته مطية بالية قد قطع بها غياهب الدّجى ومهامه (١) الثرى فلو أنّ لها لساناً لنطقت به ممّا لحقها من التعب والنصب، والرّجل فوقها جالس كالنسر البالى والشيخ الفانى، فاني أتعجّب منه ومن مطيته وقد أناخها ببابك وعقلها بفاضل زمامها ثمّ قال لها بشرى يا ناقتي بالكرامة الكبرى والمسرّة العظمى، وقد بلغت ماهو لك في سرور وحبور (٢) وحللت بمن هو أهل للمحل السعدوقد نال أعلى المراتب فالحمدلله فما عليك بعد اليوم سفر ولاتعب ولا جهد، فقلت له: إنّك لعديم العقل

١- المهامه جمع مهمهة وهى المفازة البعيدة والبلدالقفر، منه

٢- الحبور السرور، منه

تخاطب ناقة عجماء فقال : نعم أُخاطبها وأُبشّرها ثمّ أنشا يقول :

أقول لها يا ناق سيري وابشرى بجود كريم الوالدين هجان
فتى أبتغى منه الكرامة و العطاء و من سفرى تعفى و طول هواني
ألا أيّها السّفاح و السيّد الذي له همم تسطو بكلّ مكان
أتت ناقتي تشكو إليك تأسّفا فصنها من الأسفار و السّيران

ثمّ إنّه أقبل يريد الدّخول عليك عاجلا والورود إليك راجلا فمنعته من ذلك وقلت له : ما الذى تريد منه ؟ فقال : استأذن بالدخول على أمير المؤمنين فانّي قد أتيت إليه من بلد بعيد وسفر صعب شاق شديد ، كنت أخوض سواد اللّيل و حنادس الظلام وأقطع المهامه والآكام (١) شوقاً إلى طلعته ومحبته في بهجته ، واريد التطلع إلى رؤيته والأُمور كامنة فى الجوارح ، والنّيران مضرمة في الجوانح ، أُريد برؤيته اخمادها واطفاء شهوقها من كلامه وفتح منظره ومرآه

فقلت له : امض وتطيّب وغيّر أثوابك ليطردمنك وعث السفر ثمّ أقبلك حتى أُوصلك إلى أمير المؤمنين .

فنظر إليّ بعين الغضب و هو مزور (٢) و قال : إنّى آليت على نفسى أن لا أنزع ثوباً ولا أستعمل طيبا ولا ألذّ بعيش حتى أصل إلى أمير المؤمنين وهاهو على الباب منتظر ردّ الجواب عن أمير المؤمنين .

قال: فلمّا سمع السّفاح بنعته وصفته قال صاحبنا وعبدنا سديف وربّ الكعبة ثمّ إنّه أذن له بالدخول عليه وقال : إنّه عزيز علينا قريب إلى قلوبنا .

قال : فلما سمع بنو امية بذكر سديف تغيّر لونهم واقشعرّت منهم الأبدان ونظر بعضهم إلى بعض و ارتعدت منهم الفرائص و أخذهم الجزع والهلع (٣) قبل دخول سديف عليهم .

١- جمع الاكمة وهوالتل الصغير
٢- أى ناظر بمؤخر عينيه
٣- وهوالرعدة تعرض الانسان

قال أبوالحسن : وكان من خبر سديف معهم أنّه كان عبداً لبني هاشم وكان فصيح اللّسان قويّ الجنان شاعراً ماهراً يصول بلسانه مقتدراً بكلامه ، وكان كلّ موسم من مواسم الحج يخرج فيعلو قبّة زمزم ثمّ يصيح بالناس فيجتمعوا إليه ويعتمدوا بين يديه ، فاذا تكاملوا عنده يبسط لسانه بمدح مواليه من بني هاشم ويهجو بني اميّة ويصغر ملكهم ويحرّض النّاس عليهم ليخلعوا الخلافة منهم ويجعلوها في بني هاشم الذين جعلها الله فيهم وهم أهل بيت محمّد المصطفى صلى الله عليه وآله.

فلمّا كان في بعض الأعوام و قد حضر النّاس الموسم أكمل ما يكون من المواسم أقبل سديف فصعد زمزم ثمّ صاح برفيع صوته ياأهل الأرض ويا أهل الأبطح والصّفا وباب مكّة والكعبة العليا ومن ساير الأقطار شرقاً وغرباً ، فدونكم فاسمعوا ما أقول والله على ما أقول وكيل .

ثمّ تكلّم في بني اميّة بكلّ شؤم فأخذه بنو اميّة فضربوه حتّى ظنّوا أنّهم قد قتلوه وألقوه على مزبلة فأقبلت إليه امرئة فسقته شرابا ولجأ إلى رؤوس الجبال

قال فلمّا سمع بنوا ُميّة الذين هم عند السّفاح بذكر سديف قال بعضهم لبعض : أليس قد قتل الله سديفاً فأراحنا منه و إنّا لنراه قدعاش بعد موته لينال مناه منّا .

ثمّ انه دخل على السّفاع و نظر إلى بني اميّة وماهم عليه و انشأ يقول :

أصبح الملك ثابت الأساس ... بالبهاليل (١) من بني العباس
طلبوا ثار هاشم فسقوها ... بعد ميل من الزمان و ياس
لا تقيلن عبد شمس عثاراً ... واقطعوا كلّ وصلة وغراس(٢)
ذلها أظهر التودّد منها ... وبهامنكم كجز«كحدخ»المواسي
فلقد غاظني و غاظ سواى ... قربها من نمارق و كراسى
أنزلوها بحيث أنزلها الله ... بدار الهوان و الاتعاس

١ـ البهلول وزان عصفور السيد الجامع لكلّ خير منه

٢ـ الغراس بالكسر ما يغرس من الشجر منه

و اذكروا مصرع الحسين وزيد ... و قتيلا بجانب المهراس (١)
والقتيل الذي بحرّان أضحى(٢) ... ثاوياً بين غربة و تناسي

و قيل: انّ سديف دخل على السّفاح و يده على يد سليمان بن عبدالله ثمّ انشأ يقول:

لا يغرّنك ما ترى من رجال ... إنّ بين الضّلوع داءاً دوياً
فضع السّيف وارفع الصوت حتى ... لا ترى فوق ظهرها اُموياً
طيّب نفسك وقرّ عينك هنيّة ... إنّ صبرك هو الجميل اديّاً

قال: فقال له السّفاح: أهلا بطلعتك ومرحباً برؤيتك، قدمت خيرمقدم، و غنمت خير مغنم، فلك الاكرام و الانعام، و أما ما أنت له من الأعداء فالصّفح أجمل، فانّ أكرم النّاس من عفا إذا قدر، وصفح إذا ظفر.

ثمّ إن السّفاح نادى ياغلام عليّ بتخت من الثياب و كيس من الورق، فأتاه بذلك، فقال السّفاح: خذه وغيّر ثيابك وأصلح حالك وعد إلينا في غداة غدإنشاءالله فلك عندنا ماتحبّ وترضى، وستبلغ الرّضا وفوق الرّضا.

قال: فخرج سديف من عند السّفاع وهو فرحان شديد الفرح.

قال: وإنّ بني اميّة بقوا في دهشة وبهتةوحيرة ينظربعضهم إلى بعض، فعلم السّفاح ما عندهم و ما خامرهم فاراد أن يطمئنّهم حتّى يطمئنّوا إليه و يقبلوا بأجمعهم إليه.

فقال لهم: يا بني اميّة لا يكبرنّ عليكم ما سمعتم من هذا العبد، فانه ما تكلّم إلاّ بقلّة عقله و كثرة جهله، وليس له رأى سديد ولا ينبغي أن يلتفت إلىقوله ولا إلى رأى العبيد، و لعمرى إنّه ماكان الواجب أن يذكر مواليه وأن يفعل ذلك الفعال التي لا يفعلها إلاّ الجهال، فترك ما في قلوبهم وما خامرهم، فقال: إن لكم عليّ أفضل الهبات وفوق ماتأملون من الكرامات، فانّ هذا زمان وذاك زمان ونحن

١- اراد به حمزة والمهراس ماء باُحد ٢- وقتيل حران هوابراهيم بن محمد

جرثومة العفو ودعامته فابشروا وطيبوا قلوبكم ، فانّي اقدّم لكم العطايا، وأحسن لكم الجزاء وابلغكم الأمل والمنى .

فخرجوا من عنده وقد كشف السّفاح بعض ماكانوا يحذرون من الهمّ والغمّ ثمّ اجتمعوا في مسائهم بالمشورة.

فقال قائلهم : الهرب الهرب مادام العبد سديف لكم في الطلب ، والله لاقرّ لكم قرار ، ولا كان لكم منجأ ولا من طلبه وثاره ملجأ ، وقد كان يعاديكم وهو وحيد فريد لامعين له ولا نصيرولا مجير ، فكيف وقد أتت أيّامه وارتفعت أعلامه وظهرت عداوته ، فخذوا لأنفسكم و انظروا امائكم من قبل أن يغشيكم من هذا الرّجل أمر شنيع .

فقالوا : ياويلك إنّ أميرالمؤمنين قد أحسن إلينا في الخطاب ، ووعدنا بجايزة وسديف أقلّ عنده من ذلك وتفرّقوا إلى منازلهم .

فلمّا كان من الغد بكر القوم إلى السّفاح فدخلوا إليه ، و سلّموا إليه ، فردّ عليهم بأحسن ردّ ، وقرّب مراتبهم، وأعلى منازلهم ، و رفع مجالسم ، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً ، ثمّ أقبل إليهم و سألهم من حالهم و مجيئهم إليه و قضى لهم الحوائج.

فبينما هم فى أسرما كانوا فيه إذ دخل عليهم سديف وقد غيّر أثوابه ، فسلّم على السّفاح و أشار إليه بيده ، وقال : نعم صباحك ، وبان فلاحك ، وظهر نجاحك كشف الله بك رواكدالهموم ، وفداك أبي لانّك آخذ بالثّار ، و كاشف عن قومك وضيمة (١) العار ، والضارب بالسّيف الثار ، وقاتل الاشرار ، فحاشاك يابن الرّؤساء من بني العبّاس ، والسّادة من بني هاشم ، والسّراة من بنى عبد مناف ثمّ أنشأيقول

أصبح الملك عالي الدّرجات	بكرام و سادة و حمات
ياسليل المطهّرين من الرجس	و يا رأس منبر الحاجات
لك أعنى خليفة الله في الأرض	ذاالمجد وأهل الحياة والممات

١ـ الوضيمة الظلام

غدرونا بنو امّية حتى صار جسمي سقيما بالمصيبات
و استباحوا حريمنا و سبونا و رمونا بالذّل و النّكبات
أين زيد و اين عون و من حلّ ثاويا بالفرات
و الامام الذى بحران أضحى هوامام الهدى ورأس الثقات
كيف أسلوممن قتلوه جهراً و هتكوا بعدذلك الحرمات

قال : فلماسمع السّفاح كلام سديف أطرق إلى الأرض زماناحتى سكن مالحقه ثمّ إنّه رفع رأسه وقال له : قل كلامك وتذكرمافات ، وخذ ما هو آت ، فانّ أحلم الناس من صفح عمن ثلمه ، و صان عرضه عمن ظلمه ' فلك عندنا أفضل الكرامة والجزاء ' وحسن المنظر وبلوغ المنى ، فانصرف يا سديف ولا تعد إلى مثلها أبداً .

فخرج سديف من عند السّفاح يفور غضبا و يذمّ صحبته . فلمّا خرج من عندهم أقبل السّفاح على بني اميّة و هم مطرقون وجلون ، فقال لهم : إنّي أعلم أنّ كلام هذا الشّيخ العبد قد أرجفكم وقد أثّر في قلوبكم، فلا تعبأوا بكلامه ، فانّي لكم كما تحبّون وفوق ما تأملون ، وسأزيد لكم العطاء ، وأُقرّب لكم الجزاء وأُقدّمكم على غيركم .

فخرجوا من عنده و قد سكن مابهم ، واجتمعوا للمشورة فيمابينهم .

فقال قائل منهم : هلمّوا بنا حتّى ندخل بكليتنا السّفاح ونسأله أن يسلّم الينا العبد فنقتله أو نستعبده ، فجدّوا يا قوم في طلبه فانّ السّفاح لا يمنعنا من ذلك و لا يعصينا و نحن سبعون ألف سيّد لأجل عبد ذميم ، و إنّكم إن فاتكم أوتوانيتم لم يزل العبد معه حتّى يهلككم ويدمّركم ، وأنه لا شك قد نصب لكم أشراكا فلايفلت منكم أحد فاحذروا ثم احذروا .

وقال قائل منهم : إنّ السّفاح إنّما يظهر لكم ما يظهر لتطمئنّوا إليه ثمّ لتؤخذوا على ما كان منكم ، فلا تعبأوا بكلام السّفاح .

فقال بعضهم فما كان يمنعه منّا وهو مالك رقابنا و ما نراه إلّا محسنا إلينا ووطأ مجالسنا ورفع مواضعنا ووعدنا بالخيروالعطاء الجزيل .

قال يافوم قدأضعتم فولي وعصيتم أمري وخالفتموني فاذا دخلتم عليه فليدخل بعضكم و يبقى بعضكم على الباب حتّى ننظر مايكون ، فاذا أكرم قوماً بالجزاء والعطاء دخل الباقون ويفعلون مثل مافعلوا أوّل مرّة ، وتقدّموا عليه وأنتم آمنون على هذا الترتيب .

قال فلمّا انسدل الظلام وهجع النّوام بعث السّفاح إلى سديف فأحضره عنده فلمّا دخل عليه سديف قال له : يا ويلك يا سديف إنّك لعجول في أمرك ، مُفش لسرّك ، لا تستعمل الكتمان .

فقال سديف : الكتمان قد قتلني ، و التحمّل أمرضني ، و النّظر إلى هؤلاء الظالمين قد أسقمني ، ولن يخفى عليك شيء من أمري وماحلّ بى و بأهلك وعشيرتك و مواليك و أقاربك : من قتل الرّجال ، و ذبح الأطفال ، وهتك النسوان ، و حمل حريم رسول الله صلى الله عليه وآله على الأقتاب بغير غطاء ولا وطاء ، يطاف بهم البلدان ، فأىّ عين لاترقا مدامعها ، و أىّ قلب لا يتفجع عليهم ، فاستوف لهم الدّماء ، و اضرب بحسامك العدى ، و خذ بالثّار من الظلمة لأئمة الهدى و مصابيح الدّجى ، و سادة الآخرة والأولى .

ثمّ إنّ سديفاً بكى وأنشأ يقول :

يحقّ لي أن ادم ما عشت في حزن — أجرى الدّموع على الخدّين والذّقن
يا آل أحمد ما قد كان حزبكم — كأنّ حزبكم في النّاس لم يكن
رجالكم قتلوا من غير ذى سبب — و أهلكم هتكوا جهراً على البدن
سكينة لست انسيها و قد خرجت — في هيئة فجعة من شدّة الحزن
أبكي الحسين أم أبكي نسوة هتكت — أم ابكي فاطمة أم ابكي الحسن
أم ابكى ليث الوغا في الروع حيدرة — أم ابكى ابن رسول الله ذى المنن
اشكو إلى الله ما ألقاه من أمم — ما أرتضى منهم بالفعل و السّنن

قال فعند ذلك بكى السّفاح بكاء شديداً و زاد عليه الأمر حتى اصفرّ لونه ونادى بأعلى صوته : وا محمّداه وا عليّاه وا سيّداه وا قوماه وا أهلاه وا عشيرتاه وبكى سديف

حتّى اغمى عليه .

فلمّا أفاق قال له السّفاح : يا سديف قد بلغ الكتاب أجله ، وقدحان وقرب ما تؤمله فكان بي وقد اطلقت لك السّبيل تضرب بسيفك في أعراضهم كيف شئت .

قال سديف : أما والله لان أطلقت لي السّبيل لأرضينّ الجليل ، وآخذ منهم ثار الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم وارضينّك يامولاى .

قال له السّفاح : نم ليلتك قرير العين و أتنى في غداة غد اعطيك أملك ، و ابلغك رجاك .

قال : فبات سديف في تلك أرقا قلقاً يدعو ربّه ويسأله تمام ماوعده السّفاح .

ثمّ إنّ السّفاح لمّا أصبح ذلك اليوم سمّاه يوم النيروز و هو الذى سمّاه بنو العبّاس نوروز القتل لأنه اليوم الذى قتل السفاح فيه بنى امية وسنّ تلك بني العباس ، فأمر السّفاح مناد يأ ينادي ، إنّ أمير المؤمنين أباالعبّاس السّفاح قدبسط الأنطاع ،وصبّ عليها خزائنه و قال: اليوم يوم عطاء و جوائز ، و ضربت البوقات والطّبول،و نشرت الرايات وخفقت الأعلام .

ثمّ ان السّفاح نصب سرير ملكه وزيّن قصره وبسط الأنطاع بين يديه ، وأفرغ الدّنانير و الدّراهم والأسورة ومناطق المراكب الثقال من الذهب والفضّة .

قال : فلمافرغ من ذلك ، و رتب الزينة والعدّة عمد إلى أربع مأة من غلمانه أشدّهم وأشجعهم ، فدفع إليهم الأعمدة والسّيوف ، و قال لهم : كونوا في الخبرة وأسبلوا عليكم السّتور ، فاذا رأيتموني قد جلدت بقلنسوتي الأرض اخرجوا وضعوا السّيوف في رقاب كلّ من ترونه ولو كانوا من بني عمّي .

قالوا : سمعاً وطاعة ، وقرّ رمعهم الوصيّة ، فلما تعالى النّهار أقبل إليه النّاس في الزّينة والبهجة الحسنة للسلام والعطاء .

قال : و أقبل بنواميّة حتّى تكاملوا السّبعين ألف من آل يزيد وآل مروان فلمّا بلغوا القصر نزلوا عن خيولهم و دفعوا عدادهم وسيوفهم إلى عبيدهم ودخلوا على جارى عادتهم وهم يرفلون في حللهم وأثوابهم ولم يعلموا مايراد بهم ، ويزعمون

أنّهم مسرورون .

قال : وكان فيهم رجل من جلساء السّفاح وكان شاعراً وقد مدح السّفاح بقصيدة حسنة ، وقد أجازه السّفاح عليها فقال له الحجاب الذين عرفوه : ارجع فماهو يوم عطاء وإنّما هو يوم مكر وخداع ، فلا تورد نفسك مورد الهلاك والموت ، فقد رأينا أمير المؤمنين قد أعطاك و أرضاك ، فما نحبّ أن تقع في الهلاك ، قال : رضيت أن أرد مورد قومي ، و أصدر مصدرهم ، فقالوا له : ادخل إلى اللعنة والخزى ، فدخل مع القوم على مراتبهم .

و صعد السّفاح إلى أعلى البيت وهو متقلّد بسيفه ، ثمّ التفت إلى بني اميّة فقال : هذا اليوم الذى كنت أعدكم فيه الجزاء والعطاء فمن تحبّون أن أبدء بالعطاء؟ فقالوا ليقربوا إليه ويدخلوا في قلبه: يا أمير المؤمنين ابدء ببني هاشم واحداً بعد واحد، فانهم خير العالم وأرباب المراسم ، فصاح السّفاح بعبد كان عن يمينه وقد أعلمه بما يريد وكان فصيح اللّسان فرفعه حتى صاردونه .

ثمّ قال له : ناد يا غلام بني هاشم واحداً بعد واحد حتى نجزل لهم العطاء ونحسن لهم الجوائز عن رضى بلا غضب .

فنادى الغلام برفيع صوته وقال :

أين أبو عبيدة بن الحارث بن هاشم هلمّ إلينا فاقبض عطاك ، فقال سديف : يا شيخ وأين أبو عبيدة بن الحارث ، قال : ومافعل الله به قال : قتله شيخ من هؤلاء القوم يقال له : شيبة بن ربيعة بن عبد الشّمس ، فقال : ما علمت بذلك ياغلام اضرب على اسمه إذا غاب وادع لنا غيره .

فنادى الغلام أين أسدالله وأسد رسوله حمزة بن عبدالمطلب بن هاشم هلمّ إلينا و اقبض عطاك ، فقال سديف : و اين حمزة ؟ فقال السّفاح : ما فعل الله به ؟ قال : قتلته امرأة من هؤلاء القوم يقال لها هند بنت عتبة بن ربيعة في أُحد ، و ذلك لأنها أعطت الوحشى مولا حيدر بن طاهر عدة حتّى قتله ، و أقبلت فشقت جوفه وأخذت كبدته لتأكلها فحوّلها الله تعالى في فيها حجراً فسمّيت آكلة الأكباد ،

فلمّا لم تقدر أن تأكلها قطعت أصابعه و جعلها قلادة في عنقها ، فقال السّفاح : ما علمت بذلك يا غلام اضرب باسمه إذا غاب وادع لنا غيره .

قال فنادى الغلام أين عقيل بن عبدالمطلب بن هاشم هلمّ إلينا وخذ عطاك ، قال سديف : يا أمير المؤمنين وأين عقيل ؟ قال : ومافعل الله به ؟ قال : قتله هؤلاء القوم و هو خارج من الشام يريد مدينة الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم ، قال السّفاح : ماعلمت بذلك يا غلام اضرب على اسمه إذا غاب وهات غيره .

فنادى الغلام أين مسلم بن عقيل هلمّ إليناواقبض عطائك ، قال سديف : يا مولاى و أين مسلم بن عقيل ؟ قال : وما فعل الله به ؟ قال : قتله هؤلاء القوم فأخذه عبيدالله بن زياد فرمى به عن قصر الامارة وربطوا برجليه حبلا و جرّوه في أسواق الكوفة و نادوا هذا جزاء من خرج على خلافة بني امية و سبّوا آبائه و جدّه ، قال : ما علمت بذلك يا غلام اضرب على اسمه إذا غاب وهات غيره .

فنادى الغلام أين أول الناس اسلاماً وأفضل الوصيين و يعسوب الدين والامام البطين على بن ابيطالب هلمّ إلينا وخذ عطائك ، فقال سديف : يا مولاى وأين عليّ بن أبيطالب ؟ قال : وما فعل الله به ؟ قال : قتله المرادي عبدالرّحمن بن ملجم وزيّن معاوية الشّام بقتله أيّاماً وفرح فرحاً شديداً فقال سفّاح : ما علمت بذلك ياغلام اضرب على اسمه اذاغاب وهات غيره

فنادى الغلام أين ابن بنت رسول الله الحسن بن على بن أبيطالب عليهم السلام سيّد شباب أهل الجنة هلمّ إلينا فاقبض عطائك ، فبكى سديف وقال : يا مولاى واين الحسن بن عليّ بن أبي طالب ؟ قال السفاح : وما فعل بولد رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ قال : قتلته جعدة امرأته بسمّ دسّه إليها معاوية من الشّام ، فقال : ما علمت بذلك ياغلام اضرب على اسمه إذا غاب وهات غيره .

فنادى الغلام اين ابن بنت رسول الله وسيد شباب أهل الجنة الحسين ابن على بن أبي طالب عليه السلام هلمّ إلينافاقبض عطائك ، فبكى سديف وقال : يامولاى وأين الحسين بن عليّ بن أبيطالب ؟ قال السفّاح : وما فعل لولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

قال : قتله أميرهؤلاء الذين هم مقرّبون وهم على كراسيّ الذّهب والفضّة بحضرتك قاعدون ، قتلوه بأرض كربلا عطشاناً والفرات ملآن ، وأخذوا رأسه وجعلوه على رمح طويل و حملوه من الكوفة إلى أن أدخلوه دمشق إلى يزيد بن معاوية حتّى ندبته الجنّ ، ثمّ رثاه رجل من بعض النّاس يقول :

هلال بدا و هلال أفل كذلك يجرى صروف الدّول

فقال : ما علمت بذلك يا غلام اضرب على اسمه إذا كان غائبا وهات غيره .

ونادى الغلام وأين العباس بن على بن ابى طالب أخو الحسين عليه السلام هلمّ إلينا فاقبض عطائك ، فقطع سديف عليه الكلام ، ثمّ قال : كأنّك يا أمير المؤمنين تريد تؤاخذ هؤلاء القوم بما فعلوا أو تجازيهم بماصنعوا هؤلاء الذين ذكرتهم بكأس المنية قتلهم هؤلاء بأرض كربلا جياعاً عطاشاً عرآيا ، قال السّفاح : ما علمت بذلك ياغلام اضرب على اسمه إذا غاب وهات غيره .

فقال الغلام وأين زيد بن على بن أبيطالب هلمّ إلينا فاقبض عطائك ، قال سديف : يا مولاى وأين زيد ؟ قال السّفاح : وما فعل الله به ؟ قال : قتله واحد من هؤلاء القوم يقال له هشام بن عبدالملك بن مروان ، و صلبه منكوساً وعششت الفاختة جوفه ، ثمّ إنهم بعد ذلك أحرقوه بالنار وسحقوا عظامه في الهاون و ذروه في الهوى فاجتمع على وجه الماء ثمّ غاص وخرج خلقاً سويّاً و هو ينادى برفيع صوته « وسيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون » وقتلوا ولده من بعده و قبره هنالك ، فقال السّفاح : ما علمت بذلك ياغلام اضرب على اسمه وهات غيره .

ثمّ قال : إنّ هؤلاء ساداتنا عاشوا سعداء وماتوا شهداء بأسياف العدى .

ثم نادى الغلام : اين الامام ابراهيم بن محمد بن عبدالله بن العباس هلمّ إلينا و اقبض عطائك ، فسكت سديف و لم يعد قولا و لا ردّ جواباً ، و أيقن بنواميّة بالهلاك ، لأنّهم هم الذين قتلوه ، فقال السّفاح : ويلك يا سديف كنت إذا ذكرلك رجل من بني هاشم تسرع في الجواب فما لك قد عجزت عن الخطاب عند ذكر أخي قال : لأنّي أستحيى أن أقابلك فأواجهلك بما قدفعل بأخيك ، فقال

السفّاح: سألتك بالله إلاّ ما تخبرني ما فعل بأخي، قال: قبضه رجل من هؤلاء القوم يقال له مروان وأدخل رأسه في جراب بقر وركب في أسفله كورالحدّادين وأمر النافخ أن ينفخ والجلاّد يجلد حتّى ضربه عشرة آلاف سوط في ثلاثة أيّام

فقام من أوسط القوم رجل يقال له: يزيد بن عبدالملك و قال: يا و يلك يا عبدالسّوء لقد عظم تعريضك على بني اميّة لقدأشرف أمير المؤمنين على هلا كنا أجمع فقال: إنّ مقصودي ذلك، فرهق السّفاح لسديف بمؤخّر عينيه و قد امتلاء حنقاً وغيظاً ثمّ أنشأ يقول:

حسبت أُميّة أن سترضى هاشم عنها و يذهب زيدها و حسينها
كذبت و حقّ محمّد و وصيّه حقاً ستبصر ما يسيء ظنونها
ستعلم ليلى أيّ دين تداينت و أيّ ديون في البرايا ديونها

قال: ثمّ إنّ السّفاح بكى وعلا صياحه، ثمّ خلع قلنسوته عن رأسه وجلدبها سريرملكه، ونادى: يالثارات الحسين، يالثارات بني هاشم، يالثارات بني عبدالمطلب

قال: فلمّا نظر الغلمان إلى السّفاح وفعاله فتحوا أبواب الخزاين وخرجوا وفي أيديهم السيوف و الأعمدة فوضعوها في رقاب بني امية فعاد الشاعر يدور بينهم يميناً وشمالا وهو يقول: أنا الذي مدحت السّفاح فقال السّفاح لولم تكن منهم لما دخلت معهم، فقتله السّفاح بيده، و جرّد سيفه وعاد يضرب يميناً و شمالا فلم تكن إلاّ ساعة أو كحلب ناقة حتى قتلوا عن آخرهم.

فبينما العبيد و الخدم و الغلمان حول القصر إذ خرج إليهم الدّم من الأفنية و امتلاء البواليع من دماء القتلى كأنّه السّيل أو كأفواه القرب، فعظموا ذلك و أنكروه.

فلمّافرغ السّفاح من القوم أمرهم أن يجمعوا القتلى ويجعلوهم مثل المصطبة ويفرشوا فوقهم الأنطاع، ففعلوا ذلك و جلس عليها السّفاح وسديف وجماعة من بني هاشم و حشمه.

ثمّ أمر بالموائد فنصبت، و نقلوا إليها الطعام فأكل السفاح وأهله و قومه

وجعل القتلى يضطربون من تحتهم .

ثمّ أقبل السفّاح على سديف و قال له : برّد مابقلبك من الغليل ؟ فقال : والله ياسيدى ما أكلت أطيب من أكلتى هذه أبداً .

ثمّ انّ سديف قال : والله لقتل هؤلاء القوم و كبرائهم و أشرافهم فيمنازلهم قد تفرقوا في أقطاعهم وأعمالهم ، قال : يا سديف ليت شعرى ما أخرج هؤلاءالقوم خفت أن يعلموا ماحلّ بقومهم فينهزموا شرقاً وغرباًوسهلا وجبلا ، ولكن ياسديف الذي عمل هذه الحيلة قادر أن يعملهاعلى الباقين حتى لا يبقى منهم صغير ولا كبير على وجه الأرض فقال سديف : فيها يكون زوال القرحة .

فقال السفّاح : ياسديف سترى منّي حيلة ماسبقني إليها أحد وتبلغ ماتحبّه ، فأحضر الصّناع فقال لهم : أمكّنكم من الأموال ومن كلّ ما تريدون ثمّ رسم لهم الأساس فحفروه وكانوا ألف و خمس مأة صانع ، فلمّا فرغوا من حفرالأساس نقل على الحمير والبغال الملح وسدّ به الأساس ولم يزالوا كذلك حتّى اكتفاالاساس من الملح .

ثمّ أمرهم أنيجعلوا اللّبن فوق الملح ففعلوا ذلك واستحلف الصناع بالايمان المغلّظة أنّهم لايفشون ذلك إلى أحد وأنهم متى فعلوا ذلك حلّ دمائهم وأموالهم فكتموه ولم يظهروه ووعدهم أن يجزل لهم العطا و أمرهم أن يكونوا في جوانب القصر وأن يخرقوا مجارى القصر للماء إلى الأساس ويصبروا عليه إلى وقت الحاجة ففعلوا ذلك وأحكموه .

ثمّ انّهم أخذوا في البناء والعمل ورتّب قوماًفي البناء وقوما في عمل المقاصير وقوما فى السّقوف وقوما في التجصيص وقوما يزوّقون الأبواب بالذّهب و الفضّة و قوما في تحت العاج و الآبنوس ، فمامضت عليهم إلاّ أيّام قلائل حتّى فرغوا من القصروسقوفه وجميع آلاته ، ورفعوا مجالسه وركبوا أبوابهوأضاؤوامقاصيره ، فلما فرغوا من جميع ذلك علّقوا السّتور الملوّنة .

ثمّ إنهم فرشوه وزيّنوه و حملوا إليه جميع الآلات الحسنة الرّفيعة الغالية

من أفخرما يكون ، ثم أذن للناس بالدخول والتفرج والتنزه فيه ، فدخل الخاص والعام وجنح إليه الناس من جميع الأقطار يتعجبون من حسنه و كماله .

ودخل بنو امية أولهم و آخرهم صغيرهم و كبيرهم ، فلما نظروه و عاينوه حاروا ودهشوا وتحالفوا أنه أشبه بارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد . وجعلوا يقولون لمن عمل هذا القصر واعدت هذه الآلات المفتخرة و الزينة ، فقال قوم : لاشك إنه يكون هذا القصر لأخيه أبي جعفر المنصور ، وقال آخرون : ماهو إلا لعمه صالح ، واختلف أقاويلهم فيه.

وبلغ ذلك أبا العباس السفاح فركب إليهم و قال : يا بني امية سيروا إلى حتى أجزل لكم العطاء ، وأفضلكم على العرب والسادات من ذوى الرتب ، فنفروا منه نفوراً عظيماً ، فبعث إليهم يقول : يا بني امية ما عملت هذا القصر إلا لكم فاطمئنوا بكلامي وثقوا بما أقول ، فان قومكم أخبروني بما دخل قلوبكم من الاضطراب وأنكم تتخلفون فزعاً منى ومن سطوتى وبأسى ، ومن يمنعني منكم إذا أردت بكم بأساً ، فادخلوا القصر و لا تدخلونه إلا و هو لكم و أنا أحلف لكم بالله ورسوله إنه لكم .

قال : فلما جائتهم البشارة اطمأنوا بها وقال بعضهم : يا ويلكم اسعوا إلى مقاصيركم ومنازلكم لكن ألبسوا سلاحكم وشدوا عدتكم ، فان ثار عليكم أحد من الناس القوه ، ثم إنكم إن تحصنوا في هذا القصر لا يقدر عليكم أحد ، فقالوا هذا هو الرأى والصواب الذى ليس فيه ارتياب ، وقال بعضهم : إنا نخشى أنا إذا حصلنا توثق علينا أبوابه وتركب علينا العساكر فنحاصر في القصر فتصير المقاصير والأحجار قبورنا ، فقال أحدهم : هيهات هيهات ما يكون ذلك أبداً ، لأنه رجل وله اتصال برسول الله وهو زعيم القوم وخليفة الله على خلقه .

ثم اجتمع رأيهم على الانتقال إلى القصر و شاع في الناس أنه لم يرقط أحلم من السفاح ، لأنه عمد إلى قوم قتلوا أسلافه وعشيرته فأقطعهم القطايع وبنى لهم الجنان ورفع لهم المراتب .

قال : فأقبلت إليه السّادات ينقلون إلى القصر واحداً بعد واحد يتسابقون إليه وكلّ واحد يطلب له موضعاً ، فاذا استوى الرّجل في مقامه لم يغالبه فيه أحد ثمّ إنّهم لم يطمئنوا حتى أو قفوا نفراً مع عبيدهم على الباب بالسّلاح مخافة الكبسة .

فلمّا تكاملوا أمر السّفاح أن يبسط لهم البسط وعمل سماطا (١) حسنا، وأكثر من الذبايح والحلاوات ثمّ إنه أجلس القوم على الموائد وجاء إليه الناصح من خلف ظهره و أعلمه بأنّهم كلّهم قد حصلوا في القصر إن أردت أن تقتلهم فافعل فما بقى من أعداء الله ورسوله إلاّ وقد حضر في القصر .

فلم يكن إلاّ ساعة حتّى إذا دار الماء بجوانب القصر وذاب الملح والقوم في القصر على الموائد ما يدرون ما حلّ بهم فارتجّ القصر و انصدع فهمّوا بالهزيمة فتصايحت حيطانه وانهدمت أركانه واهتزّت العمد ففزع القوم من ذلك ودهشوا ووضعوا رؤوسهم على ركبهم وظنّوا أنّ الأمر من السّماء قد نزل بهم ، فقال قائلهم : قد اخذنا بما كان منا ، فهم في الكلام إذ سقطت الجدران وانهدمت الأركان ووقع القصر عليهم بأجمعهم فعجّل الله بأرواحهم إلى النّار وبئس القرار ، فهلكوهم وعبيدهم وامائهم ونسلهم وذراريهم فكأنما الأرض قد ابتلعتهم .

وبلغ ذلك السّفاح ، فركب وركب سديف معه وساروا إلى القصر فوجدوهم قد هلكوا ، فسجدوا لله شكراً .

فقال السّفاح لسديف : هل أخذت بثارك وثار مواليك؟ فقال سديف : والله لو قتل مثل هؤلاء ألف ضعف ما وفى ولا عدل شسع نعل الحسين عليه السلام ولا لأحد من مواليه عليهم السلام ، وقد بلغنى أنّ بالشام خلقا كثيراً من الامويين وأنّ دمشق مملوّة منهم ومن أكابرهم فأنا أرجو من الله أن لا يفوتني منهم أحد .

فقال السّفاح قلت في هذا المعنى شيئا يا سديف ؟ قال ، نعم يا مولاى واسمع ما أقول :

١ـ السماط من الطعام ما يمدّ عليه، قاموس

ألا أبلغن سادات هاشم معشرى ... وجمع قريش و القبايل من فهر
تميما و مخزونا و أبناء غالب ... وسكّان بيت الله والركن والحجر
و من كان منهم بالمدينة ثاويا ... قريبا من النور المغيب في القبر
ومن بالقرى افدى ومن سكن الغرى ... وصيّ نبي صاحب النهى و الأمر
و من سكن الطفّ المعظّم قدره ... حسين الرضا المدفون فى البلد القفر
و من حوله من أهله و مواليه ... واخوته من خير نسل ومن طهر
بأنّ سديفا قد شفى الله قلبه ... بزرق طوال ثمّ مرهفة تبر
فعلت أبا العبّاس فعل أهالك ... فأوفيت ما أنذرت في سالف الدهر
من أخذ لثارات الحسين بن حيدر ... وفاطمة و السّبط الحسن البرّ
ومن حلّ بالنهرين في أرض كربلا ... ومن حوله صرعى من الأنجم الزهر
سلام و رضوان على سادة الورى ... خيار بني حوّا و آدم ذو الطهر
صلاة من الرحمن تغشى أئمة ... هداة اصيبوا بالخديعة والمكر
فاحمد أبا العبّاس يا خير ناصر ... سديف يرجى منك أن تجلى الفقر
وتجلى كما أجليت منهم قلوبنا ... فقد أيّدك ربّ البرية بالنّصر
على الارض منهم لاتخلّى واحداً ... و اشف نفوسا صادعات من الضرّ
فانّك منصور و نور مشرق ... وحسبك إنّ الحقّ أيّدك بالنصر
وكم كربة أجليتها من قلوبنا ... بعزم و تأييد تساوى البحر
فياساير الأذقان خرّوا وسجّدوا ... لهيبة أبي العباس في الليل والفجر
ولاتقنطوا من فضل من بان فضله ... فمنه إليكم يعقب النهى والأمر
على ظالميهم لعنة الله ما دجى ... سحير وما أضواه ليل من الهجر

قال أبومخنف: ثمّ إنّ السفاح رجع إلى قصره و بات تلك اللّيلة فرحانا مسروراً بما أناله الله من العزّ والهيبة.

فلمّا أصبح دعا بعمّه صالح بن عبدالله بن العبّاس، وعقد له لواء على عسكر و اختار من خيار فرسانه و أمره بالمسير إلى الشّام و قال له: و كلتك دمشق

و أعمالها فسر إليها وجاز المحسن على إحسانه والمسيء على قدر اسائته ، و انظر إلى من بيننا وبينه معاداة فلا تقصر في إهلاكه ودماره ، و هذا سديف عندنافخذه في صحبتك فقد علمت نصحه و مروته فلا تمنعه أمراً يريده و امنه على صحبتك وعشيرتك .

فقال صالح : حبّا و كرامة ولولم توص بهلكان حقاً عليّ أن لا أفعل شيئاً حتّى أُوقعه عليه و أُشاوره فيه .

فلمّا سمع السّفاح كلام عمّه شكره و جزاه خيراً و جرّد الجيش معه وضمّ إليه سديفاً وساروا جميعاً يجدّون فيسيرهم حتّى دخلوا دمشق فلمّا دخلوها وجلسوا دارالامارة جعل يرتّب الأعمال في المواضع من أعمالها .

فلمااستقرّ أمره جعل يسأل عن أولاد يزيد وآل مروان بن الحكم فيحضرون بين يديه ، و كان يقطعهم القطايع الجيّدة و يعطى لكلّ منهم ما يطلبه ، و سديف يستأذن فيهم ويحمل عليهم فيبيدهم ضربا وطعنا حتى قتل منهم بدمشق ثلاثين ألفاً وهويقول : والله لوقتلت أضعافاً مضاعفا من بني أُميّة بل كلّ من طلعت عليه الشمس منهم لما وا فىشسع نعل مولى الحسين عليه السلام

و بلغ السّفاح ما فعل سديف فسرّه ذلك ، فكتب إلى سديف كتاباً و أعاد فيه الشعر الذي قاله فيهقبلسيره معصالح،فلما فعل صالح مافعل وقتل من بقى من بني اميّة انهزم قوم منهم إلى الساحل و ركبوا البحر طالبين إلى بلاد العرب ، فجعل يتابعهم ويأخذ خبرهم فاخبر أنهم ركبوا البحر ، فبعث خلفهم سريّة وقتل كلّ من انهزم ولم يسلم منهم أحد إلاّ قوم ترسموا بزينة النّسوان و هم الملثّمة إلى يومنا هذا .

فلمّا عاد صالح إلى دمشق و فى بنذر السّفاح و كان قد نذر أنّه متى أفنى بني اميّة أن يخرب ديارهم ، فأخربها جميعاً ولم يبق لهم غيرالجامع نعمان و دام ملك بني العباس إلى أن ملك منهم أربعون .

حتّى تمّ قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعمّه العبّاس لما قال له : يابن أخي رأيت كان قد ظهر من دبري أربعون زنبوراً ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله ، ياعمّ سيظهر لك من مليك اربعون رجلا ويأخذون الخلافة ، فحزن العباس وهجم نفسه ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم لا يا عمّ فقد قضى الأمر وحقّ بالقول وكان ذلك في الكتاب مسطوراً .

أقول : هذا ما انتهى إلينا من خبر السّفاح وسديف وانقراض الدولة الأموية ورويته كما وجدته ولم يكن النسخة التي نقلنا منها خالية من السّقم والاختلال فأصلحت ما أمكن بحسب ما أدّى إليه النّظر ، وأستعيذ بالله من هفوات اللّسان وزلاّت البيان .

وقد روى الشارح المعتزلي في الشرح بعض الرّوايات في هذا المعنى من كتاب الكامل للمبرّد ، وكتاب الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني ، ومروج الذّهب للمسعودي وغيرها على غير نظم وترتيب ، واستطرفت بعض ما اوردها ، لاشتماله على أشعار جيدة وأحببت أن لا يخلو الشرح منها .

فأقول : في الشّرح سئل بعض شيوخ بني اميّة عقيب زوال الملك عنهم ماكان سبب زوال ملكهم ؟ فقال : جار عمّالنا على رعيتنا فتمنّوا الراحة منّا ، و تحومل على أهل خراجنا فحملوا عنّا ، وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا ، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا ، وامضوا اُموراً دوننا أخفوا علمها عنّا ، وتأخّر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا ، و استدعاهم عدوّنا فظافروه على حربنا ، و طلبنا أعدائنا فعجزنا منهم لقلّة أنصارنا ، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا

و فيه لما أتى أبوالعباس برأس مروان سجد فأطال ، ثمّ رفع رأسه و قال : الحمدلله الذي لم يبق ثارنا قبلك وقبل رهطك ، الحمدلله الذي أظفرنا بك وأظهرنا عليك ، ما ابالي متى طرقني الموت ، وقد قتلت بالحسين عليه السلام ألفاً من بني اميّة واحرقت شلو هشام بابن عمّي زيدبن عليّ كما أحرقو شلوه وتمثّل :

لو يشربون دمي لم يروشا ربهم و لا دمائهم جمعاً تروّيني

ثمّ حوّل وجهه إلى القبلة فسجد ثانية ثمّ جلس فتمثّل :

أيا قومنا ان تنصفونا فأنصفت قواطع في أيماننا تقطر الدّما
إذا خالطت هام الرجال تركتها كبيض نعام فى الثرى قد تحطما

ثمّ قال : فأمّا مروان فقتلناه بأخي إبراهيم ، وقتلنا ساير بني اميّة بحسين عليه السلام ومن قتل معه وبعده من بني عمّنا أبي طالب .

وفيه عن أبى الفرج الاصفهاني قال حدّث الزبير بن بكار عن عمه أنّ السّفاح « سديفاً ظ» أنشد يوما قصيدة مدح بها أبا العباس وعنده قوم من بني امية كان آمنهم على أنفسهم فأقبل على بعضهم فقال : أين هذا مما مدحتم ؟ فقال : هيهات والله لا يقول أحد فيكم مثل قول ابن قيس الرقيات فينا :

ما نقموا من بني اميّة إلاّ أنهم يحلمون إن غضبوا
و أنهم معدن الملوك فما تصلح إلاّ عليهم العرب

فقال له ياماص كذا من امّه وانّ الخلافة لفى نفسك بعد خذوهم فاخذوا فقتلوا

و روى أبو الفرج أيضاً أنّ أبا العباس دعا بالغداحين قتلوا وأمر ببساط فبسط عليهم فجلس فوقه يأكل وهم يضطربون تحته ، فلما فرغ قال ما أعلم أنى أكلت أكلة قط كانت أطيب ولا أهنأ في نفسي من هذه ، فلما فرغ من الأكل قال : جرّوا بأرجلهم و ألقوهم في الطّريق ليلعنهم الناس أمواتا كما لعنوهم أحياء ، قال : فلقد رأينا الكلاب يجرّ بأرجلهم وعليهم سراويلات الوشى حتّى انتنوا ، ثمّ حفروا لهم بئرا فالقوا فيها .

و فيه عن أبي الفرج أيضاً في كتاب الأغاني إنّ سديفاً أنشد أبا العباس و عنده رجال بني اميّة فقال :

يابن عمّ النّبيّ أنت ضياء استنبابك اليقين الجليّا
جرّد السيف وارفع العفو حتى لا ترى فوق ظهرها أمويّا
قطن البغض في القديم وأضحى ثابتا في قلوبهم مطويّا

و هى طويلة فقال أبو العبّاس : يا سديف خلق الانسان من عجل ، ثمّ انشد أبو العبّاس متمثّلا :

احيى الضغاين آباء لنا سلفوا فلن تبيد و للآباء أبناء

ثمّ امر بمن عنده فقتلوا .

قال أبوالفرج وأخبرني عليّ بن سليمان الأخفش قال : أنشدني محمّد بن يزيد المبرّد لرجل من شيعة بني العباس يحضّهم على بني أُمية :

ايّاكم أن تلينوا لاعتذارهم فليس ذلك إلاّ الخوف و الطّمع

لو انهم أمنوا أبدوا عداوتهم لكنهم قمعوا (١) بالذلّ فانقمعوا

أليس في ألف شهر قد مضت لهم سقيتم جرعا من بعدها جرع

حتّى إذا ما انقضت أيّام مدّتهم متوا اليكم بالأرحام التي قطعوا

هيهات لابدّ أن يسقوا بكأسهم ريّا وأن يحصدوا الزرع الذى زرعوا

إنا و اخواننا الأنصار شيعتكم إذا تفرّقت الأهواء و الشيع

وفيه دخلت احدى نساء بني امية على سليمان بن عليّ و هو يقتل بني امية بالبصرة فقالت: أيها الأمير إنّ العدل ليملّ من الاكثار منه والاسراف فيه ، فكيف لا تملّ من الجور وقطيعة الرحم ؟ فأطرق ، ثمّ قال لها :

سننتم علينا القتل لا تنكرونه فذوقوا كما ذقنا على سالف الدّهر

ثمّ قال : يا أمة الله أوّل راض سنة من يسيرها ألم تحاربوا عليّاً و تدفعوا حقّه ؟ ألم تسمّوا حسناً عليه السلام و تنقضوا شرطه ؟ ألم تقتلوا حسيناً و تسيروا رأسه ؟ ألم تقتلوا زيداً و تصلبوا جسده ؟ ألم تقتلوا يحيى وتمثلوا به ؟ ألم تلعنوا علياً عليه السلام على منابركم ؟ ألم تضربوا أباناعليّ بن عبدالله بسياطكم ؟ ألم تخنقوا الامام بجراب النورة في حبسكم ؟ ثمّ قال : ألك حاجة ؟ قالت : قبض عمّالك أموالي ، فأمر بردّ أموالها عليها .

وفيه لما استوسق الأمر لأبي العباس السّفاح وفد اليه عشرة من أُمراء الشام فحلفوا له بالله وبطلاق نسائهم و بايمان البيعة أنّهم لا يعلمون إلى أن قتل مروان أنّ لرسول الله صلّى الله عليه وآله أهلا ولا قرابة إلاّ بني اميّة .

١- قمعه كمنعه قهره وذلله

أقول و ذلك لأنهم أرادوا أن يطفؤوا نورالله بأفواههم فأبى الله إلاّ أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون ، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون

الترجمة

از جملهٔ خطب بليغهٔ آنحضرتست که صدر آن متضمن بيان محامد حضرت رسالتمآب صلّی الله عليه وآله ، و ذيل آن اشاره است بأحوال بني‌اميه لعنهم‌الله ومآل‌کار ايشان چنانچه فرموده :

تا آنکه مبعوث فرموده خداوند متعال محمّد مصطفی را درحالتي که شاهد بود برامّتان ، وبشارت دهنده بود بمطيعان ، وترساننده بود عاصيان را ، که بهترين خلايق بود درحال کودکی ، و کريم‌ترين مردمان‌بود درحال پيری ، پاکيزه‌ترين پاك شدگان بود أزحيثيت طبيعت ، وبخشنده‌ترين اشخاصي بودکه از ايشان اميد باران‌احسان گرفته شود ازحيثيت بارش .

پس شيرين نشد از برای شما دنيا در لذّتهای خود ، و متمکن نشديد از مکيدن پستانهای آن مگر بعداز اينکه يافتيد آنرا ورسيديد بآن در حالتيکه درجولان بود مهار آن ، ومضطرب بود تنگ پالان آن .

بتحقيق که گرديده بود حرام آن درنزد طايفهٔ بمنزله‌درخت‌سدر پر بار خالي از خار ، وحلال آن دور بلکه غيرموجود درنزد أهل روزگار ، ويافتيدآنرا قسم بخدا درحالتيکه سايه بودکشديده شده‌تا وقت شمرده شده ، پس صفحهٔ زمين از برای شما خاليست از معارض و مانع ، و دستهای شما در آن گشاده شده است ودستهای پيشوايان از شما باز داشته شده ، و شمشيرهای شما برايشان مسلّط است وشمشيرهای ايشان ازشما باز گرفته شده .

آگاه باشيد بدرستيکه هرخونی را خونخواهی است ، و هرحقی را طالبي هست ، وبدرستيکه طالب قصاص درخونهای ماهمچه حکم کننده‌ايست درحق نفس خود وآن عبارتست ازحقسبحانه که عاجز نميکند اورا کسيکه او سبحانه طلب

كند اورا ، وفوت نميشود از او كسيكه فرار نمايد ازاو .

پس سوگند ميخورم بخداى لايزال أى بني اميه پس اززمان اندكى هرآينه البته مى‌شناسيد دنيارا ياخلافت وامارت را دردستهاى غيرخودتان ودرخانه دشمنان خود كه عبارتست ازبني عباس كه انتقال خلافت بايشان شد .

الفصل الثاني

ألا إنّ أبصرَ الأبصارِ ما نفذَ في الخيرِ طرفُهُ ، ألا إنّ أسمعَ الأسماعِ ما وعي التذكيرَ وقبلَهُ ، أيّها النّاسُ استصبحُوا من شُعْلَةِ مِصباحٍ واعِظٍ مُتّعظٍ ، وامتاحُوا مِنْ صَفوِ عينٍ قدْ رُوّقتْ مِنَ الكَدرِ ، عِبادَ الله لا تركَنُوا إلى جهالَتِكُمْ ، ولا تنقادُوا إلى أهوائِكُمْ ، فإنّ النّازلَ بهذا المَنْزِلِ نازلٌ بشَفا جُرُفٍ هارٍ ، ينقُلُ الرّدى عَنْ ظَهْرِهِ مِنْ مَوْضِعٍ إلى مَوْضِعٍ لِرأيٍ يُحدِثُهُ بعدَ رأيٍ ، يُريدُ أنْ يُلصِقَ ما لا يلتَصِقُ ، ويُقرّبَ ما لا يتقارَبُ ، فاللهَ اللهَ أنْ تشكُوا إلى مَنْ لا يُشكي شَجْوَكُمْ ، ولا يُنقِضُ برأيِهِ ما قدْ أبرمَ لكُمْ ، إنّهُ ليسَ على الإمامِ إلاّ ما حُمّلَ مِنْ أمرِ ربّهِ : الإبلاغُ في الموعظَةِ ، والاجتهادُ في النّصيحَةِ ، والإحياءُ للسُّنّةِ ، وإقامَةُ الحُدُودِ على مُستحقّيها ، وإصدارُ السُّهمانِ على أهلِها ، فبادِرُوا العِلْمَ مِنْ قبلِ تصويحِ نبتِهِ ، ومِنْ قبلِ أنْ تُشغلُوا بأنفُسِكُمْ عَنْ مُستثارِ العِلْمِ مِنْ عِندِ أهلِهِ ، وانْهوا غيرَكُمْ عَنِ المُنكَرِ وتناهُوا

عَنهُ ، فَإِنَّما أُمِرْتُمْ بِالنَّهْيِ بَعْدَ التَّناهي.

اللغة

(الطرف) بالفتح نظر العين و (استصبح) بالمصباح استسرج به و (الامتياح) نزول البئر وملؤ الدلاء منها و (الترويق) التصفية ومنه الرواق بالكسر وهو الصافي من الماء و غيره و (الشفا) شفير الشيء و جانبه و (الجرف) بالضم و بضمتين ما تجرّفته السيول و أكلته من الأرض و (الهار) الضعيف الساقط المنهدم .يقال هار الجرف يهور هوراً فهو هائر وهار كقاض .

و (اشكيت) زيداً بهمزة الأفعال أزلت شكايته و(الشجو) الهمّ والحزن و (ابرم) الأمر أي أحكمه ، والحبل أي جعله طاقين ثمّ فتله و(الاصدار) الارجاع من الصدر وهو الرّجوع و (السهمان) كالسهمة بالضم فيهما جمع السهم وهو الحظ والنّصيب و (صوّح) النبت أي يبس و تشقق أوجفّ أعلاه و (المستثار) مصدر بمعنى الاستثارة وهو الانهاض والتهييج .

الاعراب

مصباح في بعض النسخ بالتّنوين فيكون واعظ بدلا و في بعضها بلا تنوين بالاضافة،وعلى ذلك فيحتمل أن يكون الاضافة لامية و أن تكون من اضافة المشبّه به إلى المشبّه من قبيل لجين الماء، وفي نسخة الشارح المعتزلي من شعلة بمصباح واعظ بتنوين شعلة واضافة مصباح مع الباء الجارة وهي باء الآلة متعلّقة باستصبحوا.

وينقل الرّدى عن ظهره عن بمعنى على كما في قوله :

لاه ابن عمّك لا أفضلت في حسب   عنّي و لا أنت ديّاني فتخزوني

أي لله درّ ابن عمّك لا أفضلت في حسب عليّ ، و في أكثر النّسخ على ظهره و هو الأنسب ، وقوله فالله الله بالنصب فيهما والعامل محذوف أي اتقوا الله ، واحذّركم الله وقوله الابلاغ في النّصيحة بالرفع بدل بعض من ما .

المعنى

اعلم أنه عليه السلام لما نبّه في الفصل السّابق على تقصير المخاطبين من بني امية و من يحذ و حذوهم فيما يجب عليهم رعايته، و أشار إلى أنّ المقصرين في حقهم والظالمين لهم والسّاعين في دمائهم مؤاخذون بتقصيرهم مجزيّون بسوء أعمالهم، عقّبه بهذا الفصل حثّاً لهم على طاعته و ملازمته، و ترغيباً على الاقتباس من أنوار هدايته، وتحذيراً من الركون إلى الجهالة والتّيه في بوادى الرّدى و الضّلالة، وصدّر ذلك بذكر محاسن التفكّر والبصيرة توطئة وتمهيداً فقال:

(ألا إنّ أبصر الابصار ما نفذ في الخير طرفه) أراد بنفوذه في الخير رؤيته المحاسن و اتباعها، فانّ أفضل ابصار البصر ما يفيد للمبصر بصيرة و يجلب له فايدة في تحصيل السّعادة الأبدية و الكمالات النفسانية (ألا إنّ أسمع الأسماع ما وعى التذكير و قبله) أى أفضل سماع الاسماع أن يحفظ التذكير و المواعظ و يتدبّر فيها فيقبلها.

(أيّها النّاس استصبحوا من شعلة مصباح واعظ متّعظ) أى استسرجوا من شعلة سراج واعظ لغيره متّعظ في نفسه، فانّ من لم يكن متّعظاً في نفسه لا يكون موعظته مؤثرة فى القلوب، بل تكون القلوب نافرة منه والنفوس مشمئزّة قال الشاعر:

لا تنه عن خلق و تأتى مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

ولا يخفى عليك أنّ اضافة مصباح إلى واعظ إن كانت من اضافة المشبّه به الى المشبّه فذكر الشعلة والاستصباح ترشيح للتّشبيه ووجه الشبه كونهما من أسباب الهداية، و إن كانت الاضافة بمعنى اللام فلفظ المصباح استعارة لموعظة الواعظ والشعلة والاستصباح ترشيح الاستعارة، ويحتمل أن يكون ذكر الشعلة تخييلا و الاستصباح ترشيحاً على ما ذهب إليه بعض البيانيّين من عدم الملازمة بين التخييل و الاستعارة بالكناية وإمكان وجوده بدونها، و كذلك لو كان مصباح منوّنا وواعظ بدلا منه إلاّ أنّ المستعار له على الأوّل هو الموعظة، وعلى الثاني يحتمل أن يكون الموعظة و أن يكون نفس الواعظ

و كيف كان فالاشارة بالواعظ المتّعظ إلى نفسه الشريف ومثله قوله : (وامتاحوا من صفو عين قد روّقت من الكدر) فانه استعار صفو العين للعلوم الحقة و هو من استعارة المحسوس للمعقول والجامع أنّ العلم به حياة للأرواح كما أنّ صفو العين به حياة الأبدان وذكر الترويق والامتياح ترشيح للاستعارة أو الترويق تخييل والامتياح ترشيح على ما مرّ و أراد الترويق من الكدر خلوّ تلك العلوم من شوائب الأوهام و بالامتياح أخذها من منبعها و هو أمر لهم باقتباس العلوم الشّرعية و المعارف الحقة منه عليه السلام .

ولما أمر بذلك أردفه بالنهى عن الركون إلى الجهالة فقال عليه السلام (عباد الله لا تركنوا إلى جهالتكم) أى لا تميلوا إليها (ولا تنقادوا إلى أهوائكم)أى الأهواء الباطلة المخرجة عن كرائم الأخلاق إلى رذائلها وعن حقّ المصالح إلى باطلها (فانّ النازل بهذا المنزل) .

يحتمل أن يكون المراد به من ادّعى الخلافة من غير استحقاق لها الذي وضع نفسه في مقام و نزل بمنزل ليس له أهليّة به و يشعر بذلك ما سيأتي من نهيه عليه السلام عن الشكاية إلى من لا يقدر على ازالة الشكوى وما ذكر بعده من أوصاف الامام الحقّ عليه السلام .

إلاّ أنّ الأظهر بقرينة ماسبق أنّ المقصود به من نزل منزل الركون إلى الجهالة ومقام الانقياد إلى الأهواء ، فانه لما نهى عن الركون والانقياد علّله بذلك وأردفه به ، يعني أنّ من ركن إلى جهالته وانقاد إلى هواه و استبدّ برأيه واستغنى به عن امامه فقد أسّس بنيان دينه على باطل لا قوام له ولا ثبات .

ومثله مثل (نازل بشفا جرف هار) مشرف على السقوط والانهدام وهو اقتباس من قوله سبحانه :

« أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلىٰ تَقْوىٰ مِنَ اللهِ وَ رِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلىٰ شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ »

يعني من أسّس بنيان دينه على قاعدة محكمة هى الحقّ الذي هو التّقوى من الله وطلب مرضاته بالطاعة خير أمّن أسّس بنيانه على قاعدة هى أضعف القواعد وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل شفا جرف هار في قلّة الثّبات والاستمساك.

قال الزمخشري في الكشاف: وضع شفا الجرف في مقابل التقوى لأنّه جعله مجازاً عمّا ينافي التقوى ثمّ قال:

فان قلت: فما معنى قوله فانهار به في نار جهنّم؟

قلت لما جعل الجرف الهائر مجازاً عن الباطل قيل فانهار به في نار جهنّم على معنى فطاح به الباطل في نار جهنّم إلاّ أنّه رشح المجاز فجيء بلفظ الانهيار الذى هو للجرف، وليصوّر أن المبطل كأنّه أسّس بنيانه على شفا جرف من أودية جهنّم فانهار به ذلك الجرف فهوى في قعرها، ولا ترى أبلغ من هذا الكلام ولا أدلّ على حقيقة الباطل وكنه أمره منه، هذا.

ولما نبّه عليه السلام على أنّ الرّاكن إلى جهالته والمنقاد إلى هواه المستبدّ برأيه الزاعم لنفسه الاستقلال مقيم على باطل ونازل بمنزل في معرض السّقوط والتهدّم، وكان الباطل مستلزما للهلاك الدّائم، عقّبه بقوله (ينقل الرّدى) أى الهلاك الناشى عن باطله (على «عن» ظهره من موضع إلى موضع لرأى) فاسد (يحدثه بعد رأى يريد أن يلصق مالايلتصق ويقرّب مالا يتقارب) أى يريد اثبات باطله بحجج باطلة

ثمّ حذّرهم عن الرّجوع إلى الجهّال وعن اتباع أئمة الضّلال بقوله :(فالله الله أن تشكوا إلى من لايشكى شجوكم) أى لا يقدر على إزالة حزنكم برفع الأسباب الموجبة له، و ذلك لعدم بصيرته في مجارى الأمور و عدم معرفته بوجوه المصالح (ولاينقض برأيه ماقد أبرم لكم) أى لايقدر على كشف المعضلات وحلّ المشكلات في المعاش والمعاد لقلّة البصيرة والمعرفة، وفي بعض النسخ: وينقض برأيه بدون لا، وهوأولى، أى لاتشكوا إلى من ينقض برأيه الفاسد ونظره الكاسد ماقدأحكمه الشرع في حقكم بالآيات الباهرة والسنة الزاهرة.

ثمّ لمانهاهم من الرجوع إلى من لايتمكّن من إزالة الشّكوى و الشّجوى و لا

يستطيع حلّ المبرمات المغلقات ، أردفه ببيان ما يجب علي الامام بالنسبة إلى رعيّته ليعرفوا وظايف الامام ولوازم الامامة ، فيتابعوا من اتّصف بها ويراجعوا إليه في أمر الدّين والدّنيا ، ويرفضوا غيره وينتهوا عنه فقال عليه السلام

(إنه ليس على الامام) الحقّ (إلاّ) القيام بـ(ما حمّل من أمر ربّه) و هو أمور خمسة : (الابلاغ في الموعظة ، و الاجتهاد في النصيحة ، و الاحياء للسنة ، وإقامة الحدود على مستحقّيها ، وإصدار السّهمان على أهلها) ومن المعلوم أنه عليه السلام قام بتلك الوظايف فأدّى ما حمّله و بالغ في الموعظة والنصيحة و كفى به شهيداً ما ضمنه خطبه الشريفة ، وأحيى الشريعة وأمات البدعة، وأقام الحدود من دون أن يأخذه في الله لومة لائم ، وعدل في القسمة شهد بكلّ ذلك المؤالف والمخالف

و أمّا غيره عليه السلام من المنتحلين للخلافة فقد قصّروا في ذلك وأحيوا البدعة ، و فرّطوا في إجراء الحدود ، و فضلوا في قسمة السّهام كما يظهر ذلك بالرّجوع إلى ما ذكره الأصحاب من مطاعنهم ، وقد تقدّمت في غير موضع من الشرح وتأتي أيضاً في مقاماتها اللاّئقة ، هذا .

و لعلّ غرضه من النفى أعني قوله عليه السلام ليس على الامام إلاّ ما حمّل قطع الأطماع الفاسدة والتوقّع للتفضّل في القسمة كما كان دأب المتخلّفين وديدنهم .

ولمّا نهيهم عن الرّكون إلى الجهل والرّجوع إلى قادة الضلال عرفهم ما يجب رعايته على الامام من لوازم منصب الامامة وأمرهم بالرجوع إليه وبالأخذ من قبسات علمه فقال عليه السلام :

(فبادروا العلم من قبل تصويح نبته) أى من قبل أن يجفّ نباته ، و هو كناية عن ذهاب رونقه أوعن اختفائه بفقدانه عليه السلام (ومن قبل أن تشغلوا بأنفسكم عن مستثار العلم من عند أهله) أى من قبل أن تكونوا مشغولين بتخليص أنفسكم من شرور بني امية وفتنها التي ستنزل بكم عن استثارة العلم وتهييجه واستخراجه من عند أهله ، وأراد بأهله نفسه الشريف (وانهوا غيركم عن المنكر وتناهوا عنه فانما أُمرتم بالنّهى بعد التّناهي) .

قال الشارح المعتزلي : في هذا الموضع اشكال ، و ذلك أنّ لقائل أن يقول النهي عن المنكر واجب على العدل و الفاسق فكيف قال : إنّما اُمرتم بالنّهي بعدالتناهي ؟

والجواب إنه لم يرد أنّ وجوب النهي عن المنكر مشروط بانتهاء ذلك الناهي من المنكر ، و إنما أراد أني لم آمركم بالنّهي عن المنكر إلاّ بعد أن أمرتكم بالانتهاء عن المنكر فالترتيب إنّما هو في أمره عليه السلام لهم بالحالتين المذكورتين لا في نهيهم وتناهيهم .

فان قلت : فلما ذا قدّم أمرهم بالانتهاء على أمرهم بالنهي ؟

قلت : لأنّ إصلاح المرء لنفسه أهمّ من الاعتناء باصلاحه لغيره انتهى .

وأقول : لاحاجة إلى ما تكلّفه في الجواب ، والأولى أن يقال : إنه عليه السلام أمر بالنهي والتناهي معا أوّلا ، وهو دليل على وجوب الأمرين كليهما ، واتبعه بقوله : فانّما امرتم بالنهي آه تنبيها على أنّ التناهي في نظر الشارع مقدّم على النّهي ووجوبه آكد ، لأنّ إصلاح النفس مقدّم على إصلاح حال الغير ، ولأنّ النهي إنما يثمر بعدالتناهي ، ويكون تأثيره في النفوس أقوى ، وانفعال الطّبايع منه أشد وآكد كما يشهد به العقول السليمة والتجربة المستمرة وتوافقت عليه الشرايع و الآراء ودلّت عليه الأحاديث والأخبار .

ففي الوسائل عن الكليني باسناده عن طلحة بن زيد عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله تعالى.

« فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ » .

قال عليه السلام كانوا ثلاثة أصناف : صنف ائتمروا وأمروا فنجوا ، وصنف ائتمروا ولم يأمروا فمسخوا ، وصنف لم يأتمروا ولم يأمروا فهلكوا .

وعن الصّدوق باسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام قال في وصيّته لولده محمّد بن الحنفية : يا بني اقبل من الحكماء مواعظهم و تدبّر أحكامهم ، وكن آخذ النّاس

بماتأمر به ، وأكفّ الناس عماتنهى عنه وأمر بالمعروف تكن من أهله ، فانّ استتمام الاُمور عندالله تبارك وتعالى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ومن الخصال مسنداً عن محمّد بن أبي عمير رفعه إلى أبي عبدالله عليه السلام قال : إنما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من كانت فيه ثلاث خصال : عامل بما يأمر به تارك لما ينهى عنه ، عادل فيما يأمر عادل فيما ينهى ، رفيق فيما يأمر رفيق فيما ينهى .

ومن المجالس باسناده عن المفضل بن عمر قال قلت لأبي عبدالله الصّادق عليه السلام بم يعرف الناجي ؟ فقال : من كان فعله لقوله موافقا فهو ناج ، ومن لم يكن فعله لقوله موافقاً فانما ذلك مستودع .

وعن أبي حمزة عن عليّ بن الحسين عليهما السلام في حديث وصف المؤمن والمنافق قال عليه السلام : والمنافق ينهى ولا ينتهي ويأمر بما يأتي.

وعن الارشاد للحسن بن محمّد الدّيلمي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : رأيت ليلة أسرى بي إلى السماء قوماً تقرض شفاههم بمقاريض من نار ثمّ يرمى ، فقلت ياجبرئل من هؤلاء ؟ فقال : خطباء امّتك يأمرون النّاس بالبرّ و ينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون .

و الرّوايات في هذا المعنى كثيرة وفيما رويناه كفاية لمن له دراية ، وفي هذا المعنى قال أبو الأسود الدّئلي :

وإذا جريت مع السّفيه كما جرى ... فكلاكما في جريه مذموم
و إذا عتبت على السّفيه و لمته ... في مثل ما تأتى فأنت ظلوم
لا تنه عن خلق و تأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم
و ابدء بنفسك فانهها عن غيبها ... فاذا انتهيت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما و عظت و يقتدى ... بالعلم منك و ينفع التعليم

والله الهادي وهو الموفق .

الترجمة

فصل دویم از این خطبه متضمن نهی از و کون بجهالت و أمر باقتباس أنوار علم وهدایت است چنانچه فرموده :

آگاه باشید بدرستیکه بیناترین‌چشمها آن چشمي است که نفوذ کند درأمر خیر نظر با بصیرت او ، آگاه باشید بدرستي که شنوا ترین گوشها آنگوشی است که حفظ کندنصیحت را وقبول نماید آنرا •

ای گروه مردمان طلب افروختن چراغ نمائید از شعله چراغ پند دهنده وپند گیرنده ، وبکشید دلو آب معرفت را ازچشمهٔ صافي زلال که صافي شده باشد از کدورت وتیره گی شبهات باطله •

ای بندگان خدا میل ننمائید بسوی جهالت خود ، و اطاعت نکنید مر خواهشهای نفسانیهٔ خودرا ، پس بتحقیق که نازل شونده باین منزل نازل شده‌است بکنار رودخانه سیل برده افتاده درحالتیکه نقل میکند هلاکت را برپشت خود ازمحلّي بمحلّي بجهت رأي‌فاسدی که‌پدیدمي‌آرد‌آنرا بعدازرأی فاسد دیگر، إراده میکند که بچسباند چیزی را که قابل‌چسبیدن‌نیست،ونزدیك گرداند چیزیرا که قابل نزدیك شدن نیست •

پس میترسانم شما را از خدا از اینکه شکایت کنید بکسیکه زایل نتواند نماید أندوه شکایت شمارا ، وبکسی که نتواند بشکند باراي‌صائب خود آنچیزیرا که محکم شده برای شما ، یعني نتواند حل مشکلات شما را نماید •

بدرستیکه‌نیست‌برأمام‌مگرآنچه که بار کرده‌شده‌است براوازأمرپرورد گار خود وآن عبارتست از إکمال موعظه وجهد نمودن در نصیحت ، وزنده کردن‌سنّت نبویّه ، و إقامه حدود برمستحقان آن ، وباز گردانیدن سهمها ونصیبها برأهل آن

پس مبادرت کنید بعلم ومعرفت پیش ازخشك شدن گیاه آن وپیش‌ازاینکه مشغول شده باشید بخلاصي نفس خود ازفتنها از بیرون آوردن علم ازنزد أهل آن و نهی کنید از کار زشت و قبیح ، وبازایستید ازآن پس جزاین نیست که مأمور

شده‌ایدشما بنهی کردن‌غیر بعدازبازایستادن‌خود

ومن خطبة له عليه السلام و هى المأة والخامسة من المختار في باب الخطب

وشرحها في ضمن فصلين ، و صدرها مروية في الكافي باختلاف كثير تطلع بعدالفراغ من شرح الفصل إنشاءالله تعالى

الفصل الاول

أَلْحَمْدُ لِلّهِ ٱلَّذي شَرَعَ الْإِسْلامَ فَسَهَّلَ شَرايِعَهُ لِمَنْ وَرَدَهُ ، وَأَعَزَّ أَرْكانَهُ عَلى مَنْ غالَبَهُ ، فَجَعَلَهُ أَمْناً لِمَنْ عَلِقَهُ ، وَسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ ، وَبُرْهاناً لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ ، وَشاهِداً لِمَنْ خاصَمَ بِهِ ، وَنُوراً لِمَنِ اسْتَضاءَ بِهِ ، وَفَهْماً لِمَنْ عَقَلَ ، وَلُبّاً لِمَنْ تَدَبَّرَ ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ ، وَتَبْصِرَةً لِمَنْ عَزَمَ ، وَعِبْرَةً لِمَنِ اتَّعَظَ ، وَنَجاةً لِمَنْ صَدَّقَ . وَثِقَةً لِمَنْ تَوَكَّلَ ، وَراحَةً لِمَنْ فَوَّضَ ، وَجُنَّةً لِمَنْ صَبَرَ ، فَهُوَ أَبْلَجُ الْمَناهِجِ ، وَأَوْضَحُ الْوَلائِجِ ، مُشْرِفُ الْمَنارِ ، مُشْرِقُ الْجَوادِّ ، مُضيءُ الْمَصابيحِ ، كَريمُ الْمِضْمارِ ، رَفيعُ الْغايَةِ ، جامِعُ الْحَلْبَةِ ، مُتَنافِسُ السُّبْقَةِ ، شَريفُ الْفُرْسانِ ، التَّصْديقُ مِنْهاجُهُ ، وَالصّالِحاتُ مَنارُهُ ، وَالْمَوْتُ غايَتُهُ ، وَالدُّنْيا مِضْمارُهُ ، وَالْقِيمَةُ حَلْبَتُهُ ، وَالْجَنَّةُ سُبْقَتُهُ .

منها في ذكر النّبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم :

حَتّى أَوْرَى قَبَساً لِقابِسٍ ، وَ أَنارَ عَلَماً لِحابِسٍ ، فَهُوَ أَمينُكَ الْمَأْمُونُ ، وَ شَهيدُكَ يَوْمَ الدّينِ ، وَ بَعيثُكَ نِعْمَةً ، وَ رَسُولُكَ بِالْحَقِّ رَحْمَةً ، أَللّهُمَّ اقْسِمْ لَهُ مَقْسَماً مِنْ عَدْلِكَ ، وَ اجْزِهِ مُضاعَفاتِ الْخَيْرِ مِنْ فَضْلِكَ ، أَللّهُمَّ أَعْلِ عَلى بِناءِ الْبانينَ بِناءَهُ ، وَ أَكْرِمْ لَدَيْكَ نُزُلَهُ ، وَ شَرِّفْ مَنْزِلَتَهُ ، وَ آتِهِ الْوَسيلَةَ ، وَ أَعْطِهِ السَّناءَ وَ الْفَضيلَةَ ، وَ احْشُرْنا في زُمْرَتِهِ غَيْرَ خَزايا وَ لا نادِمينَ ، وَ لا ناكِبينَ ، وَ لا ناكِثينَ ، وَ لا ضالّينَ ، وَ لا مُضِلّينَ ، وَ لا مَفْتُونينَ .

قال السيّد (ره) و قد مضى هذا الكلام فيما تقدّم إلاّ أنا كرّرناه ههنا لما في الرّوايتين من الاختلاف .

اللغة

(شرع) الله لنا كذا من باب منع أى أوضحه و أظهره و سنّه و الشّريعة كالمشرعة مورد النّاس للاستسقا سمّيت بذلك لوضوحها و ظهورها ، قال الأزهريّ ولا تسمّيها العرب مشرعة حتى يكون الماء عدّ الا انقطاع له كماء الأنهار ، ويكون ظاهراً معيّناً ولا يستقى منه برشاء فان كان من ماء الأمطار فهو الكرع بفتحتين

و (السّلم) بكسر السين و سكون اللاّم الصّلح يقال خذوا بالسّلم أى بالصّلح ويطلق على المسالم أى المصالح كما يطلق الحرب على المحارب و عليه ما في الزّيارة : أنا سلم لمن سالمكم وحرب لمن حاربكم .

و (توسّم) الشيء تفرّسه وتخيّله و (الأبلج) المتّضح من بلج الصّبح أضاء وأشرق و (المنهج) الطريق الواضح المستقيم و (الوليجة) بطانة الرّجل وخاصّته ،

وفي شرح المعتزلي هو المدخل إلى الوادي وغيره و (المشرف) المرتفع و (المضمار) موضع يضمر فيه الخيل للسّباق أو زمان التضمير .

و (الحلبة) بالحاء المهملة والباء الموحّدة وزان سجدة خيل تجمع للسباق من كلّ أوب ولا تخرج من وجه واحد يقال جائت الفرس فى آخر الحلبة أى في آخر الخيل و (السبقة) محرّكة ما يتراهن عليه المتسابقان و (القبس) الشعلة و (أورى) اشعل و (العلم) محرّكة المنار والجبل ونحوهما مما يرشد به إلى الطريق و (الحابس) الواقف بالمكان و (النزل) بضمّتين ما يهيّأ للنّزيل من الطعام و (السناء) الرّفعة و (الزّمرة) الجماعة من النّاس (وخزى) خزيا من باب علم ذلّ وهان ، وخزايا جمع خزيان مثل حيران وحيارى وغيران وغيارى .

الاعراب

قبساً بالنصب مفعول أورى أى أورى رسول الله صلى الله عليه وآله قبساً و لا يجوز جعله حالا من فاعل أورى إذ لم يسمع أورى إلاّ متعدّياً يقال : ورى الزند كوعى خرجت ناره و أوريته و ورّيته بالتضعيف أخرجت ناره ، و علماً منصوب على المفعول أيضاً ويحتمل الحال لأنّ أنار يستعمل متعدّياً ولازماً .

قال الفيومى : النور الضّوء وهو خلاف الظلمة والجمع أنوار ، وأنار الصبّح أنارة أضاء ونوّر تنويراً واستنار استنارة كلّها لازمة بمعنى ، ونار الشيء ينور نياراً بالكسر أضاء أيضاً فهو نيّر وهذا يتعدّى بالهمزة والتضعيف انتهى .

المعنى

اعلم أنّ هذا الفصل من كلامه عليه السلام ملتقط من فصلين أوّلهما في ذكر وصف الاسلام وبيان فضايله ، وثانيهما في مدح رسول الله وتعظيمه وتبجيله وذكر أوصافه الكماليّة ، وعقبه بالدّعاء الخير عليه صلى الله عليه وآله

أما الفصل الاول

فهو قوله (الحمدلله الذي شرع الاسلام) أى سنّ الاسلام أو أوضحه و أظهره (فسهل شرايعه لمن ورده) شبّه الاسلام بنهر جار دائم الجريان و استعار عنه على سبيل الكناية والجامع أنّ كلاّ منهما يروى الغليل والعطشان إلاّ أنّ الماء يروى من غلل الأبدان والاسلام من غلّ الأرواح ، أو أن بكلّ منهما يحصل الطهارة والنظافة إلاأنّ الماء يطهّر من القذر والنّجس ،والاسلام من الكفر والرّجس واستعار الشرايع للاسلام على سبيل التخييل ، و المراد أنه سبحانه سهّل موارد العقول لمن أراد الدخول إلى الاسلام .

قال الشارح البحراني : وتسهيله لها ايضاح قواعده وخطاباته بحيث يفهمهما الفصيح والألكن ، ويشارك الغبيّ في ورد مناهله الفطن الذكيّ .

(وأعزّ أركانه على من غالبه) استعارة بالكناية ايضاً فانه شبهه بحصن عال وقصر مشيد مستحكم البنيان ، ومحكم القواعد والأركان واثبات الأركان تخييل ، والجامع كونهما محفوظاً من أن يهدم ويغالب ، يعني أنه سبحانه أعزّه وحماه من أن يتسلّط عليه المشركون ويغلب عليه الكافرون كما قال تعالى :

« وَ لَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً » .

(فجعله أمنا لمن علقه) لا يخفى ما في هذه الفقرة و ما يتلوها من حسن الخطابة حيث ناط بكلّ واحدة من اللّفظات لفظة تلايمها و تناسبها لو نيطت بغيرها لما انطبقت عليها ولا استقرّت في قرارها ، ألا ترى كيف رتّب الأمن على التعلّق ، والسّلم على الدّخول ، والبرهان على التكلّم ،والشهادة على المخاصمة وكذا غيرها ، فلو غيّر الاسلوب وقال : أمنا لمن تكلّم ، وبرهانا لمن دخل لكان الكلام معيباً مختلّ المعنى خارجاً عن قانون الخطابة .

إذا عرفت ذلك فأقول : مراده عليه السلام بهذه الفقرة أنه سبحانه جعل الاسلام سبباً لأمن من تعلّق به في الدّنيا من إراقة الدّماء وفي الآخرة من النار ومن غضب الجبار (و سلماً لمن دخله .)

قيل : استعار عليه‌السلام لفظ السّلم باعتبار عدم اذاه لمن دخله فهو كالمسالم له

أقول : والأشبه أن يكون المراد أنّ من دخل الاسلام يكون الاسلام صلحاً بينه وبين المسلمين به يحقن دمه ويقرّ على ما يملكه

(وبرهاناً لمن تكلّم به) أى من تكلّم مصاحبا بالاسلام ومتّصفاً به فهو برهان له بمعنى أنّ فيه بيّنة وحجّة يدلّ على حقيّته (و شاهداً لمن خاصم به) أى من كان من المسلمين في مقام المخاصمة بالملل الخارجة فالاسلام شاهد له ، يعني أنّ فيه ما هو شاهد ويشهد بصحّة قوله قال سبحانه :

«أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ» .

قال الطريحي : أى برهان من الله وبيان وحجّة على أنّ دين الاسلام حقّ ، وهو دليل العقل ويتلوه أى يتبع ذلك البرهان شاهد يشهد بصحّته وهو القرآن (ونوراً لمن استضاء به) إذ به يهتدى إلى الجنّة ، ويسلك إليه كما يهتدى بالنور (وفهماً لمن عقل) إذ بالدخول فيه وبرياضة النّفس بقواعده وأركانه يتهيّأ الذّهن لقبول الأنوار الالهيّة و فهم الأسرار الحقّة فهو سبب للفهم الذي هو جودة تهيّؤ الذّهن لقبول ما يرد عليه فاطلق لفظه عليه مجازاً من باب إطلاق اسم المسبّب على السّبب

(و لبّاً لمن تدبّر) قال البحراني : لما كان اللبّ هو العقل اطلق عليه لفظ العقل وإن كان سبباً له ، وأراد العقل بالملكة ومافوقه من مراتب العقل فانّ الاسلام وقواعده أقوى الأسباب لحصول العقل بمراتبه (وآية لمن توسّم) أى علامة يهتدى به إلى الحقّ للمتوسّم وهو المتفرّس المتأمّل المتثبّت في نظره حتّى يعرف حقيقة سمت الشيء (وتبصرة لمن عزم) يعني أنه موجب لبصيرة من قصد على فعل الخير وتبصرة له في إتيانه به على ما ينبغي أن يكون عليه .

(وعبرة لمن اتّعظ) يعني من كان متديّناً بدين الاسلام ونظر فيما وقع في القرون الخالية للأمم الماضية وأنهم كيف اخترمتهم أيدى المنون وانتسفتهم القرون فهو يعتبر بذلك ويتّعظ به .

ويحتمل أن يكون المراد أن نفس الاسلام عبرة للمتّعظين ، وذلك لأنّ من لاحظ رونق الاسلام ونظر في علوّ قدره وارتفاع كلمته وظهور سلطانه وظفر المسلمين على قلّتهم على المشركين مع كثرتهم . يحصل له بذلك عبرة و بصيرة في الرّجوع إلى الحقّ .

(ونجاة لمن صدّق) يعني أنّه سبب لنجاة من صدّق الرسول صلى الله عليه وآله فيما جاء به من عندالله سبحانه به يحصل له الخلاص في الدّنيا من القتل و في الآخرة من العذاب (وثقة لمن توكّل) إذ من دان بدين الاسلام وعرف المواعيد الكريمة الثابتة في الكتاب والسنّة للمتوكلين يحصل له بذلك توكّل على الله وحسن ثقة به (وراحة لمن فوّض) فانّ المسلم إذا كمل إسلامه وفوّض أمره إلى الله سبحانه كفاه الله جميع اُموره وأراحه من الاهتمام لها وبه يشعر قوله سبحانه :

«وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ».

(وجنّة لمن صبر) أى من صبر على مافيه من مشاقّ الطّاعات و كلفة العبادات المالية والبدنيّة يكون الاسلام وقاية له وجنّة من عذاب النّار وحرّ الجحيم .

(فهو أبلج المناهج) أى معروف الطرق و سيأتي بيانها (وأوضح الولايج) أى ظاهر البواطن و الاسرار لمن نظر إليه بعين الاعتبار ، أو أنه واضح المداخل معروف المسالك كمامرّ في تفسير قوله عليه السلام فسهّل شرايعه لمن ورده

(مشرف المنار) أى رفيعة الاعلام ، وسيأتي بيان ذلك أيضاً (مشرق الجواد) وهو قريب من أبلج المناهج (مضيء المصابيح) المراد بها إما الأدلّة و البراهين الدالة على حقّيته من الكتاب والسّنة ، واستعار لها لفظ المصباح باعتبار أنها يهتدى بها إليه كما يهتدى بالمصباح في الظلمات ، وإمّا الأئمة الهادون إليه و المرشدون إلى معالمه ، وذكر الاضائة ترشيح .

(كريم المضمار رفيع الغاية جامع الحلبة متنافس السبقة شريف الفرسان)

قال الشارح المعتزلي : كأنه جعل الاسلام كخيل السباق التي مضمارها كريم وغايتها

رفيعة عالية وحلبتها جامعة حاوية وسبقتها متنافس فيها وفرسانها أشراف .

أقول : أرادبالفرسان المسلمين المؤمنين ، و فسّر ساير ماكان محتاجاً إلى التّفسير بقوله (التصديق منهاجه) الذي تقدم وصفه بأنه أبلج و أراد به التّصديق بالله وبرسوله وبما جاء به من عندالله سبحانه والاتيان بلفظ الجمع فيماسبق وبصيغة الافراد هنا أنّ الجمع باعتبار تعدد أفر ده و الافراد بملاحظة نفس النوع و معلوم أنّ هذه التصديقات أنوار واضحة الهدى .

(والصّالحات مناره) أراد بها الأعمال الصّالحة وجعلها مناراً باعتبار إضائتها واشراقها(والموت غايته) وإنما جعله غايةله باعتبار انقطاع التكليف عنده وانتهائه إليه ووصفه بالرفعة فيما سبق باعتبار أنّه باب الوصول إلى حظيرة القدس والجنّة المأوى التي هي أرفع الغايات ومنتهى المقاصد .

(والدّنيامضماره)لأنه دارمجازلادارقرار،ووصفها بالكرم سابقاً باعتبار أنّ فيها يحصل الاستعداد للفوز بالدّرجات العالية و المقامات المتعالية ،ولاينافي ذلك ماورد في ذمّها ، لأنه ناظر إلى ذمّ من ركن إليها و قصّر نظره فيها وغفل عما وراها ، فانّ من أبصر بها بصر ته ، ومن أبصر إليها أعمته .

(والقيامة حلبته) أي ذات حلبته وموضعها الذي يجتمع الكلّ فيها من كلّ ناحية لأنها يوم الجمع (والجنّة سبقته) جعلها الله سبحانه جزاء للسابقين،وفي مثلها فليتنافس المتنافسون .

وأما الفصل الثاني

المسوق لبيان تمجيد الرّسول ﷺ وتعظيمه فهوما أشار إليه السّيد بقوله (**منها في ذكر النبي** ﷺ حتى أورى قبساً لقابس)أى أظهر نورالحقّ و أخرج شعلة الهداية للطالبين المهتدين (و أنار علمالحابس)أصل إنارة العلم للحابس أن يوقد عليه النار و يستنار ليهتدى به الضّال الحابس أى الذي حبس ناقته ووقف لا يدرى كيف يهتدى المنهج ، واستعاره هنا لاظهاره ﷺ أنور الهداية ليهتدى بها من حبسته ظلمة الحيرة والشبهة عن سلوك سبيل الحقّ .

و المراد بأنوار الهداية المعجزات الباهرة و الأدلّة القاهرة من الكتاب

و السنّة ، ويحتمل أن يكون العلم مستعاراً لأئمة الدين والانارة كناية عن النص عليهم بالامامة(فهو أمينك المأمون)على أداء رسالاتك (و شهيدك يوم الدّين) على مخلوقاتك و قد تقدّم تحقيق هذه الشهادة في شرح الخطبة الحادية و السّبعين (وبعيثك نعمة) أى مبعوثك إلى الخلق نعمة عليهم بهدايتهم به إلى جنّتك(ورسولك بالحقّ رحمة) لعبادك أن يقعوا في مهاوى الهلاك بسخطك كما قال عزّ من قائل:

« وَما أرْسَلْناكَ إلّا رَحْمَةً لِلْعالَمينَ »

ثمّ دعا في حقّه صلوات الله عليه وآله بقوله : (اللّهمّ اقسم له مقسماً من عدلك) أي قسمة وحظّاً ونصيباً هومقتضى عدلك ، وهوأن يبلغ نفسه النفيس الذي هومحلّ الرّسالة أقصى مراتب القرب والوصول بماله من الاستعداد و القابلية و الكمالات النفسانية التي جعلته قابلا لذلك .

ولما دعا له صلى الله عليه وآله وسلم بمايستحقه زاد على ذلك فدعا له بقوله (واجزه مضاعفات الخير من فضلك) و سأل بذلك أن يتفضّل عليه بزيادة من فضله فيضاعف له الخير بمقتضى فضله و كرمه .

(اللّهمّ واعل على بناء البانين بنائه) والمراد به إمّا إعلاء مابناه صلى الله عليه وآله من الشريعة و شيّده من الدّين على ساير ماشيّده الأنبياء وبنوه من الشرايع و الدّين ، وإمّا إعلاء مابناه لنفسه من مراتب الكمال ودرجات العزّ والجلال ،وعلى التقديرين فلفظ البناء استعارة والاعلاء ترشيح .

(و أكرم لديك نزله) استعار عليه السلام لفظ النزل لما هيّأه الله سبحانه في حقّه صلى الله عليه وآله وسلم من الثواب الجزيل و الأجر الجميل (و شرّف عندك منزله) في حظيرة القدس (و آته الوسيلة) و هو امتثال لما طلبه من اُمته بقوله : سلوا الله لي الوسيلة.

قال الشارح البحراني : دعا عليه السلام أن يؤتيه ما يتوسّل به إليه ويقرّبه منه وهو أن يكمل استعداده لماهو أتمّ القوّة على الوصول إليه .

أقول : وليس بشيء ، بل المراد بها ما ورد في الأخبار من أنها أعلا درجة في الجنّة لها ألف مرقاة مابين المرقاة إلى المرقاة حصر الفرس الجواد مأة عام ، وهي مابين مرقاة جوهر إلى مرقات ياقوت إلى مرقاة ذهب إلى مرقاة فضّة ، فيؤتى بها يوم القيامة حتّى تنصب مع درجة النّبيّين كالقمر بين الكواكب ، فلا يبقى يومئذ نبي ولا صدّيق ولا شهيد إلاّ قال : طوبى لمن كان هذه الدرجة درجته (واعطه السّناء) أي الرفعة (والفضيلة).

ثمّ دعا عليه السلام لنفسه. و لصالحي المؤمنين بقوله : (و احشرنا في زمرته) وجماعته (غير خزايا) وخجلين بمعصية الله (ولا نادمين) على التفريط في جنب الله (ولا ناكبين) منحرفين عن سبيل الله (ولا ناكثين) ناقضين لعهد (١) الله (و لا ضالّين) عن سواء السبيل (ولا مفتونين) باللغو والأباطيل.

و اعلم أنّ هذا الفصل أعنى الفصل الثاني من هذا الكلام قد مضى روايته من السّيد (ره) في الكتاب وهي الخطبة الحادية والسّبعون إلاّ أنه (ره) كرّره ههنا لما في الروايتين من الاختلاف و بالمراجعة إليهما يعرف مواقعه ، و قد قدّمنا في شرح ما سبق نكات بديعة وفوائد نافعة من أراد الانتفاع فليراجع إليه.

وهنا لطيفة يعجبني ايرادها في المقام

و هي أنّ الشارح المعتزلي قال بعد الفراغ من شرح هذا الفصل من كلام أمير المؤمنين عليه السلام :

قلت : سألت النقيب أباجعفر وكان منصفاً بعيداً عن الهوى و العصبيّة عن هذا الموضع فقلت له : و قد وقفت على كلام الصحابة و خطبهم فلم أر فيهم من يعظّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تعظيم هذا الرّجل ولا يدعو كدعائه ، فانا قد وقفنا من نهج البلاغة

١ـ المراد به ماعهده لعباده من أن يعبدوه ويخلصوا له الدين كما قال عزمن قائل ألم أعهد اليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين و أن اعبدونى هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلا كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ، منه.

و من غيره على فصول كثيرة مناسبة لهذا الفصل تدلّ على إجلال عظيم و تبجيل شديد منه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فقال : ومن أين لغيره من الصحابة كلام مدوّن لتعلم منه كيفيّة ذكرهم للنبيّ صلى الله عليه وآله ، وهل وجد لهم إلاّ كلمات متبدّدة لاطائل تحتها .

ثمّ قال : إنّ علياً عليه السلام كان قويّ الايمان برسول الله صلى الله عليه وآله والتّصديق له ، ثابت اليقين قاطعاً بالأمر متحققاً له ، وكان مع ذلك يحبّ رسول الله صلى الله عليه وآله لنسبته منه وتربيته له واختصاصه به من دون الصّحابة وبعد فشرفه له لأنّهما نفس واحدة في جسمين الأب واحد ، والدّار واحدة ، والأخلاق مناسبة ، فاذا عظّمه فقد عظّم نفسه ، و إذا دعا إليه فقد دعا إلى نفسه ، و لقد كان يودّ أن تطبق دعوة الاسلام مشارق الأرض و مغاربها ، لأنّ جمال ذلك لاحق به وعائد إليه ، فكيف لا يعظّمه ويبجّله ويجتهد في أعلاء كلمته؟!

قال الشّارح فقلت له : قد كنت اليوم أنا وجعفربن مكى الشاعر نتجاري هذا الحديث .

فقال جعفر : لم ينصر رسول الله صلى الله عليه وآله أحد نصرة أبي‌طالب وبنيه له أمّا أبوطالب عليه السلام فكفّله وربّاه ثمّ حماه من قريش عند إظهار الدّعوة بعد إصفاقهم وإطباقهم على قتله ، وأمّا ابنه جعفر فهاجر بجماعةمن المسلمين إلى حبشة فنشر دعوته بها ، وأمّاعلي عليه السلام فانّه أقام عماد الملّة بالمدينة .

ثم لم‌يمن أحد من‌القتل والهواء والتشريد بمامنى به بنوأبي‌طالب أمّاجعفر فقتل يوم بموتة ، وأماعليّ عليه السلام فقتل بالكوفة بعد أن‌شرب نقيع الحنظل وتمنّى الموت ، ولوتأخّرقتل ابن‌ملجم له لمات أسفاً و كمداً ، ثمّ قتل ابناه بالسمّ والسّيف وقتل بنوه الباقون مع أخيهم بالطّف وحملت نسائهم على الأقطاب سبايا إلى الشام ولقيت ذرّيتهم وأخلافهم بعد ذلك من القتل والهوان والصلب والتشريد في البلاد والحبس والضرب ما لا يحيط الوصف بكنهه،فأيّ خير أصاب هذا البيت من نصرته ومحبّته وتعظيمه بالقول والفعل ؟!

فقال وأصاب فيما قال : فهلّاقلت :

« يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

ثمّ قال إنّ اللّه زوى الدّنيا عن صالحي عباده وأهل الاخلاص له لأنّه لم يرها ثمناً لعبادتهم و لا كفواً لاخلاصهم و أرجا جزائهم إلى دار أخرى غير هذه الدّار في مثلها فليتنافس المتنافسون .

أقول : للّه درّ النّقيب فلقد أبدع في الكلام وأصاب في الجواب وراعى الانصاف وجانب الاعتساف وأفصح عن الحقّ و أبان الصّدق إلاّ أنّه لا يكاد ينقضى عجبى منه و من مثله انه مع هذا الفضل والذّكاء كيف تشبّث بأذيال المتخلّفين ولم يتمسّك بالعروة الوثقى والحبل المتين ، فانّ محصّل ماذكره يرجع إلى وجوه:

الأوّل أنّ غيره عليه السلام من الصّحابة لم يوجد لهم كلام منظم ولا بيان منتظم حتّى يعرف منه كيفيّة تعظيمهم للنّبيّ صلّى اللّه عليه و آله و تبجليهم له ولابدّ أن يكون سرّ ذلك إمّا قلّة معرفتهم بأساس البلاغة أو وهن اعتقادهم في أمر الرّسالة و زعمهم أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله بشر مثلهم يأكل الطعام ويمشى في الأسواق ، ومثل ذلك لا يستحقّ بهذا التبجيل والاكرام والتوقير والاعظام .

الثاني أنّ صدور أمثال هذا الكلام من أمير المؤمنين عليه السلام كان من قوّة الايمان والايقان وشدّة التحقيق والتصديق والقطع واليقين الذى كان له عليه السلام في أمر الرسالة وهو بظاهره يفيد أنّ غيره عليه السلام لم يكن لهم هذا القطع واليقين ولا لهم معرفة تلك المعرفة وكانوا يظنّونه ظنّا و ماهم بمعتقدين ، و مع ذلك كيف يجوز ترجيحهم عليه وتقديمهم وتأخيره وتعظيمهم و تحقيره ، ومن المعلوم أنّ الخلافة هو النيابة والنايب كلّما كان أشدّ معرفة بمراتب المنوب عنه وآكد يقينا بشئوناته كان قيامه بوظايف النيابة وإتيانه بمطلوب المنوب عنه ومقاصده أكمل وأتمّ، ولو لم يكن له معرفة بها فكيف يقوم بالأمر ويتصرّف فيه .

الثّالث أنّه كان يحبّ رسول الله صلى الله عليه وآله وكان له نسبة مخصوصة إليه واختصاص خاصّ به صلى الله عليه وآله ولم يكن لساير الصحابة ذلك الاختصاص والنسبة والمحبّة

أقول : و بعد الاعتراف بذلك كيف يجوز القول بخلافة غيره ؟ فانّ التجربة والوجدان شاهدان على أنّ المرء إذا نزلت به داهية أو وقع في بلية أو دنا أجله يفوّض أمره إلى خاصّته وبطانته ويوصي إليه وصيّته ولا يقدّم الأجانب على الأقارب والأباعد على الخواصّ.

الرّابع أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان مع النّبيّ صلى الله عليه وآله بمنزلة نفس واحدة ، وهو كذلك فقد شهدت به آية المباهلة ، وهى تدلّ على منتهى كماله عليه السلام و فضله و شرفه و بلوغه في ذلك الغاية و تقدّمه فيه على الكلّ حيث جعله سبحانه بمنزلة نفس النبيّ صلى الله عليه وآله ومع ذلك كلّه كيف جاز ترجيح غيره عليه .

« أَفَمَنْ يَهْدي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدّي إِلّا أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ » .

وقوله ولقد كان عليه السلام يودّ أن يطبق دعوة الاسلام مشارق الأرض ومغاربها .

أقول : فلقد كان كذلك وأما غيره فلقد كانوا

« يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ » .هذا

و أمّا ما رواه من جعفر بن مكى في المذاكرة التي كانت بينه وبينه من أنه لم ينصر أحد رسول الله صلى الله عليه وآله نصرة أبي طالب عليه السلام و بنيه و أنّه ما ابتلى أحد فيه صلى الله عليه وآله بمثل ما ابتلى فيه هؤلاء فهو كما قال إلاّ أنه غلط في قوله وأيّ خير أصاب هذا البيت من نصرته ومحبّته وتعظيمه بالقول والفعل .

أما أوّلا فلأنه ليس لأمثال هؤلاء الجهال أن يتفوّهوا بمثل هذا الكلام الدال على ابداء المغايره بين البيتين والمجانبة بين الجسمين الذين هما بمنزلة نفس

واحدة حسبما قدّمناه .

وأما ثانياً فلأنه كما قال النّقيب ليس لآل أبي طالب عليه السلام منّة في ذلك على النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ، بل المنّة لله ولرسوله على جميع الخلايق .

وأما ثالثاً فلأنه لم يكن غرض آل أبي طالب فيما فعلوا من الموازرة والنصرة والحماية للنبيّ صلى الله عليه وآله والجهاد بين يديه به صلى الله عليه وآله وسلم وبعده جلب المنفعة وطلب الخير و إنما كان قصدهم إحياء السنة وإعلاء لواء الشريعة وإقامة اعماد الاسلام والملة ، طلباً لرضوان الحقّ ، وحباً له ووفاء بعهده، كما يفصح عن ذلك قوله سبحانه :

« وَ مِنَ النّاسِ مَنْ يَشْري نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ » و قوله: « مِنَ الْمُؤْمِنينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ الآية»

و قوله : صلى الله عليه وآله وسلم « لا عطين الراية غداً رجلا يحبّ الله، الحديث»

وأمّا رابعاً فلأنّ قوله و أىّ خير أصاب آه .

إن أراد به خير الدنيا ففيه أنّ القنيات الدّنيوية وزخارفها وزبرجها إنّمالها و قع في نظر أهلها لا في نظرهم وإنّما هى عندهم بجميع مافيها أهون وأزهد من عراق (١) خنزير في يد مجذوم .

و إن أراد خير الآخرة فأقول : و أىّ خير أعظم من أنّ هذا البيت كان تالى بيت الرسالة ، فقد جعل الله الرسالة في بيت عبدالله والخلافة في بيت أبي طالب وأتا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جوامع الكلم ، وعليّاً عليه السلام جوامع الكلام ، وجعله مدينة العلم و الحكمة ، وجعل عليّاً عليه السلام بابها و جعله منه بمنزلة هارون من موسى عليه السلام ، وجعله وأولاده شهداء دار الفناء وشفعاء دار البقاء وصار نعمةالله على الأبرار ونقمته على الفجار ، وفوّض إليه سقاية الكوثر و قسمة الجنّة و النّار و جعله حامل لواء الحمد وأمين مفاتيح الجنّة .

١ـ وهوالعظم الذى نحت عنه اللّحم .

ففي كشف الغمّة من أمالي الطوسي عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : أعطانى الله تبارك وتعالى خمسا و أعطا علياً خمساً : أعطاني جوامع الكلم وأعطى علياً جوامع العلم ، وجعلني نبياً وجعله وصياً ، وأعطاني الكوثر وأعطاه السّلسبيل ، و أعطاني الوحي و أعطاه الالهام ، وأسرابي إليه وفتح له أبوابَ السماء والحجب حتّى نظر إليّ ونظرت إليه .

إلى غير هذه مماروته الخاصة والعامّة والله وليّ التوفيق .

تكملة

الفصل الأوّل من فصلى هذا الفصل من هذه الخطبة مرويّ في الكافي بطريق آخر أحببت إيراده قال :

روى عليّ بن إبراهيم عن أبيه و محمّد بن يحيى عن أحمد بن محمّد بن عيسى و عدّة من أصحابنا عن أحمد بن محمّد بن خالد جميعاً عن الحسن بن محبوب عن يعقوب بن السراج عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام ، وبأسانيد مختلفة عن الأصبغ بن نباته قال : خطبنا أمير المؤمنين عليه السلام في داره أوقال في القصر ونحن مجتمعون ثمّ أمر صلوات الله عليه فكتب في كتاب وقرء على النّاس .

وروى غيره أنّ ابن الكوّا سأل أمير المؤمنين عليه السلام عن صفة الاسلام والايمان والكفر والنفاق فقال عليه السلام :

أمابعد فانّ الله تبارك و تعالى شرع الاسلام وسهل شرايعه لمن ورده وأعزّ أركانه لمن حاربه و جعله عزاً لمن تولّاه وسلما لمن دخله وهدى لمن ائتمّ به و زينة لمن تجلّله وعذراً لمن انتحله وعروة لمن اعتصم به وحبلا لمن استمسك به وبرهاناً لمن تكلّم به ونوراً لمن استضاء به وشاهداً لمن خاصم به وفلجاً لمن حاجّ به وعلماً لمن وعاه و حديثاً لمن درى و حكماً لمن قضى وحلماً لمن حرب ولباساً لمن تدبّر وفهماً لمن تفطن ويقيناً لمن عقل وبصيرة لمن عزم وآية لمن توسّم وعبرة لمن اتعظ ونجاة لمن صدّق وتؤدة لمن أصلح وزلفى لمن أقرب وثقة لمن توكّل و رخاء لمن

فوض وسبقة لمن أحسن وخيراً لمن سارع وجنة لمن صبر ولباساً لمن اتّقى وظهيراً لمن رشد و كهفاً لمن آمن وأمنة لمن أسلم وروحاً لمن صدق وغنى لمن قنع.

فذلك الحقّ سبيله الهدى و ماثرته المجد وصفته الحسنى فهو أبلج المنهاج مشرق المنار زاكي المصباح رفيع الغاية يسير المضمار جامع الحلبة سريع السبقة أليم النقمة كامل العدة كريم الفرسان.

فالايمان منهاجه و الصّالحات مناره والفقه مصابيحه والدنيا مضماره و الموت غايته و القيامة حلبته و الجنّة سبقته و النّار نقمته و التّقوى عدّته والمحسنون فرسانه.

فبالايمان يستدلّ على الصّالحات وبالصّالحات تعمر الفقه وبالفقه يرهب الموت وبالموت تختم الدّنيا وبالدّنيا تجوز القيامة وبالقيامة تزلف الجنّة والجنّة حسرة أهل النّار والنّار موعظة للمتقين والتّقوى سنخ الايمان.

الترجمة

و از جمله خطب شريفهٔ آن إمام مبين و وارث علم النّبيين است صلواة الله عليه وآله أجمعين در ذكر فضائل ملّت اسلام ومناقب حضرت سيّد الأنام عليه وآله آلاف التّحية والسّلام ميفرمايد:

حمد بی‌حدّ معبود بحقي را سزاست كه پديد آورد وظاهر نمود دين اسلام را پس آسان گردانيد راههای آنرا بجهة كسيكه بخواهد وارد آن شود، وعزيز گردانيد ركنهای آنرا بر كسيكه بخواهد غلبه آن نمايد، پس گردانيد آنرا ايمني از عذاب از برای كسيكه در آويخت بآن، وصلح و آشتی از برای كسيكه داخل شد در آن، ودليل روشن از برای كسيكه تكلّم كرد بآن، و گواه از برای كسيكه مخاصمه نمود بوسيله آن، ونور هدايت از برای كسيكه روشني جست بآن، وفهم از برای كسيكه عاقل شود، وعقل از برای كسيكه تدبر نمايد، وعلامت و نشانه از برای كسيكه تفرّس وتأمّل نمايد وآلة بصيرت از برای كسيكه صاحب عزم باشد، وعبرت از برای كسيكه پند گيرد،

و نجات و خلاصی از برای کسیکه تصدیق کرد ، ووثوق واعتماد ازبرای کسیکه توکّل نمود ، و راحت وآسایش مر کسی راکه تفویض کرد کار خودرا بخدا سپر مر کسی را که صبر نمود بر نج وعنا

پس آن اسلام روشن تر است راههای آن،آشکارتر است سرّهای آن ، بلند است مناره آن ، تابانست راههای آن ، درخشان است چراغهای آن ، گرامیست میدان آن ، بلند است نهایة آن جمع کننده‌است حلبهٔ آن‌یعنی اسبانی که فراهم آورده مي‌شود از أطراف ونواحی متعدّده بجهة اسب دواني ومسابقت .

رغبت کرده شده است‌سبقت آن یعني چیزیکه مقررشده‌بجهت‌سقبت کننده از اسب دوانها ، بزرگوار است سوارهای آن ·

تصدیق بخدا و رسول راه راست اسلام است ، و عملهای صالح مناره او است ومرگ غایت او است ، ودار دنیا میدان اسب دوان او است ، و روز قیامت صاحب حلبه او، وبهشت عنبر سرشت سبقة او .

بعضی دیگر از این در ذکر حضرت رسالتمآب صلواة الله وسلامه علیه و آله است که فرمود :

تااینکه برافروخت پیغمبر خدا شعله أنواردین مبین ازبرای آتش گیرنده اقتباس نور کننده ، و روشن گردانید علامت و نشانـه را ازبرای حبس کننده ، یعني کسیکه ایستاده باشد درواديِ حیرت وضلالت ، ومرکب خودش را نگه‌بدارد بجهة یافتن‌راه هدایت .

پس حضرت رسالت أمین مؤتمن تست در تبلیغ احکام ، وشاهدتست برامّتان ومبعوث وبرانگیخته تست از روی نعمت برجمیع عالمیان ، ورسول تست از روی رحمت بآدمیان .

بار خدایا قسمت بده ازبرای او حظ وافر را از عدل کامل خودت و جزا بده باو زیادتیهای خیر را از فضل شامل خود .

بار خدایا وبلند گردان بربنای بنا کنندگان بنای اورا ،وگرامی دار نزد خودت اجر وجزای اورا ، وبده اورا وسیله را ، و عطا کن اورا بلندی وفضیلت را

ومحشور گردان ما را در میان گروه اواز مؤمنان و صالحان در حالتیکه رسوا وخوار نباشیم نزد خلقان ، ونه پشیمانان ، ونه از راه راست منحرف شوندگان ، ونه شکنندگان عهد وپیمان ، ونه گمراهان ، ونه گمراه کنندگان ، ونه درفتنه افتاده شدگان .

الفصل الثاني

منها في خطاب أصحابه : وَ قَدْ بَلَغْتُمْ مِنْ كَرامَةِ اللهِ لَكُمْ مَنْزِلَةً تُكْرَمُ بِها إماؤُكُمْ ، وَ تُوصَلُ بِها جِيرانُكُمْ ، وَ يُعَظِّمُكُمْ مَنْ لا فَضْلَ لَكُمْ عَلَيْهِ، وَلا يَدَ لَكُمْ عِنْدَهُ ، وَ يَهابُكُمْ مَنْ لا يَخافُ لَكُمْ سَطْوَةً ، وَلا لَكُمْ عَلَيْهِ إمْرَةً ، وَ قَدْ تَرَوْنَ عُهُودَ اللهِ مَنْقُوضَةً ، فَلا تَغْضَبُونَ ، وَأَنْتُمْ لِنَقْضِ ذِمَمِ آبائِكُمْ تَأْنَفُونَ ، وَكانَتْ أُمُورُ اللهِ عَلَيْكُمْ تَرِدُ ، وَ عَنْكُمْ تَصْدُرُ ، وَإِلَيْكُمْ تَرْجِعُ ، فَمَكَّنْتُمُ الظَّلَمَةَ مِنْ مَنْزِلَتِكُمْ ، وَ أَلْقَيْتُمْ إِلَيْهِمْ أَزِمَّتَكُمْ ، وَ أَسْلَمْتُمْ أُمُورَ اللهِ في أَيْدِيهِمْ ، يَعْمَلُونَ فِي الشُّبُهاتِ ، وَ يَسِيرُونَ فِي الشَّهَواتِ ، وَأَيْمُ اللهِ لَوْ فَرَّقُوكُمْ تَحْتَ كُلِّ كَوْكَبٍ لَجَمَعَكُمُ اللهُ لِشَرِّ يَوْمٍ لَهُمْ .

اللغة

(الوصل) ضدّ القطع و(الذّمة) العهد والامان والضمان والحرمة والحقّ و (اليد) النّعمة و (أنف) انفا من باب فرح استنكف .

الاعراب

الواو في قوله عليه السلام : وانتم للحال ، والجملة بعدها حال من فاعل تغضبون ، وجملة يعملون في الشبهات استينافية بيانية أو حال من الضمير المجرور في أيديهم ولو في قوله : ولو فرقوكم ، بمعنى ان الشرطية إذ لو ابقيت على معناها الأصلي لدلّت على الانتفاء عند الانتفاء كما في قوله تعالى :

« لَوْ كانَ فيهِما آلِهَةٌ إلاَّ اللهَ لَفَسَدَتا » .

وهو باطل والاتيان بالشرط والجواب ماضيين إشارة إلى تصوير غير الحاصل بصورة الحاصل أو تنبيها على وقوعهما لا محالة .

المعنى

اعلم أنّ هذا الفصل من كلامه عليه السلام كما قال الشّارح المعتزلي خطاب لأصحابه الذين أسلموا مدنهم و نواحيهم إلى جيوش معاوية التي كان يغير بها على أطراف أعمال علي عليه السلام كالأنبار وغيرها ممّا تقدّم ذكرها في الشرح فقال عليه السلام لهم (وقد بلغتم من كرامة الله لكم) بالاسلام بعد ان كنتم مجوساً وصابئة وعبدة أصنام (منزلة) عظيمة (تكرم بها امائكم) و عبيدكم و من كان مظنة المهانة والمذلة (وتوصل بها جيرانكم) أى الملتجئين إليكم من معاهد أو ذميّ ، فانّ الله تعالى حفظ لهم ذمام المجاورة لكم حتّى عصم دمائهم و أموالهم ، ويحتمل أن يراد به المجاورون في المسكن .

(ويعظّمكم من لا فضل لكم عليه ولا يد لكم عنده) كالرّوم والحبشة ، فقد عظموا مسلمى العرب لتقمّصهم بلباس الاسلام و اظهارهم بشعاره (ويهابكم من لا يخاف لكم سطوة و لا لكم عليه امرة) أى أمارة و سلطنة كالملوك في أقاصى البلاد مثل الهند والصّين ونحوها ، فانهم هابوا دولة الاسلام وإن لم يخافوا سطوتها وسيوفها

وذلك لأنّه شاع وذاع أنّهم قوم صالحون إذا دعوا الله استجاب الله دعوتهم وينصرهم بملائكته ويمدّهم بجنوده ، هذا .

و لما قرّر نعمة الله و منته عليهم أردفه بالتوبيخ لهم على التقصير في أداء واجب حقّه ، و أشار إلى ارتكابهم بعض مسببات كفران نعمته بقوله : (و قد ترون عهود الله منقوضة فلا تغضبون) أراد بذلك رؤيتهم من أهل الشّام و أمثالهم فعل المنكرات من مخالفة الأحكام الشّرعية والأوامر الالهية و البغى و الخروج على الامام المفترض الطّاعة ، والاغارة على المسلمين والمعاهدين وعدم إنكارهم على ذلك وسكوتهم عليه مع تمكّنهم من إزالته ودفعه بالجهاد والجدل .

وبالجملة فالمراد أنكم ترون عهود الله التي أخذها على العباد باتيان الواجبات وترك المنهيّات منقوضة فلا تنكرونه وتسكتون عليه (و أنتم لنقض ذمم آبائكم تأنفون) و تستنكفون ، و لا ريب أنّ السكوت عن انكار تلك المنكرات مع الاستنكاف عن نقض ذمم الآباء يدلّ على أنّ عهود الله سبحانه أهون وأضعف عندهم من عهود آبائهم ، وهو في حدّ الكفر .

(وكانت أمور الله عليكم تردو عنكم تصدرو إليكم ترجع) قال العلاّمة المجلسيّ (ره) أى أنتم المخاطبون بالأوامر والنواهى ، أو كنتم قبل ذلك في أيام الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم موارد الامور و مصادرها مطيعين له منكرين للمنكرات ، و كان المراد بالورود السّؤال وبالصدور الجواب و بالرّجوع التحاكم . ويمكن تعميم المراد بالورود والصّدور ، فالمراد بالرّجوع رجوع النفع والضرر في الدّارين .

و قال الشّارح المعتزلي : كانت الأحكام الشّرعية إليكم ترد منّي و من تعليمي إيّاكم وتثقيفى(١) لكم ، ثمّ يصدر عنكم إلى من تعلّمونه إيّاها من أتباعكم و تلامذتكم ، ثمّ يرجع إليكم بأن يتعلّمها بنوكم و إخوتكم من هؤلاء الاتباع و التّلامذة .

---

١ ـ التثقيف التفهيم من ثقفت الحديث فهمته لبرعة، منه

(ف) فررتم من الزّحف لما أغارت جيوش الشام عليكم و (مكّنتم الظلمة من منزلتكم) بتخاذلكم عن جهادكم (وألقيتم إليهم أزمّتكم) كالدّابة التي زمامها بيد راكبها يوجّهها أين شاء ويتصرّف فيها كيف يشاء (و أسلمتم أمور الله في أيديهم) أى جعلتم أُمور الله وأحكامه الجارية في بلاده وعباده مسلّمة مفوّضة إليهم موكولة إلى آرائهم ، وكلّ ذلك بالتقصير عن مجاهدتهم .

(يعملون في) التكاليف الشرعية و الأحكام الالهيّة با (الشبهات) الفاسدة والآراء الكاسدة يزعمونها حججاً باهرة وبراهين ساطعة (ويسيرون في الشّهوات) النفسانية وينهمكون فيها .

ثمّ أخبر بمآل حال بني اميّة المشار إليهم بالظلمة تحذيراً لهم و إنذاراً بقوله : (وايم الله لو فرّقوكم تحت كلّ كوكب) وبدّدوكم في البلاد (لجمعكم الله لشرّ يوم لهم) و ينتقم بسوء أعمالهم عنهم ، وكنّى بشرّ اليوم عن ظهور المسورة من أهل العراق وخراسان وانتقامهم من بني اميّة وأهل الشام ، ويحتمل أن يكون إشارة إلى ظهور إمام الزّمان عليه السلام و جمعهم في الرّجعة ، و المراد جمع صنفهم والله وليّ التّوفيق .

الترجمة

بعض ديگر از اين خطبهٔ شريفه در خطاب بأصحاب خود و توبيخ و ملامت ايشان بتقصير ازجهاد أهل شام وأتباع معاويهٔ بي إيمان است ميفرمايد :

و بتحقيق كه رسيديد شما از كرامت و نوازش حضرت عزّت مر شما را كه عبارتست ازمشرف نمودن شما بشرف اسلام بمنزله ومقامى كه گرامي داشته ميشود بسبب آن منزلت كنيزهاى شما ، وپيوند ميشود أشخاصي كه درأمان شما مي باشند از أهل ذمه ومعاهدين ، وتعظيم ميكنند شمارا كسيكه هيچ فضيلت و مزيتى نيست شمارا براو ، وهيچ نعمتى نيست شمارا درنزد او ، وميترسد ازشما كسيكه نميترسد از قهر وغلبه شما ، ونيست مرشمارا براوأمارت وحكومت .

وبتحقيق ميبينيد شما عهدهاى خداوند شكسته شده پس غضب نميكنيد

و متغيّر نميشويد وحال آنكه شما ازبراى شكستن عهدهاى پدران خود استنكاف داريد ، و بود أمرهاى خدا برشما وارد ميشد و از شما صادر ميگرديد و بشما راجع بود .

پس تمكين داديد ظالمين‌رااز بني اميه وبنى مروان وساير أهل شام بمنزل خودتان ، و بيفكنديد بسوى ايشان جلو خودتان ، و مطيع و منقاد شديد بايشان وسپرديد كارهاى خدارا در دست ايشان عمل ميكنند آنها بشبهپهاى باطله ، و سير ميكنندرشهوات‌وخواهشات‌نفسانيه، وبخداسوگندا گرپرا كنده كنندايشان‌شمارا درزيرهر أخترى هر آينه جمع كند شمارا خدا براى بدترين روزى كه از براى ايشانست ، كه عبارتست از روز ظهور امام زمان عليه‌السلام .

و من خطبة له عليه‌السلام فى بعض ايام صفين و هى المأة والسادسة من المختارفى باب الخطب

وَقَدْ رَأَيْتُ جَوْلَتَكُمْ وَانْحِيازَكُمْ عَنْ صُفُوفِكُمْ ، تَحُوزُكُمُ الْجُفاةُ الطَّغامُ ، وَأَعْرابُ أَهْلِ الشّامِ، وَأَنْتُمْ لَهاميمُ الْعَرَبِ ، وَيَآفيخُ الشَّرَفِ، وَالأَنْفُ الْمُقَدَّمُ ، وَالسَّنامُ الأَعْظَمُ ، وَلَقَدْ شَفى وَحاوِحَ صَدْري أَنْ رَأَيْتُكُمْ بِأَخِرِهِ تَحُوزُونَهُمْ كَما حازُوكُمْ ، وَتُزيلُونَهُمْ عَنْ مَواقِفِهِمْ كَما أَزالُوكُمْ ، حَسّاً بِالنِّصالِ ، وَشَجْراً بِالرِّماحِ ، تَرْكَبُ أُوليهُمْ أُخْريهُمْ كَالإِبِلِ الْهيمِ الْمَطْرُودَةِ ، تُرْمى عَنْ حِياضِها ، وَتُذادُ عَنْ مَوارِدِها .

اللغة

(نجال) الفرس في الميدان يجول جولة وجولانا قطع جوانبه ، وجال القوم جولة انكشفوا ثمّ كرّوا و (انحاز) الرجل إلى القوم بمعنى تحيّز إليهم ، قال تعالى : أو متحيّزاً إلى فئة ، أى مائلا إلى جماعة من المسلمين ، و في القاموس انحاز القوم تركوا مراكزهم و (حزت) الشيء جمعته وضممته وحزته أيضاً غلبته و (الجفاة) جمع جاف وهو الغليظ من النّاس و (الطغام) بالطاء المهملة والغين المعجمة و زان سحاب الأوغاد من النّاس ، و هى جمع وغد وهو الأحمق الضّعيف الرّذل الدّني .

و (العرب) محركة خلاف العجم مؤنث وهم سكّان الأمصار أو عامّ والأعراب منهم سكان البادية لا واحد لها ويقال للواحد أعرابي و (اللّهاميم) جمع اللّهميم بالكسر كالقنديل والقناديل وهو السّابق الجواد من النّاس والخيل أو جمع اللّهموم بالفتح كاليعسوب و اليعاسيب و هي النّاقة الغزيرة و السّحابة الغزيزة القطر و (اليآفيخ) جمع يافوخ وهو ملتقى عظم مقدم الرأس ومؤخره ويقال لمعظم الشيء أيضاً و (الوحاوح) جمع الوحوحة و هو صوت معه بحح و (الحسّ) القتل قال تعالى : إذ تحسّونهم باذنه ، و (الشجر) الطعن و (الهيم) من الابل العطاش .

الاعراب

جملة و أنتم لهاميم العرب في محلّ النّصب على الحال من مفعول تحوز ، وقوله أن رأيتكم على التأويل بالمصدر فاعل شفى ، وحساً وشجراً منصوبان على المصدر

المعنى

اعلم أنه قد تقدّم في شرح الكلام الخامس والستّين رواية هذه الخطبة عن نصر بن مزاحم عن زيد بن وهب باختلاف لماهنا و ظهر لك ثمة أنّه عليه السلام خطب بهذه الخطبة لما انهزم ميمنة أهل العراق ثمّ عادت إلى موقفها واجتمعت إلى الأشتر

وحمل الأشتر معهم على صفوف أهل الشام و كشف من بازائهم فخاطبهم أمير المؤمنين بهذا الكلام فقال :

(وقد رأيت جولتكم وانحيازكم عن صفوفكم) أى انكشافكم وميلكم عن صفوفكم وهو كناية عن هزيمتهم وهربهم عدل عليه السلام في التعبير عن اللّفظ المنفر الى لفظ غير منفر قال الشارح المعتزلي : وهو باب من أبواب البيان لطيف وهو حسن التّوصل بايراد كلام غير مزعج عوضاً عن لفظ يتضمّن تقريعاً .

(تحوزكم) أى تغلبكم (الجفاة الطّغام) أى الغلاظ الأوغاد (و أعراب أهل الشام) والاتيان بلفظ الاعراب إمّا بيان للواقع أو تبكيت لأصحابه و توبيخ لهم بأنه لا يليق بمثلهم في الشرف والسّودد أن يحوزه أراذل العرب والبدوي منهم وربما يشعر بذلك قوله عليه السلام (و أنتم لهاميم العرب) و ساداتها (و يآفيخ الشرف) تشبيههم باليآفيخ لكونهم في علوّهم وشرفهم بالنسبة إلى العرب كاليآفيخ بالنسبة إلى الأبدان (و) كذلك التشبيه با(الانف المقدم والسنام الأعظم) واستعارة لفظى الأنف والسنام لهم باعتبار العزّ والشرف ، فانّ الأنف أعزّ الأعضاء وأشرفها ومتقدّم عليها وحسن الوجه به قال الشّاعر :

قوم هم الأنف و الأذناب غيرهم ومن يساوى بأنف الناقة الذّنبا

وهكذا السنام في عزّته وعلوّه بالنسبة إلى باقى أعضاء الجمل (ولقد شفى وحاوح صدرى) وهي كناية عن تألّمه وحرقة قلبه الناشي عن غلبة العدوّ (أن رأيتكم بآخرة) أى آخر الأمر (تحوزونهم كما حازوكم وتزيلونهم عن مواقفهم) ومراكزهم (كما أزالوكم حسّاً بالنّضال وشجراً بالرّماح) أى تقتلونهم قتلا بالمراماة ، وتطعنونهم طعنا بالرّماح حال كونهم (تركب أُوليهم اُخربهم) أى الكتيبة الأُولى منهم الكتيبة الأُخرى مولّين مدبرين (كالابل الهيم) العطاش المجتمعة على الحياض للشرب (المطرودة) بعد اجتماعها (ترمى) بالسهام و تدفع (عن حياضها و تذاد) وتطرد (عن مواردها) فانّ طردها على ذلك الاجتماع يوجب ركوب بعضها بعضاً ووقوع بعضها على بعض و كذلك تلك الكتائب.

الترجمة

ازجملهٔ خطب شریفه آن بزرگوار وسید أبرار است دربعض أیام صفین که خطاب نموده بأصحاب خود در وقتیکه شکست خوردند ودر مقابل أهل‌شام‌فرار‌را برقرار اختیار کردند ، پس درمقام تعرض ملامت إیشان فرمود که :

بتحقیق دیدم جولان کردن و هزیمت نمودن وشکست خوردن شما را در صفهای خودتان که جمع میکردند وبهم میچسباندند شما را مردمان زبر وخشن ورذل وعربهای بادیه نشین أهل شام ، وحال آنکه شماجوانمردان عربید وسرهای شرف وأدب وبیني و پیشی گرفته بردیگران و کوهان بزرگتر ازهمه .

و بتحقیق شفا داد آوازهای سینه مرا آنکه دیدم شمارا در آخر کار جمع میکردید وبهم میچسبانید ایشان را چنانچه آنها جمع وحیازت میکردند شمارا ، وزایل میکردیدایشان‌راازمحلهاومقامهای‌خودشان‌چنانچه‌ایشان‌شمارازایل‌میکردند میکشتید ومستأصل مینمودید ایشان‌را کشتنی باتیرأندازی ، وطعن‌میکردید بایشان طعنه با نیزه‌ها در حالتی که برهم می نشستند أوّل ایشان بآخر ایشان مثل شتران تشنه رانده شده که أنداخته شده باشند از حوض‌های خود ، و دفع کرده شده باشند از مواضع‌ورودبرآب .

و من خطبة له عليه السلام وهی من خطب الملاحم و المأة و السابعة من المختار فی باب الخطب

وشرحها فی فصلین :

الفصل الاول

أَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الْمُتَجَلّي لِخَلْقِهِ بِخَلْقِهِ ، وَالظّاهِرِ لِقُلُوبِهِمْ بِحُجَّتِهِ ، خَلَقَ

الْخَلْقَ مِنْ غَيرِ رَوِيَّةٍ إِذْ كانَتِ الرَّوِيّاتُ لاَ تَليقُ إِلاَّ بِذَوِي الضَّمائِرِ وَلَيْسَ بِذي ضَميرٍ في نَفْسِهِ، خَرَقَ عِلْمُهُ باطِنَ غَيْبِ السُّتُراتِ، وَأَحاطَ بِغُمُوضِ عَقايِدِ السَّريراتِ.

منها في ذكر النَّبيِّ ﷺ اخْتارَهُ مِنْ شَجَرَةِ الْأَنبِياءِ، وَمِشْكوةِ الضِّياءِ، وَذُوابَةِ الْعَلْياءِ، وَسُرَّةِ الْبَطْحاءِ، وَمَصابِيحِ الظُّلْمَةِ، وَيَنابِيعِ الْحِكْمَةِ.

منها: طَبِيبٌ دَوّارٌ بِطِبِّهِ، قَدْأَحْكَمَ مَراهِمَهُ، وَأَحْمى مَواسِمَهُ، يَضَعُ مِنْ ذلِكَ حَيْثُ الحاجَةُ إِلَيْهِ، مِنْ قُلوبٍ عُمْيٍ، وَآذانٍ صُمٍّ، وَأَلْسِنَةٍ بُكْمٍ، مُتَتَبِّعٌ بِدَوائِهِ مَواضِعَ الْغَفْلَةِ، وَمَواطِنَ الْحيرَةِ، لَمْ يَسْتَضيئُوا بِأَضْواءِ الْحِكْمَةِ، وَلَمْ يَقْدَحُوا بِزِنادِ الْعُلُومِ الثاقِبَةِ، فَهُمْ في ذلِكَ كَالْأَنْعامِ السّائِمَةِ، وَالصُّخُورِ الْقاسِيَةِ، قَدِ انْجابَتِ السَّرائِرُ، لِأَهْلِ الْبَصائِرِ، وَوَضَحَتْ مَحَجَّةُ الْحَقِّ لِخابِطِها، وَأَسْفَرَتِ السّاعَةُ عَنْ وَجْهِها، وَظَهَرَتِ الْعَلامَةُ لِمُتَوَسِّمِها، مالي أَراكُمْ أَشْباحاً بِلاَ أَرْواحٍ، وَأَرْواحاً بِلاَ أَشْباحٍ وَنُسّاكاً بِلاَ صَلاحٍ، وَتُجّاراً بِلاَ أَرْباحٍ، وَأَيْقاظاً نُوَّماً، وَشُهُوداً غُيَّباً، وَناظِرَةً عُمْياً، وَسامِعَةً صُمّاً، وَناطِقَةً بُكْماً.

اللغة

قد مضى تفسير الملحمة بأنها الحرب والقتال والوقعة العظيمة فيها و موضع القتال مأخوذة من اشتباك النّاس فيها كاشتباك لحمة الثوب بالسّدى و (ضمير) الانسان قلبه وباطنه ومايضمره من الصّور ، و جمع على الضمائر تشبيها بالسريرة والسّرائر لأنّ باب فعيل إذا كان اسما لمذكر يجمع على أفعلة و فعلان كرغيف وأرغفة ورغفان و (السّترة) بالضّم ما استترت به كائناً ما كان و (السّريرة) كالسرّ هو ما يكتم و (المشكاة) كوّة غير نافذة يجعل فيها المصباح أو عمود القنديل الذى فيه الفتيلة أو القنديل .

و (الذّوابة) بالضم مهموزاً النّاصية أو منتهاها من الرأس أو الطّائفة من شعر الرأس و (العليا) بالفتح والمدّ كلّ مكان مشرف والسّماء ورأس الجبل و (السرّة) ما تقطعه القابلة و سرّة الوادى أفضل مواضعه و (البطحاء) و الابطح مسيل واسع فيه زقاق الحصا و (المراهم) جمع المرهم و هودواء مركّب وطلاء لين يطلى به القروح و الجروح قيل إنّه مأخوذ من الراهمة بالكسر و هو المطر الضعيف و (المواسم) كالمياسم جمع الميسم و هو المكواة والحديد الذي يوسم به الخيل و غير ها .

و (قدح) بالزند رام الايراء به واستخرج النار منه ، والزّند الذى يقدح به النار وهو الأعلى والسّفلى الزندة بالهاء والجمع زناد كسهم وسهام و (ثقبت) النّار اتقدت والكواكب أضاءت و (السّائمة) من الأنعام خلاف المعلوفة و (القاسية) الشديدة الغليظة و (انجابت) السّحابة انكشفت و (المحجّة) بالفتح جادّة الطريق و (الخابط) السّائر على غير هدى و (سفر) الصبح وأسفر أضاء، وأسفرت المرأة عن وجهها كشفت النقاب عنه و (الشبح) محركة سواد الانسان و غيره تراه من بعيد و (النوّم) و (الغيّب) وزان ركّع وسجّد جمع نائم وغايب و (العمى) و (الصمّ) و (البكم) كلّها بالضمّ .

قال الطّبرسيّ في تفسير قوله سبحانه :

«صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ».

الأصمّ الذي ولد كذلك و كذلك الأ بكم وهو الذي ولد أخرس ، و أصل الصمّ السّد فالصمم سدّ الأذن بمالايقع منه سمع ، وأصل البكم الاعتقال في اللّسان ، و هو آفة يمنع من الكلام ، وأصل العمى ذهاب الادراك بالعين ، و العمى في القلب مثل العمى في العين آفة تمنع من الفهم و يقال : ما أعماه من عمى القلب ولا يقال ذلك في العين وإنما يقال ما أشدّ عماه وما يجرى مجراه .

الاعراب

قوله و ليس بذى ضمير في نفسه ، الجار و المجرور متعلّق بمقدر صفة لضمير أى كائن في نفسه ، و يحتمل على بعد أن يجعل في بمعنى على و يكون الظّرف متعلّقاً بمقدّر حالا من اسم ليس ، أي ليس هو بصاحب ضمير مستقرّاً أومتمكّناعلى نفسه ، والأوّل أظهر وأصحّ لاحتياج الثاني إلى تكلّف وابتنائه على إعمال الفعل الناقص أعنى ليس في الحال وهوخلاف المشهور .

وقوله عليه‌السلام طبيب دوّار ، الظاهر أنه خبر محذوف المبتداء أومذكور في أصل الكلام و أسقطه السّيد (ره) حين الالتقاط ، ويحتمل أن يكون مبتدء لكونه نكرة موصوفة ، وجملة يضع آه ، خبره ، وجملة قد أحكم ، حال من فاعل دوّار ، وعلى الاحتمال الأوّل أعنى جعل طبيب خبراً يجوز جعل جملة يضع استينافاً بيانياً والاشارة بلفظ ذلك إلى طبّه .

وحيث ، ظرف مكان ليضع مبنيّة على الضمّ للزوم إضافتها إلى الجمل اسمية أو فعلية نحو جلست حيث زيد جالس و حيث جلس زيد ، قال ابن مالك في منظومة النحو :

و ألزموا إضافة إلى الجمل حيث وإذوإن ينوّن يحتمل

والحاجة ، بالضمّ كما في أكثر النسخ مرفوع على الابتداء، و خبره محذوف أوفاعل

الفعل محذوف أي حيث كان الحاجة إليه أو حيث الحاجة إليه حاصلة و الجملة مجرورة المحل باضافة حيث إليها ، وفي بعض النسخ بجرّ الحاجة والأوّل أظهر، لأنّ إضافة حيث إلى المفرد شاذّة كما قال في قوله: ألا ترى حيث سهيل طالعاً بجرّ سهيل على إضافة حيث إليه و ربما قيل : بأنّ سهيل مرفوع على الابتداء وخبره محذوف فحيث مضافة إلى الجملة والتقدير حيث سهيل مستقرّ طالعاً

ومتتبّع ، خبر لمبتدء محذوف ، وجملة لم يستضيئوا منصوبة المحلّ على الحالية من مفعول متتبّع ، و قوله : مالى أريكم أشباحاً ، استفهام توبيخى ، ولا ، في قوله بلا أرواح وبلا أشباح ، زايدة كما في قولهم جئت بلا زاد وغضبت من لاشيء و معنى الزيادة أنها وقعت بين شيئين متطالبين لا أنها لو اسقطت لم يخلّ المعنى .

المعنى

اعلم أنّ الفصل الثاني من هذه الخطبة الشريفة في ذكر الملاحم و الاشارة إلى الوقايع العظيمة و الخطوب الّتي تكون بعده ، و هذا الفصل الذي نحن بصدد شرحه مداره على امور ثلاثة .

الأوّل تحميد الله سبحانه وتمجيده باعتبار نعوته الجلالية والجمالية.

والثاني تبجيل النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وتعظيمه وترجيحه على الأنبياء والرّسل .

والثالث الاشارة إلى بعض كمالات نفسه و كرامات ذاته وأتبعه بتوبيخ الجاهلين من المخاطبين وغيرهم الغافلين عن اقتباس أنواره و اكتساب فيوضاته

اما الاول فهو قوله (الحمد لله المتجلّى لخلقه بخلقه) أى الظّاهر المنكشف لمخلوقاته بواسطة ايجاده و ابداعه المخلوقات بقدرته الشاملة و حكمته الكاملة ، و يجوز أن يكون المصدر الثاني أيضاً بمعنى المفعول، فالمعنى أنه سبحانه تجلّى للخلق وأجلا معرفته لقلوب عباده بما أوجده من المصنوعات و الموجودات حتّى اشبهت كلّ ذرّة منها مرآة ظهر فيها لهم فهم يشاهدونه على قدر قبولهم لمشاهدته وتفاوت مراتب المشاهدة بحسب تفاوت أشعّة ابصار البصائر .

و قد تقدّم في شرح الخطبة الرابعة و الستين في بيان معنى قوله : و كلّ ظاهر غيره غير باطن «آه» تحقيق أنه تعالى أظهر الأشياء وأجليها وأنّ منتهى ظهوره صار سبباً لخفائه فليراجع ثمّة ، فانّ هناك فوايد جمّة .

(و الظّاهر لقلوبهم بحجّته) أى الواضح وجوده لقلوب الّذين أنكروه بأوهامهم و ألسنتهم بقيام حجّته الباهرة ، و أدلّته القاهرة عليهم بذلك ، فانّه سبحانه لم يحجبهم عن واجب معرفته ، وقد مرّ تحقيقه في شرح قوله : فهو الّذي تشهد له أعلام الوجود على اقرار قلب ذي الجحود، في الخطبة التاسعة والأربعين .

(خلق الخلق من غير رويّة) و فكر في كيفيّة خلقه لأنّ الفكر عبارة عن حركة القوّة المفكّرة في تحصيل المطالب من المبادي وانتقالها منها واليها ، وهى محال عليه سبحانه .

أما أولا فلما أشار اليه بقوله : (اذ كانت الرّويات لا تليق الاّ بذوى الضّماير) والقلوب والمشاعر البدنيّة (وليس بذى ضمير في نفسه) فليس له سبحانه روية

وأما ثانيا فلأنّ فايدة الروية هو تحصيل المطالب المجهولة من المعلومات والجهل محال على الله سبحانه ، و قد تقدّم ذلك في شرح الفصل الثالث من خطبة الاشباح وهى الخطبة التّسعون .

(خرق علمه باطن غيب السّترات) أى نفذ علمه في كلّ مستتر و غايب بحيث لا يحجبه ستر و لا يستره حجاب (و أحاط بغموض عقايد السّريرات) أى بمادقّ وخفى من عقايد أسرار القلوب كما قال تعالى :

« وَ إِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ و أَخْفى »

وقد مرّ بيان علمه بالسّرائر في شرح الخطبة الخامسة والثمانين

وأما الثانى منها وهوالذي في ذكر النّبيّ صلى الله عليه وآله وتبجيله وتعظيمه فهو قوله (اختاره من شجرة الأنبياء) استعار عليه السلام لفظة الشجرة لصنف الأنبياء باعتبار أنّ هذا الصنف له فروع و أثمار وأوراق كالشجرة ، ففروعه أشخاص الأنبياء وآحادهم

وأثماره العلوم والكمالات والكرامات التي لهم ، وأوراقه المؤمنون و المخلصون من اممهم .

(ومشكاة الضّياء) قال البحراني (ره) استعار عليه السلام لفظ المشكاة لآل إبراهيم و وجه المشابهة أنّ هؤلاء قد ظهرت منهم الأنبياء وسطع من بينهم أنوار النّبوة والهداية كما يظهر نور المصباح من المشكاة .

أقول : هذا مبنىّ على كون المشكاة بمعنى القنديل أوالكوّة وعلى كونها بمعنى عمود القنديل الحامل للفتيلة فوجه المشابهة هوأنّ هؤلاء محال أنوار النّبوّة باعتبار أنّ أكثر الأنبياء فيهم كما أنّ المشكاة محلّ النور .

(وذوابة العلياء) قال الشارح : ويشبه أن يشير به إلى قريش ، ووجه المشابهة تدلّيهم في اغصان الشرف والعلوّ عن آبائهم كتدلّى ذوابة الشّعر عن الرأس

أقول: وهومبنىّ على كون الذّوابة طايفة من الشعر و أما على كونها بمعنى النّاصية فوجه المشابهة بروز شرفهم وظهور علوّهم وفضيلتهم ، كما أنّ الناصية بارزة ظاهرة ولها تفضيل على ساير الأعضاء في العزّة والجلاء .

(وسرّة البطحاء) أى أوسطها من باب استعمال المقيد في المطلق كالمشفر في شفة الانسان أو أفضلها ، وعلى كلّ تقدير فالمراد بالبطحاء مكة للمسيل الواسع الذى فيه و يسمّى بالأبطح ، قال الشارح المعتزلي : و بنو كعب بن لوى يفتخرون على بني عامر بن لوى بأنهم سكنوا البطاح وسكنت عامر بالجبال المحيطة بمكة وسكن معها بنو فهر بن مالك رهط أبي عبيدة بن الجراح وغيره قال الشاعر :

فحللت منها بالبطاح وحلّ غيرك بالظّواهر

وقال بعض الطالبيّين :

وأنا بن معتلج(١) البطاح اذا غدا غيرى وراح على متون ظواهر
يفترّ عنّى ركنها و حطيمها كالجفن يفتح عن سواد النّاظر
كجبالها شرفي و مثل سهولها خلقى و مثل ظبائهنّ مجاورى

١ــ اعتلجوا اتخذوا صراعا وقتالا، ق

(ومصابيح الظلمة وينابيع الحكمة) استعار عليه السلام لفظ المصابيح والينابيع للأنبياء الأدلاّء على الحقّ باعتبار أنهم يهتدى بهم من ظلمة الجهالة ويروى ريّهم من غلل (١) الضّلالة .

و أما الثالث منها فهو قوله عليه السلام (طبيب دوّار بطبّه) استعار عليه السلام لفظ الطبيب لنفسه الشريف باعتبار كونه معالجا لأسقام الأرواح كمعالجة الأطبّاء لأمراض الأبدان ، وذكر الدوّار ترشيح للاستعارة ، و وصفه به إشارة الى كماله لأن الدوّار أكثر تجربة وحذاقة من غيره ، ورشحها أيضاً بقوله (قد أحكم مراهمه) أى أتقنها ومنعها من الفساد ، وبقوله (وأحمى مواسمه) أى أسخنها وهيّأها ليكوى بها ، ويمكن أن يكونا من باب الاستعارة التمثيلية فيكون المراد باحكام المراهم البشارة بالثواب أو الأمر بالمعروف ، وباحماء المواسم الانذار من العقاب أو النهى عن المنكر .

وقوله عليه السلام (يضع من ذلك) أى من طبّه أو من كل مراهمه و مواسمه (حيث) كانت (الحاجة إليه من قلوب عمى) فيفتح عماها باعدادها لقبول أنوار العلم والهداية (و آذان صمّ) فيشفى صممها و يعدّها لقبول المواعظ و النّصايح (و ألسنة بكم) فيعالجها ويعدّها للتكلّم بالحقّ والقول بالصّدق .

(متتبّع بدوائه مواضع الغفلة ومواطن الحيرة)وهى قلوب الجهّال وضماير الضّلال ، هذا .

و لا يخفى عليك أنّه لو كان الاشارة بلفظة ذلك في قوله عليه السلام : يضع من ذلك ، إلى المراهم والمواسم لابدّ أن يكون قوله ، قد أحكم مراهمه وأحمى مواسمه ، من باب التمثيل على سبيل الاستعارة ، إذ المراهم والمواسم بمعناهما الحقيقي لا ينفعان للقلوب المتّصفة بالعمى ، فلا معنى لوضعهما فيها ، ولو كان المشار إليه به الطبّ كان جملة يضع وما يتلوها إلى قوله : ومواطن الحيرة ، من باب التجريد ، فيكون كلامه جامعاً بين الاستعارة التحقيقية والترشيح والتجريد ، حيث ذكر لفظ الطّبيب وأراد

١- محركة العطش ، م

نفسه ، وهو استعارة تحقيقية وقرنها بما يلايم المستعار منه أعنى قوله : دوّار إلى قوله : مواسمه ، وهو الترشيح ، ثمّ قرنها بما يلايم المستعار له أعنى قوله : يضع، إلى آخر الكلام ، وهو التجريد ، ومثله قول الشاعر :

لدى أسد شاكى السّلاح مقذّف ‌ ‌ ‌ له لبد أظفاره لم تقلّم

حيث استعار الأسد للرّجل الشجاع و وصفه بشاكى السلاح و هو تجريد لملايمة المستعار له ، و رشحه بذكر اللبد و الأظفار لمناسبة المستعار منه فافهم ذلك واغتنم .

ثمّ لا يخفى عليك أنّ وصفه عليه السلام القلوب بالعمى باعتبار أنّ القلب جارمجرى العين و غريزة العقل فيه جارية مجرى قوّة البصر في العين و قوّة الابصار لطيفة تفقد فى العمى ويوجد في البصير ، و كذلك القوّة العقلانية في القلب الجاهل دون العاقل فنسبة البصيرة الباطنة إلى القلب كنسبة الابصار إلى البصر إلاّ انّه لا مناسبة بينهمافي الشرف لأنّ القلب بمنزلة الفارس و البدن بمنزلة الفرس و عمى الفارس أضرّ عليه من عمى الفرس ، و لموازنة البصيرة للبصر الظّاهر سمّاه الله تعالى باسمه فقال :

« ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأىٰ » .

سمّى إدراك الفؤاد رؤية كما سمّى عدم إدراكه عمى في قوله :

«فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتي فِي الصُّدُورِ»وفي قوله « مَنْ كانَ فِي هٰذِهِ أَعْمىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً » .

ولمّا كان عمى القلب أضرّ على الانسان من عمى البصر ، ومعالجته أهمّ أثر القلوب على الأبصار و قال : وقلوب عمى ،ولم يقل و أبصار عمى ، و قد استفيد من كلامه عليه السلام أنّ القلوب و الآذان والألسنة الموصوفة بالأوصاف المذكورة كلّها مريضة محتاجة إلى الطبيب .

وهو كذلك ، فانّ كلّ عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاصّ به و مرضه أن يتعذّر عليه فعله الذي خلق لأجله حتّى لا يصدر منه أصلا أو يصدر منه بنوع من الاضطرار .

فمرض اليد أن يتعذّر عليها البطش ، ومرض الاُذن أن يتعذّر عليها السّماع ومرض العين أن يتعذّر عليها الابصار ، ومرض اللسان أن يتعذّر عليه التكلّم ، ومرض القلب أن يتعذّر عليه فعله الخاص الذي خلق لأجله وهو العلم والحكمة والمعرفة وحبّ الله وعبادته والتلذّذ بذكره و إيثاره ذلك على غيره والاستعانة بجميع الأعضاء عليه كما قال :

« وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْس إِلاَّ لِيَعْبُدُونَ »

ففي كلّ عضو فايدة مخصوصة ، و فائدة القلب الحكمة والمعرفة و خاصية النفس التي للآدمي ما يتميّز بها عن البهايم ، فانه لم يتميّز عنها بالقوّة على الأكل والوقاع و الابصار ونحوها ، بل بمعرفة الأشياء على ما هي عليه وأصل الأشياء وموجدها ومخترعها هو الله سبحانه ، فلو عرف كلّ شيء ولم يعرف الله تعالى فكأنه لم يعرف شيئاً ، و هو علامة لمرض قلبه كما أنّه لو لم يؤثر المواعظ والنصايح في اذنه ، والعبر والآيات في نظره ولم يجرى الحقّ على لسانه عرف بذلك أنّ هذه الجوارح منه مريضة ، لكونها علاءات لمرضها يستدلّ بها عليها فلابدّ له من معالجتها والخلاص من ألمها .

وربّما يحصل له الغفلة عن مرضه فلا يمكن له العلاج بنفسه ، فيلزم حينئذ وجود طبيب حاذق دوّار بطبّه لينبّهه على مرضه و يداوي له ، و ليس ذلك إلاّ أمير المؤمنين عليه السلام والطيّبون من أولاده ، فانّ غيرهم من الأطبّاء أعني ساير العلما قد استولى عليهم المرض ، والطبيب إذا كان بنفسه مريضاً كيف يعالج غيره ، فهو طبيب الهي متتبّع بدوائه مواضع الغفلة و مواطن الحيرة معالج لأمراض القلوب وأسقام الأرواح والنفوس وآفات الأعضاء والمشاعر .

وقد روى بعض القدماء في أصل له عن الرّضا عليه السلام مسنداً عن عمّار بن ياسر قال : بينا أنا أمشي بأرض الكوفة إذ رأيت أمير المؤمنين عليه السلام جالساً وعنده جماعة من الناس ، وهو يصف لكلّ انسان ما يصلح له ، فقلت له : يا أمير المؤمنين أيوجد عندك دواء الذنوب ؟ فقال عليه السلام : نعم اجلس، فجثوت على ركبتي حتى تفرّق عنه النّاس ، ثمّ أقبل عليّ وقال : خذ دواء أقول لك ، قال : قلت : قل يا أمير المؤمنين ، قال عليه السلام : عليك بورق الفقر ، وعروق الصبر ، و هليلج الكتمان ، وبليلج الرضا ، وغاريقون الفكر ، و سقمونيا الأحزان واشربه بماء الأجفان ، و أغله في طنجير الغلق ، ودع تحت نيران الفرق ، وصفّه بمنخل الأرق ، واشرب على الحرق ، فذاك دواؤك وشفاؤك يا عليل .

وروى في الاحتجاج عن أبي محمّد العسكري عن عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام أنه قال : كان أمير المؤمنين عليه السلام قاعداً ذات يوم فأقبل إليه رجل من اليونانيّين المدعين للفلسفة و الطبّ ، فقال له : يا أبا الحسن بلغني خبر صاحبك و أنّ به جنوناً وجئت لأعالجه فلحقته قد مضى لسبيله وفاتني ما أردت من ذلك ، و قد قيل لي : إنّك ابن عمّه و صهره وأرى بك صفاراً قد علاك وساقين دقيقين و ما أريهما تقلانك (١) فأما الصّفار فعندي دوائه ، وأما السّاقان الدّقيقان فلا حيلة لتغليظهما والوجه أن ترفق بنفسك في المشي تقلّله ولا تكثره وفيما تحمله على ظهرك وتحتضنه بصدرك أن تقلّلهما ولا تكثرهما ، فانّ ساقيك دقيقان لا يؤمن عند حمل ثقيل انقصافهما (٢) و أما الصفّار فدواؤه عندي وهو هذا .

واخرج دواء وقال : هذا لايؤذيك ولايخيّسك ولكنه يلزمك حمية من اللّحم أربعين صباحاً ثمّ يزيل صفارك .

فقال له عليّ عليه السلام : قد ذكرت نفع هذا الدّواء الصفّارى فهل تعرف شيئاً يزيد فيه ويضرّه ؟ فقال الرّجل: بلى حبّة من هذا وأشار الى دواء معه، وقال : إن تناوله الانسان وبه صفار أماته من ساعته وإن كان لاصفار به صار به صفار حتى يموت في يومه .

١ـ أى تحملانك من اقللته أى حملته . ٢ـ القصف الكسر

فقال عليه السلام له فأرني هذا الضارّ، فأعطاه ايّاه فقال له عليه السلام كم قدر هذا؟ قال قدر مثقالين سمّ ناقع قدر كلّ حبّة منه يقتل رجلا، فتناوله عليّ عليه السلام فقمحه وعرق عرقا خفيفاً وجعل الرّجل يرتعد في نفسه و يقول: الآن اُوخذ بابن أبي طالب ويقال قتلته ولا يقبل مني قولي انه هو الجانى على نفسه، فتبسّم عليّ عليه السلام وقال: يا عبدالله أصحّ ما كنت بدنا الآن لم يضرنى ما زعمت أنه سمّ

ثمّ قال عليه السلام: فغمّض عينيك فغمض ثمّ قال: افتح عينيك ففتح ونظر إلى وجه عليّ عليه السلام فاذا هو أبيض أحمر مشرب الحمرة فارتعد الرجل لما رآه، فتبسّم عليّ عليه السلام وقال: أين الصفّار الذي زعمت أنه بي؟ فقال: والله لكأنّك لست من رأيت قبل كنت مصفاراً و أنت الآن مورّد فقال عليّ عليه السلام: فزال عنى الصّفار بسمّك الذى تزعم أنه قاتلى.

وأمّا ساقاى هاتان ومدّ رجليه و كشف عن ساقيه، فانّك زعمت أني احتاج إلى أن ارفق ببدني في حمل ما احمل عليه لئلاّ ينقصف السّاقان و أنا اريك أنّ طبّ الله عزّ وجلّ طبّ خلاف طبّك، وضرب بيده إلى اسطوانة خشب عظيمة على رأسها سطح مجلسه الذى هو فيه وفوقه حجرتان احديهما فوق الاُخرى و حرّكها فاحتملها فارتفع السّطح والحيطان وفوقهما الغرفتان.

فغشى على اليوناني فقال أمير المؤمنين عليه السلام: صبّوا عليه ماء فصبّوا عليه ماء فأفاق وهو يقول: والله ما رأيت كاليوم عجباً، فقال له عليّ عليه السلام هذه قوّة السّاقين الدّقيقين واحتمالهما أفي طبك هذا يا يوناني.

فقال اليوناني: أمثلك كان محمّد؟ فقال عليّ عليه السلام: وهل علمي إلاّ من علمه، و عقلي إلاّ من عقله و قوّتى إلاّ من قوّته، لقد أتاه الثقفي و كان أطبّ العرب فقال له صلى الله عليه وآله: إن كان بك جنون داويتك، فقال له محمّد صلى الله عليه وآله أتحبّ أن اُريك آية لتعلم بها غناى عن طبّك وحاجتك إلى طبّي؟ فقال: نعم، قال: أىّ آيةَ تريد؟ قال: تدعو إليّ ذلك العذق (١) وأشار الى نخلة سحوق فدعاها فانقلع أصلها من الأرض

١- العذق بالفتح النخلة بحملها والسحوق من النخلة الطويلة، ق

وهي تخد الأرض خداً حتى وقفت بين يديه، فقال عليه السلام له: أكفاك؟ قال: لا، قال: فتريد ماذا؟ قال: تأمرها أن ترجع إلى حيث جائت منه وتستقر في مقرها الذي انقلعت منه، فأمرها، فرجعت واستقرت في مقرها.

فقال اليوناني لأمير المؤمنين عليه السلام: هذا الذى تذكره عن محمد غايب عني، وأنا أقتصر منك على أقل من ذلك، أنا أتباعد عنك فادعنى و أنالاأختار الاجابة، فان جئت بي إليك فهو آية.

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: هذا إنما يكون آية لك وحدك لأنك تعلم من نفسك أنك لم ترده و إنني لازلت اختيارك من غير أن باشرت منى شيئاً أو ممن أمرته بأن يباشرك، أوممن قصد إلى اجبارك و ان لم امره الا ما يكون من قدرة الله القاهرة و أنت يا يوناني يمكنك ان تدعى ويمكن غيرك أن يقول انى واطاتك على ذلك، فاقترح ان كنت مقترحاً ماهو آية لجميع العالمين.

قال اليوناني إن جعلت الاقتراح إلي فأنا أقترح أن تفصل أجزاء تلك النخلة وتفرقها وتباعد ما بينها ثم تجمعها وتعيدها كما كانت.

فقال علي عليه السلام: هذه آية وأنت رسولي إليها يعني إلى النخلة فقل لها: إن وصي محمد رسول الله صلى الله عليه وآله يأمر أجزائك أن تفترق وتتباعد.

فذهب فقال لها: فتفاصلت وتهافتت وتناثرت وتصاغرت أجزائها حتى لم ير لها عين ولا أثر حتى كأن لم تكن هناك نخلة قط.

فارتعدت فرائص اليوناني وقال: يا وصي محمد رسول الله قد أعطيتني اقتراحي الأول فاعطني الآخر فأمرها أن تجتمع وتعود كما كانت.

فقال على عليه السلام: أنت رسولي اليها فعد فقل لها: يا أجزاء النخلة إن وصي محمد رسول الله يأمرك أن تجتمعي وأن تعودى كما كانت.

فنادى اليوناني فقال ذلك: فارتفعت في الهواء كهيئة الهباء المنثور ثم جعلت تجتمع جزء جزء منها حتى تصور لها القضبان و الأوراق واصول السعف و شماريخ الاعذاق ثم تألفت وتجمعت واستطالت وعرضت واستقر أصلها في مستقرها وتمكن

عليها ساقها وترفت على الساق قضبانها وعلى القضبان أوراقها و في اكمتها أعذاقها وكانت في الابتداء شماريخها متجرّدة لبعدها من أوان الرّطب والبسر والخلال.

فقال اليوناني : واخرى أُحبّ أن تخرج شماريخها خلالها وتقلّبهامن خضرة إلى صفرة وحمرة وترطيب وبلوغ أناه لتأكل و تطعمني ومن حضرك منها

فقال عليّ عليه السلام : أنت رسولي اليها بذلك فمر هابه .

فقال لها اليوناني يأمرك أمير المؤمنين عليه السلام بأن تظهري لنا رطباً فأخلت ، وأبسرت و اصفرت واحمرت وترطبت وثقلت اعذاقها برطبها.

فقال اليوناني : وأُخرى أُحبّها أن تقرّب من بين يدى أعذاقها أوتطول يدى لتناولها و أحبّ شيء إلى أن تنزل إلى احديها و تطول يدى إلى الأُخرى الّتي هي اختها .

فقال أمير المؤمنين عليه السلام : مد اليد التي تريد أن تناولها وقل يا مقرّب البعيد قرّب يدي منها ، واقبض الأُخرى التي تريد أن ينزل العذق اليهاوقل يا مسهّل العسير سهّل لى تناول مايبعد منها ، ففعل ذلك وقاله : فطالت يمناه فوصلت إلى العذق ، وانحطت الاعذاق الاخر فسقطت على الأرض وقد طالت عراجينها

ثمّ قال أمير المؤمنين عليه السلام : إنّك إن أكلت منها ولم تؤمن بمن أظهر لك عجايبها عجّل الله عليك من العقوبة التي يبتليك بها ما يعتبر به عقلاء خلقه وجهّالهم .

فقال اليوناني : إني إن كفرت بعد مارأيت فقد بالغت في العناد وتناهيت في التعرّض للهلاك ، أشهد أنّك من خاصة الله صادق في جميع أقوالك عن الله فأمرني بماتشاء أطعتك .

قال على عليه السلام : آمرك أن تفرد الله بالوحدانية وتشهد له بالجود و الحكمة وتنزّهه عن العبث والفساد، وعن ظلم الاماء والعباد ، وتشهدأنّ محمداً الذي أناوصيّه سيّدالأنام ، وأفضل رتبة اهل الاسلام « دارالسلام خ » ، وتشهدأنّ عليّا الذي أراك ما أراك ، و أولاك من النّعم ما أولاك خيرخلق الله بعد محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وأحقّ

خلق الله بمقام محمد صلى الله عليه وآله بعده وبالقيام لشرايعه وأحكامه، وتشهد أن أوليائه أولياء الله وأعدائه أعداء الله، و أنّ المؤمنين المشاركين لك فيما كلفتك المساعدين لك على ما به أمرتك خير امة محمد صلى الله عليه وآله وصفوة شيعته.

وآمرك أن تواسي اخوانك المطابقين لك على تصديق محمد صلى الله عليه وآله وتصديقي، والانقياد له ولي ممّا رزقك الله وفضّلك على من فضّلك به منهم، تسدّ فاقتهم، وتجبر كسرهم، وخلّتهم، ومن كان منهم في درجتك في الايمان ساويته في مالك بنفسك ومن كان منهم فاضلا عليك في دينك آثرته بمالك على نفسك حتى يعلم الله منك أنّ دينه آثر عندك من مالك، وإنّ أوليائه أكرم عليك من أهلك وعيالك.

و آمرك ان تصون دينك وعلمنا الذي أودعناك و أسرارنا التي حملناك و لا تبد علومنا لمن يقابلها بالعناد و يقابلك من أجلها بالشتم واللعن والتناول من العرض والبدن ولا تفش سرّنا إلى من يشنع علينا وعند الجاهلين بأحوالنا ويعرّض أوليائنا لبوادر الجهال.

و آمرك أن تستعمل التّقية في دينك فانّ الله عزّ وجلّ يقول:

«لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً»

وقد أذنت لك في تفضيل أعدائنا إن ألجأك الخوف إليه، وفي إظهار البرائة منا إن حملك الوجل عليه، وفي ترك الصلاة المكتوبات إذا خشيت على حشاشتك الآفات و العاهات، فانّ تفضيلك أعدائنا علينا عند خوفك لاينفعهم ولايضرّنا، وإنّ إظهار برائتك منّا عند تقيّتك لا يقدح فينا ولا ينقصنا، و لأن تتبرّء منّا ساعة بلسانك و أنت موال لنا بجنانك، لتبقى على نفسك روحها التي بها قوامها ومالها الذي به قيامها وجاهها الذي به تماسكها وتصول من عرف بك وعرفت به من أوليائنا وإخواننا و أخواتنا من بعد ذلك بشهور وسنين إلى ان يفرّج الله تلك الكربة و تزول تلك النعمة فانّ ذلك أفضل من أن تتعرّض للهلاك، وتنقطع به عن عمل في الدّين وصلاح

اخوانك المؤمنين .

وإيّاك ثمّ إيّاك أن تترك التقية التي أمرتك بها ، فانك شايط بدمك و دماء إخوانك ، معرّض لنعمك ونعمتهم على الزّوال ، مذلّ لك ولهم في أيدى أعداء دين الله ، و قد أمرك الله باعزازهم ، فانك إذا خالفت وصيّتي كان ضررك على نفسك وإخوانك أشدّ من ضرر الناصب لنا الكافر بنا .

وقد ذكرت الرواية بتمامها على طولها لاشتمالها على مناقب دثرة و فوائد جمّة ، وتضمّنها توضيح الطب الالهي .

ثمّ انه عليه السلام لماوصف نفسه بدورانه بطبّه وتتبّعه بدوائه مواضع الغفلة ومواطن الحيرة ، و تفقّده حال مرضاء القلوب و الأفئدة أردفه بتوبيخ الغافلين الحائرين الجاهلين المفتونين بعدم رجوعهم إليه وتداويهم به و اهتدائهم بأنواره و أخذهم من علومه وحكمه وبقائهم على مرضهم وابتلائهم بالآلام والأسقام فقال عليه السلام :

(لم يستضيئوا بأضواء الحكمة) أى لم يكتسبوا شيئامن أنوار العلوم والأخلاق الفاضلة (ولم يقدحوا بزناد العلوم الثاقبة) أى لم يستخرجوا المطالب الحقّة بالعلوم المضيئة استخراج النّار بالزناد (فهم في ذلك) المعنى أى في عدم الاستضائة والقدح (كالأنعام السّائمة) في الغفلة والانخراط في سلك الغضب والشهوة بل هم أضلّ سبيلا (والصخور القاسية) في القساوة وعدم اللّين بسماع الآيات الحقة كماقال تعالى:

«ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً»

ثمّ قال عليه السلام (قد انجابت السّرائر لأهل البصاير) أى أنكشفت ، قال العلاّمة المجلسيّ (ره) : والمراد بالسرائر ما أضمره المعاندون للحقّ في قلوبهم من اطفاء نور الله وهدم أركان الشريعة ، وقال الشارح البحرانيّ : اشارة إلى انكشاف مايكون بعده لنفسه القدسيّة ولأهل البصائر من استيلاء بني امية وعموم ظلمهم أوانكشاف أسرار الشريعة لأهلها .

(ووضحت محجّة الحقّ لخابطها) أى لمن سارفيها على غيرهدى ، ولعلّ

المراد به الاشارة إلى عدم العذر للخابطين في خبطهم وجهالاتهم مع وضوح معالم الدّين والتنبيه على أنّ ضلالهم ليس لخفاء الحقّ ، بل للاصرار على الشّقاق والنفاق .

(وأسفرت الساعة عن وجهها) وهذه الفقرة وما يتلوها واردة في مقام التحذير والانذار بقرب القيامة وشبهها بانسان مقبل و أثبت لها الوجه الذي هو من خواصّ المشبّه به على سبيل الاستعارة التخييلية ، فانّ أول مايبدو من الشخص المقبل وجهه وذكر الاسفار ترشيح .

(وظهرت العلامة لمتوسّمها) أى لمتفرّسها قال المجلسيّ (ره) : والمراد باسفار الساعة وظهور العلامة قرب القيامة بعدم بقاء نبيّ ينتظر بعثته وظهور الفتن والوقايع التي هي من أشراطها.

(مالى أراكم أشباحاً بلا أرواح وأرواحاً بلا أشباح) هذا الكلام يفسّر بوجوه أحدها أنّ المراد بالفقرة الأولى تشبيههم بالجمادات والأموات في عدم انتفاعهم بالعقل و عدم تأثير المواعظ فيهم كما قال تعالى : « كأنّهم خشب مسنّدة » ، وبالفقرة الثانية التنبيه على خفتهم وطيشهم .

الثّاني أنّ المراد الاشارة إلى قصورهم عما يراد بهم من القيام بأمر الجهاد و التنبيه على أنّ بعضهم بمنزلة الميّت و الجماد و كجسد بلا روح وبعضهم له عقل و فهم ولكن لا قوّة له على الحرب كروح بلا جسد ، فانّ الروح غير ذات الجسد ناقصة عن الاعتماد والتّحريك اللّذين كانا من فعلها ، حيث كانت تدبّر الجسد فالمقصود أنّ الجميع عاطلون عمّا يراد منهم .

الثالث أنّه كناية عن عدم نهوض بعضهم إلى الحرب دون بعض إذا دعوا إليه كما يقوم البدن بدون الرّوح والرّوح بدون البدن.

الرّابع أنّ المراد أنّهم إذا خافوا ذهلت عقولهم وطارت ألبابهم وكانوا كأجسام بلا أرواح ، وإذا آمنوا تركوا الاهتمام بأمورهم كأنهم أرواح لا تعلّق لها بالأجسام .

(ونسّاكا بلا صلاح) أى عبّاداً ليست عبادتهم على وجه الخلوص و بالوجه المأمور به مقرونة بالشرايط المعتبرة ، فانّ منها معرفة الامام وطاعته .

(وتجاراً بلا أرباح) لعدم ترتّب الثواب أو المنفعة على أعمالهم (وأيقاظا نوّماً) أى أيقاظاً بأجسامهم و نوّما بنفوسهم في مراقد الطبيعة و مماهد الغفلة (و شهوداً غيّباً) أى شاهدين بأبدانهم غائبين بعقولهم عن التّفطن للمطالب الحقة و التلقّى لأنوار الهداية (وناظرة عميا) أى ناظرة الأبصار عمياً بالبصاير (وسامعة صمّاً) أى سامعة بالآذان صمّا بالقلوب (وناطقة بكماً) أى ناطقة بالألسن الظاهر بكماً بالمشاعر الباطنة .

واستعارة لفظ العمى و الصمّ و البكم لهم مع توصيفهم بأضدادها باعتبار تقصيرهم و قصورهم عن النظر في آيات الله و السّماع لنداء الله و القول بكلام الله فهؤلاء حيث لم ينتفعوا بالأبصار و الألسن و الآذان صاروا بمنزله : صمّ بكم عمى فهم لا يعقلون .

الترجمة

و از جمله خطب شريفهٔ آن إمام مبين وحبل الله المتين است ، وآن ازجمله خطبهائيست كه ذكر فرموده در آن حوادث روزگار و فتنهاى خونخوار را چنانچه فرموده :

حمد بيقياس معبود بحق را سزاست كه ظاهر است وهويدا بخلق خود بسبب ايجاد فرمودن مخلوقات خود ، وآشكار است ازبراى قلوب منكرين بادليلهاى روشن ومتين خود ، خلق كرد مخلوقات را بدون فكر ورويّه ازجهة اينكه فكرها لايق نيست مگر بصاحبان قلبها ونيست خداوند متعال صاحب قلب درنفس خود ، و نافذ شد ودريد علم اوباطن آنچه كه غايب است از امور مستوره ، واحاطه كرد به پنهانى عقيدهاى غير ظاهره .

بعض ديگر از اين خطبه در ذكر اوصاف حضرت خاتم الأنبياء عليه آلاف التحية والثنا است چنانچه ميفرمايد :

اختيار نمود حضرت عزّت آن جناب راازشجرهٔ طيبه پيغمبران ، وازچراغدان روشنى وازچنين مكان عالى وازنافهٔ مكّه معظمه واز چراغهاى تاريكى وظلمت واز

چشمه‌های علم وحکمت.

بعض دیگر ازاین خطبه اشاره است بفضایل خود وملامت اصحاب میفرماید طبیبی است حاذق که بسیار گردنده است باطب خود در حالتی که محکم نموده مرهمهای خودرا، وگرم نموده آلتهای داغ خودرا میگذاردآن طبیب طب خودرا بمحلي که حاجت بوده باشد بآن از قلبهای کور وگوشهای کر و زبانهای گنك، تتبع کننده‌است آن طبیب بدوای خود محلّهای غفلت وموطنهای حیرت را کسب روشنی‌نکرده‌اند ایشان بروشنیهای حکمت وعرفان، وآتش نیفروخته‌اند بآتش زنه‌های علمهای درخشان، پس ایشان دراین ظلمت وغفلت مانند چهارپایان چرا کننده هستند، ومثل‌سنگهای‌سخت‌میباشند.

بتحقیق که منکشف ظاهرشد سرها بجهة أهل بصیرت‌ها، وواضح وروشن گردید جادّه حق ازبرای خبط کننده گمراه، وکشف نقاب نمود قیامت از روی خود، وظاهر گشت‌علامت‌قیامت‌ازبرای‌دریابنده آن بفراست.

چیست مرا که میبینم شما را قالبهای بی‌روح، وروحهای بی‌غالب، و عبادت کنند گان بیصلاحیت، وتجارت کنند گان بی‌منفعت،وبیداران‌خواب رفته، وحاضران غایب شونده، وبینایان کور، وشنوند گان کر، وگویند گان لال، یعني شمابحسب مشاعرظاهره‌بیداروحاضروبصیروسمیع‌وناطق‌میباشید،وبملاحظهٔ‌مشاعرباطنه‌درخواب وغایب‌وکوروکر و لال هستید.

الفصل الثانی

رايَةُ ضَلالَةٍ قَدْ قامَتْ عَلىٰ قُطْبِها، وَتَفَرَّقَتْ بِشُعَبِها، تَكيلُكُمْ بِصاعِها، وَ تَخْبِطُكُمْ بِباعِها،قائِدُها خارِجٌ مِنَ الْمِلَّةِ،قائِمٌ عَلَى الضِّلَّةِ، فَلا يَبْقىٰ يَوْمَئِذٍ مِنْكُمْ إِلّا ثُفالَةٌ كَثُفالَةِ الْقِدْرِ، أَوْ نُفاضَةٌ كَنُفاضَةِ

الْعِكْمِ ، تَعْرُكُكُمْ عَرْكَ الْأَدِيمِ ، وَتَدُوسُكُمْ دَوْسَ الْحَصِيدِ ، وَتَسْتَخْلِصُ الْمُؤْمِنَ مِنْ بَيْنِكُمْ اسْتِخْلَاصَ الطَّيْرِ الْحَبَّةَ الْبَطِينَةَ مِنْ بَيْنِ هَزِيلِ الْحَبِّ .

أَيْنَ تَذْهَبُ بِكُمُ الْمَذَاهِبُ ، وَتَتِيهُ بِكُمُ الْغَيَاهِبُ ، وَتَخْدَعُكُمُ الْكَوَاذِبُ ، وَمِنْ أَيْنَ تُؤْتَوْنَ ، وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ، وَلِكُلِّ غَيْبَةٍ إِيَابٌ ، فَاسْتَمِعُوهُ مِنْ رَبَّانِيِّكُمْ ، وَأَحْضِرُوهُ قُلُوبَكُمْ ، وَاسْتَيْقِظُوا إِنْ هَتَفَ بِكُمْ ، وَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ ، وَلْيَجْمَعْ شَمْلَهُ ، وَلْيُحْضِرْ ذِهْنَهُ ، فَلَقَدْ فَلَقَ لَكُمُ الْأَمْرَ فَلْقَ الْخَرَزَةِ ، وَقَرَفَهُ قَرْفَ الصَّمْغَةِ ، فَعِنْدَ ذٰلِكَ أَخَذَ الْبَاطِلُ مَآخِذَهُ ، وَرَكِبَ الْجَهْلُ مَرَاكِبَهُ ، وَعَظُمَتِ الطَّاغِيَةُ ، وَقَلَّتِ الدَّاعِيَةُ ، وَصَالَ الدَّهْرُ صِيَالَ السَّبُعِ الْعَقُورِ ، وَهَدَرَ فَنِيقُ الْبَاطِلِ بَعْدَ كُظُومٍ ، وَتَوَاخَى النَّاسُ عَلَى الْفُجُورِ ، وَتَهَاجَرُوا عَلَى الدِّينِ ، وَتَحَابُّوا عَلَى الْكَذِبِ ، وَتَبَاغَضُوا عَلَى الصِّدْقِ .

فَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَانَ الْوَلَدُ غَيْظاً ، وَالْمَطَرُ قَيْظاً ، وَتَفِيضُ اللِّئَامُ فَيْضاً وَتَغِيضُ الْكِرَامُ غَيْضاً ، وَكَانَ أَهْلُ ذٰلِكَ الزَّمَانِ ذِئَاباً ، وَسَلَاطِينُهُ سِبَاعاً ، وَأَوْسَاطُهُ أُكَّالاً ، وَفُقَرَاؤُهُ أَمْوَاتاً ، وَغَارَ الصِّدْقُ ، وَفَاضَ الْكَذِبُ ، وَاسْتُعْمِلَتِ الْمَوَدَّةُ بِاللِّسَانِ ، وَتَشَاجَرَ النَّاسُ بِالْقُلُوبِ ، وَصَارَ الْفُسُوقُ نَسَباً ، وَالْعَفَافُ

عَجَباً، وَ لَبِسَ الْاِسْلامُ لَبْسَ الْفَرْوِ مَقْلوُباً .

اللغة

(القطب) حديدة تدور عليها الرّحى و ملاك الأمر و مداره ، و سيّد القوم و (الشعب) بضم الأوّل و فتح الثاني جمع شعبة كغرفة و غرف و هي الطائفة من الشيء ، ومن الشجرة الغصن المتفرّع منها ، و في بعض النسخ لشعبها بفتح الأوّل وسكون الثاني وزان فلس وهى القبيلة العظيمة .

و (الخبط) بالفتح ضرب الشجر بالعصا ليتناثر ورقها ، وخبط البعير الأرض بيده ضربها و (الباع) قدر مدّ اليدين و (ثفالة) القدر بالضمّ ما سفل فيه من الطبيخ و الثفل ما استقرّ تحت الشيء من الكدر و (النفاضة) بالضمّ ما سقط من المنفوض من نفض الثوب حرّكه لينتفض و(العكم) بالكسر العدل ونمط تجعل فيه المرئة ذخيرتها .

و (داس) الرّجل الحنطة دقّها ليخرج الحبّ من السّنبل و (البطينة) السّمينة و (الهزيل) ضدّ البطين و(تاه) يتيه تيها بالفتح والكسر تحيّر و(الغيهب) الظلمة و الشديد السّواد من الليل و (تؤتون) بالبناء على المفعول و (الرّباني) منسوب إلى الربّ و فسّر بالمتألّه العارف بالله ، أو الذي يطلب بعلمه وجه الله ، أو العالم العامل المعلّم و (الرائد) الذى يتقدّم القوم يبصرلهم الكلاء و مساقط الغيث و (الفلق) الشقّ و (الخرزة) محرّكة الجوهر وما ينظم و (قرفت) الشيء قرفا من باب ضرب قشرته .

و (الصمغ) ماينحلب من شجر العضا ونحوها وفي القاموس و لكلّ شجر صمغ و الصمغ العربي غراء القرظ و الواحدة صمغة والجمع صموغ مثل تمر و تمرة وتمور في المثل ، وتركته على مثل مقرف الصمغة، و يروى مقلع لأنّ الصمغة إذا قرفت لم يبق لها أثر .

و (الهدر) ترديد الصوت في الحنجرة من غير شقشقة و (الفنيق) بتقديم النون على الياء وزان أمير الفحل المكرّم لا يوذى لكرامته على أهله ولايركب و (الكظوم) الامساك والسّكوت و (القيظ) بالظاء صميم الصّيف وفي بعض النسخ فيضاً بالضاد أى كثيراً .

و (اكّالا) بالضمّ و التّشديد جمع آكل مثل طلّاب وقال الشّارح المعتزلي بعد روايته أكالا بفتح الهمزة وتخفيف الكاف يقال ما ذقت أكالا أى طعاما ، ثمّ قال: وفي هذا الموضع اشكال لأنه لم ينقل هذا الحرف إلّافي الجحد خاصة كقولهم مابها صافر فالأجود الرّواية الأخرى و هى آكالا بمدّ الهمزة على افعال جمع أكل و هو ما اكل كقفل وأقفال ، وقد روى أُكالا بضم الهمزة على فعال وقالوا إنه جمع أكل كعرق وعراق و ظئر وظؤار إلاّ أنّه شاذّ عن القياس ووزن واحدهما مخالف لوزن اكال لوكان جمعاً و (غار) الماء في الأرض ذهب و (فاض) أى كثر حتى سال .

الاعراب

قوله راية ضلالة خبر لمبتداء محذوف ، و جملة تعركم ، إمّا صفة لراية أوحال من فاعل قامت ، والباء في قوله عليه السلام اين تذهب بكم المذاهب ، للتعدية ، وكذا فيقوله تتيه بكم ، وإن ، فيقوله عليه السلام إنهتف بكم ، بكسر الهمزة شرطية وفي بعض النسخ بالفتح فيكون مصدريّة أى لهتافه بكم ، وفاعل فلق راجع إلى الرائد ، والطّاغية فاعل عظمت و هو مصدر بمعنى الطّغيان وقيل إنه صفة لمحذوف أى الفئة الطّاغية ، وكذا الداعية تحتمل الوجهين .

المعنى

اعلم أنّ هذا الفصل من كلامه عليه السلام منقطع عمّا قبله التقطه السّيد (ره) من كلامه وأسقط ماقبله على ما هو عادته فى الكتاب و لعلّه إشارة إلى مايأتي ويحدث فى آخر الزمان من الفتن كظهور السّفياني و غيره و لما كان المخبر به محقق

الوقوع لكونه مأخوذاً من معدن الرسالة متلقى من الوحي الالهي بدء الكلام بالجملة الماضويّة مقرونة بحرف التحقيق فقال عليه السلام

(راية ضلالة) أي هذه راية ضلالة (قد قامت على قطبها) و هو كناية عن انتظام أمرها (وتفرّقت بشعبها) أي بطوايفها فيكون كناية عن انتشار فتنها في الآفاق و تولّد فتن اخرى عنها أو بفروعها فيكون استعارة تشبيها لها بالشجرة ذات الأغصان المتفرّعة عنها .

وفي شرح المعتزلي ليس التفرّق للرّاية نفسها بل لنصارها وأصحابها ، فحذف المضاف ومعنى تفرّقهم أنهم يدعون إلى تلك الدّعوة مخصوصة في بلاد متفرّقة أي تفرّق ذلك الجمع العظيم في الأقطار واعين إلى أمر واحد انتهى .

أقول : هذا المعنى مبنيّ على رواية شعبها بسكون العين ، وعلى ذلك فلا حاجة إلى تقدير المضاف إذ نصّ معنى الكلام على ذلك أنه تفرّقت راية الضلالة بقبيلتها .

وقوله : (تكيلكم بصاعها) بصيغة المضارع جريا على الأصل لكون المخبر به من الأمور المستقبلة ، و هو استعارة بالكناية ، و المراد به أنها تأخذكم للاهلاك زمرة زمرة كالكيال يأخذ ما يكيل جملة جملة ، أو أنه يقهركم أربابها على الدخول في أمرهم ويتلاعبون بكم يرفعونكم و يضعونكم كما يفعل كيال البرّ به إذا كاله بصاعه ، أو تكيل لكم بصاعها على حذف اللاّم كما في قوله تعالى : و إذا كالوهم ، اى تحملكم على دينها ودعوتها وتعاملكم بما يعامل به من استجاب لها ، أو تفرز لكم من فتنتها شيئاً ويصل إلى كلّ منكم نصيب منها .

(وتخبطكم بباعها) أي تضربكم بيدها كالضارب للشجر بعصاه أو البعير الضارب بيده الأرض و على الوجهين يفيد الذلّة والانقهار ، والتعبير بالباع دون اليد لكونه أبلغ في افادة قوّة الخبط .

(قائدها خارج عن الملّة) أي ملّة الاسلام (قائم على الضلّة) أي مصرّ على الضلال (فلا يبقى يومئذ) أي يوم قيامها على قطبها وتفرّقها بشعبها (منكم إلاّ ثفالة كثفالة القدر) واستعار لفظ الثفالة للبقيّة منهم باعتبار عدم الخير والمنفعة فيهم

وبملاحظة كونهم من الأرذال ليس لهم ذكر بين الناس ولالهم شهرة ولايعتنى بقتلهم كما لا يعتنى بثفالة القدر ولا يلتفت إليها .

و كذلك الكلام في قوله (أونفاضة كنفاضة العكم) والمراد بها مايبقي في العدل بعد التخلية من غبارأوبقية زاد لا يعبأ بهافينتفض (تعركم عرك الأديم) أى تدلككم وتحككم كما يدلك الجلد المدبوغ ويحكّ ، وأراد به تغليب الفتن لهم وتذللهم بها (وتدوسكم دوس الحصيد) أى تدقكم دقّ الزرع المحصود المقطوع و أشار به إلى منتهى ذلّتهم واهانتهم .

(و تستخلص المؤمن) أى تشخصه لنفسه (من بينكم) مثل (استخلاص الطير الحبّة البطينة) السمينة (من بين هزيل الحبّ) والغرض به أنها شخص المؤمن بالقتل والأذى وايقاع المكروه به و تستخلصه من بين ساير الناس بشدّة النكاية و الأذيّة .

ثمّ استفهم عليه السلام عنهم على سبيل التقريع لهم والتوبيخ ببقائهم على ضلالتهم وقال (اين تذهب بكم المذاهب) أى الطرق المنحرفة عن الحقّ ، والمراد بها العقايد الفاسدة ، و اسناد الاذهاب إليها على المجاز مبالغة (و تتيه بكم الغياهب) أى تجعلكم ظلمات الجهالات تائها متحيّراً في بوادى الضّلال (وتخدعكم الكواذب) أى تمكر بكم الامنيات الكاذبة والأوهام الباطلة التي لا أصل لها .

« كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مآءً حَتّيٰ إِذاجاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً».

(من أين تؤتون) أى من أىّ جهة وطريق يأتيكم من يضلّكم من الشّياطين أو تأتيكم تلك الأمراض المزمنة (وأنّى تؤفكون) أى كيف (١) تصرفون عن قصد

١ـ هذه التفاسير مبنية على الاختلاف فى معنى أنّى الاستفهامية فقيل انها بمعنى كيف وقيل بمعنى اين و قيل بمعنى متى و الى كلّ ذهب فريق فى قوله تعالى: نسائكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم و بذلك اختلف آراء الفقهاء فى مسئلة جواز الوطى فى الدبر، منه .

السبيل أو أين تقلبون وتذهبون ، أو متى يكون انصرافكم عن الغفلة والجهالة .

و قوله (فلكلّ أجل كتاب و لكلّ غيبة إياب) يحتمل أن يكون منقطعاً عمّا قبله ويكون بينه وبين ماقبله مايربطه‌به فأسقط السيد (ره) على مجرى عادته وأن‌يكون متّصلا به ، فانه لمااستفهم عن تيههم وانخداعهم وتقلّبهم توبيخاً وتقريعاً و تنبيهاً على غفلتهم عن الحقّ أردفه بذلك توكيداً لما أراد و أشار به الى أنهم ليسوا بمهملين ، بل كلّ ما عملوه في زمان الغفلة محفوظ مكتوب و أنهم ليسوا في الدّنيا بباقين ، و سوف يخرجون منها و ينزعون فيكون تهديداً لهم بالاشارة إلى قرب الموت و أنهم بمعرض أن يأخذهم على غفلتهم ، والمعنى أنه لكلّ أمد ووقت حكم مكتوب على العباد ، ولكلّ غيبة إياب ورجوع .

ثمّ أكّده ثانياً بقوله (فاستمعوا من ربّانيّكم) ای‌اصغوا الحكم والمواعظ وما ينجيكم من الرّدى ويدلّكم على‌الرّشاد من المتألّه العارف بالله المبتغى بعلمه وجه الله سبحانه ، و أراد به‌نفسه‌الشريف (و أحضروه قلوبكم) أراد إقبالهم بكلّهم إليه لا الغيبة بالقلوب و الحضور بالأبدان فقط (و استيقظوا ان هتف بكم) أى استيقظوا من نوم الغفلة إن ناداكم وتنبّهوا من رقدة الضلّة إن دعاكم (وليصدق رائد أهله) أى وظيفة الرائد أن يصدق ، وفي المثل :الرائد لا يكذب أهله .

ولعلّ المراد بالرائد نفسه أى و ظيفتي الصدق فيما اخبركم به ممّا تردون عليه من الامورالمستقبلة في‌الدّنيا والآخرة ، كما أنّ وظيفتكم التوجّه والاستماع واحضارالقلب (وليجمع شمله) أى ما تشتّت من أمره ، و المراد به الأفكاروالعزايم أى يجب علىّ نصحكم وتذكيركم بقلب فارغ من الخطرات والوساوس ، والتوجّه إلى هدايتكم وإرشادكم باقبال تامّ ، ويجوز أن يراد بالشّمل من تفرّق من‌القوم في فيافي الضّلالة (وليحضر ذهنه) فيما يقول ويتفوّه به .

(فلقد فلق) الرائد (لكم الأمر فلق‌الخرزة) أى أوضح لكم أمر الدّين و ما جهلتموه من أحكام الشرع المبين ، أو أمر مايحدث من الفتن ايضاحاً تامّاً ، فأظهر لكم باطن الأمر كما يرى باطن الخرزة بعد شقّها .

(وقرفه قرف الصمغة) أى ألقاه بكلّيته اليكم ولم يدّخر شيئاً عنكم كما أنّ قارف الصمغة لايترك منها شيئاً إذا قرفها ولا يبقى منها أثر بعد قرفها

وقوله عليه السلام : (فعند ذلك) قال الشارح البحراني متّصل بقوله من بين هزيل الحبّ . فيكون التشويش من السيّد (ره) ، وفي البحار و يمكن أن يكون إشارة إلى كلام آخر سقط من البين .

أقول : والأظهر أن يكون الاشارة به إلى ماسبق من الأمور المذكورة ، أى عند ما قام راية الضّلال على قطبها ، و تفرّقت بشعبها ، و عركتكم عرك الاديم ، واستخلصت المؤمن من بينكم استخلاص الطير الحبّ البطين (أخذ الباطل مآخذه) أى ثبت و استحكم (و ركب الجهل مراكبه) أى قوى سلطانه و ظهر شوكته (وعظمت الطّاغية) أى الطّغيان و الضلال أو الفتنة الطاغية (وقلّت الدّاعية)أى الدّعوة إلى الحقّ أوالفرقة الدّاعية إلى الهدى .

(وصال الدّهر) وحمل على أهله (صيال السّبع العقور) تشبيه الدّهر بالسبع في الصّيال باعتبار كونه منشأ لتلك الشرور و المفاسد (و هدر فنيق الباطل بعد كظوم) تشبيه الباطل بالفنيق باعتبار كونه مكرما عند أهله ، و ذكر الهدر والكظوم من باب ترشيح التشبيه وأراد بهما ظهوره بعد خفائه وخمول أهله في زمان ظهور الحقّ وقوّته .

(وتواخى الناس على الفجور) أى كان محبّة بعضهم لبعض واتّصال أحدهم بالآخر على الفجور و اتباع الأهواء (وتهاجروا على الدّين) أى كان مهاجرة بعضهم عن بعض من جهة كون المهجور عنه صاحب معرفة ودين (وتحابّوا على الكذب) و هو من شؤونات التواخي على الفجور (و تباغضوا على الصّدق) و هو من شؤونات التّهاجر على الدّين .

(فاذا كان ذلك) وحدثت تلك الأمور (كان الولد غيظاً) على والده عاقّاً له أو مبغوضاً لوالده لاشتغال كلّ امرء بنفسه من شدّة تلك البلية فيتمنّى أن لايكون له ولد (والمطر قيظاً) قد مرّ أنّ القيظ هو صميم الصّيف قال في البحار فيحتمل

أن يكون المراد تبدّل المطر بشدّة الحرّ أو قلّة المطر أو كثرته في الصّيف دون الرّبيع والشتاء ، أو المراد أنه يصير سبباً لاشتداد الحرّ لكثرته في الصّيف إذ يثور به الأبخرة ويفسد الهواء أو يصير على خلاف العادة سبباً لشدّة الحرّ ، و عن النهاية بعد تفسيره القيظ بما ذكرناه قال : و منه حديث أشراط السّاعة أن يكون الولد غيظاً والمطر قيظا ، لأنّ المطر إنما يراد للنبات وبرد الهواء والقيظ ضدّ ذلك هذا

وعلى ما في بعض النسخ من رواية فيضاً بالضاد فالمقصود كونه كثيراً مجاوزاً عن الحدّ ، لكونه حينئذ مفسداً للزرع والثمار كما هو المشاهد بالتجربة والعيان (وتفيض اللّئام) أي تكثر (فيضاً وتغيض الكرام) أي تقلّ (غيضاً)

ثمّ قسّم أهل ذلك الزّمان بقوله (و كان أهل ذلك الزّمان ذئابا و سلاطينه سباعاً وأوساطه اكالا وفقراؤه أمواتاً) قال البحراني (ره) : أهل كلّ زمان ينقسمون إلى ملوك و أكابر و أوساط و أداني ، فاذا كان زمان العدل كان أهله في نظام سلكه فيفيض عدل الملوك على من يليهم ، ثمّ بواسطتهم على من يليهم حتّى ينتهي إلى أداني النّاس ، وإذا كان زمان الجور فاض الجور كذلك فكانت السّلاطين سباعاً ضارية مفترسة لكلّ ذي سمن وكان أهل ذلك الزمان وأكابره ذئاباً ضارية على أوساط الناس ، وكانت الأوساط اكّالا لهم ، وكانت الفقراء أمواتاً لانقطاع مادّة حياتهم ممّن هو أعلى منهم رتبة ، وتجوّز بلفظ الأموات عن غاية الشدّة والبلاء لكون الموت غاية ذلك إطلاقا لاسم السّبب الغائي على مسبّبه .

(وغار الصّدق) أي قلّ وذهب كالماء الغائر في الأرض (وفاض الكذب) أي كثر وظهر كالماء الفايض السّائل (واستعملت المودّة باللسان وتشاجر الناس بالقلوب) لكثرة النّفاق وغلبة الشقاق (وصار الفسوق نسبا) أي يحصل انسابهم من الزنا ، وقيل أي يصير الفاسق صديقاً للفاسق حتى يكون ذلك كالنّسب بينهم (و) صار (العفاف عجباً) لقلّة وجوده بينهم وندرته .

(ولبس الاسلام لبس الفر و مقلوبا) الموجود في النسخ رفع الاسلام على أنه فاعل لبس فيكون من باب المجاز العقلي ، والمقصود أنهم لبسوا الاسلام كلبس

الفروالمقلوب ، قال المحدّث العلامة المجلسيُّ (ره) : الظاهر أنّ المراد به تبديل شرايع الاسلام وقلب أحكامه واظهار النيات والأفعال الحسنة و إبطان خلافها ، وفي شرح البحراني : لماكان الغرض الأصلي من الاسلام أن يكون باطناً ينتفع بهالقلب ويظهر فيه منفعته ، فقلب المنافقون غرضه واستعملوه بظاهر ألسنتهم دون قلوبهم أشبه قلبهم له لبس الفرو إذ كان أصله أن يكون خمله ظاهراً لمنفعة الحيوان الذى هولباسه فاستعمله الناس مقلوباً ، والله وليّ التوفيق .

الترجمة

اين راية رايت گمراهى است كه قايم شده برمدار خود ، و پراكنده شده با فرعها وشاخهاى خود ، كيل كند شمارا بصاع خود ، و فروكوبد شمارا بادست خود ، كشندهٔ آن رايت خارجست از دين ايستاده است بر گمراهى .

پس باقى نميماند در آنروز از شما مگر دُردى واپس مانده ديك ، ياخورده ريز ته مانده مثل خورده ريز ته مانده جوال ، بمالد شمارا آن رايت مثل ماليدن چرم ، وبكوبد شما را مانند كوفتن زرع درويده در خرمن ، وبر گزيند مؤمن را از ميان شما بجهة انداختن در بلا مثل بر گزيدن مرغ دانه چاق و فربه را ازميان دانـه لاغر .

كجا ميبرد شما را راههاى كج ، و متحيّر ميسازد شمارا ظلمتهاى جهالت ، وفريب ميدهد شمارا آرزوهاى كاذبه ، واز كجا آورده ميشويد،وچه‌طور بر گردانيده ميشويد از جادّهٔ حق ، پس مر هر أجليرا از آجال كتابيست ، و هر غيبت را باز گشتى است .

پس گوش كنيد و بشنويد نصيحت را از رباني خودتان يعني از كسيكه أهل الله است وعارفست بأحكام اللهومرادخودنفس‌نفيس‌آن بزر گوار است، و حاضر نمائيد بسوى آن رباني قلبهاى خودرا ، وبيدار شويد ازخواب غفلت اگرصدا كنند

شمارا وبايد كه راست گويد مرشد قوم بأهل خود ، وبايد كه جمع كند آنمرشد تفرقه خواطر خودرا ، وبايد كه حاضر سازد ذهن خودرا .

پس بتحقيق كه شكافت ازبراى شما كاردين را ، وواضح نمود مثل شكافتن مهره كه ظاهر شود باطن آن ، ومقشّر نمود آنكار را مثل مقشّر نمودن صمغ از درخت ، يعني تمام أمر را بجهة شما القاء نمود وهيچ چيز ازآن فرو نگذاشت چنانچه كسيكه از درخت صمغ را باز گيرد تمامى آن را باز گيرد كه هيچ چيز ازآن باقى نميگذارد .

پس نزد آن حال فرا گيرد باطل محلّ فرا گرفتن خودرا ، و سوار شود جهالت بر مركبهاى خود ، و بزرگ شود طغيان ، و كم شود دعوت بسوى حق ، وحمله آورد روزگارهم چه حملۀ حيوان درّنده گزنده ، و آواز دهد شترنرباطل بعداز سكوت و خواموشى ، و مواخاة و آشتى كنند مردمان برفعل ناشايست ، ومهاجرت ميكنند ودورى ميكنند ازيكديگر بردين ، ودوستي ميكنند بايكديگر بردروغ ، ودشمني كنند برراستي .

پس زمانى كه حال براين منوال باشدميباشد فرزندسبب خشم پدروبارانسبب گرمائى و حرارت ، و بسيار شوند لئيمها بسيار شدنى ، و كم شوند كريمها كم شدنى ، وميباشد أهل آن زمان گرگان و پادشاهي آن زمان درندگان و مردمان ميانهآنزمان طعمههاى ستمكاران ، و فقراى آن زمان مردگان ، ونقصان پذيرد وفروميرود راستى ، وزياد ميشود دروغ وناراستى ، واستعمال كرده ميشود دوستى بزبان ، وتشاجر وتنازعمى كنندمردمانبقلبها درآن أوان،وبگردد فسق فجورنسب و أصل ايشان ، و پاكدامني و عفت مايۀ شگفت و تعجب و ميپوشد اسلام لباس پوستين را در حالتيكه بوده باشد آن پوستين پشت رو كرده شده ، و اين كنايه است از تقلب أحوال دين وتبدّل أحكام شرع مبين ، والله العالم بحقايق كلامِوليه .

و من خطبة له عليه السلام وهى المأة و الثامنة من المختار في باب الخطب

وشرحها فى ضمن فصول :

الفصل الاول

كُلُّ شَيْءٍ خاضِعٌ لَهُ، وَ كُلُّ شَيْءٍ قائِمٌ بِهِ، غِنىٰ كُلِّ فَقيرٍ، وَ عِزُّ كُلِّ ذَليلٍ، وَ قُوَّةُ كُلِّ ضَعيفٍ، وَ مَفْزَعُ كُلِّ مَلْهُوفٍ، مَنْ تَكَلَّمَ سَمِعَ نُطْقَهُ، وَ مَنْ سَكَتَ عَلِمَ سِرَّهُ، وَ مَنْ عاشَ فَعَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَ مَنْ ماتَ فَإِلَيْهِ مُنْقَلَبُهُ، لَمْ تَرَكَ الْعُيُونُ فَتُخْبِرَ عَنْكَ، بَلْ كُنْتَ قَبْلَ الْواصِفينَ مِنْ خَلْقِكَ، لَمْ تَخْلُقِ الْخَلْقَ لِوَحْشَةٍ، وَ لَا اسْتَعْمَلْتَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ، وَ لا يَسْبِقُكَ مَنْ طَلَبْتَ، وَ لا يُفْلِتُكَ مَنْ أَخَذْتَ، وَ لا يَنْقُصُ سُلْطانَكَ مَنْ عَصاكَ، وَ لا يَزيدُ في مُلْكِكَ مَنْ أَطاعَكَ، وَ لا يَرُدُّ أَمْرَكَ مَنْ سَخِطَ قَضائَكَ، وَ لا تَسْتَغْنى عَنْكَ مَنْ تَوَلّىٰ عَنْ أَمْرِكَ، كُلُّ سِرٍّ عِنْدَكَ عَلانِيَةٌ وَ كُلُّ غَيْبٍ عِنْدَكَ شَهادَةٌ، أَنْتَ الْأَبَدُ لا أَمَدَ لَكَ، وَ أَنْتَ الْمُنْتَهىٰ لا مَحيصَ عَنْكَ، وَ أَنْتَ الْمَوْعِدُ لا مَنْجا مِنْكَ إِلّا إِلَيْكَ، بِيَدِكَ ناصِيَةُ كُلِّ دَآبَّةٍ، وَ إِلَيْكَ مَصيرُ كُلِّ نَسَمَةٍ، سُبْحانَكَ ما أَعْظَمَ ما نَرىٰ مِنْ خَلْقِكَ، وَ ما أَصْغَرَ عِظَمَهُ في جَنْبِ قُدْرَتِكَ، وَ ما أَهْوَلَ ما نَرىٰ مِنْ

مَلَكُوتِكَ، وَما أَحقَرَ ذٰلِكَ في ما غابَ عَنّا مِنْ سُلطانِكَ، وَما أَسبَغَ نِعَمَكَ في الدُّنيا، وَما أَصغَرَها في نِعَمِ الآخِرَةِ.

منها: مِنْ مَلائِكَةٍ أَسكَنتَهُمْ سَمٰواتِكَ، وَرَفَعتَهُمْ عَنْ أَرضِكَ، هُمْ أَعلَمُ خَلقِكَ بِكَ، وَأَخوَفُهُمْ لَكَ، وَأَقرَبُهُمْ مِنكَ، لَمْ يَسكُنُوا الأَصلابَ، وَلَمْ يُضَمَّنُوا الأَرحامَ، وَلَمْ يُخلَقُوا مِنْ ماءٍ مَهِينٍ، وَلَمْ يُشَعِّبْهُمْ رَيبُ المَنُونِ، وَإِنَّهُمْ عَلىٰ مَكانِهِمْ مِنكَ، وَمَنزِلَتِهِمْ عِندَكَ وَاستِجماعِ أَهوائِهِمْ فِيكَ، وَكَثرَةِ طاعَتِهِمْ لَكَ، وَقِلَّةِ غَفلَتِهِمْ عَنْ أَمرِكَ، لَوْ عايَنُوا كُنْهَ ما خَفِيَ عَلَيهِمْ مِنكَ، لَحَقَّرُوا أَعمالَهُمْ، وَلَزَرَوا عَلىٰ أَنفُسِهِمْ، وَلَعَرَفُوا أَنَّهُمْ لَمْ يَعبُدُوكَ حَقَّ عِبادَتِكَ، وَلَمْ يُطِيعُوكَ حَقَّ طاعَتِكَ.

اللغة

(لهف) لهفاً من باب فرح حزن و تحسّر، و اللّهوف واللّهيف و اللّهفان واللاّهف المظلوم المضطرّ يستغيث ويتحسّر و (أفلت) الطائر وغيره إفلاتا تخلّص و أفلتّه اذا أطلقته وخلّصته يستعمل لازما و متعدّيا، وفلت فلتا من باب ضرب لغة وفلته أنا يستعمل أيضاً لازماً ومتعدّيا.

و (الناصية) الشعر المسترسل في مقدّم الراس أى شعر الجبهة وقال الأزهريّ منبت الشعر واطلاقها على الشعر مجاز من باب تسمية الحالّ باسم المحلّ و(ماء مهين) أى ضعيف حقير وهى النطفة و (انشعبت) أغصان الشجرة وتشعّبت تفرّقت و(المنون) الدّهر من مننت الشيء قطعته، لأنه يقطع الأعمار و (زرى) عليه زريا من باب رمى

و زرية و زراية بالكسر عابه واستهزء به قال أبوعمر الشيباني: الزاري على الانسان هو الذي ينكر عليه ولا يعدّه شيئاً.

الاعراب

قوله : لم ترك العيون فتخبرعنك ، في بعض النسخ تخبر بالنصب وهو الأظهر وفي بعضها بالجزم ، و الأوّل مبنيّ على كونه منصوبا بان مضمرة وجوبا بعد الفاء السببيّة المسبوقة بالنفى ، والثانى مبنىّ على جعل الفاء لمجرّد عطف ما بعدها على ما قبلها ، فيكون ما بعدها شريكا لما قبلها في الاعراب .

قال في التصريح : و لك في نحو ما تأتيني فاكرمك أن تقدّر الفاء لمجرّد عطف لفظ الفعل على لفظ ما قبلها فيكون شريكه في اعرابه فيجب هنا الرّفع لأنّ الفعل الذي قبلها مرفوع و المعطوف شريك المعطوف عليه و كأنّك قلت ما تأتيني فما اكرمك فهو شريكه فى النفى الداخل عليه .

وإن تقدّر الفاء أيضاً لعطف مصدر الفعل الذى بعدها على المصدر المؤل ممّا قبلها ، ولكن يقدّر النفى منصبّا على المعطوف عليه وينتفى المعطوف لأنه مسبّب عنه وقد انتفى ، والمعنى ما يكون منك اتيان فكيف يكون منّى إكرام .

وقوله عليه السلام : لا يفلتك ، من باب الحذف والايصال أى لا يفلت منك على حدّ قوله :

استغفر الله ذنبا لست محصيه رب العباد اليه الوجه والعمل

أى من ذنب ، وقوله : سبحانك ما اعظم ما نرى ، سبحانك منصوب على المصدر وعامله محذوف وجوبا ، أى أسبّح سبحاناً فحذف الفعل لسدّ المصدر مسدّه و تبعه اللاّم أيضاً في الحذف تخفيفاً فاضيف المصدر إلى كاف الخطاب ، وهذه اللفظة واردة في هذا المقام للتعجّب كما في قوله صلّى الله عليه وآله في رواية أبي هريرة : سبحان الله إنّ المؤمن لا ينجس ، صرّح به في التوضيح ، ومعنى التعجّب انفعال يعرض للنّفس عند الشعور بأمر يخفى سببه ، ولهذا قيل : إذا ظهر السّبب بطل العجب ، و يشترط أن يكون المتعجّب منه عادم النظير أو قليل النّظاير ، فما يكثر نظائره في الوجود لا يستعظم

فلا يتعجّب منه .

قوله عليه السلام ما اعظم ما نرى ، تأكيد للتعجّب ، فانّ ما في ما أعظم تعجّبية أيضاً وماء الثانية موصولة ، و قد طال التشاجر بين علماء الأدبيّة في ماء التّعجب وصيغة أفعل بعدها بعد اتفاقهم على اسميتها و كونها مبتدء ، فالمحكيّ عن سيبويه و جمهور البصريّين أنّها نكرة تامّة بمعنى شيء و ابتدء بها على نكارتها لتضمّنها معنى التّعجب .

قال الرّضيّ (ره) : فانّ التعجّب كما ذكرنا إنّما يكون فيما يجهل سببه فالتنكير يناسب معنى التعجّب ، فكان معنى ما أحسن زيداً ، في الأصل شيء من الأشياء لا أعرفه جعل زيداً حسنا ، ثمّ انتقل إلى إنشاء التعجّب وانمحى عنه معنى الجعل فجاز استعماله في التعجّب عن شيء يستحيل كونه جعل جاعل ، نحو ما أقدر الله وما أعلمه ، وذلك لأنه اقتصر من اللفظ على ثمرته وهى التعجّب من الشيء سواء كان مجعولا وله سبب أولا ، فمامبتداء وافعل فعل ماض خبره وفيه ضمير راجع إلى ماهو فاعله و المنصوب بعده مفعوله ، فعلى ذلك يكون فتحة أفعل فتحة بناء فاعراب ما أحسن زيداً مثل اعراب زيد ضرب عمراً حرفاً بحرف (١) .

وقال الأخفش في أحد قوله إنّ ما موصولة بمعنى الذي ومابعدها من الجملة الفعلية صلة لها لا محلّ لها من الاعراب ، أو نكرة موصوفة بمعنى شيء ومابعدها صفة لها ، فمحلّها رفع تبعاً لمحلّ ما ، وعلى التقديرين فالخبر محذوف وجوباً أى الذي أحسن زيداً أو شيء أحسن زيداً موجود أو شيء عظيم .

واستبعدوه بأنّ فيه التزام وجوب حذف الخبر مع عدم مايسدّ مسدّه ، وبأنه ليس فيه معنى الابهام اللائق بالتعجّب ، وأيضاً إذا تضمّن الكلام افهاماً وابهاماً فالمعتاد تقدّم الابهام ، وفيما ذكره يكون الأمر بخلاف ذلك إذ فيه تقديم الافهام بالصّلة أو الصفة وتأخير الابهام بالتزام حذف الخبر .

١ـ ومذهب السيبويه ضعيف من وجه و هوانّ استعمال ماء نكرة غير موصوفة نادر نحو فنعماهى على قول ولم يسمع مع ذلك مبتداء، شرح الرضى

وذهب الفرّاء و ابن درستويه وربما عزّى إلى الكوفيّين إلى أنّ ما استفهامية مابعدها خبرها .

قال نجم الأئمة و هو قويّ من حيث المعنى ، لأنّه كان جهل سبب حسنه فاستفهم عنه ، وقديستفاد من الاستفهام معنى التعجّب نحو : ماأدراك ما يوم الدّين وأتدرى من هو ، ولله درّه أيّ رجل كان قال ولله غنيّاخيراً أيّمافتى .

و ربما يضعف بأنّ فيه نقل من الاستفهام إلى التعجّب و النقل من انشاء إلى انشاء مما لم يثبت ، هذا .

وبقى الكلام في أفعل و قد ظهر من كلام البصريّين أنه فعل ماض و فتحته فتحة بناءللزومه مع ياءالمتكلم نون الوقاية نحوما أفقرنى إلى رحمةالله وماأحوجنى اليها ، وقال الكوفيّون غير الكسائى(١) إنه اسم وفتحته فتحةاعراب كفتحة عندك في زيد عندك ، ويؤيد قولهم تصغيرهم اياه (٢) في نحوماأحيسنه ومااميلحه قال الشاعر :

يا ما اميلح غزلانا شددن لنا

و اعتذروا عن فتحة الخبر بأنّ مخالفة الخبر للمبتدا تقتضى نصبه و أحسن إنّما هو في المعنى وصف لزيد لا لضمير ما ، فلذلك كان منصوباً ، بيان ذلك .أنّ الخبر إذا كان فى المعنى هوالمبتداء كالله ربّنا أو مشبه به نحو : أزواجه امّهاتهم ، ارتفع ارتفاعه ، وإذا كان مخالفاًله بحيث لايحمل عليه حقيقة أوحكماً خالفه في الاعراب كما في زيد عندك ، والناصب له عندهم معنويّ وهومعنى المخالفة التي اتّصف بها ، ولا حاجة على قولهم إلى شيء يتعلّق به الخبر ، وامّا انتصاب زيدافلمشابهة المفعول به ، لأنّ ناصبه وصف قاصر فأشبه نصب الوجه في قولك زيد حسن الوجه هكذا قال في التوضيح وشرحه .

١- فانه وافق البصريّين فى القول بكونه فعلا ،منه.

٢- واجيب بأن التصغير فى افعل شاذ ووجه تصغيره انه اشبه الاسماء عوما لجموده وانه لا مصدر له واشبه افعل التفضيل خصوصاً بكونه على وزنه وبدلالته على الزيادة ؛منه

و قال نجم ألأئمة بعد حكايـة هذا المذهب أعنى مذهب الـكوفيـّة في أفعل وكونه اسماً كأفعل‌التفضيل : ولولا انفتاح أفعل التعجّب و انتصاب مابعده انتصاب المفعول به لكان مذهبهم جديراً بأن ينصر .

وقد اعتذروا لفتح آخره بكونه متضمنـّا لمعنى التعجّب الذى كان حقيقاً بأن يوضع له حرف كمامرّ في‌بناء اسم الاشارة ، فبنى لتضمنه معنى‌الحرف‌وبنى على الفتح لـكونه أخفّ .

واعتذروالنصب المتعجّب منه بعد افعل بكونه مشابها للمفعول لمجيئه بعد افعل المشابه لفعل مضمر فاعله فموقعه موقع المفعول بـه فانتصب انتصابه فهو نحو قوله :

و لدنا بعده بذناب (١) عيش اجبّ الظّـهر ليس لـه سنام

بنصب الظهر ، وهوضعيف ، لأنّ النّـصب في مثل أجبّ الظهر و حسن الوجه توطئة لصحة الاضافة إلى ذلك المنصوب ولا يضاف أفعل إلى المتعجّب منه هذا .

وقوله عليه‌السلام لم يخلقوا من ماء مهين ، حرف من ابتدائية نشويّة ، و قوله : و انـّهم على مـكانهم ، جملة مستأنفة وخبر إن الجملة‌الشرطية‌الآتية أعني قوله : لو عاينوا آه ، و على في قوله : على مـكانهم ، للاستعلاء المجازى ، و المعنى أنهم حال‌كونهم مستقرّين على مـكانهم المعيّن لهم منك ومنزلتهم الموجودة لهم عندك لوعاينوا ماخفى عليهم لحقّروا أعمالهم .

المعنى

قال الشارح المعتزلی : من أراد أن يتعلّم الفصاحة و البلاغة و يعرف فضل الـكلام بعضهم على بعض فليتأمـّل هذه الخطبة ، فانّ نسبتها إلى كلّ فصيح من الـكلام عدا كلام الله و رسوله نسبة‌الـكواكب المنيرة الفلـكية إلى الحجارة المظلمة الأرضية ، ثمّ لينظر الناظر إلى ما عليها من البهاء و الجلالـة و الرواء

١ـ ذناب كل شيء عقبه والجبّ القطع و بعير أجبّ بيّن الجبب أى مقطوع السنام

والدّيباجة وما يحدثه من الروعة والرهبة والمخافة و الخشية ، حتى لو تليت على زنديق ملحد ومصمم على اعتقاد نفى البعث والنشور ، لهدت قواه ورعبت قلبه ، وأصعقت على نفسه وزلزلت اعتقاده .

فجزى الله قائلها عن الاسلام أفضل ما جزى به ولياً من أوليائه ' فما أبلغ نصرته له تارة بيده وسيفه ، وتارة بلسانه ونطقه ، وتارة بقلبه وفكره .

إن قيل جهاد وحرب فهو سيّد المجاهدين والمحاربين ، وإن قيل وعظ وتذكير فهو أبلغ الواعظين والمذكرين ، وإن قيل فقه وتفسير فهو رئيس الفقهاء والمفسرين وإن قيل عدل وتوحيد فهو إمام أهل العدل والموحّدين ، وليس لله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد .

ثمّ نعود إلى الشرح فنقول : افتتح عليه السلام كلامه بالتوحيد والتنزيه والاجلال وذكر نعوت الجمال والجلال ، وعقّبه بالموعظة والتذكير والانذار والتحذير فقال (كلّ شيء خاشع له) أو خاضع له كما في بعض النسخ ، أى متذلّل معترف بالفاقة إليه سبحانه والحاجة الى تخليقه وتكوينه ، وإن من شي إلاّ يسبّح بحمده .

فالمراد بالخشوع الخضوع التكويني والافتقار الذاتي اللاّزم المهية الممكن مثل نفس الامكان ، هذا .

و قال الشارح البحراني (ره) : الخشوع هنا مراد بحسب الاشتراك اللفظى إذ الخشوع من الناس يعود إلى تطامنهم وخضوعهم لله ، ومن الملائكة دؤبهم في عبادتهم ملاحظة لعظمته سبحانه و من ساير الممكنات انفعالها عن قدرته و خضوعها في رقّ الامكان و الحاجة اليه ، و المشترك و إن كان لا يستعمل في جميع مفهوماته حقيقة فقد بينّا أنّه يجوز استعماله مجازاً فيها بحسب القرينة ، و هى هنا اضافته لكلّ شيء ، أولأنه في قوّة المتعدّد كقوله تعالي : إنّ الله وملائكته يصلّون على النبيّ فكانه قال: الملك خاشع له والبشر خاشع له، انتهى .

أقول : وأنت خبير بما فيه

أمّا أوّلاً فلأنّ كونه من المشتركات اللّفظية ممنوع، بل المستفاد من كلام أكثر

اللّغويين أنّه موضوع لمطلق الخضوع أعني الذلّ والاستكانة ، و ربما يفرّق بينه وبين الخضوع كما في مجمع البحرين وغيره بأنّ الأوّل في البدن والبصر والقلوب والثاني في البدن ، وقال الفيومى خشع خشوعاً خضع وخشع في صلاته ودعائه أقبل بقلبه ، وهو مأخوذ من خشعت الأرض إذا سكنت واطمأنّت ، وقال خضع خضوعاً ذلّ واستكان ، و الخضوع قريب من الخشوع إلاّ أنّ الخضوع أكثر مايستعمل في الاعناق والخشوع في الصوت ، وقال الفيروز آبادى الخشوع الخضوع أوقريب منه أوهوفي البدن والخشوع في الصوت والبصر ، وقال خضع خضوعاً تطامن وتواضع وقريب من ذلك كلام ساير أهل اللّغة .

وعلى قولهم فهوإما من باب الاشتراك المعنوي فيكون استعماله في الانسان والملك وغيرها من باب استعمال العامّ في افراده .

و إما من باب الحقيقة و المجاز إن خصّصناه بذوات الأبدان و الابصار ، فيكون اطلاقه على غيرها مجازاً و استعماله في الجميع بعنوان عموم المجاز ، وعلى أيّ تقدير فالقول بكونه مشتركا لفظياً وتوهّم تعدّد الوضع فيه باطل

و أمّا ثانياً فلأنّ تجويز استعمال اللّفظ المشترك في معانيه المتعدّدة ولو بالمجاز والقرينة خلاف ما عليه المحقّقون من الأصوليّين ، وقد حقّقناه في ديباجة هذا الشرح وفي حواشينا على قوانين الاصول بما لامزيد عليه .

نعم لا بأس بجواز استعماله في معنى عام شامل للمعاني المتعدّدة بعنوان عموم الاشتراك كاستعمال لفظ الأمر في مطلق الطلب الشامل للوجوب والندب على القول بكونه حقيقة فيهما ، كما لا ريب في جواز استعمال اللّفظ في معنى عام شامل لمعناه الحقيقي و المجازي ويسمّى بعموم المجاز كالمثال الذى ذكرناه على القول بكون الأمر حقيقة في الوجوب مجازاً في الندب ، و لا يمكن حمل مراد الشّارح على ذلك ،لمنافاته بقوله : والخشوع هنا مراد بحسب الاشتراك اللّفظي فافهم .

و أمّا ثالثاً فلأنّ جعل خاشع بمنزلة المتعدّد بالعطف قياساً بقوله يصلّون في الآية الشريفة فاسد ، فانّ يصلّون في الآية لفظ جمع وخاشع لفظ مفرد و كون الأوّل في قوّة المتعدّد لا يدلّ على كون الثّاني كذلك مع امكان منع أصل

الدّعوى في الآية أيضاً لاحتمال حذف الخبر فيها أى إنّ الله يصلّى وملائكته يصلّون على حدّ قوله : نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرّأى مختلف

أو كونها من باب عموم الاشتراك بأن يكون معنى يصلّون يعتنون باظهار شرف النبيّ ﷺ و تعظيمه كما فسّرها به الطبرسيّ و البيضاوى وغيرهما على مامرّ تفصيلا وتوضيحاً في ديباجة الشرح •

وهذا كلّه مبنيّ على التنزّل والمماشاة وإلاّ فنقول : إنّ كون الآية بمنزلة المفرد المتكرّر المتعدّد لايوجب الحاقها به في جميع الأحكام ، فانّ المفرد المتكرّر شيء ، ومابمنزلته شيء آخر ، فاطلاق المكرّرات وإرادة المعاني المتعدّدة منها لايوجب جواز إرادة المعاني المتعدّدة مما هو بمنزلتها كما لايخفى .

فقد وضح و اتّضح بما ذكرنا كلّه أنّ الآية الشريفة لا دلالة فيها على جواز استعمال اللفظ المشترك في أكثر من معنى ، وأنّ كلام الامام عليه السلام ليس من هذا القبيل فافهم ذلك واغتنم .

(و كلّ شيء قائم به) لأنّ جميع الممكنات إمّا جواهر أو أعراض ، وليس شيء منها يقوم بذاته في الوجود أمّا الأعراض فظاهر، لظهور حاجتها إلى المحلّ الجوهرى ، وأما الجواهر فلأنّ قوامها في الوجود انما هو بعللها ، وتنتهى إلى المبدء الأوّل و علّة العلل جلّت عظمته فهو إذا الفاعل المطلق الذي به قوام وجود كلّ موجود ، هكذا قال الشارح البحراني ، ثمّ قال : واذ ثبت أنّه تعالى غنىّ عن كلّ شيء في كلّ شيء ثبت أنّ به قوام كلّ شيء فثبت أنّه القيّوم المطلق اذ مفهوم القيّوم هو القائم بذاته المقيم لغيره، فكان هذا الاعتبار مستلزما لهذا الوصف .

(غنى كلّ فقير) قال الشارح : ويجب أن يحمل الفقير على ماهو أعمّ من الفقر المتعارف وهو مطلق الحاجة ليعمّ التمجيد كما أنّ الغنى هو سلب مطلق الحاجة وإذ ثبت أنّ كلّ ممكن فهو مفتقر في طرفيه منته في سلسلة الحاجة إليه وأنّه تعالى المقيم له في الوجود ثبت أنه تعالى رافع حاجة كلّ موجود بل كلّ ممكن ،وهو المراد بكونه غنى له واطلق عليه تعالى لفظ الغنى وإن كان الغنى به مجازاً إطلاقا لاسم السّبب على المسبّب.

(وعزّ كلّ ذليل) يعني أنه سبحانه سبب عزّة كلّ من كان به ذلّة ، لأنّه العزيز المطلق الذي لا يعادله شيء ولا يغلبه شيء ، فكلّ عزّة لكلّ موجود منتهية إليه سبحانه ، وقد سبق تفسير العزيز في شرح الخطبة الرّابعة والسّتين .

(و قوّة كلّ ضعيف) معنى هذه الفقرة كسابقتها ، و قد مرّ تفسير القوى من أسمائه سبحانه في شرح الخطبة الرابعة والسّتين أيضاً ، وروى أنّ الحسن عليه السلام قال : واعجباً لنبيّ الله لوط إذ قال لقومه :

« لَوْ أَنَّ لي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوي إلىٰ رُكْنٍ شَديدٍ » .

أتراه أراد ركنا أشدّ من الله ، و في المجمع عن الصادق عليه السلام لويعلم أيّ قوّة له ، وعن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم رحم‌الله أخي لوطاً لو يدرى من معه في الحجرة لعلم أنّه منصور حيث (حين خ‌ل) يقول ، لوأنّ لى بكم قوّة أوآوى الى ركن شديد ، أيّ ركن أشد من جبرئيل معه في الحجرة ورواه في عقاب الأعمال عن أبي جعفر عليه السلام مثله .

(ومفزع كلّ ملهوف) يعني أنه تعالى ملجأ كلّ مضطرّ محزون حال حزنه واضطراره فيفرّج همّه ويكشف ضرّه ويرفع اضطراره كما قال تعالى :

« أَمَّنْ يُجيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ » وقال : « وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ » .

و هذا العطف يستلزم عموم قدرته وشمول علمه تعالى بشهادة فطرة المضطرّ بنسبة جميع أحوال وجوده إلى جوده وشهادة فطرته أيضاً بعلمه بحاله واطلاعه على ضرورته ووجوه اللهف والاضطرار غير معدودة ، وجهات الحاجة والافتقار غير محصورة ، ولا يقدر الاجابة لها على كثرتها إلاّ الحقّ و القادر المطلق ، وأما غيره سبحانه فانما يكون مفزعاً وملجئاً لمضطرّ لا لكلّ مضطرّ فكونه مفزعا مجاز لا حقيقة واتّصافه به اضافيّ لا حقيقيّ .

فمفزع جميع العباد في الداهية والناوية (١) ليس إلاّ الله الحيّ القيّوم السّميع البصير العالم القادر الخبير المجيب الدّعوات الكاشف للكربات المنجح للطّلبات المنفّس لكلّ حزن وهمّ المفرّج من كلّ ألم وغمّ وقال تعالى :

« وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ » .

يعني إذا كنتم في البحر و خفتم الغرق ذهب عن خواطركم كلّ من تدعونه في حوادثكم إلاّ إيّاه وحده ، فلا ترجون هناك النجاة إلاّ من عنده .

روى في التّوحيد انه قال رجل للصّادق عليه السلام يابن رسول الله صلى الله عليه وآله دلّني على الله ماهو فقد أكثر عليّ المجادلون وحيّروني ، فقال عليه السلام : يا عبدالله هل ركبت سفينة قطّ ؟ قال : بلى ، قال : فهل كسرت بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك ؟ قال : بلى ، قال : فهل تعلّق قلبك هناك أنّ شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلّصك من ورطتك ؟ قال : بلى ، قال الصادق عليه السلام: فذلك الشيء هو الله القادر على الانجاء حين لامنجى وعلى الاغاثة حيث لامغيث .

و (من تكلّم سمع نطقه ومن سكت علم سرّه) يعني أنه سبحانه سميع عليم محيط بما أظهره العبد و أبداه ، خبير بما أسرّه وأخفاه في حالتي نطقه وسكوته ، وهو إشارة إلى عموم علمه وإحاطته سبحانه وعدم التفاوت فيه بين السرّ والاعلان ، والاظهار والكتمان وقد مضى تحقيق الكلام في هذا المعنى في شرح الفصل السادس والسّابع من الخطبة الأولى وفي شرح الخطبة الرابعة والسّتين .

(ومن عاش فعليه رزقه ومن مات فاليه منقلبه) يعني أنه مرجع العباد الأحياء منهم والأموات ، وبه قيام وجودهم حالتي الحياة و الممات ، وتقدّم تحقيق الكلام في الرزق في شرح الفصل الأوّل من فصول الخطبة التسعين .

(لم ترك العيون فيخبر عنك) التفات من الغيبة إلى الخطاب ، يعنى امتنع الرؤية من العيون لك فامتنع اخبارها عنك ، وقد تقدّم بيان وجه امتناع الرؤية في

١ـ الناوية و زان سحاب الداهية .

شرح الخطبة التاسعة والأربعين ، وفي اسناد الاخبار إلى العيون توسّع ، و المراد نفى امكان الاخبار المستند إلى المشاهدة الحسّية عنه تعالى .

(بل كنت قبل الواصفين من خلقك) أى بالذات وا لعلية ، وهو وارد في مقام التعليل لنفى الرؤية .

قال الشارح المعتزلي : فان قلت فأىّ منافاة بين هذين الأمرين أليس من الممكن أن يكون سبحانه قبل الواصفين له، ومع ذلك يدرك بالابصار إذا خلق خلقه ثمّ يصفونه رأى عين

قلت بل ههنا منافاة ظاهرة وذلك لأنه إذا كان قديماً لم يكن جسماً ولا عرضاً وما ليس بجسم ولاعرض يستحيل رؤيته فيستحيل أن يخبر عنه على سبيل المشاهدة

(لم تخلق الخلق لوحشة) لاستحالة الاستيحاش كالاستيناس في حقّه سبحانه حسب ماعرفت تفصيلا في شرح الفصل السادس من فصول الخطبة الاُولى (ولا استعملتهم لمنفعة) تعود اليك و إنما هى عايدة اليهم لنقصانهم في ذاتهم ولو كانت عايدة اليه سبحانه لزم نقصه في ذاته واستكماله بغيره وهو محال ، وقد تقدّم توضيح ذلك في شرح الخطبة الرابعة والستين

و (لا يسبقك من طلبت) أى لا تطلب أحداً فيسبقك ويفوتك (و لا يفلتك من أخذت) أى من أخذته لا يفلت منك بعد أخذه ، والغرض بهذين الوصفين الاشارة إلى كمال قدرته وتمام ملكه ، فانّ ملوك الدّنيا أيّهم فرضت ربما يفوت منهم هارب وينجو من قيد اسرهم المأخوذ بحيلة ونحوها ، وأما الله العزيز القادر القاهر فلا يمكن في حقّه ذلك .

(ولا ينقص من سلطانك من عصاك ولا يزيد في ملكك من أطاعك) و هو تزيد له سبحانه عن قياس سلطانه وملكه بسلطنة ملوك الزّمان ، فانّ كمال سلطان أحدهم إنما هو بزيادة جنوده و كثرة مطيعيه وقلّة مخالفيه وعصاته ، ونقصان سلطانه إنما هو بعكس ذلك ، فأما الحقّ تعالى فلمّا كان سلطانه بذاته لا لغيره مالك الملك يعطى الملك من يشاء و ينزع الملك ممّن يشاء و يعزّ من يشاء و يذلّ من يشاء لم

يتصوّر خروج العاصي بعصيانه عن كمال سلطانه حتّى يؤثر في نقصانه، ولا طاعة المطيع في ازدياد ملكه حتى تؤثر في زيادته •

ومحصّل ذلك كلّه أنه تعالى كامل من جميع الجهات في ذاته وصفاته بذاته ولذاته ولا حاجة له في عزّه وسلطانه إلى الغير، ولا تأثير للغير في ملكه وسلطنته بالنقصان و الزيادة، وإلّا لزم نقصه في ذاته استكماله بغيره، وهو باطل •

(ولا يردّ أمرك من سخط قضائك) المراد بالأمر هنا الأمر التكويني المشار إليه بقوله سبحانه :

« إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

واريد الأمر لكونه بارتفاع الوسايط لابدّ فيه من وقوع المأمور به لامحالة من غير احتمال تمرّد وعصيان وأما الأمر التشريعي كما في قوله :

« فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » و قوله : « وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ » .

ونحوهما فهو لكونه بالواسطة وعلى ألسنة الرّسل والملائكة، فيمكن فيه العصيان وعدم الطّاعة فمعنى قوله : انه لا يردّ أمرك الملزم أى المقدّرات الحادثة على طبق العلم الأزلى من سخط قضائك و كرهه، وقد مرّ في شرح الفصل التاسع من فصول الخطبة الأولى ماله ربط بتوضيح المقام، وفي هذه الفقرة أيضاً دلالة على كمال قدرته و عموم سلطانه لافادته أنّ كلّ ماعلم وجوده فلابدّ من وجوده، سواء كان محبوباً للعبد أو مبغوضاً له كما قال تعالى :

« وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » و قال « إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ » .

وتخصيص السّاخط للقضاء بالعجز عن ردّ الأمر لأنّ من شأنه أن لو قدر على ردّ الأمر والقدر لفعل .

(ولا يستغنى عنك من تولّى عن أمرك) أراد به الأمر التشريعى، ومن المعلوم

أنّ من تمرّد عن أمره و خالفه اشدّ افتقاراً وحاجة إلى غفرانه و رحمته ممن قام بوظايف الطاعة و العبادة ، و الأظهر أن يراد به الأعمّ من ذلك ، ويكون المعنى أنّ من أدبر و تولّى عن حكمه و لم يرض بقضائـه و قدره لا يمكن استغنائه عنه وانقطاع افتقاره منه .

و يوضح ذلك ما رواه الصّدوق في التّوحيد باسناده عن سعد الخفاف عن الأصبغ بن نباته قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام لرجل : ان كنت لا تطيع خالقك فلا تأكل رزقه ، و إن كنت واليت عدوّه فاخرج من ملكه، وإن كنت غير قانع بقضائه وقدره فاطلب ربّا سواه .

(كلّ سرّ عندك علانية و كلّ غيب عندك شهادة) وهما إشارتان إلى عموم علمه وإحاطته ، و قد مرّ ذلك في شرح الفصل السّابع من الخطبة الأولى و نقول هنا مضافا إلى مامرّ : انّ واجب الوجود سبحانه مجرّد غاية التجرّد ، والغيبة والخفاء إنّما يتصوّران بالنسبة إلى القلوب المحجوبة بحجب الطّبيعة وسترات الهيئآت البدنية والأرواح المستولى عليها نقصان الامكان الحاكم عليها بجهل أحوال ما هو أكمل منها ، والواجب تعالى لتجرّده وبساطته ومنتهى كماله لا يحجبه شيء عن شيء وفوق كلّ شيء ليس فوقه شيء حتى يقصر عن إدراكه .

(أنت الأبد فلا أمد لك) أى أنت الدّائم فلا غاية لك يقف عندها وجودك وذلك لاستلزام وجوب الوجود امتناع العدم والانتهاء إلى الغاية ، ويمكن ان يكون إطلاق الأبد عليه سبحانه من باب المجاز مبالغة في الدّوام ، والأصل أنت ذو الأبد على حدّ قوله : فانما هى إقبال وإدبار ، و قوله : فأنت طلاق ، و هذا المجاز شايع في عرف العرب .

(و أنت المنتهى فلا محيص عنك) أى إليه مصير الخلائق ووقوفهم عنده و إليه انتهاؤهم وإيابهم فيجزى كلّ أحد مايستحقّـه من الثواب والعقاب ، فلا محيد عن حكمه ولا مهرب عن أمره ولا معدل يلجئون إليه كما قال تعالى :

« وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ » وقال « إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ »

(و أنت الموعد فلا منجى منك إلاّ إليك) ومعناها قريب من سابقتها أى لامخلص و لا ملجأ لأحد منه سبحانه إلاّ إليه ، و لا عاصم من عذابه إلاّ هو عزّوجلّ فيعصم منه ويرفعه عنه إما بالتوبة والانابة، أو بالمنّ والرّحمة .

(بيدك ناصية كلّ دابّة) أى أنت مالك لها قادر عليها تصرفها كيف تشاء غير مستعصية عليك، فانّ الأخذ بالناصية تمثيل لذلك قال المفسّرون في تفسير قوله سبحانه :

« ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » .

هو تمثيل لغاية التسخير ونهاية التذليل ، وكان العرب إذا اسر الأسير فأرادوا إطلاقه والمنّ عليه جزوا ناصيته فكان علامة لقهره .

وقال الشارح البحراني : و انما خصت النّاصية لحكم الوهم بأنّه تعالى في جهة فوق فيكون أخذه بالناصية ، و لأنها أشرف ما في الدابة.فسلطانه تعالى على الأشرف يستلزم القهر والغلبة وتمام القدرة .

أقول : والأظهر أنّ تخصيصها من جهة جريان العادة بأنّ الممسك للدابة والمريد لتسخيرها إنّما يستمسك و يقبض ناصيتها بيدها ، فأجرى كلامه تعالى و كلام وليّه عليه السلام على ماهو المتعارف المعتاد .

(واليك مصير كلّ نسمة) أى مرجع كلّ نفس ثمّ نزّهه سبحانه وقدّسه عن أحكام الأوهام بكونه تعالى مشابها لمدركاتها فقال: (سبحانك ما أعظم ما نرى من خلقك وما أصغر عظمه في جنب قدرتك) وهو تعجّب في معرض التمجيد من عظم مايشاهد من مخلوقاته تعالى من الأرض والسّماء والجوّ والهواء والنبات والماء والشجر والحجر والشّمس و القمر والانسان والحيوان والبرّ و البحر واللّيل و النّهار و السّحاب والغمام والضّياء والظّلام إلى غير هذه مما لا ينتهي إلى حدّ و لا يستقصى بعدّ ثمّ من حقارة هذه كلّها بالنسبة إلى ما تعتبره العقول من مقدوراته و ما يمكن في

كمال قدرته من الممكنات الغير المتناهية ومن البيّن أنّ قياس الموجود على الممكن ونسبته إليه في العظم والكثرة يستلزم صغره وحقارته

ثمّ قال (و ما أهول مانرى من ملكوتك وما أحقر ذلك فيما غاب عنّا من سلطانك) وهو تعجّب من هول ما وصلت إليه العقول من عظمة ملكوته ثمّ من حقارته بالنسبة إلى ما غاب عنها وخفى عليها ممّا هو محتجب تحت أستار القدرة و حجب العزّة من بدايع الملاء الأعلى وعجائب العالم العلوى وسكّان حظائر القدس .

ثمّ قال (وما اسبغ نعمك في الدّنيا وما أصغرها في نعم الآخرة) وهو تعجّب من سبوغ نعمه على عباده في الدّنيا بما لا تحصى ثمّ من حقارتها بالقياس إلى نعم الآخرة وما أعدّه للمؤمنين فيها من الجزاء الأوفى ، فانّ نسبتها إليها نسبة المتناهى إلى مالايتناهى كماهوظاهر لايخفى .

ثمّ إنّه سلام الله عليه وآله لماافتتح كلامه بذكر أوصاف العظمة والكبرياء للرّب العزيز تبارك وتعالى عقّبه بذكر حالات ملائكة السماء وأنّهم على ما هم عليه من القدس والطهارة والفضايل الجمّة والكمالات الدثرة الّتي فضّلوا بها على الاشباح و الأقران و تميزوا بها عن نوع الانسان ، ومن العلم والمعرفة التي لهم بخالقهم ، والخوف والخشية التي لهم من بارئهم ، والخضوع والخشوع الذى لهم لمعبودهم لم يعبدوه حقّ عبادته ولم يطيعوه حقّ طاعته .

فقال (من ملائكة أسكنتهم سماواتك ورفعتهم عن أرضك) هذامحمول على الأغلب أو المراد أنّ مسكنهم الأصلي هوالسّماء ، فلا ينافي كون بعضهم في الأرض لاقتضاء المصلحة و التّدبير مثل الكرام الكاتبين و المجاورين بمرقد الحسين عليه السلام و نظرائهم .

(هم أعلم خلقك بك) لتجرّدهم و بعد علومهم من منازعة النفس الأمارة التي هى مبدء السّهو والنسيان والغفلة ، فيكونون أبلغ معرفة وأكمل علما (وأخوفهم لك) لأنّ العلم كلماكان أكمل كان الخوف آكد والخشية أشدّ كما قال تعالى :

« إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ » .

قال الطبرسي أى ليس يخاف الله حقّ خوفه و لا يحذر معاصيه خوفاً من نقمته إلاّ العلماء الذين يعرفونه حقّ معرفته وإنما خصّ العلماء بالخشية لأنّ العالم أحذر لعقاب الله من الجاهل ، حيث يختصّ بمعرفة التوحيد و العدل و يصدّق بالبعث والحساب والجنّة و النّار .

(و أقربهم منك) أى من حيث الشرف والرتبة لا بالمكان والمنزلة، لتنزّهه سبحانه عن المحلّ و المكان و تقدّسه من لوازم الامكان ، و غير خفىّ أنّ تفضيلهم على غيرهم في القرب والشرف إنما هو إضافيّ لا حقيقيّ فقد قدّمنا في شرح الفصل الخامس من فصول الخطبة التسعين أنّ بعض أفراد البشر كالنبيّ و الأئمة عليهم السلام أفضل منهم و أشرف ، وقد تقدّم في الفصل المذكور شرح حالات الملائكة مستوفاً، و كذلك في شرح الفصل التّاسع من فصول الخطبة الاُولى من أراد الاطّلاع فليراجع إليه .

وقوله (لم يسكنوا الأصلاب) ومايتلوه من الجملات الثّلاث السّلبية إشارة إلى ارتفاعهم عن النقصانات البشرية ، أى لم يسكنوا أصلاب الآباء (و لم يضمّنوا الأرحام) أى أرحام الاُمّهات يعني لم يخالطوا المحالّ المستقذرة (ولم يخلقوا من من ماء مهين) أى ضعيف حقير (و لم يشعبهم ريب المنون) أى لم يفرّقهم حوادث الدهر، وهو إشارة إلى سلامتهم من الأمراض والأسقام البدنية العارضة للموادّ العنصرية المانعة من الاستغراق التامّ ، و التّوجه الكلّي لشهود أنوار الحضرة الرّبوبية .

(و أنّهم على مكانهم منك و منزلتهم عندك) يعني أنهم على ما هم عليه من القرب و الزلفى (و استجماع أهوائهم فيك) أى كمال محبّتهم لك و رغبتهم و شوقهم اليك (و كثرة طاعتهم لك) بحيث لا يفترون عن تسبيحك ولا يسئمون عن تقديسك (و قلّة غفلتهم عن أمرك) التعبير بقلّة الغفلة لمحض المشاكلة و المقابلة بكثرة الطاعة ، وإلاّ فلا يتصوّر في حقّهم الغفلة كمايدلّ عليه قوله سبحانه :

« فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْئَمُونَ » .

وفي دعاء الصّحيفة العلويّة السجّادية على صاحبها آلاف الصّلاة والسّلام والتحيّة في الصّلاة على حملة العرش: اللّهمّ و حملة عرشك الذي لا يفترون من تسبيحك ولا يسأمون من تقديسك ولا يستحسرون عن عبادتك ولا يؤثرون التقصير على الجدّ في امرك ولا يغفلون عن الوله اليك.

فانّ المقصود ذلك كلّه الاشارة إلى كمال مراتبهم في صنوف العبادات والتأكيد لاستغراقهم في مقام المعرفة والمحبّة وبيان خلوّ عبوديّتهم من النقصانات اللاّحقة، فانّ كلاّ من هذه الصّفات المنفية لو وجد كان نقصاناً فيما يتعلّق به و اعراضاً عن الجهة المقصودة.

وبالجملة فالغرض أنّ هؤلاء الملائكة الرّوحانيّات مع هذه المراتب والكمالات التي لهم (لوعاينوا كنه ما خفي عليهم منك) أي لوعرفوك حقّ معرفتك (لحقروا أعمالهم) علماً منهم بأنها لا تليق بحضرتك (ولزروا على أنفسهم) أي عابوها وعاتبوها لمعرفتهم بكونهم مقصّرين في القيام بوظايف عبوديّتك (ولعرفوا أنّهم لم يعبدوك حقّ عبادتك ولم يطيعوك حقّ طاعتك) لظهور أنّ العبادة والطاعة إنما هي على قدر المعرفة وكلّما كانت المعرفة أكمل كانت العبادة أكمل، فعبادتهم الحالية على قدر معرفتهم الموجودة، فلو ازدادت المعرفة ازدادت العبادة لا محالة.

الترجمة

ازجمله خطب فصيحه آن سرور عالميان ومقتداى آدميانست در ذكر صفات كمال ونعوت جلال خداوند متعال و أوصاف فرشتگان وغرور بندگان بمتاع اين جهان وبيان حشر ونشر انسان وذكر صفات پيغمبر آخر الزّمان عليه وآله أفضل الصّلاة و السّلام چنانچه فرموده:

هرچيز فروتني كننده است برحضرت عزّت، وهرچيز قايم است در وجود بجناب احديت او، توانگرى هرفقير است، وعزّت هرذليل وحقير، وقوّت هرضعيف وناتوان، وپناهگاه هرمضطرّ و محزون، هركس تكلّم نمود شنود او گفتار اورا،

وهر که خاموش شد دانست أسرار اورا ، وهر که زندگاني نماید براواست روزی او ، وهر که وفات نماید بسوی اوست بازگشت او ، ندید تورا چشمها تاخبر دهد ازتو صاحبان دیدها ، بلکه بودی توپیش ازوصف کنندگان ازخلایق خودت ، نیافریدی خلق را ازجهة ترس ووحشت ، و طلب عمل ننمودی از ایشان بجهة جلب منفعت ، پیشي نمیگیرد بتو کسیکة طلب کردی تو اورا ، وخلاصی نیافت از تو کسیکه أخذ نمودی تو اورا ، و کم نمی‌نماید پادشاهی تورا کسیکه معصیت تورا نمود ، وزیاد نمیکند در ملك تو کسیکه اطاعت تورا کرد ، ورد نمیکند أمر تو را کسیکه ناخوش دارد حکم تورا ، ومستغنی نمیباشد ازتو کسیکه رو گردان شود ازفرمان تو ، هرنهاني درنزد توآشکار است ، وهرغایبی درنزد تو حاضر ، توئی صاحب دوام پس هیچ نهایتی نیست تورا ، وتوئی محل نهایت خلایق پس هیچ گریز گاهی نیست ازتو ، وتوئی وعده گاه همه پس جای نجاتي نیست ازتو مگر بسوی تو ، در دست قدرت تست موی پیشاني هرجنبده ، وبسوی تست بازگشت هر نفس

تنزیه میکنم تو را تنزیه کردنی چه بزرگست آنچه که می‌بینیم از مخلوقات ، وچه کوچکست بزرگی آن درجنب قدرت تو ، وچه هولناکست آنچه که مشاهده میکنیم ازپادشاهی تو ، وچه حقیر است این درجنب آنچه که پنهانست ازما درسلطنت تو ، و چه وافر است نعمتهای تو در دنیا ، و چه کوچکست این نعمتها در جنب نعمتهای آخرت .

بعض دیگر از این خطبه درصفت فرشتگان فرموده :

ازملائکه که ساکن نمودی ایشان‌را درآسمانهای خود ، وبرداشتی ایشان‌را از زمین خود ، ایشان داناترین مخلوقات تو است بتو ، وترسنده ترین خلایق است مرتورا ، و مقرّب ترین ایشان است از تو ، ساکن نشده‌اند ایشان درپشت پدران ، و نهاده نشده‌اند در رحمهای مادران ، و آفریده نشده اند از نطفه که ضعیف است وبي مقدار ، وپرا گنده نساخته است ایشان را حوادث روزگار .

وبدرستیکه ایشان درمکان قربی که ایشانرااست از تو ، ومنزلت و مرتبتی که

ایشانراست‌نزد تو ، و کمال‌خواهشهائیست که ایشانراست‌درتو، و کثرت‌عبادتی که ایشان را است‌بتو، و کمی غفلتیکه ایشانراست ازامر تو اگر مشاهده کنند پایان آنچه که پنهانست برایشان درمعرفت ، هرآینه حقیر میشمارند عملهای خودشانرا و هرآینه عتاب مینمایند بر نفسهای خود ، و هرآینه میدانند که ایشان نپرستیده اند تو را حقّ پرستش ، و فرمان نبرده اند تو را همچنانکه لایق فرمان برداری تست .

الفصل الثاني

سُبحانَكَ خالقاً ومَعبُوداً، بِحُسْنِ بَلائِكَ عِنْدَ خَلْقِكَ ، خَلَقْتَ داراً وَجعَلْتَ فيها مَأدَبَةً ، مَشرَباً ، وَمَطعَماً ، وَأزْواجاً ، وَخدَماً ، وَقصُوراً ، وَأنهاراً ، وَزُرُوعاً ، وَثِماراً ، ثُمَّ أرسَلْتَ داعِياً يَدعُو إلَيْها، فَلاَالدّاعي أجابُوا ، وَلاَ فيما رَغَّبْتَ إلَيْهِ رَغِبُوا ، وَلاَ إلى « عَلى خَل » ما شَوَّقْتَ إلَيْهِ اشْتاقُوا ، أقبَلُوا عَلى جيفَةٍ قَدِ افْتَضَحُوا بأكلِها ، وَاصْطَلَحُوا عَلى حُبِّها ، وَمَنْ عَشِقَ شَيْئاً أعشى بَصَرَهُ ، وَأمرَضَ قَلبَهُ ، فَهُوَ يَنظُرُ بِعَيْنٍ غَيرِ صَحيحَةٍ ، وَيَسمَعُ بِاُذُنٍ غَيرِ سَميعَةٍ ، قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَواتُ عَقلَهُ ، وَأماتَتِ الدُّنيا قَلبَهُ ، وَوَلِهَتْ عَلَيْها نَفسَهُ ، فَهُوَ عَبدٌ لَها ، وَلِمَنْ في يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنها ، حَيْثُما زالَتْ زالَ إلَيْها ، وَحَيْثُما أقبَلَتْ أقبَلَ عَلَيْها ، لاَيَنزَجِرُ مِنَ اللهِ بِزاجِرٍ ، وَلاَ يَتَّعِظُ مِنْهُ بِواعِظٍ ، وَهُوَ يَرَى المَأخُوذينَ عَلَى الغِرَّةِ ، حَيْثُ لاَ إقالَةَ وَلاَ رَجعَةَ ، كَيْفَ نَزَلَ بِهِمْ ما كانُوا

يَجْهَلُونَ ، وَجَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيا ما كانُوا يَأْمَنُونَ ، وَقَدِمُوا مِنَ الْآخِرَةِ عَلىٰ ما كانُوا يُوعَدُونَ .

فَغَيْرُ مَوْصُوفٍ ما نَزَلَ بِهِمْ، اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ ، وَحَسْرَةُ الْفَوْتِ ، فَفَتَرَتْ لَها أَطْرافُهُمْ، وَتَغَيَّرَتْ لَها أَلْوانُهُمْ، ثُمَّ ازْدادَ الْمَوْتُ فِيهِمْ وُلُوجاً ، فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ مَنْطِقِهِ ، وَإِنَّهُ لَبَيْنَ أَهْلِهِ ، يَنْظُرُ بِبَصَرِهِ ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنِهِ ، عَلىٰ صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ ، وَبَقاءٍ مِنْ لُبِّهِ ، يُفَكِّرُ فِيمَ أَفْنىٰ عُمْرَهُ، وَفِيمَ أَذْهَبَ دَهْرَهُ، وَيَتَذَكَّرُ أَمْوالاً جَمَعَها ، أَغْمَضَ فِي مَطالِبِها ، وَأَخَذَها مِنْ مُصَرَّحاتِها وَمُشْتَبِهاتِها ، قَدْ لَزِمَتْهُ تَبِعاتُ جَمْعِها ، وَأَشْرَفَ عَلىٰ فِراقِها ، تَبْقىٰ لِمَنْ وَراءَهُ ، يُنَعَّمُونَ فِيها ، وَيَتَمَتَّعُونَ بِها ، فَيَكُونُ الْمَهْنَأُ لِغَيْرِهِ ، وَالْعِبْءُ عَلىٰ ظَهْرِهِ ، وَالْمَرْءُ قَدْ غَلِقَتْ رُهُونُهُ بِها ، فَهُوَ يَعَضُّ يَدَهُ نَدامَةً عَلىٰ ما أَصْحَرَ لَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنْ أَمْرِهِ ، وَيَزْهَدُ فِيما كانَ يَرْغَبُ فِيهِ أَيّامَ عُمْرِهِ ، وَيَتَمَنّىٰ أَنَّ الَّذي كانَ يَغْبِطُهُ بِها ، وَيَحْسُدُهُ عَلَيْها قَدْ حازَها دُونَهُ .

فَلَمْ يَزَلِ الْمَوْتُ يُبالِغُ فِي جَسَدِهِ ، حَتّىٰ خالَطَ لِسانُهُ سَمْعَهُ، فَصارَ بَيْنَ أَهْلِهِ ، لا يَنْطِقُ بِلِسانِهِ، وَلا يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ ، يُرَدِّدُ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ فِي وُجُوهِهِمْ، يَرىٰ حَرَكاتِ أَلْسِنَتِهِمْ ، وَلا يَسْمَعُ رَجْعَ كَلامِهِمْ ، ثُمَّ ازْدادَ

أَلمَوْتُ الْتِياطاً ، فَقَبَضَ بَصَرَهُ كَمَا قَبَضَ سَمْعَهُ ، وَخَرَجَتِ الرُّوحُ مِنْ جَسَدِهِ ، فَصارَ جِيفَةً بَيْنَ أَهْلِهِ ، قَدْ أَوْحَشُوا مِنْ جانِبِهِ ، وَتَباعَدُوا مِنْ قُرْبِهِ ، لا يُسْعِدُ باكِياً ، وَلا يُجِيبُ داعِياً ، ثُمَّ حَمَلُوهُ إِلىٰ مَخَطٍّ مِنَ الأَرْضِ ، فَأَسْلَمُوهُ فِيهِ إِلىٰ عَمَلِهِ ، وَانْقَطَعُوا عَنْ زَوْرَتِهِ .

اللغة

(المأدبة) بفتح الهمزة وضمّها وزان مسعدة ومكرمة طعام صنع لدعوة أو عرس من أدب، فلان أدبا من باب ضرب إذا عمل مأدبة و (وله) الرّجل من باب ضرب ومنع و حسب اذا تحيّر من شدّة الوجد و في بعض النسخ ولهت بالتضعيف و نصب نفسه على المفعول و (الغرّة) بكسر الغين المعجمة الاغترار و الغفلة يقال اغترّه فلان أى أتاه على غرّة منه و (أطراف) البدن الرأس واليدان والرّجلان و (ولج) يلج ولوجا أى دخل و (المصرّح) خلاف المشتبة وهو الظاهر البيّن و (التبعات) جمع التبعة وهو الاثم ،

و (المهنأ) المصدر من هنأ الطعام يهنأ و هنوء يهنوء بالكسر والضم إذا صار هنيئاً و (العبء) الثقل و (أصحر) أى ظهر وانكشف واصله من أصحر القوم اذا برزوا من المكمن الى الصحرا و (رجع) الكلام ما يتراجع منه و (الالتياط) الالتصاق و (الاسعاد) الاعانة و (المخطّ من الأرض) بالخاء المعجمة كناية عن القبر يخط أولاثمّ يحفر ، وفي بعض النسخ بالحاء المهملة وهو المنزل من حطّ القوم إذا نزلوا .

الاعراب

خالقاً ومعبوداً منصوبان على الحال من كاف الخطاب في سبحانك ، والعامل فيهماهو المصدر لتضمّنه معنى الفعل ويحتملان الانتصاب على التميز .

قال الشارح المعتزلي : والباء في قوله بحسن بلائك ، للتعليل كقوله تعالى: ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ ، أى لأنّهم ، فتكون متعلّقة بما في سبحانك من معنى الفعل أى اُسبّحك لحسن بلائك ، و يجوز أن تتعلّق بمعبود أى يعبد لذلك ، انتهى .

والأظهر أن تكون متعلّقة بقوله خلقت ، وتقديمها عليه للتوسّع ، و المعنى خلقت داراً بسبب حسن بلائك كما تقول ضربت زيداً بسوء أدبه ، وقوله مأدبة قال الشارح البحراني : المأدبة هنا الجنّة ، والمنصوبات الثمانية مميّزات لتلك المأدبة

أقول : و هو غلط إذالمأدبة سواء اريد بـه معناه الاصلي أو المجازى أعني الجنةلاابهام فيهحتىيحتاج إلىالتميز، بلالظاهرأنّ المرادبه فيالمقاممطلق مايصنع لدعوة منطعام أوغيره .

وانتصابالمنصوباب الثمانية إماعلى أنـّهاعطف بيان كما هومذهبالكوفيّين و جماعة من البصريّين من علماء الأدبيّة حيث جوّزوا عطف البيان في النكرات وجعلوا منه قوله سبحانه : أو كفّارة طعام مسكين ، فيمن نوّن كفّارة .

و إما على البدل كما هو مذهب جمهور البصريّين حيث خصّوا عطف البيان بالمعارف زعماً منهم أنّ البيان بيان كاسمه ، و النكرة مجهولة و المجهول لايبين المجهول .

وفيه أنّ بعض النكرات قد يكون أخصّ من بعض والأخصّ يبيّن غيرالأخصّ كما في كلام الامام عليه السلام ، وقوله : ولا فيما رغبت رغبوا ، الظرف متعلّق برغبوا ، ورغبت صلة ما ، والعايد محذوف بقرينة المقام و دلالة الكلام أى فيما رغبت فيه ، وجملة أقبلوا ، استيناف بيانيّ ، و نفسه بالضمّ فاعل ولهت ، و لمن في يديه ، عطف على لها .

وجملة و هويرى ، منصوبة المحلّ على الحال من فاعل يتّعظ ، و قوله : فغير موصوف ما نزل بهم ، غير بالرّفع خبر مقدّم على مبتدئه أعني ما، الموصولة لافادة الحصر والدّلالة على أنّ غير مانزل قابل لأن يوصف كما في قوله سبحانه : لا فيها

غول ، أى ليس غول في خمور الجنة بخلاف خمور الدّنيا وايراد المسند اليه بلفظ الموصول للتفخيم والتهويل كما في قوله : فغشيهم من اليمّ ماغشيهم .

ووصل جملة اجتمعت لسابقتها لما بينهما من كمال الاتّصال وكون الثانية أو فى بتمام المراد و اقتضاء المقام الاعتناء بشأنه لكونه فظيعاً في نفسه و نظيرها قوله سبحانه :

« أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ » .

فانّ المراد التنبيه على نعم الله ، و الثّانية أو فى بتاديته لدلالتها عليها بالتفصيل ، فالجملة الثانية في المقامين منزّلة منزلة بدل البعض ، وكذلك وصل جملة يفكر لسابقتها لما بينهما من كمال الاتصال أيضاً لكونها من سابقتها بمنزلة التّأكيد المعنوى مثل : لا ريب فيه ، في قوله تعالى : ذلك الكتاب لا ريب فيه ، و وزانهما وزان جائنى زيد نفسه ، وهذا كله من محسّنات البيان وإنما نبّهنا عليه مع عدم مدخلية في الاعراب اشارة إلى بعض وجوه الحسن في كلامه عليه السلام .

المعنى

اعلم أنّ هذا الفصل من كلامه تحذير للمتمرّدين العصاة والمذنبين الغواة ، وتنفير لهم عن الركون إلى الدّنيا و إلى زخارفها و ما فيها ، وتذكير لهم بما يحلّ بساحتهم من سكرات الموت و ينزل بفنائهم من حسرات الفناء و الفوت .

وافتتح بتسبيحه تعالى وتقديسه فقال : (سبحانك خالقاً ومعبوداً) أى أنزّهك تنزيهاً عن الشركاء والأمثال في حالة خلقك ومعبوديّتك لا موجد غيرك ولا معبود سواك (بحسن بلائك عند خلقك خلقت داراً) أى خلقت داراً بسبب ابتلاء عبادك وامتحاناً لهم وتميزاً بينهم و تفرقه بين السّعداء أعنى الطالبين المشتاقين إلى تلك الدار ، وبين الأشقياء و هم الرّاغبون المعرضون عنها ، والمراد بالدّار دار الآخرة ،

ومافى شرح البحراني من أنّ لفظ الدّار مستعار للاسلام باعتبار أنه يجمع أهله ويحميهم كالدّار، لا يخفى بعده والأظهر ما ذكرناه، ويشعر به قوله سبحانه:

« تِلْكَ الدّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذينَ لا يُريدُونَ عُلُوّاً في الأرْضِ وَلا فساداً وَالعاقِبَةُ لِلْمُتّقينَ ».

و يؤيّده قوله (و جعلت فيها مأدبة) فانّه لو أُريد بالدّار الاسلام لابدّ من حمل الظرف أعني قوله: فيها، على المجاز بخلاف ما لو اريد بها الآخرة والأصل في الكلام الحقيقة، و المراد بالمأدبة الجنّة التي هيأت للمتّقين ودعى اليها عباد الله الصّالحون، و أعدّ الله سبحانه لهم فيها ما لا عين رأت و لا اذن سمعت و ما تشتهيه أنفسهم.

(مشرباً ومطعماً) أى شراباً وطعاما (وأزواجاً) من الحور العين (وخدماً) من الولدان المخلّدين (وقصوراً) عالية (وأنهاراً) جارية (وزروعاً) زاكية (وثماراً) طيّبة (ثمّ أرسلت داعياً يدعو) الناس (اليها) إى إلى هذه الدّار أو المأدبة، وأراد بالداعى محمّداً صلّى الله عليه وآله وسلّم أو إيّاه مع ساير الأنبياء.

(فلا الدّاعى أجابوا ولا فيما رغبت اليه) من الدار الآخرة الباقية و نعيمها (رغبوا ولا إلى ماشوّقت اليه) من حور الجنة وقصورها و أنهارها و ثمارها وساير ما اعدّ فيها.

(اشتاقوا اقبلوا على جيفة قدافتضحوا بأكلها) استعار عليه السّلام لفظ الجيفة للدنيا باعتبار نفرة طباع أهل البصيرة و المعرفة عنها و كونها مستقذرة في نظر أرباب اليقين و أولياء الدّين كالجيفة المنتنة التي ينفرّ عنها النّاس و يفرّون منها، أو باعتبار اجتماع أهلها عليها و فرط رغبتهم إليها و كونهم كلّ واحد جذبها إلى نفسه بمنزلة جيفة منبوذة تجتمع عليها الكلاب ويجذبها كلٌّ إليه قال الشاعر:

و ما هى إلاّ جيفة مستحيلة　　عليها كلاب همّهنّ اجتذابها

فان تجتنبها كنت سلماً لأهلها　　وان تجتذ بها نازعتك كلابها

و أما افتضاحهم بأكلها فلانّها بعد ما كانت بمنزلة الجيفة يكون آكلها مفتضحاً بأكلها لا محالة ، وهو ترشيح للاستعارة .

و قوله عليه السلام (و اصطلحوا على حبّها) أى اتفقوا على محبّتها و توافقوا عليها ، فانّ أصل الصلح هو التراضى بين المتنازعين وتجوّز به عن التوافق والاتفاق للملازمة بينهما (و من عشق شيئاً) أى كان مولعاً به شديد المحبّة له ، فانّ العشق هو الافراط في الحبّ والتجاوز عن حدّ الاعتدال .

قال جالينوس الحكيم العشق من فعل النفس وهي كامنة في الدّماغ والقلب والكبد ، وفى الدماغ ثلاث مساكن التخيّل في مقدّمه ، والفكر في وسطه ، والذكر في آخره فلا يكون أحد عاشقا حتى اذا فارق معشوقه لم يخل من تخيّله و فكره و ذكره فيمتنع من الطعام والشراب باشتغال قلبه و كبده من النوم باشتغال الدّماغ بالتخيّل والذكر والفكر للمعشوق ، فيكون جميع مساكن النفس قد اشتغلت به ، ومتى لم يكن كذلك لم يكن عاشقاً .

و كيف كان فالمراد أنّ من أفرط في محبّة شيء (اغشى) ذلك الشيء (بصره و أمرض قلبه) أى يكون فرط حبّه لذلك الشيء مانعاً عن توجّهه الى ما يلزمه التوجّه إليه وحاجباً عن النظر إلى مصالحه وما يلزمه الاشتغال به فيكون غافلا عما عداه ، صارفاً أوقاته بكلّيته إلى هواه ، ويكون (١) عشقه مانعاً عن ادراكه العقول ، و يكون عشقه ايضاً مانعاً عن ادراكه لعيوب المعشوق ، وعن التفاته الى مساويه ، ومن هنا قيل :

وعين الرّضا عن كلّ عيب كليلة كما أنّ عين السّخط تبدى المساويا

و غرضه عليه السلام أنّ أهل الدّنيا لكثرة حبّهم لها و فرط رغبتهم إليها قصرت أبصارهم عن النظر إلى اُخراهم ، ومرضت قلوبهم عن التوجه إلى عقباهم ، وصرفوا

١- قال ارسطو العشق عمى الحسّ عن ادراك عيوب المحبوب وهو من الامراض المعروفة من انواع الماليخوليا الذى هو تشويش الظنون والفكر الى الفساد والخوف وعن الامالى عن المفضل بن عمر قال سألت الصادق (ع) عن العشق فقال (ع) قلوب خلت عن ذكر الله فأذاقها الله حبّ غيره، منه

أوقاتهم بكلّيتها إليها وإلى زخارفها وقنياتها ، غافلين عن ادراك عيوباتها ومساويها ولم يعرفوا أنها غدّارة مكّارة ، غرّارة يونق منظرها ويوبق مخبرها ، ولم تف إلى الآن لأحد من عشّاقها ، ولم تصدق ظنّ أحد من طالبيها وراغبيها

(فهو ينظر بعين غير صحيحة و يسمع بأذن غير سميعة) لغفلته عما سوى المحبوب وعدم تنبّهه بما فيه من العيوب فلا ينظر اليه بنظر البصيرة والاعتبار حتى يبصر ما فيه من المفاسد والمضار ، ولا يستمع إلى المواعظ والزواجر والنواهي والأوامر حتّى يأخذ عدّته ليوم تبلى السرائر .

(قد خرقت الشهوات عقله) شبّه العقل بالثوب اذ كما أنّ الثوب زينة الانسان ووقاية للبدن من الحرّ والبرد فكذلك العقل زينة للمرء ووقاية له من حرّ نار الجحيم يعبد به الرّحمن ويكتسب به الجنان، وجعل عقل الرجل الموصوف بمنزلة ثوب خلق ورشح الاستعارة بذكر الخرق إذ الثوب إذا كان خرقاً خلقاً ممزقاً لا ينتفع به صاحبه فكذلك العقل إذا كان مفرقاً بالشهوات الباطلة مصروفا في اللّذات العاجلة لا ينتفع به فيما خلق لأجله البتة وفي الحقيقة هذه القوّة نكر أو شيطنة وليست بالعقل وإنما هي شبيهة بالعقل .

(وأماتت الدّنيا قلبه) فلا انتفاع له به كميّت لا انفع له (وولهت عليها نفسه) أي صار في فرط محبّته للدّنيا بمنزلة الواله عليها والمفتون بها (فهو عبد لها ولمن في يديه شيء منها) لأنه اذا كانت همته مصروفة اليها و أوقاته مستغرقة في جمعها وجبايتها صار زمام أمره بيدها (حيثما زالت زال اليها وحيثما أقبلت أقبل عليها) كعبد دائر في حركاته وسكناته مدار مولاه بل عبوديته لها أشدّ وأخسّ من عبودية العبد لسيّده ، إذ طاعة العبد وانقياده لسيّده ربما يكون قسريّا وخدمة ذلك لدنياه عن وجه الشّوق والرّغبة والرضاء والمحبة وفي هذا المعنى قال الشاعر :

ما النّاس إلاّ مع الدّنيا وصاحبها فكيف ما انقلبت يوما به انقلبوا
يعظّمون أخا الدّنيا فان و ثبت يوما عليه بما لا يشتهى وثبوا

(لا ينزجر من الله بزاجر ولا يتّعظ منه بواعظ وهو يرى) الكتب الالهية والصحف

السّماويّة و الأخبار النّبويّة المشحونة بذمّ الدّنيا النّاهية عن الركون اليها و الاعتماد عليها ، مضافاً إلى رؤيته المخرجين عن الدّنيا بجبر وقهر ، و المقلعين عنها بكره و قسر (المأخوذين على الغرّة) و حالة الاغترار و الغفلة المشغولين بالدّنيا وشهواتها الغافلين عن هادم اللّذات وسكراته (حيث لا اقالة) لهم عن ذنوبهم (ولا رجعة) لهم إلى الدّنيا ليتداركوا سيئآت أعمالهم .

(كيف نزل بهم) من شدايد الأهوال (ماكانوا يجهلون وجائهم من فراق الدّنيا ماكانوا يامنون و قدموا من) عقبات (الآخرة على ما كانوا يوعدون) فانه لوتفكّر في ذلك و تذكّر ذلك يوشك أن يؤثر فيه و يقلّ فرحه بالدّنيا و شعفه بها .

لأنه بعد ما لاحظ أحوال هؤلاء الماضين وتصوّر تبدّد أجزائهم في قبورهم ، ومحو التراب حسن صورهم ،وأنهم كيف ارملوا نسائهم وايتموا أولادهم و ضيّعوا أموالهم ، و خلت عنهم مجالسهم و مدارسهم ، و انقطعت عنهم آثارهم و معالمهم ، وعرف أنّه عن قريب كائن مثلهم انقلع لا محالة عن هواه وارتدع عن حبّ دنياه

تفانوا جميعاً فما مخبر ... و ماتوا جميعاً ومات الخبر
تروح و تغدو بنات الثرى ... فتمحو محاسن تلك الصّور
فيا سائلى عن أناس مضوا ... أما لك فيما ترى معتبر

لا سيّما لو عمق نظره في ما حلّ بالأموات بعد موتهم ، وما نزل بساحتهم حين موتهم ، لكان ندمه أشدّ وحسرته آكد .

(ف)انه (غيرموصوف مانزل بهم) من الشّدائد والآلام ، ويحتمل أن يكون ضمير بهم راجعاً إلى الذين لم يجيبوا الدّاعي المقدّم ذكرهم بقوله : فلا الدّاعي أجابوا ولا فيما رغبت إليه رغبوا (اجتمعت عليهم سكرة الموت و حسرة الفوت ففترت لها أطرافهم و تغيّرت لها ألوانهم) و ذلك لأنّ ألم النزع يسرى جميع اعضاء البدن ويستوعب الأطراف ويوجب ضعفها وفتورها .

قال الغزالي : واعلم أنّ شدّة الألم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة

إلا من ذاقها ، و من لم يذقها فانما يعرفها بالقياس إلى الآلام التى أدركها ، بيان ذلك القياس أنّ كل عضولا روح فيه فلا يحسّ بالألم ، فاذا كان فيه فالمدرك للألم هو الرّوح فمهما أصاب العضوجرح أوحريق سرى الأثر إلى الروح فبقدرمايسرى إلى الروح يتألّم ، والمؤلم يتفرّق على اللّحم والدم وساير الأجزاء فلا يصيب الرّوح إلاّ بعض الألم ، فان كان في الآلام مايباشر نفس الروح ولا يلاقي غيره ، فما اعظم ذلك الألم وما أشدّ ، و النزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الرّوح ، فاستغرق جميع أجزائه حتى لم يبق جزء من اجزاء المنتشر في أعماق البدن إلاّ و قدحلّ به الألم، فلو أصابته شوكة فالألم الذى يجده إنّما يجرى في جزء من الرّوح يلاقي ذلك الموضوع الذي أصابته الشوكة ، وإنما يعظم أثرالاحتراق لأنّ أجزاء النار تغوص في ساير أجزاءالبدن ، فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهراً و باطناً إلاّ وتصيبه النّار ، فتحسر الأجزاء الرّوحانية المنتشرة في ساير أجزاء اللحم ، وأمّا الجراحة فانّما تصيب الموضوع الذي مسّه الحديد فقط فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار فألم النزع يهجم على نفس الرّوح ويستغرق جميع أجزائه ، فانّه المنزوع المجذوب من كلّ عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل ومن أصل كلّ شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم حتّى قالوا إنّ الموت لأشدّ من ضرب بالسّيف و نشر بالمناشير وقرض بالمقاريض ، لأنّ قطع البدن بالسيف إنما يولمه لتعلّقه بالرّوح فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح ، وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوّته في قلبه وفي لسانه ، وإنّما انقطع صوت الميّت وصياحه مع شدّة ألمه لأنّ الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه وبلغ كلّ موضع منه، فهدّ كلّ قوّة وضعف كلّ جارحة ، فلم يترك له قوّة الاستغاثة .

وإلى ذلك أشار بقوله (ثمّ ازداد الموت فيهم ولوجا فحيل بين أحدهم و بين منطقه) واستعار لفظ الولوج لما يتصوّر من فراق الحياة بعضو عضو ،فأشبه ذلك دخول جسم فى جسم آخر ، والمقصود بذلك شدّة تأثير الموت في أبدانهم و ايجابه لضعف اللّسان عن قوّة النطق والتكلّم .

نعم في روايـة الـكافي باسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال : الحيـاة والموت خلقان من خلق الله فاذا جاء الموت فدخل في الانسان لم يدخل في شيء إلاّ وخرج منه الحياة ,

فانّ ظاهر هذه الرواية مفيدة لـكون الولوج في كلامه مستعملا في معناه الحقيقي اللهمّ إلاّ أن يرتـكب المجاز في ظاهر هذه أيضاً فافهم .

(وانه لبين أهله ينظر) اليهم (ببصره ويسمع) كلامهم (باذنه) ولايتمـكّن من اظهار ما فيه من الشدّة و الحسرة عليهم لمـكان ضعفه و عجزه مع أنه (على صحّة من عقله وبقاء من لبّـه) فهو راغب عن الدّنيا مقبل إلى الآخرة ، مشغول بحاله محاسب على نفسه ، متحسّر على ما قدّمت يداه ، نادم على ما فرّط في جنب مولاه

(يفـكّـر فيم أفنى عمره وفيم أذهب دهره) ويتأثّر على غفلته في أيـّام مهلته (ويتذكّر أموالا جمعها) واستغرق أوقاته فيها (أغمض في مطالبها) وتساهل في اكتسابه أيـّامه وذلك لعدم مبالاته بأنها من حلال أو حرام (وأخذها من مصرّحاتها ومشتبهاتها) أي من وجوه مباحة وذوات شبهة .

كما اشير إليه في النبوى المعروف قال عليه السلام إنما الاُمور ثلاثة : أمر بيّن رشده فيتّبع ، و أمر بيّن غيّه فيجتنب ، وشبهات بين ذلك فمن ترك الشبهات نجى من المحرّمات ومن أخذ بالشّبهات وقع في المحرّمات وهلك من حيث لايعلم .

(قد لزمته تبعات جمعها) و آثام جبايتها (وأشرف على فراقها تبقى لمن ورائه ينعـمّون فيها و يتمتّعون بها) و هم إما أهل طاعة الله فسعدوا بما شقى ، وإمـّا أهل معصيته فكان عونالهم على معصيتهم (فيـكون المهنأ لغيره والعبؤ على ظهره) أي يـكون هنائة تلك الأموال أي كونها هنيئة لغيره ، ووزرها وثقلها على ظهره .

وفي الحديث النبويّ صلّى الله عليه وآله المرويّ عن ارشاد القلوب قال صلّى الله عليه وآله : إذا حمل الميّت على نعشه رفرف روحه فوق النعش وهو ينادى : يا أهلي و ولدي لاتلعبنّ بـكم الدّنيا كما لعبت بي ، جمعته من حلّ وغير حلّ و خلّفته لـكم فالمهنأ لـكم

والتعب عليّ فاحذروا مثل ما قد نزل بي ، ونعم ماقيل :

يمرّ أقاربي جنبات قبرى كأنّ أقاربي لم يعرفوني

وذو الميراث يقتسمون مالي وما يألون أن جحدوا ديوني

وقد أخذوا سهامهم وعاشوا فيالله أسرع ما نسوني

و قوله عليه السلام (و المرء قد غلقت رهونه بها) قال الشارح المعتزلي : معناه أنه لما كان قد شارف الرّحيل وأشفى على الفراق صارت تلك الأموال التى جمعها مستحقّة لغيره ولم يبق له فيها تصرّف ، وأشبهت الرّهن الذى غلق على صاحبه ، فخرج عن كونه مستحقاله وصار مستحقاً لغيره وهو المرتهن .

واورد عليه بأنه وإن كان محتملا إلاّ أنه يضيع فائدة قوله : بها ، لأنّ الضمير يعود إلى الأموال المجموعة ، وهو إشارة إلى المال الذى انغلق الرّهن به فلا نكون هى نفس الرّهن .

وقال الشارح البحراني : ضربه عليه السلام مثلا لحصول المرء في تبعات ما جمع وارتباطه بها عن الوصول إلى كماله وانبعاثه الى سعادته بعد الموت ، وقد كان يمكنه فكاكها بالتوبة والأعمال الصالحة ، فأشبه ما جمع من الهيئآت الرّديّة في نفسه عن اكتساب الأموال ، فارتهنت بها بما على الراهن من المال .

أقول : و يتوجّه عليه أنّ الراهن على ذلك التوجيه هو نفس المراد ولو كان مراده عليه السلام ذلك لقال والمرء قد صار رهينا بها كما قال تعالى : كلّ نفس بما كسبت رهينة .

والذى يلوح على النّظر القاصر هو أن يقال : إنّه من باب الاستعارة التمثيلية والغرض تشبيه حال هذا المرء المحجوب عن الترقّي إلى مدارج الكمال الغير المتمكّن من الوصول إليها بجمع تلك الأموال بحال من غلقت عليه أمواله المرهونة في مقابل دين المرتهن في عدم امكان وصوله اليها ومحجوريته عنها ، أو أنّ رهونه استعارة لبعض ما فعله من الأعمال الصالحة وذكر الغلق ترشيخ، وتشبيه تلك الأعمال

بالرّهن باعتبار عدم تمكّنه من الانتفاع بها ومحجوبيّته عنها بما جمعه من الأموال فصارت تلك الأموال حاجبة مانعة عن انتفاعه بها بمنزلة دين المرتهن المانع عن تصرف الراهن في العين المرهونة الموجب لحجره عنها وعن استفادته بها ، و إنّما صارت تلك الأموال سبباً للحجب والمنع عن الانتفاع ، لكون حقّ النّاس مقدّماً على حقّ الله ، و لذلك كان أوّل عقبات القيامة موضوعة للحكم بين النّاس وأخذ المظالم، هذا ما يخطر بالخاطر القاصر ، والله العالم بحقايق كلام وليّه عليه السلام

(فهو يعضّ يده ندامة على ما أصحر له عند الموت من أمره) و انكشف له حينئذ من تفريطه كما يعضّ يوم القيامة إذا عاين العقاب و شاهد طول العذاب قال سبحانه :

« وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظّالِمُ عَلىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً يا وَيْلَتىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي » .

قال في التفسير أى يعضّ على يديه ندماً و أسفاً ، قال عطا : يأكل يديه حتى تذهب إلى المرفقين ثمّ تنبتان لايزال هكذا كلّما نبتت يداه أكلهما ندامة على ما فعل، هذا فعضّ اليد في الآية مستعمل على التّفسير المذكور في معناه الحقيقي، و في كلامه عليه السلام كناية عن النّدم و التّحسّر على ما فرّط في جنب الله و قصر في امتثال أمر مولاه

(ويزهد فيما كان يرغب فيه أيّام عمره) من الأموال التى جمعها وخلّفها لغيره (ويتمنّى انّ الذى كان يغبطه بها ويحسده عليها قد حازها دونه) لما ظهر له من تبعاتها وسوء عاقبتها .

(فلم يزل الموت يبالغ في جسده حتى خالط لسانه سمعه فصار بين أهله لا) يقدر أن (ينطق بلسانه و لا) أن (يسمع بسمعه) لانقطاع مادّة الحياة عن السّمع

واللّسان (يردّد طرفه بالنظر في وجوههم) أى مخاطباتهم و (يرى حركات ألسنتهم ولا يسمع رجع كلامهم) أى ما يتراجعونه من الكلام لبطلان قوّته السّامعة وبقاء قوّته الباصرة بعد .

(ثمّ ازداد الموت التياطاً به) أى التصاقا (فقبض بصره كما قبض سمعه وخرجت الرّوح من جسده) وظاهر هذا الكلام بملاحظة ما سبق من قوله : ثمّ ازداد الموت فيهم و لوجاً فحيل بين أحدهم وبين منطقه آه ، و ما سبق أيضاً من قوله : فلم يزل الموت يبالغ في جسده حتى خالط لسا نه سمعه، يفيد لبطلان آلة النطق في الانسان قبل آلتى السمع والبصر ، ثمّ بطلان آلة البصر و إنّما تبطل مع خروج الرّوح و مفارقتها عن البدن .

قال الشارح البحراني : وليس ذلك مطلقاً بل في بعض الناس وأغلب مايكون ذلك فيمن تعرض الموت الطبيعي لآلاته والأقد تعرض الآفة لقوّة البصر و آلته قبل آلة السّمع وآلة النطق ، والذي يلوح من اسباب ذلك أنه لماكان السبب العام القريب للموت هو انطفاء الحرارة الغريزية عن فناء الرّطوبة الأصلية التي منها خلقتا ، وكان فناء تلك الرطوبة عن عمل الحرارة الغريزية فيها التجفيف والتحليل ، وقد تعينها على ذلك الأسباب الخارجية من الأهوية و استعمال الأدوية المجففة وساير المجففات ، كان كلّ عضو أيبس من طبيعته و أبرد أسرع إلى البطلان وأسبق إلى الفساد .

إذا عرفت ذلك فنقول : أما أنّ آلة النطق أسرع فساداً من آلة السمع ، فلأنّ آلة النطق مبنيّة على الأعصاب المحركة ومركبة منها ، وآلة السمع من الاعصاب المفيدة للحسّ و اتّفق الأطباء على أنّ الأعصاب المحرّكة أيبس وأبرد ، لكونها منبعثة من مؤخّر الدماغ دون الأعصاب المفيدة للحسّ ، فانّ جلّها منبعث من مقدّم الدّماغ فكان لذلك أقرب إلى البطلان ، و لأنّ النطق أكثر شروطا من السّماع لتوقفه مع الآلة و سلامتها على الصّوت و سلامة مخارجه ومجارى النفس، والأكثر شرطاً أسرع إلى الفساد .

وأما بطلان آلة السمع قبل البصر فلأنّ منبت الأعصاب التي هي محلّ القوّة السامعة أقرب إلى مؤخّر الدماغ من منابت محلّ القوّة الباصرة ، فكانت أيبس وأبرد وأقبل لانطفاء الحرارة الغريزية ، ولأنّ العصب المفروش على الصّماخ الذي رتّبت فيه قوة السّمع احتاج أن يكون مكشوفا غير مسدود عنه سبيل الهواء بخلاف العصب الذى هو آلة البصر ، فكانت لذلك أصلب والأصلب أيبس وأسرع فساداً ، هذا مع أنّه قد يكون ذلك لتحلّل الروح الحامل للسّمع قبل الرّوح الحامل للبصر أو لغير ذلك، والله اعلم .

و قوله عليه السلام (فصار جيفة بين أهله) لا يخفى ما في هذا التعبير من النكتة اللّطيفة ، و هو التنفير عن التعلّق بهذا البدن العنصرى و النهى عن التعزّز بهذا الهيكل الجسماني ، ، فانّ من كان أوّله جيفة وآخره جيفة وهو في الدّنيا حامل الجيف كيف يجوز له الاغترار بوجوده ، و التعزّز و التّكبر بذاته لاسيّما بعد ملاحظة كون آخره جيفة أقذر من ساير الجيف حتّى جيفة الكلب و الخنزير ، حيث إنّ ساير الجيف لا توجب على من لامسها الغسل بخلاف ميتة الانسان فانّ ملامستها توجب غسل المسّ خصوصاً لو لا حظ أنّ أقرب النّاس إليه وآنسهم به من الآباء والاخوان والبنات والولدان :

(قد أوحشوا من جانبه وتباعدوا من قربه)مع كمال اُنسهم به ومحبّتهم له ، وجهة استيحاشهم منه حكم أوهامهم السخيفة على قواهم المتخيلة بمحاكات حاله في نفس المتوهم و عزل العقل في ذلك الموضع ، و لذلك أنّ المجاور لميّت في موضع ظلماني منفرد يتخيل أنّ الميّت يجذ به إليه ويصيره بحاله المنفورة عنها طبعا .

و بالجملة فالمرء إذا خرجت روحه من جسده تنافر الناس عنه ويبقى فريداً وحيداً (لا يسعد باكياً) على بكائه (ولا يجيب داعياً) على دعائه .

(ثمّ حملوه) أى حفدة الولدان وحشدة الاخوان (الى محطّ من الأرض) أى قبره الذى يحطّ وينزل فيه وعلى ما في بعض النسخ من رواية مخط بالخاء المعجمة تكون كناية عن القبر لكونه يخط أولا ثمّ يحفر أو عن اللحد لكونه كالخطّ في الدّقة

(فأسلموه فيه إلى عمله وانقطعوا عن زورته) ووجد ما عمله محضراً فان كان العمل صالحاً فنعم المونس والمعين ، وإن كان سيئاً فبئس المصاحب والقرين والعدوّ المبين

أقول : لو كان كلام يؤخذ بالأعناق في التزهيد عن الدنيا والترغيب الى الآخرة لكان هذا الكلام الذى في هذا الفصل ، و ما أبعد غوره واجزل قدره ، فانّ عمدة ما أوجب رغبة الراغبين إلى الدّنيا و الرّاكنين اليها والمغترّين بها إنما هى امور ثلاثة **احدها** حبّ المال **والثانى** حبّ الوجود **والثالث** حبّ الأولاد والبنين والأزواج والأقربين ، فزهّد عليه السلام عن كلّ ذلك بأحكم بيان وأوضح برهان .

أما عن المال فبأنه عن قريب يفارقه وينتقل عنه ويكون لذّته ومهنائه لغيره ويبقى وزره وتبعته عليه.

وأمّا عن وجوده ونفسه فبأنّه سينمحى أعضاؤه وجوارحه ويبطل قواه وآلاته و يكون بالآخرة جيفة منبوذة بين أهله .

وأما عن الأولاد و الابناء و الاخوان و الأقرباء فبأنهم سيفارقونه ويتنفرّون عنه ويستوحشون منه ، فمن كان مآل ما أحبّه ذلك فكيف يغترّ بذلك مع علمه بأنّ كلّ ذلك واقع لامحالة واعتقاده بأنّ الموت لايمكن الفرار منه البتة .

قال علي بن الحسين عليهما السلام : عجب كلّ العجب لمن أنكر الموت وهو يرى من يموت كلّ يوم وليلة ، والعجب كلّ العجب لمن أنكر النشأة الآخرة وهو يرى النشأة الأولى وقال الله سبحانه :

«أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ» .

روى الأعمش عن خثيمة قال : دخل ملك الموت على سليمان بن داود على نبيّنا وآله وعليهما السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر اليه ، فلما خرج قال الرجل : من هذا؟ قال: هذا ملك الموت، قال: لقد رأيته ينظر اليّ كأنه يريدنى ، قال عليه السلام :فماذا تريد؟ قال: اريد أن تخلصني منه فتأمر الريح حتّى تحملنى إلى أقصى الهند ، ففعلت الرّيح ذلك ثمّ قال سليمان عليه السلام لملك الموت بعد أن أتاه ثانياً : رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائى ، قال : نعم كنت أتعجّب منه ، لأنى كنت

أمرت أن أقبضه بأقصى الهند في ساعة قريبة و كانت عندك فتعجّبت من ذلك .

و في الكافي عن علي بن إبراهيم عن عمرو بن عثمان عن مفضل بن صالح عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أخبرني جبرئيل أنّ ملكا من ملائكة الله كانت له عندالله منزلة عظيمة فتعتّب عليه فأهبطه من السماء إلى الأرض ، فأتى ادريس عليه السلام فقال : إنّ لك من الله منزلة فاشفع لى عند ربك ، فصلّى ثلاث ليال لايفتر وصام أيّامهالايفطر ، ثمّ طلب الى الله في السحر في الملك ، فقال الملك: إنك قد اعطيت سؤلك وقداطلق لى جناحي وأنا احبّ أن اكافيك فاطلب إلىّ حاجة قال: تريني ملك الموت لعلّي آنس به فانه ليس يهنئني مع ذكره شيء ، فبسط جناحه ثمّ قال: اركب ، فصعدبه يطلب ملك الموت في السماء الدّنيا ، فقيل له: اصعد ، فاستقبله بين السماء الرابعة والخامسة فقال الملك : يا ملك الموت مالى أراك قاطباً ؟ قال : العجب انى تحت ظلّ العرش حيث امرت أن أقبض روح آدمى بين السماء الرابعة والخامسة ، فسمع إدريس عليه السلام بها فامتعض فخرّ من جناح الملك فقبض روحه مكانه ، وقال الله عزّ وجل : ورفعناه مكاناً عليّاً ونعم ماقيل :

انّ الحبيب من الاحباب مختلس ... لا يمنع الموت بوّاب ولا حرس
فكيف تفرح بالدّنيا و لذّتها ... يامن يعدّ عليه اللّفظ و النّفس
أصبحت ياغافلا في النقص منغمساً ... وأنت دهرك في اللّذات منغمس
لايرحم الموت ذا جهل لغرّته ... ولا الذى كان منه العلم يقتبس
كم أخرس الموت في قبر وقفت به ... عن الجواب لساناً ما به خرس
قد كان قصرك معموراًبه شرف ... فقبرك اليوم في الأجداث مندرس

ايقاظ

في ذكر بعض ما ورد في وصف الموت وحالات الميّت .

فأقول : قال الغزالي : روى عن مكحول عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : لو أنّ شعرة من شعر الميت و ضعت على أهل السّماوات والأرض لماتوا باذن الله ، لأنّ في كلّ شعرة الموت و لايقع الموت بشيء إلاّ لمات ، قال : و يروى لوأنّ قطرة من

ألم الموت وضعت على جبال الدّنيا كلها لذابت، قال: وقال النبيّ ﷺ: إنّ العبد ليعالج كرب الموت و سكرات الموت و أنّ مفاصله يسلّم بعضها على بعض تقول: عليك السلام تفارقني وأفارقك الى يوم القيامة.

وفي الكافي باسناده عن جابر قال قال عليّ بن الحسين عليهما السلام ماندرى كيف نصنع بالناس، إن حدّثناهم بما سمعنا من رسول الله ﷺ ضحكوا، وإن سكتنا لم يسعنا، قال: فقال ضمرة بن معبد: حدّثنا فقال: هل تدرون ما يقول عدوّ الله إذا حمل على سريره؟ قال: فقلنا: لا، قال عليه السلام: فانه يقول لحملته ألاتستمعون إني أشكو إليكم عدوّ الله خدعني وأوردني ثم لم يصدرني، وأشكو اليكم اخواناواخيتهم فخذلوني، وأشكو اليكم أولاداً حاميت عليهم فخذلوني «فأسلموني خ» وأشكو اليكم داراً أنفقت فيها حريبتي فصار سكّانها غيري، فارفقوا بي ولا تستعجلوني قال: فقال ضمرة يا أباالحسن إن كان هذا يتكلّم بهذا الكلام يوشك أن يثب بجهد على أعناق الذين يحملونه؟ قال: فقال عليّ بن الحسين عليهما السلام: اللهمّ إن كان ضمرة هزاء من حديث رسولك فخذه أخذأسف، قال: فمكث أربعين يوماً ثمّ مات، فحضره مولى له قال: فلمادفن أتى عليّ بن الحسين عليهما السلام فجلس إليه فقال له: من أين جئت يافلان؟ قال: من جنازة ضمرة فوضعت وجهي عليه حين سوى عليه فسمعت صوته والله أعرفه كما كنت أعرفه وهوحيّ يقول: ويلك يا ضمرة بن معبد اليوم خذلك كلّ خليل، وصارمصيرك إلى الجحيم، فيهامسكنك ومبيتك والمقيل قال: فقال عليّ ابن الحسين عليهما السلام: أسأل الله العافية هذا جزاء من يهزء من حديث رسول الله ﷺ.

وعن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله عزوجلّ:

« وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ».

قال: فانّ ذلك ابن آدم إذا حلّ به الموت قال: هل من طبيب إنه الفراق أيقن بمفارقة الأحبّة قال، والتفّت السّاق بالسّاق التفّت الدّنيا بالآخرة، ثمّ إلى ربّك يومئذ المساق قال: المصير إلى ربّ العالمين.

وعن عبدالله بن سليم العامري عن أبي عبدالله عليه السلام قال : إن عيسى بن مريم جاء إلى قبر يحيى بن زكريا عليه السلام و كان سأل ربه أن يحييه له ، فدعا فأجابه وخرج إليه من القبر ، فقال له ماتريد مني ؟ فقال له : اريد أن تونسني كما كنت في الدنيا ، فقال له يا عيسى ماسكنت عني حرارة الموت وأنت تريد أن تعيدني إلى الدنيا وتعود علي حرارة الموت ، فتركه فعاد إلى قبره .

وعن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن محبوب عن أبي أيوب عن يزيد الكناسي عن أبي جعفر عليه السلام قال : إن فتية من أولاد ملوك بني إسرائيل كانوا متعبدين ، وكانت العبادة في اولاد ملوك بني إسرائيل وأنهم خرجوا يسيرون في البلاد ليعتبروا ، فمروا بقبر على ظهر الطريق قد سفى عليه السافي ليس منه إلا اسمه ، فقالوا: لودعونا الله الساعة فينشر لنا صاحب هذا القبر فسائلناه كيف وجد طعم الموت ، فدعوا الله وكان دعائهم الذى دعوا به : الله أنت إلهنا ياربنا ليس لنا إله غيرك والبدىء الدايم غير الغافل الحي الذي لايموت لك في كل يوم شأن تعلم كل شيء بغير تعليم، انشر لنا هذا الميت بقدرتك ، قال : فخرج من ذلك القبر رجل أبيض الرأس و اللحية ينفض رأسه من التراب فزعاً شاخصا بصره إلى السماء ، فقال له : ما يوقفكم على قبرى ؟ فقالوا : دعوناك لنسألك كيف وجدت طعم الموت فقال لهم : قد سكنت في قبرى تسعة و تسعون « تسعين خ ل » سنة ماذهب عني ألم الموت وكربه ، و لا خرج مرارة طعم الموت من حلقي فقال له : مت يوم مت وأنت على ماترى أبيض الرأس واللحية ؟ قال : لا ولكن لما سمعت الصيحة اخرج اجتمعت تربة عظامى إلى روحى وبقيت فيه فخرجت فزعاً شاخصاً بصرى مهطعاً إلى صوت الداعى فابيض لذلك رأسي و لحيتي .

وفي عقايد الصدوق (ره) قال: قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: صف لنا الموت، فقال عليه السلام: على الخبير سقطتم هو أحد امور ثلاثة يرد عليه: إما بشارة بنعيم الأبد ،وإما بشارة بعذاب الأبد، وإما تخويف وتهويل و أمر مبهم لايدرى من أى الفرق هو ،أما وليّنا والمطيع لأمرنا فهو المبشّر بنعيم الأبد، وأما عدونا والمخالف لأمرنا فهو المبشّر بعذاب الأبد

و أما المبهم أمره الذي لا يدرى ما حاله فهو المؤمن المسرف على نفسه لا يدرى ما يؤول إليه حاله ، يأتيه الخبر مبهماً مخوفاً ثمّ لن يشوبه الله عزّ وجلّ بأعدائنا ولكن يخرجه من النّار بشفاعتنا ، فاعملوا وأطيعوا ولا تتّكلوا و لا تستصغروا عقوبة الله ، فانّ من المسرفين من لايلحقه شفاعتنا إلاّ بعد عذاب الله بثلاثمائة ألف سنة

قال : وسئل عن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام ما الموت الذي جهلوه ؟ فقال : أعظم سرور يرد على المؤمنين إذا نقلوا عن دار النكد إلى نعيم الأبد ، وأعظم ثبور يرد على الكافرين إذا نقلوا من جنّتهم إلى نار لاتبيد ولاتنفد .

قال : و قيل لعليّ بن الحسين عليه السلام : ما الموت ؟ قال : للمؤمن كنزع ثياب و سخة قملة أوفكّ قيود و أغلال ثقيلة و الاستبدال بأفخر الثّياب و أطيبها روايح وأوطى المراكب وآنس المنازل ، و للكافر كخلع ثياب فاخرة والنقل عن منازل أنيسة والاستبدال بأوسخ الثياب و أخشنها وأوحش المنازل وأعظم العذاب .

قال : وقيل للصادق عليه السلام : صف لنا الموت ، فقال : هو للمؤمن كأطيب ريح يشمّه فينفس لطيبه فيقطع التعب و الألم كلّه عنه ، و للكافر كلسع الأفاعى و لذع العقارب وأشدّ ، قيل له : فانّ قوماً يقولون هوأشدّ من نشر بالمناشير وقرض بالمقاريض ورضخ بالحجارة و تدوير قطب ارحية في الأحداق ، فقال : هو كذلك على بعض الكافرين والفاجرين ، ألا ترون من يعاين تلك الشدايد ، فذلكم الذي هو أشد من هذا وهوأشدّ من عذاب الدّنيا ، قيل : فما لنا نرى كافراً يسهل عليه النزع فينطفى وهويتحدّث ويضحك ويتكلّم ، وفي المؤمنين من يكون أيضاً كذلك ، وفي المؤمنين والكافرين من يقاسى عند سكرات الموت هذه الشدائد ؟ فقال عليه السلام : ماكان راحة للمؤمن فهومن عاجل ثوابه ، وماكان من شدّة فهوتمحيصه من ذنوبه ليرد إلى الآخرة تقياً طاهراً نظيفاً مستحقاً لثواب الله ليس له مانع دونه ، و ما كان هناك من سهولة على الكافرين فليستوفي أجر حسناته في الدّنيا ليرد إلى الآخرة وليس له إلاّ مايوجب عليه العذاب ، وما كان من شدّة على الكافرين هناك فهو ابتداء عقاب الله تعالى عند نفاد حسناته ، ذلك بأنّ الله عزّ وجلّ عدل لايجور .

وروى عن الصّادق عليه السلام قال : جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال : يارسول الله مابالي لاأحبّ الموت ؟ فقال صلى الله عليه وآله : ألك مال ؟ قال : نعم ، قال صلى الله عليه وآله : قدمته أمامك قال : لا ، قال صلى الله عليه وآله : فمن ثمّ لا تحبّ الموت .

قال : وجاء رجل إلى أبي ذر رحمه الله وقال مالنا نكره الموت ؟ فقال : لأنكم عمّرتم الدّنيا وخرّبتم الآخرة فتكرهون أن تنقلوا من عمران إلى خراب ، وقيل له كيف ترى قدومنا على الله تعالى ؟ فقال : أما المحسن فكالغائب يقدم على اهله ، و أما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه و هو منه خائف ، قيل : و كيف ترى حالنا عندالله ؟ قال : اعرضوا أعمالكم على كتاب الله تعالى حيث يقول :

« إِنَّ الأَبْرارَ لَفي نَعيمٍ وَ إِنَّ الْفُجّارَ لَفي جَحيمٍ »

قال رجل « الرجل ظ» فأين رحمة الله ؟ قال :

« إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَريبٌ مِنَ الْمُحْسِنينَ » .

تنبيه

أحببت أن أورد هنا الرّواية المتضمّنة لتكلّم الميّت مع سلمان الفارسي رضي الله عنه وما أخبره به من حالات سكرات الموت ومابعدها من الشدائد والدّواهي لأنّ فيها تنبيهاً للغافلين وتذكرة للجاهلين .

فأقول : روى غير واحد من أصحابنا أنار الله برهانهم عن أبي الفضل سديد الملّة والدّين شاذان بن جبرئيل بن إسماعيل بن أبي طالب القمّي في الجزء الثاني من كتابه كتاب الفضايل عن أبي الحسن بن عليّ بن محمّد المهدي بالاسناد الصّحيح عن الأصبغ ابن نباتة أنه قال : كنت مع سلمان الفارسي وهو أمير المداين في زمان أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام وذلك أنه قد ولاّه المداين عمر بن الخطاب فقام إلى أن ولي الأمر عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

قال الأصبغ فأتيته يوماً وقد مرض مرضه الذي مات فيه ، قال : فلم أزل أعوده

في مرضه حتى اشتد به الأمر وأيقن بالموت ، قال : فالتفت إلى وقال لي : ياأصبغ عهدي برسول الله صلى الله عليه وآله يقول ياسلمان سيكلمك ميت إذا دنت وفاتك وقد اشتهيت أن أدرى وفاتي دنت أم لا ، فقال الأصبغ : بماذا تأمرني يا سلمان يا أخي ؟ قال له ان تخرج وتأتيني بسرير و تفرش لي عليه مايفرش للموتى ثم تحملني بين أربعة فتأتون بي الى المقبرة .

فقال الاصبغ: حباً و كرامة ، فخرجت مسرعاً و غبت ساعة وأتيته بسرير وفرشت عليه مايفرش للموتى ، ثم أتيته بقوم حملوه إلى المقبرة ، فلما وضعوه فيها قال لهم: يا قوم استقبلوا بوجهي القبلة ، فلما استقبل بوجهه القبلة نادى بأعلى صوته :

السلام عليكم يا أهل عرصة البلاء ، السلام عليكم يا محتجبين عن الدنيا قال : فلم يجبه أحد فنادى ثانية ، السلام عليكم يا من جعلت المنايا لهم غذاء ، السلام عليكم يامن جعلت الأرض عليهم غطاء ، السلام عليكم يا من القوا أعمالهم في دار الدنيا ، السلام عليكم يا منتظرين النفخة الأولى سألتكم بالله العظيم والنبي الكريم إلا أجابني منكم مجيب فأناسلمان الفارسي مولى رسول الله صلى الله عليه وآله فانه قال لي : يا سلمان إذا دنت وفاتك سيكلمك ميت ، قد اشتهيت أن أدرى دنت وفاتي أم لا .

فلما سكت سلمان من كلامه فاذا هو بميت قد نطق من قبره و هو يقول : السلام عليك و رحمة الله و بركاته ، يا أهل البناء و الفناء المشتملون بعرصة الدنيا و ما فيها ، نحن لكلامك مستمعون ، و لجوابك مسرعون فسل عما بدالك يرحمك الله تعالى .

قال سلمان : أيها الناطق بعدالموت و المتكلم بعد حسرة الفوت أمن أهل الجنة بعفوه أم من أهل النار بعدله ؟ فقال : يا سلمان أنا ممن أنعم الله تعالى عليه بعفوه و كرمه ، وأدخله الجنة برحمته .

فقال له سلمان : الآن ياعبدالله صف لى الموت كيف وجدته وما ذا لقيت منه ومارأيت وماعاينت ؟ قال : مهلا ياسلمان فوالله إن قرضاً بالمقاريض ونشراً بالمناشير لأهون على من غصة من غصص الموت ، و تسعين ضربة بالسيف أهون من نزعة

من نزعات الموت.

فقال سلمان: ماكان حالك في دار الدّنيا؟

قال: اعلم أني كنت في دار الدّنيا ممن ألهمني الله تعالى الخير و العمل به و كنت اؤدّي فرائضه و أتلو كتابه، و كنت أحرص في برّ الوالدين و أجتنب الحرام والمحارم وأنزع من المظالم و اكدّ اللّيل والنّهار في طلب الحلال خوفاً من وقعة السؤال، فبينا أنا في ألذّ العيش و غبطة وفرح وسرور إذ مرضت وبقيت في مرضى أيّاماحتى انقضت من الدّنيا مدّتي وقربت موتي، فأتاني عند ذلك شخص عظيم الخلقة فظيع المنظر فوقف (١) مقابل وجهي لا إلى السماء صاعداً ولا إلى الأرض نازلا، فأشار إلى بصري فأعماه، وإلى سمعي فأصمه، و إلى لساني فأخرسه فصرت لا ابصر و لا اسمع و لا انطق، فعند ذلك بكى أهلي و اخواني و ظهر بخبري إلى اخواني وجيراني.

فقلت له عند ذلك: من أنت يا هذا الذي أشغلتني عن مالي و أهلي وولدي فقد ارتعدت فرايصي من مخافتك.

فقال: أنا ملك الموت أتيتك لقبض روحك ولأنقلك من دار الدّنيا إلى دار الآخرة، فقد انقضت مدّتك من الدّنيا، وجائت منيّتك.

وبينا هو كذلك يخاطبني إذا أتاني شخصان ولهما منظر أحسن مايكون وما رأيت من الخلق أحسن منهما، فجلس أحدهما عن يميني والآخر عن شمالي فقالا: السّلام عليك أيها العبد ورحمة الله وبركاته، قدجئناك بكتابك فخذه الآن وانظر مافيه

١- لعلّ هذا الرجل قد كان عليه من الذنوب ما أراد الله تمحيصها عنه عند الموت و لذا رأى ملك الموت على تلك الصورة كما ترى انه ما ذكر حضور الوصى (ع) عند موته وقد قامت به الضرورة و فى الامالى من صام أربعة و عشرين يوماً من رجب فاذا نزل به ملك الموت ترائى له فى صورة شاب عليه حلة من ديباج اخضر على فرس من افراس الجنان و بيده حرير اخضر ممثلا بالمسك الاذفر وبيده قدح من ذهب مملو من شراب الجنان فسقاه اياه عند خروج نفسه يهون عليه سكرات الموت الخبر. نفس الرحمن.

فقلت لهما : من أنتما يرحمكما الله وأيّ كتاب لي أنظره وأقرء ؟

فقالا : نحن الملكان اللّذان كنامعك في دار الدّنيا على كتفيك نكتب مالك وما عليك فهذا كتاب عملك ، فلما نظرت في كتاب حسناتي بيد الرّقيب فسرّ لي مافيه وما رأيت من الخير وفرحت وضحكت عندذلك وفرحت فرحاشديداً ، ونظرت إلى كتاب السّيئآت و هو بيد العتيد فسائني ما رأيت و أبكاني ، فقالا لي: ابشر فلك الخير .

ثمّ دنى مني الشخص الأوّل فجذب الرّوح فليس من جذبة يجذبها إلاّ وهي تقوم مقام كلّ شدّة من السّماء إلى الأرض ، فلم يزل كذلك حتّى صارت الروح في صدري ، ثمّ أشار اليّ بجذبة لو أنّها وضعت على الجبال لذابت ، فقبض روحي من عرنين أنفي فعلا من اهلي عند ذلك الصّراخ و ليس من شيء يقال أو يفعل إلاّ وأنا به عالم .

فلما اشتدّ صراخ القوم و بكاؤهم جزعا عليّ التفت اليهم ملك الموت بغيض وحنق وقال : معاشر القوم ممّ بكائكم فوالله ماظلمناه فتشكون ولا اعتدينا عليه فتصيحون وتبكون ولكن نحن وأنتم عبيد ربّ واحد ولو امرتم فينا كما امرنا فيكم لامتثلتم فينا كما امتثلنا فيكم ، والله ماأخذناه حتى فني رزقه و انقطعت مدّته وصار إلى ربّ كريم يحكم فيه مايشاء و هو على كلّ شيء قدير فان صبرتم اُوجرتم وإن جزعتم أثمتم كم لي من رجعة إليكم آخذ البنين والبنات والآباء والاُمّهات .

ثمّ انصرف عند ذلك عنّي والروح معه فعند ذلك أتاه ملك آخر فأخذ ها منه و طرحهـا في ثوب أخضر من الحرير وصعد بها و وضعها بين يدي الله في أقلّ من طبقة جفن .

فلمّا حصلت الرّوح بين يدى ربي سبحانه سألها عن الصغيرة و الكبيرة ، وعن الصّلاة والصّيام في شهر رمضان وحجّ بيت الله الحرام وقرائة القرآن و الزكاة والصّدقات و ساير الأوقات و الأيام و طاعة الوالدين وعن قتل النفس بغير الحقّ

وأكل مال اليتيم ومال الرّبا والزّنا والفواحش وعن مظالم العباد ، وعن التهجّد بالّليل والنّاس نيام وما يشاكل ذلك ، وما بعد ذلك ردّت الرّوح إلى الأرض باذن الله تعالى .

فعند ذلك أتاني الغاسل فجرّدني من أثوابي وأخذ في تغسيلي ، فنادته الرّوح بالله عليك يا عبدالله رفقاً بالبدن الضعيف فوالله ما خرجت من عرق إلّا انقطع ولا من عضو إلّا انصدع فوالله لوسمع الغاسل ذلك القول لما غسل ميّتاً أبداً .

ثم انّه أجرى عليّ الماء وغسّلني ثلاثة أغسال وكفّنني في ثلاثة أثواب وحنّطني بحنوط وهو الزّاد الذي خرجت به الى الآخرة، ثمّ جذب الخاتم من يدي اليمنى فدفعه إلى أكبر أولادي وقال : آجرك الله في أبيك وأحسن لك الاجر والعزاء .

ثمّ أدرجني في الكفن ولفّني ونادى أهلي وجيراني وقال هلمّوا إليه بالوداع فقاموا عند ذلك لوداعي .

فلمّا فرغوا من وداعي حملت على سرير خشب وحملوني على أكتاف أربعة ، والرّوح عند ذلك بين وجهي وكفي واقفة على نعشي وهي تقول : يا أهلي وأولادي لا تلعب بكم الدّنيا كما لعبت بي، فهذا ما جمعته من حلّ ومن غير حلّ وخلّفته بالهنائة والصّحة فاحذروني فيه .

ولم أزل كذلك حتى وضعت للصّلاة فصلّوا عليّ ، فلما فرغوا من الصّلاة وحملت إلى قبري ادليت فيه ثمّ رفعت روحي بين كتفي ووجهي ادنيت من قبري وطرحت على شفير القبر ، فعاينت هولا عظيماً .

يا سلمان ياعبدالله لما وضعت في قبري خيّل لي أنّي سقطت من السّماء إلى الأرض في لحدي، وشرج عليّ اللّبن وحثي عليّ التراب وزاروني «واروني ظ» وانصرفوا ، فرجعت الرّوح إليّ فأخذت في النّدم فقلت : يا ليتني كنت مع الراجعين .

فعند ذلك سلبت الرّوح من اللّسان وانقلبت السّمع والبصر فلما نادى المنادى بالانصراف أخذت في الندم وبكيت من القبر وضيقه وضغطته وكنت قلت : ياليتني كنت مع الراجعين لعملت عملا صالحاً فجاوبني مجيب من جانب القبر :

« كَلاَّ إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ».

فقلت من أنت يا هذا الذي تكلّمني وتحدّثني ؟ قال : أنا منبّه ، قلت : وما منبّه ؟ قال : أنا ملك و كلني الله بجميع خلقه لأُنبّههم بعد مماتهم ليكتبوا أعمالهم على أنفسهم بين يدى الله .

ثمّ إنّه جذبني و أجلسني وقال لي : اكتب عملك ومالك و ماعليك في دار الدّنيا ، قلت . انى لا احصيه و لا أعرفه ، قال : أوما سمعت قول ربّك : أحصيه الله ونسوه؟ ثمّ قال لي : اكتب الآن وأنا أملي عليك ، فقلت : أين البياض ؟ فجذب جانباً من كفنى فاذا هو رقّ فقال : هذه صحيفتك ، فقلت : من أين القلم؟ قال : سبّابتك ، فقلت : من أين المداد ؟ فقال : ريقك .

ثمّ أملى علىّ جميع ما فعلته في دار الدّنيا من أوّل عمرى إلى آخره ، فلم يبق من أعمالى صغيرة ولا كبيرة ، ثمّ تلى علىّ :

« لا يُغادِرُ صَغيرَةً وَلا كَبيرَةً إِلاّ أَحصيها وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحداً » .

ثمّ إنّه أخذ الكتاب وختمه بخاتم وطوّقه في عنقى فخيّل لي أنّ جبال الدّنيا جميعاً قد طوّقها في عنقى ، فقلت له : يا منبّه ولم تفعل بي هكذا ؟ قال : ألم تسمع قول ربّك

« وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ في عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيمَةِ كِتاباً يَلْقيهُ مَنْشُوراً إِقرأ كِتابَكَ كَفى بِنَفسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسيباً ».

فهذا ما تخاطب به يوم القيامة و يؤتى بك و بكتابك بين عينيك منشوراً لتشهد به على نفسك .

ثمّ انصرف عنّى فبقيت أبكى على نفسي على حسرة الدّنيا وأقول : ياليتني

عملت خيراً حتّى لايكتب على شرٌ .

فبينا أنا كذلك و إذا أنا بملك منكر أعظم منظراً و أهول شخصا ما رأيته في الدّنيا ، ومعه عمود من الحديد لو اجتمعت عليه الثقلان ما حرّكوه ، فراعني وأفزعني وهدّدني ودنا منّي فجذبني بلحيتي ، ثمّ انه صاح بي صيحة لوسمعها أهل الأرض لماتوا جميعاً ثمّ قال لي : يا عبدالله أخبرني من ربّك ومن نبيّك ومادينك وما كنت عليه في دارالدّنيا ؟ فاعتقل لساني من فزعه وتحيّرت في أمري ومأادرى ما أقول و ليس في جسمي عضو إلاّ فارقني من الفزع و انقطعت أعضائي و أوصالي من الخوف .

فأتتني رحمة من ربّي فأمسك بها في قلبي وشدّ بها ظهري واطلق بهالساني ورجع إليّ ذهني فقلت له عند ذلك : يا عبدالله لم تفزعني وأنا أشهد أن لاإله إلاّالله وأنّ محمّداً رسول الله صلّى الله عليه وآله وأنّ الله ربّي ومحمّد نبيّي و الاسلام ديني و القرآن كتابي والكعبة قبلتي وعليّ امامي و بعده أولاده الطاهرون أئمتي ، والمؤمنون اخواني و أنّ الموت حق والسؤّال حقّ والصّراط حقّ والجنة حقّ والنّار حقّ وأنّ السّاعة آتية لا ريب فيهــا و أنّ الله يبعث من فيالقبور فهذا قولي و اعتقــادي و عليه القى ربّي في معادي .

فعند ذلك قال لي : ياعبدالله ابشر بالسلامة فقد نجوت منّي فنم نومة العروس ثمّ مضى عنّي .

ثمّ أتاني شخص أهول منه يعرف بنكير، فصاح صيحة هائلة أعظم من صيحة الأولى ، فاشتبكت أعضائي بعضها في بعض كاشتباك الأصابع ، ثمّ قال لي : هات الآن عملك يا عبدالله و ما خرجت عليه من دار الدّنيا ومن ربّك ومن نبيّك و ما دينك ؟ فبقيت حايراً متفكّراً في ردّ الجواب لا أعرف جواباً ولا انطق بخطاب لما رأيت وسمعت منه .

فعند ذلك صرف الله عنّي شدّة الرّوع والفزع وألهمني حجّتي وحسن التوفيق واليقين فقلت : ارفق بي ولاتزعجني ياعبدالله وامهل عليّ حتّى أقول لك ، فقال : قل

فقلت : اني خرجت من شهادة أن لا إله إلاّالله وحده لاشريك له ، وأشهد أنّ محمّداًعبده ورسوله ، وأنّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب والأئمة الطاهرين من ذرّيته أئمتي وأنّ الموت حقّ و القبر حقّ والصّراط حقّ والميزان حقّ والحساب حقّ ومسائلة منكر ونكير حقّ ، وأنّ الجنّة و ماوعد الله فيها من النّعيم حقّ وأنّ النّار وماوعدالله من العذاب حقّ ، وأنّ السّاعة آتية لاريب فيها وأنّ الله يبعث من في القبور .

ثمّ قال لي : يا عبدالله ابشر بالنّعيم الدّائم و الخير المقيم ثمّ إنّه أضجعني وقال : نم نومة العروس ، ثمّ انه فتح لي باباً من عند رأسي إلى الجنّة و بابا من عند رجلي الى النار ثمّ قال لي : يا عبدالله انظر إلى ما صرت إليه في الجنّة و إلى ما نجوت منه من نارالجحيم ، ثمّ سدّ الباب التي من عند رجلي وابقى الباب الذي هو من عند رأسي فجعل يدخل عليّ من روح الجنّة ونعيمها وأوسع لحدى مدّ البصر(١) واسرج لي سراجاً أضوء من الشمس والقمر وخرج عنّي .

فهذه صفتي وحديثي ومالقيته من شدّة الأهوال، وأنا أشهد بالله أنّ مرارة الموت في حلقي إلى يوم القيامة ، فراقب الله أيهّا السائل من رفعة المسائل ، و خف من هول المطّلع و ما قدذكرته، هذا الذى لقيته وأنا من الصّالحين ثمّ انقطع عند ذلك كلامه عن سلمان .

فقال سلمان للأصبغ و من كان معه: هلمّوا إليّ و احملوني ، فلمّا وصل إلى منزله قال : حطونى رحمكم الله ، فلمّا حططناه إلى الأرض و شهدناه فقال : اسندوني ، ثمّ رمق بطرفه إلى السّماء وقال : يا من بيده ملكوت كلّ شيء و إليه يرجعون وهو يجير ولا يجار عليه بك آمنت وعليك توكلت وبنبيّك أقررت وبكتابك صدقت ، و قد أتاني ما وعدتني يا من لا يخلف الميعاد فلقني جودك ، و أقبضنى إلى رحمتك ، وأنزلني إلى دار كرامتك فاني اشهد الله لا إله إلاّ الله وحده لاشريك لـه ،

١ــ و مضى عنى و انا ياسلمان لم اجد عندالله شيئا يحبّه الله اعظم من ثلاثة: صلاة الليلة شديدة البرد، وصوم يوم شديدة الحرّ، وصدقة بيمينك لايعلم بها شمالك «خل»
(ج ٢٢)

وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله ، وأنّ عليّاً أمير المؤمنين و الأئمّة من ذرّيته أئمّتي وساداتي فلمّا أكمل شهادته قضى نحبه ولقي ربّه رضي الله تعالى عنه .

فقال بينما نحن كذلك إذ أتا رجل على بغلة شهباء متلثّما فسلّم علينا فرددنا السّلام عليه فقال : يا أصبغ اجهدوا في أمر سلمان ، فأخذنا في أمره فأخذ معه حنوطاً و كفناً فقال : هلمّوا فانّ عندي ما ينوب عنه ، فأتيناه بماء ومغسل ، فلم يزل يغسله بيده حتّى فرغ و كفّنه وصلّى عليه فصلّينا خلفه ، ثمّ إنّه دفنه بيده

فلمّا فرغ من دفنه همّ بالانصراف تعلّقنا به و قلنا له : من أنت يرحمك الله ؟ فكشف لنا عن وجهه فسطع النور من ثناياه كالبرق الخاطف فاذا هو أمير المؤمنين فقلت له يا أمير المؤمنين كيف كان مجيئك ومن أعلمك بموت سلمان ؟

قال : فالتفت إليّ وقال : آخذ عليك يا أصبغ عهد الله و ميثاقه و أنّك لاتحدّث به أحداً ما دمت حيّاً في دار الدّنيا ، فقلت يا أمير المؤمنين أموت قبلك فقال : لا يا أصبغ بل يطول عمرك ، قلت له : يا أمير المؤمنين خذ عليّ عهداً و ميثاقاً فانّي لك سامع مطيع اني لاأحدّث به حتّى يقضي الله من أمرك ما يقضي وهو على كلّ شيء قدير .

فقال : يا أصبغ بهذا عهدني رسول الله صلى الله عليه وآله فاني قد صلّيت هذه السّاعة بالكوفة وقد خرجت اريد منزلي فلمّا وصلت إلى منزلي اضطجعت ، فأتاني آت في منامي وقال : يا علي إنّ سلمان قد قضى نحبه فركبت بغلتي و أخذت معي مايصلح للموتى فجعلت أسير فقرّب الله لي البعيد كماتراني ، و بهذا أخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله ثم انه دفنه وواراه فلم أر أصعد إلى السّماء أم في الأرض نزل ، فأتى الكوفة و المنادي ينادي بصلاة المغرب فحضر عندهم (١) .

وهذا ماكان من حديث وفاة سلمان الفارسي (ره) على التمام والكمال والحمد لله حقّ حمده و قد رويت الخبر على طوله لاقتضاء المقام ذلك من حيث اشتماله على

١ــ هذه الرواية كما ترى صريحة في أنّ وفات سلمان رضي الله عنه كان أيام خلافة أمير المؤمنين (ع) بالكوفة و المستفاد من الروايات الاخر أنّ وفاته كان عند كونه (ع) بالمدينة ولعلّنا نشير الى تلك في أواخر الشرح ان ساعدنا التوفيق ان شاء الله ، منه

كثير من أحوال الميّت وأهوال البرزخ المسوق لها هذا الفصل من كلامه عليه السلام ، وأوردت ذيله مع خروجه عن مقتضى المقام لانّى إن ساعدني التوفيق إنشاءالله اورد في شرح باب الكتب والوصايا مبدء أمر سلمان و كيفيّة اسلامه وبعض مناقبه فأحببت أن اورد هنا مآل أمره ومنتهاه ليطلع النّاظر في الشرح على بداية حاله و نهايته مع ما فيه من اعجاز عجيب لأمير المؤمنين سلام الله عليه وعلى آله الطّيبين هذا .

ولايخفى مافي هذه الرّواية من الكفاية للمهتدى الطالب للرّشاد ، بمافيها من التّنبيه و الايقاظ من الغفلة والرقاد ، فانّ هذا الميّت مع كونه ممّن ألهمه الله الخير والصلاح و كونه من أهل السعادة والفلاح إذاكان حاله ذلك ، ومصير أمره كذلك فكيف بنا ونحن المنهمكون في الشّهوات والمستغرقون في بحار السّيئآت .

تروّ عنا الجنائز مقبلات ونلهو حين تذهب مدبرات
كروعة ثلّة لمغار ذئب فلمّا غاب عادت راتعات

اشتغلنا ببدوات الخواطر ، ونسينا الله واليوم الآخر ، و غفلنا عن أخذ الزاد ليوم المعاد ، و لا سبب لهذه الغفلة إلاّ قسوة القلوب بكثرة المعاصي و الذّنوب ، فليس لنا خلاص ومناص ، ولا معاذ ولا ملاذ ، ولامطمع ولا رجاء إلاّ في بحر الكرم والجود ، والتّفضل من واجب الوجود

ولما قسى قلبي و ضاقت مذاهبي جعلت رجائى نحو عفوك سلّما
تعاظمنى ذنبي فلمّا قرنته بعفوك ربّي كان عفوك أعظما
فمازلت ذا عفو عن الذّنب لم تزل تجود و تعفو منّة و تكرّماً

الترجمة

تنزيه ميكنم تورا تنزيه كردني در آنحال كه آفرينندۀ مخلوقاتي ومعبود موجودات بسبب حسن امتحان خود درحين آفريدن ، آفريدي خانۀ را كه عبارت است از خانـۀ آخرت و مهيا نمودي در آن مهمانيرا : شرابي و طعامي و زناني و خدمتگذاراني و غرفه هاى رفيعه ونهرهاى لطيفه و زراعتهاى خوب و ميوه‌هاى

مرغوب ، بعداز آن فرستادی دعوت کنندهٔ را که میخواند مردمان را بسوی آن پس این مردمان نادان نه دعوت کننده را اجابت نمودند ، و نه در آنچه ترغیب نمودی راغب شدند ، ونه بسوی آنچه که مشتاق نمودی بسوی آن شایق گشتند.

روی آوردند برجیفهٔ دنیای غدّار در حالتیکه مفتضح و رسوا شدند بسبب خوردن آن ، واتفاق وآشتي کردند بردوستي آن ، و هر که عاشق گشت بچیزی پرده کشید آن چیز چشم اورا ، وناخوش گردانید قلب اورا ، پس او نظر می کند باچشم ناصحیح ، ومیشنود با گوش ناشنوا ، درحالتیکه دریده وپاره کرده شهوات دنیویه عقل اورا ، و کشته دنیای دني قلب اورا ، وواله وشیفته شده بردنیانفس او .

پس آن محبّ دنیا بنده دنیا است وبنده کسیستکه دردستهای آنچیزیست ازمتاع دنیا ، هر کجا که گردید دنیا گردید آنشخص بسوی آن، وهر کجا که روی آورد دنیا روی نهاد اوبر آن درحالتي که منزجر نمیشود ازخدا بزجر کننده ومتعظ نميشود ازحق تعالی بموعظه نماینده ، و حال آنکه می‌بینند کسانی را که گرفتارشدند درحالت غفلت‌ومغروري‌درمکاني که نیست هیچ فسخ واقاله‌مر ایشانرا ونه رجوع وباز گشتني‌درحق ایشان ، چگونه نازلشد بایشان‌چیزیکه جاهل بودند بآن ، وآمدمالشان‌درمفارقت‌دنیاچیزیکه‌خاطرجمع بودند ازآن، وآمدندازآخرت برآنچه که بودند که وعده داده میشدندبآن .

پس قابل وصف و تعریف نیست چیزیکه نازلشد بآنها ، جمع شد برایشان سختي‌وشدت مرگ وحسرت وپشیماني‌وفات ، پس‌سست گشت ازجهة سکرات موت اعضاء ایشان ، وتغییر یافت ازجهة آن رنگهای ایشان .

بعدازآن افزون شد مرگ در ایشان از حیثیت دخول ، پس حایل شد میان هریك‌ازایشان‌ومیان‌سخن گفتن‌او، وبدرستیکه اودرمیان اهل‌خودنگاه میکندبدیدهٔ خود ومي‌شنودبگوش‌خود برصحت عقل‌خود وباقي‌بودن ادراك خود ، تفکرمی کند که درچه‌چیزفاني کرد عمر خودرا ، و درچه چیز گذرانیدروزگارخودرا ، و بیاد می‌آورد مالهائی‌را که جمع‌نمود آنهارا ، واغماض‌نمود درمواضع طلب آنها ، وأخذ

نمود آنهارا ازجاهائی که واضح وروشن بود حلیّت آن ، وازجاهای شبهه‌ناك آنها بتحقیق که لازم شد اورا گناههای جمع آوری آنها ، ومشرف شد برمفارقت آنها باقی ماند آنها ازبرای پس ماندگان اودرحالتیکه منعم میشوند بر آنها ، ومتمتع میباشند بآنها ، پس باشد گوارائی آن اموال از برای غیر او ، و بار گران و وزر وبال آنها برپشت او ، وحال آنکه آنمرد بسته شده گروهای او بسبب آنمالها ،

پس او گزد دندان خودرا از روی ندامت وپشیمانی برآنچه که ظاهر شد باو در حین مرگ ازامر خود ، و ترك رغبت میکند درآنچه که راغب بود در آن درمدّت عمرخود ، وآرزو میکند اینکه کاشکی آن‌شخصی که‌غبطه مینمود باوبسبب آن اموال و حسد میبرد بر او در آنها آنشخص حیازت نمودی و جمع میکردی آنها را نه او .

پس همیشه مرگ ثابت بود مبالغه می‌کرد دربدن او تا آنکه آمیخته شد بقوّهٔ ناطقهٔ او سامعهٔ او ، پس گردید درمیان اهل خود بحیثیتی که قادرنبود سخن بگوید با زبان‌خود، و نه بشنود با گوش خود درحالتی که گرداند چشم خودرا بنگاه کردن در رویهای ایشان ، بیند حرکتهای زبانهای ایشان را ، و نمی‌شنود تردید سخنان وجواب باز دادن ایشان را .

پس از آن زیاده میشود مرگ درحیثیّت چسبیدن باو ، پس أخذ کند چشم اورا همچنانکه قبض نمود گوش اورا ، وخارج شود روح ازتن‌او ، پس گردد جیفه ومرداری درمیان اهل خود درحالتی که وحشت کنند ازجانب او ودوری جویند از نزدیکی او ، و موافقت نمی‌کند گوبندهٔ خودرا ، و جواب نمیتواند بدهد برخوانندهٔ خود .

پس‌ازآن بردارند اورا بسوی منزل او درزمین پس سپارند اورا درآن منزل بعمل خودش وبریده شوند از زیارت کردن او .

شارح فقیر کثیرالتقصیر می‌گوید که مخفی نماند کفایت این کلام بلاغت نظام در مقام وعظ و تذکیر و انذار و تحذیر و هدایت سرگشتگان بادیه ضلالت

ونجات دادن غرق شدگان دریای غفلت را ، ولنعم ماقیل :

دلا یکدم از خواب بیدار شو ز سر مستی کبر هشیار شو
بعبرت نظر کن سوی رفتگان که فردا شوی عبرت دیگران
بزرگی که سودی بگردون سرش نگه کن که چون خاك شد پیکرش
ز دور زمان نگذرد اندکی که خواهی تو هم بود از ایشان یکی

الفصل الثالث

حَتّىٰ إِذا بَلَغَ الْكِتابُ أَجَلَهُ ، وَالْأَمْرُ مَقادِيرَهُ ، وَأُلْحِقَ آخِرُ الْخَلْقِ بِأَوَّلِهِ ، وَجاءَ مِنْ أَمْرِ اللهِ ما يُرِيدُهُ مِنْ تَجْدِيدِ خَلْقِهِ ، أَمادَ السَّماءَ وَفَطَرَها ، وَأَرَجَّ الْأَرْضَ وَأَرْجَفَها ، وَقَلَعَ جِبالَها وَنَسَفَها ، وَدَكَّ بَعْضُها بَعْضاً مِنْ هَيْبَةِ جَلالِهِ ، وَمَخُوفِ سَطْوَتِهِ ، وَأَخْرَجَ مَنْ فِيها ، فَجَدَّدَهُمْ بَعْدَ إِخْلاقِهِمْ وَجَمَعَهُمْ بَعْدَ تَفْرِيقِهِمْ ، ثُمَّ مَيَّزَهُمْ لِما يُرِيدُ مِنْ مَسائِلَتِهِمْ : عَنْ خَفايا الْأَعْمالِ ، وَخَبايَا الْأَفْعالِ ، وَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ : أَنْعَمَ عَلىٰ هٰؤُلاءِ ، وَانْتَقَمَ مِنْ هٰؤُلاءِ .

فَأَمّا أَهْلُ الطّاعَةِ ، فَأَثابَهُمْ بِجِوارِهِ ، وَخَلَّدَهُمْ فِي دارِهِ ، حَيْثُ لا يَظْعَنُ النُّزّالُ ، وَلا يَتَغَيَّرُ لَهُمُ الْحالُ ، وَلا تَنُوبُهُمُ الْأَفْزاعُ ، وَلا تَنالُهُمُ الْأَسْقامُ ، وَلا تَعْرِضُ لَهُمُ الْأَخْطارُ ، وَلا تُشْخِصُهُمُ الْأَسْفارُ ، وَأَمّا أَهْلُ الْمَعْصِيَةِ ، فَأَنْزَلَهُمْ شَرَّ دارٍ ، وَغَلَّ الْأَيْدِي إِلَى الْأَعْناقِ ، وَقَرَنَ

النّواصي بالأقدام، وألبسهم سرابيل القطران، ومقطّعات النّيران، في عذاب قد اشتدّ حرّه، وباب قد أطبق على أهله، في نار لها كلب ولجب، ولهب ساطع، وقصيف هائل، لا يظعن مقيمها، ولا يفادى أسيرها، ولا تفصم كبولها، لا مدّة للدّار فتفنى، ولا أجل للقوم فيقضى.

اللغة

(الكتاب) بمعنى المكتوب من كتب بمعنى حكم وقضى يقال كتب القاضى بالنّفقة و (ماد) يميد ميداً و ميداناً تحرّك و أماده حرّكه، وفي بعض النّسخ أمار، والموران الحركة (وأرجّ) الأرض زلزلها أرجّت الأرض وأرجّها الله يستعمل لازما و متعدّيا وفي بعض النسخ ورجّ الأرض بغير همز وهو الأفصح المطابق لقوله تعالى إذا رجّت الأرض رجّاً و (الرّجفة) الزّلزلة الشّديدة و (نسفها) قلعها من اصولها.

و قوله (بعد اخلاقهم) في بعض النسخ بفتح الهمزة وفي بعضها بالكسر من خلق الثّوب بالضّم اذا بلى فهو خلق بفتحتين وأخلق الثوب بالالف لغة و أخلقته يكون الرّباعي لازماً ومتعدّياً هكذا في المصباح، وقال الطّريحى : وثوب اخلاق اذا كانت الخلوق فيه كلّه و (ظعن) ظعناً وظعناً من باب نفع سار و ارتحل، ويتعدّي بالهمزة وبالحرف يقال أظعنته وظعنت به و (الاخطار) جمع الخطر محرّكة كأسباب وسبب وهو الاشراف على الهلاك وخوف التّلف.

و (شخص) يشخص من باب منع خرج من موضع إلى غيره ويتعدّى بالهمزة فيقال أشخصته و (السّربال) القميص و (القطران) بفتح القاف و كسر الطاء وبها قرأ السّبعة في قوله تعالى سرابيلهم من قطران، وربما يكسر القاف ويسكن الطّاء

وهوشيء أسود لزج منتن يطلى به الابل .

و (المقطّعات) الثياب التي تقطع وقيل : هى قصار الثياب و (الكلب) محرّكة الشدّة و يقال كلب الدّهر على أهله اذا ألحّ عليهم و اشتدّ و (اللّجب) بالتحريك أيضاً الصّوت و (القصيف) الصّوت الشديدة و (تفصم) بالفاء من انفصم وهو كسر الشيء من غير إبانة ، وفي بعض النسخ بالقاف وهو الكسر مع إبانة و (الكبول) جمع الكبل كفلس وفلوس وهو القيد يقال كبلت الأسير و كبلته إذا قيدته فهو مكبول ومكبل قال الشّاعر :

لم يبق الاّ أسير غير منقلب ... وموثق في عقال الاسر مكبول

الاعراب

قوله : فأما أهل الطّاعة فأثابهم بجواره ، أما حرف شرط و تفصيل وتوكيد أما أنها شرط فبدليل لزوم الفاء بعدها ، وأما أنها تفصيل فلكونها مكرّرة غالباً قال تعالى : وأمّا السّفينة فكانت لمساكين ، وأمّا الغلام ، وأمّا الجدار ، الآيات ، وأما أنها مفيدة للتوكيد فقد أفصح عنه الزمخشري حيث قال : فايدة أمّا في الكلام أن تعطيه فضل توكيد ، تقول زيد ذاهب فاذا قصدت توكيد ذلك وأنه لا محالة ذاهب وأنّه بصدد الذهاب وأنه منه على عزيمة تقول : أمّا زيد فذاهب ، ولذلك قال سيبويه في تفسيره : مهما يكن من شيء فزيد ذاهب ، فهذا التفسير مفيد لفايدتين : بيان كونه تاكيداً، وأنه في معنى الشرط .

وقوله : حيث لايظعن النزال ، حيث ظرف مكان بدل من قوله في داره ، وهى من الظّروف الواجبة الاضافة الى الجمل ومبنيّة على الضمّ أمّا بناؤها فلأنها مضافة في المعنى إلى المصدر الذي تضمّنته الجملة إذ معنى جلست حيث جلس زيد جلست مكان جلوسه و إن كانت في الظّاهر مضافة إلى الجملة فاضافتها اليها كلا اضافة فشابهت الغايات المحذوف ما اضيفت اليه فلهذا بنيت على الضمّ كالغايات .

قال نجم الأئمة الرّضيّ : واعلم أنّ الظرف المضاف إلى الجملة لماكان ظرفاً

للمصدر الذي تضمّنته الجملة على ما قرّرنا لم يجز أن يعود من الجملة اليه ضمير فلا يقال آتيك يوم قدم زيد فيه ، لأنّ الرّبط الذي يطلب حصوله من مثل هذا الضمير حصل باضافة الضمير الى الجملة وجعله ظرفاً لمضمونها ، فيكون كانّك قلت يوم قدوم زيد فيه ، أى في اليوم و ذلك غير مستعمل وإنما وجب الرّبط لما لم يكن الظرف مرتبطا بأن كان منوّنا نحو يو ماقدم فيه زيد ، قال تعالى : يوم تسودّ وجوه وقد يقول العوام : يوم تسودّ فيه الوجوه ونحوه ، وهو شاذّ وبذلك ظهر عدم الحاجة الى الضّمير في قوله حيث لا يظعن النزال ، فانّ معناه مكان عدم ظعن النزال فافهم ذلك فانّه ينفعك في كثير من المقامات الآتية .

المعنى

اعلم أنّ هذا الفصل من كلامه عليه السلام متضمّن لبيان حال العباد في المعاد و كيفيّة محشرهم ومنشرهم وبعثهم وجمعهم وإثابة المطيعين منهم وعقاب العاصين وأكثر ما أورده عليه السلام هنا مطابق لآيات الكتاب الكريم والقرآن الحكيم حسبما تطلع عليه فيما يتلى عليك فأقول : قوله : (حتّى اذا بلغ الكتاب أجله و الأمر مقاديره) أراد بالكتاب ما كتبه الله تعالى سبحانه وقضاه في حقّ النّاس من لبثهم في القبور إلى يوم الحشر والنشور وبالأمر (١) الأمورات المقدّرة الحادثة في العالم السفلي المشار اليها بقوله تعالى :

« وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلاّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ » .

فالمعنى أنّه إذا بلغ المقضى في حقّ العباد غايته ونهايته في الأمورات المقدّرة مقاديرها المعلومة وحدودها المعينة التي اقتضت الحكمة الالهية والتدبير الأزلى بلوغها اليها (والحق آخر الخلق بأوّله) أى انتزعوا جميعاً عن الدّنيا وأحاط بهم الموت والفنا واجتمعوا فى القبور بعد سكنى القصور (وجاء من أمر الله) وحكمه (مايريده من

١ـ وقد تقدّم فى شرح الفصل التاسع من الخطبة الاولى فى بيان معنى قوله (ع) ومختلفون بقضائه وأمره ، ما ينفعك ذكره فى المقام فليراجع ؛ منه

تجديد خلقه) أي بعثهم وحشرهم (أماد السّماء وفطرها) أي حرّكها وشقّها، وهو اشارة إلى خراب هذا العالم.

وبه نطق قوله سبحانه: يوم تمور السّماء موراً، أي تضطرب وتموج وتتحرّك، وفي سورة المزمّل: السّماء منفطر به وكان وعده مفعولا، قال الطّبرسيّ: المعنى أنّ السّماء تنفطر وتنشق في ذلك اليوم من هوله، وفي سورة الانفطار: إذا السّماء انفطرت، قال الطّبرسيّ تشقّقت وتقطّعت.

(و أرجّ الأرض و أرجفها) أي حرّكها وزلزلها كما قال تعالى في سورة الواقعة: إذا رجّت الأرض رجّاً، قال الطّبرسيّ أي حركت حركة شديدة، وقيل زلزلت زلزالا شديداً، وقيل معناه رجّت بما فيها كما يرجّ الغربال بما فيه فيكون المراد ترجّ باخراج من في بطنها من الموتى، وفي سورة النّازعات: يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة، قيل أي تضطرب الأرض اضطراباً شديداً و تحرّك تحرّكا عظيماً يعني يوم القيامة تتبعها الرادفة أي اضطرابة اخرى كائنة بعد الأولى في موضع الرّدف من الراكب فلا تزال تضطرب حتى يفنى كلّها.

(وقلع جبالها ونسفها) وهو موافق لقوله تعالى في سورة طه:

«وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً لا تَرى فِيها عِوَجاً وَلا أَمْتاً».

قال الطّبرسيّ أي ويسألك منكر والبعث عند ذكر القيامة عن الجبال ماحالها فقل: يا محمّد ينسفها ربّي نسفاً، أي يجعلها ربّي بمنزلة الرّمل، ثمّ يرسل عليها الرّياح فيذريها كتذرية الطعام من القشور و التّراب فلا يبقى على وجه الأرض منها شيء وقيل يصيّرها كالهباء، وقيل إنّ رجلا من ثقيف سأل النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم كيف تكون الجبال يوم القيامة مع عظمها؟ فقال صلّى الله عليه وآله: إنّ الله يسوقها بأن يجعلها كالرّمال ثمّ يرسل عليها الرّياح فتفرّقها، فيذرها، اى فيدع أماكنها من الأرض إذا نسفها، قاعا، أي أرضا ملساء، وقيل منكشفة، صفصفاً، أي أرضا مستوية ليس للجبل فيها أثر،

لاترى فيها عوجاً ولا أمتا، أى ليس فيهامنخفض ولا مرتفع وفي سورة الواقعة :

« وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسّاً فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثّاً ».

أى فتت فتاً أو كسرت كسراً ، فكانت غباراً متفرّقاً كالذى يرى من شعاع الشّمس اذا دخل من الكوّة وفي سورة المزّمل :

« يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ وَ كانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلاً ».

قال الطّبرسيّ : أى رملا سائلامستأثراًعن ابن عباس وقيل: المهيل الذى اذا وطأه القدم زلّ من تحتها وإذا اخذت أسفله انهار أعلاه ، عن الضحاك ، والمعنى أنّ الجبال تنقلع من اُصولها فتصير بعد صلابتها كالرّمل السّائل و دكّ بعضها بعضا من هيبة جلاله ومخوف سلطنته، ويشهد به قوله سبحانه في سورة الحاقّة :

« فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ » .

أى رفعت الأرض و الجبال من اماكنها و ضرب بعضها ببعض حتّى تفتت الجبال وسفتها الرّياح وبقيت الأرض شيئاً واحداً لا جبل فيها ولارابية، بل تكون قطعة مستوية ، و قال عليّ بن إبراهيم القمّي في تفسيرها : قد وقعت فدكّ بعضها على بعض ، و قال الطّبرسيّ أى كسرتا كسرة واحدةلاتثنى حتى يستوى ماعليهامن شيء مثل الأديم الممدود .

(و اخرج من فيها فجدّدهم بعد اخلاقهم) أى بعد كونهم خلقاباليا أو بعد جعله لهم كذلك (وجمعهم بعد تفريقهم) يحتمل أن يكون المراد به جمع اجزائهم بعد تفتتهم وتأليف أعضائهم بعد تمزيقهم و جمع نفوسهم في المحشر بعد تفرّقهم في مشارق الأرض ومغاربها و الثّاني أظهر (ثمّ ميّزهم لمايريد من مسائلتهم عن خفايا الأعمال وخبايا الأفعال) أى أعمالهم الّتي فعلوها في خلواتهم (و جعلهم فريقين أنعم على هؤلاء وانتقم من هؤلاء) كما قال تعالى :

« إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ » و في سورة الرّعد: « مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الكَافِرِينَ النَّارُ » .

و اليه أشار بقوله (فأمّا أهل الطّاعة) و السّعادة (فأثابهم بجواره) و قربه (و خلّدهم فيداره) الاضافة للتشريف و التكريم وفيها تشويق وترغيب الى هذه الدّار لا سيّما وانها دار خلود (حيث لا يظعن النزال) أى لا يرتحل النازلون فيها عنها و لا يجوز عليهم الانتقال (و) دار سلامة واستقامة (لايتغيّر لهم الحال و) دارأمن و كرامة (لاتنوبهم الأفزاع و) دار صحّة وعافية (لاتنالهم الأسقام و) دار سرور ولذّة (لاتعرض لهم الأخطار و) دار استراحة (لاتشخصهم الأسفار) وفي هذه كلّها اشارة إلى سلامة أهل الجنان من الهموم والأحزان، و آفات الأجساد والأبدان ، وطوارق المحن و البلاء العارضة لأهل الدّنيا ، وفيها حسبما اشرنا اليه حثّ وترغيب اليها وإلى المجاهدة في طلبها .

فتنبّه أيّها المسكين من نوم الغفلة ، و استيقظ من رقدة الجهالة ، و عليك بالمجاهدة والتّقوى ، ونهى النفس عن الهوى لتصل إلى تلك النعمة العظمى وتدرك الجنّة التي عرضها الأرض والسموات العلى ، وتفكّر في أهلها وساكنيها « تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنَافِسُونَ » .

جالسين على منابر الياقوت الأحمر في خيام من اللّؤلؤ الرّطب الأبيض فيها بسط من العبقري الأخضر متّكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر و العسل محفوفة بالغلمان و الولدان مزيّنة بالحور العين من الخيرات الحسان ، كأنّهنّ الياقوت والمرجان لم يطمثهنّ انس قبلهم ولاجانّ ، يمشين في درجات الجنان

و اذا اختالت احديهنّ في مشيها حمل اعطافها سبعون ألفاً من الولدان عليها من طرايف الحرير ماتتحيّر فيه الأبصار مكلّلات بالتّيجان المرصّعة باللّؤلؤ والمرجان مشكلات غنجات عطرات امنات من الهرم والبوس وحوادث الزّمان مقصورات في الخيام في قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان قاصرات الطرف عين ثمّ يطاف عليهم وعليهنّ بأكواب و أباريق و كأس من معين بيضاء لذّة للشّاربين ، و يطوف عليهم ولدان مخلّدون كأمثال اللّؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون ، في مقام أمين في جنّات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، لا يرهقهم قتر ولا ذلّة بل عباد مكرمون لا خوف عليهم ولاهم يحزنون ، ومن ريب المنون آمنون ، خالدون فيها ويأكلون من أطعمتها ويشربون من أنهارها لبنا و خمراً و عسلا مصفّى ، و أيّ أنهار أراضيها من فضّة بيضاء وحصبائها مرجان ، ويمطرون من سحاب من ماء النسرين على كثبان الكافور ويجلسون على أرض ترابها مسك أذفر ، ونباتها زعفران .

فيا عجبا لمن يؤمن بدار هذه صفتها ، ويوقن بأنه لايموت أهلها ولاتحلّ الفجائع بمن نزل بساحتها ، ولا تنظر الأحداث بعين التغيير إلى أهلها ، كيف يأنس بدار قد أذن الله في خرابها ، و نودى بالرّحيل قطانها ، و الله لولم يكن فيها الاّ سلامة الأبدان مع الأمن من البلاء والموت وساير الحدثان ، لكان جديراً بأن يهجر الدّنيا بسببها ، ولا تؤثر عليها مع كون التنغّص و التصرّم من ضروراتها ، فانّ نعم الدّنيا زايلة كلّها فانية ، ونعم الجنّة دائمة باقية ، وأهل الدّنيا كلّهم متنغّصون هالكون، وأهل الجنّة منعّمون آمنون .

قال رسول الله ﷺ : ينادى مناديا أهل الجنة انّ لكم أن تصحّوا فلاتسقموا أبداً ، وانّ لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وانّ لكم أن تشبّوا فلاتهرموا أبداً وانّ لكم أن تنعّموا فلا تيأسوا أبداً ، فذلك قول الله عزّ وجلّ :

« وَ نُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

(وأمّا أهل المعصية) والشّقاوة (فأنزلهم شرّ دار) وبئس القرار (وغلّ الأيدي إلى

الأعناق) بأغلال وسلاسل من نار قال سبحانه :

« إِذِ الْأَغْلالُ في أعناقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ » وفي سورة يس : « إِنَّا جَعَلْنا في أعناقِهِمْ أغلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ » .

قال الطّبرسيّ : يعني أيديهم ، كنّى عنها وان لم يذكرها لأنّ الأعناق والأغلال تدلاّن عليها ، و ذلك انّ الغلّ انما يجمع اليد الى الذقن و العنق ولايجمع الغلّ العنق الى الذقن ، وروى عن ابن عباس وابن مسعود انهما قرء آانّا جعلنا في أيمانهم أغلالاً ، وقرأ بعضهم في أيديهم ، والمعنى في الجميع واحد ، لأنّ الغلّ لايكون في العنق دون اليد ولا في اليد دون العنق ، وقوله : فهم مقمحون (١) ، أراد أنّ أيديهم لما غلّت الى أعناقهم ورفعت الأغلال أذقانهم ورؤوسهم صعدا فهم مرفوعو الرّأس برفع الأغلال ايّاها

« وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَداً فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ » .

اشارة الى ضيق المكان في النار بحيث لا يجدون متقدّما ولا متأخّراً إذ سدّ عليهم جوانبهم فأغشيناهم بالعذاب فهم لايبصرون في النار .

(وقرن النّواصي بالأقدام) بالأغلال والأصفاد كماقال تعالى في سورة الرحمن

« يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَالْأَقْدامِ » .

قال الطّبرسيّ في تفسيره : تأخذهم الزّبانية فتجمع بين نواصيهم وأقدامهم بالغلّ

١ـ المقمح الغاض بصره بعد رفع رأسه ويقال قمح البعير اذا رفع رأسه و لم يشرب الماء، مجمع البيان .

ثمّ يسحبون في النّار ويقذفون فيها (وألبسهم سرابيل القطران) كما قال عزّ من قائل في سورة إبراهيم :

« وَ تَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ»

قال المفسّر وهو مايطلى به الابل الجربي فيحرق الجرب والجلد ، و هوشيء أسود لزج منتن يطلون به فيصير كالقميص عليهم ثمّ يرسل النار فيهم ليكون أسرع اليهم وأبلغ في الاشتعال وأشدّ في العذاب ، وقيل السّربال من قطران تمثيل لما يحيط بجوهر النّفس من المهلكات الرّدية والهيئآت الموحشات المؤلمة (ومقطّعات النّيران) قيل : المقطّعات كلّ ثوب يقطع كالقميص و الجبّة و نحوهما لامالا يقطع كالازار و الرّداء ، و لعلّ السرّ في كون ثياب أهل النار مقطعات كونها أشدّ في العذاب لاشتمالها على جميع البدن ، وفي مجمع البيان في تفسير قوله :

« فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ »

قال ابن عباس : حين صاروا إلى جهنّم لبسوا مقطّعات النيران ، وهى الثياب القصار و قيل يجعل لهم ثياب نحاس من نار و هى أشدّ ما تكون حمى ، و قيل انّ النّار تحيط بهم كاحاطة الثياب التي يلبسونها (في عذاب قد اشتدّ حرّه وباب قد اطبق على أهله) لكونهم في العذاب مخلّدين ، وفي النار محبوسين ، ومن خروج الباب ممنوعين ، فالأبواب عليهم مغلقة ، وأسباب الخروج بهم منقطعة قال سبحانه:

« كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ » .

قال الحسن : انّ النار ترميهم بلهبها حتّى اذا كانوا في أعلاها ضربوا بمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً ، فاذا انتهوا إلى أسفلها ضربهم زفير لهبها فلا يستقرّون ساعة فذلك قوله : كلّما أرادوا الآية ، و أمّا أهل الجنّة فأبوا بها عليهم مفتوحة كما قال تعالى :

« وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جَنَّاتُ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوابُ » .

(في نار لها كلب ولجب ولهب ساطع) أى لها شدّة وصوت واشتعال مرتفع (وقصيف هائل) أى صوت شديد مخوف (لايظعن مقيمها) بل كلّما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها و قيل لهم ذوقوا عذاب النّار الذي كنتم به تكذّبون (و لا يفادى أسيرها) أى لا يؤخذ عنه الفدية فيخلص كأسراء الدّنيا (ولاتفصم كبولها) وقيودها بل هي و ثيقة محكمة (لامدّة للدّار فتفنى و لا أجل للقوم فيقضى) بل عذابها أبدىّ سرمدي .

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح بين الجنّة و النّار ، و يقال : يا أهل الجنّة خلود بلا موت ، و يا أهل النّار خلود بلا موت .

فيا أيّها الغافل عن نفسه المغرور بما هوفيه من شواغل هذه الدّنيا المؤذنة بالزّوال والانقضاء، دع التّفكر فيما أنت مرتحل عنه و اصرف الفكر الى موردك ومصيرك وقداخبرت بأنّ النارمورد للجميع اذقيل:

« وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظّالِمِينَ فِيها جِثِيّاً » .

فانت من الورود على يقين و من النّجاة في شكّ ، فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعدّ للنجاة منه ، وتأمّل في حال الخلايق و قدقاسوا من دواهى القيامة ما قاسوا ، فبينماهم في كربها وأهوالها وقوفا ينتظرون حقيقة أنبائها ، اذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب و أظلّت عليهم نار ذات لهب ، و سمعوا لها زفيراً وجرجرة تفصح عن شدّة الغيظ والغضب ، فعند ذلك أيقن المجرمون بالهلاك والعطب ، وجثت الأمم على الركب ، حتى اشفق البرآء من سوء المنقلب ، وخرج المنادى من الزّبانية قائلا أين فلان بن فلان المسوّف نفسه فى الدّنيا بطول الأمل

المضيّع عمره في سوء العمل، فيبادرونه بمقامع من حديد، ويستقبلونه بعظائم التّهديد ويسوقونه الى العذاب الشّديد، وينكسونه في قعر الجحيم، ويقولون له: ذق إنّك أنت العزيز الكريم.

فاسكنوا دارا ضيقة الأرجاء، مظلمة المسالك، مبهمة المهالك يخلد فيها الأسير، ويوقد فيها السعير، شرابهم فيها الحميم، ومستقرّهم الجحيم. الزّبانية تقمعهم، والهاوية تجمعهم، أمانيهم فيها الهلاك، ومآلهم منها فكاك، قد شدّت أقدامهم إلى النواصي، واسودّت وجوههم من ظلمة المعاصى.

ينادون من أكنافها، ويصيحون في أطرافها، يا مالك قد حقّ علينا الوعيد يا مالك قد أثقلنا الحديد، يا مالك قد نضجت منا الجلود، يا مالك اخرجنا منها فانّا لانعود، فتقول الزّبانية لات حين أمان، لا خروج لكم من دار الهوان، فاخسئوا فيها ولا تكلّمون، ولو اخرجتم لكنتم الى مانهيتم عنه تعودون، فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرّطوا في جنب الله يتأسّفون، ولا يغنيهم الأسف ولا ينجيهم النّدم، اذ زلّت بهم القدم، بل يكبّون على وجوههم مغلولين؛ النار من فوقهم، والنّار من تحتهم، والنار عن أيمانهم، والنّار عن شمائلهم. فهم غرقى في النّار، طعامهم وشرابهم نار، ولباسهم نار، ومهادهم نار.

فهم بين مقطعات النّيران، وسرابيل القطران، وضرب المقامع، وثقل السّلاسل، وهم يتجلجلون في مضايقها؛ ويتحطّمون في دركاتها، ويضطربون بين غواشيها، تغلى بهم النّار كغلى القدور، ويهتفون بالويل والعويل والثبور، ومهما دعوا بذلك صبّ من فوق رؤوسهم الحميم، يصهر به ما في بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد، تهشم بها جباههم، فيتفجّر الصّديد من أفواههم، وتنقطع من العطش اكبادهم، وتسيل على الخدود أحداقهم ويسقط من الوجنات لحومها، ويتمعّط(١) من الأطراف جلودها، وكلّما نضجت جلودهم بدّلوا جلوداً غيرها

١ـ معط الشعر من باب تعب سقط.

قد عريت من اللّحم عظامهم ، فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلايق العصب ، وهى تنش في نفخ تلك النيران وهم مع ذلك يتمنّون الموت فلا يموتون .

فكيف بك لونظرت اليهم و قد اسودّت وجوههم أشدّ سواداً من الحميم ، واعميت ابصارهم ، وابكمت ألسنتهم ، وقصمت ظهورهم ، و كسرت عظامهم . وجدعت آذانهم، ومزّقت جلودهم ، وغلّت أيديهم إلى أعناقهم ، وجمع بين نواصيهم وأقدامهم وهم يمشون على النار بوجوههم ويطؤن حسك الحديد بأحداقهم ، فلهيب النار سار في بواطن أجزائهم ، وحيّات الهاوية وعقاربها متشبّثة بظواهر أعضائهم .

قال أبو الدّردا : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يلقى على أهل النّار الجوع حتّى يعدل ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع ،و يستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذى غصّة فيذكرون انّهم كانوا يحيزون « يجرعون » الغصص في الدّنيا فيستغيثون بشراب فيرفع اليهم الحميم بكلاليب الحديد فاذا دنت من وجوههم شوت وجوههم، فاذا دخل الشراب بطونهم قطع ما في بطونهم فيقولون: ادعوا خزنة جهنم،قال: فيدعون فيقولون: ادعوا ربّكم يخفّف عنّا يوماً من العذاب ، و يقولون أولم تك تأتيكم رسلكم بالبيّنات قالوا بلى قالوا فادعوا و ما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال ، قال فيقولون ادعوا مالكا ، فيدعون ، فيقولون : يامالك ليقض علينا ربّك ، قال فيجيبهم إنّكم ما كثون .

قال الاعمش انبئت أنّ بين دعائهم و بين اجابة مالك إيّاهم ألف عام قال : فيقولون: ادعوا ربّكم ، فلا أحد خير من ربّكم فيقولون :

« رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَكُنّا قَوْماً ضالِّينَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنّا ظالِمُونَ » .

قال : فيجيبهم : اخسؤوا فيها ولا تكلّمون ، قال : فعند ذلك يئسوا من كلّ خير ، وعند ذلك اخذوا في الزّفير والحسرة والويل .

وعن زيد بن أسلم في قوله تعالى :

« سَوَآءٌ عَلَيْنا أَجزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ » .

قال صبروا مأة سنة ثمّ جزعوا مأة سنة ثمّ صبروا مأة سنة ثمّ قالوا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا .

وقال محمّد بن كعب : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عزّ وجلّ في أربعة فاذا كانت الخامسة لم يتكلّموا بعدها أبداً يقولون :

« رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْن فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبنا فَهَلْ إِلىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ » فيقول الله تعالىٰ مُجيباً لهم : « ذٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلّٰهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ » ثمّ يقولون : « رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً » فيجيبهم الله تعالى : « أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ » فيقولون : « رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذي كُنّا نَعْمَلْ » فيجيبهم الله تعالىٰ : « أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظّالِمينَ مِنْ نَصيرٍ » ثمّ يقولون : « رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَكُنّا قَوْماً ضالِّينَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنّا ظالِمُون » فيجيبهم الله تعالى « إِخْسَئُوا فيها وَلا تُكَلِّمُون » .

فلايتكلّمون بعدها أبداً ، و ذلك غاية شدّة العذاب ، وهذه بعض أحوال أهل النّار اجمالا ، و أمّا تفصيل غمومها و أحزانها ومحنها وحسراتهافلا نهاية لها ، فالعجب

كلّ العجب لي ولأمثالي نضحك ونلهو ونشتغل بمحقرات الدّنيا وقيناتها ، ولاندرى أنحن من أهل الجنّة وفيها منعّمون ، أم من أهل النّار وفيها معذّبون ، و كيف لنا بالجنّة مع شرور أنفسنا وغرورها ، ولارجاء بل لاطمع إلاّ برحمة الغفّار وشفاعة الشّفعاء الأطهار نعوذ بالله من النّار ومن غضب الجبّار .

الترجمة

تا اينكه زمانى كه برسد مكتوب درحقّ بندگان بنهاية خود ، و اُمورات مقدّره بغاية خود ، و لاحق گردانيده شود آخر مردمان بأوّل ايشان ، و بيايد از فرمان خداى متعال آنچه اراده كرده باشد آنرا ازتازه كردن خلق خود ، بحركت بياورد آسمان را ، وبشكافد آنرا ، وحركت دهد زمين را ، وبجنباند آنرا ، وبر كند كوههاى زمين را، وپراكنده گرداند أجزاى آنهارا مثل ريك ، وبكوبد بعضى از آنها بعضى را از هيبة جلال پروردگار ، و ترس سطوت خداوند قهّار ، و بيرون بياورد هر كس كه باشد در بطن زمين ، پس تجديد نمايد ايشانرا بعداز كهنه بودن ايشان ، وجمع كند ايشانرا بعداز پراكنده نمودن ايشان ، بعدازآن تميز ميدهد در مابين ايشان ازبراى آنچه كه اراده نموده باشد ازنوال كردن ازعملهاى نهان وفعلهاى پنهان ، و بگرداند ايشان را دو فرقه انعام بفرمايد بر اينفرقه و انتقام بكشد ازآن فرقه .

پس أما أهل طاعت و صلاح پس جزا ميدهد ايشان را بجوار رحمت خود وجاويد گرداند ايشانرا درسراى خود ، درمكانى كه كوچ نكنند فرود آيندگان ومتغير نشود بايشان احوال ، و نرسد بايشان خوفها ، در نيايد بايشان ناخوشيها ، وعارض نميشود بايشان خطرها ، وازجاى بجائى نفرستد ايشان را .

وأمّا أهل معصيت وشقاوت پس نازل ميكند ايشانرا دربدترين سرا ، وببندد دستهاى ايشان را بسوى گردنها ، و پيوست گرداند پيشانى ايشان را بقدمها ، وبپوشاند برايشان پيراهنهاى قطران جامهاى آتش سوزان ، در عذابى كه سخت

باشد گرمی آن ، ودرميان دريکه بهم آورده باشد بروی أهل آن ، در آتشی که باشد اورا شدّة و صدا و زبانه بلند شده و اورا سخت ترسانند که کوچ نکنند اقامة کننده درآن ، وفديه گرفته نشود از اسيران ، وشکسته نشود قيدهای آن ، مدّت و نهايت نباشد آن سرا را تا فانی شود ، و وقت معيّنی نباشد آن قوم را تا بآخر برسد .

الفصل الرابع

منها في ذكر النبي صلى‌الله عليه وآله

قَدْ حَقَّرَ الدُّنْيا وَصَغَّرَها ، وَأَهْوَنَها وَهَوَّنَها ، وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ زَوٰيها عَنْهُ اخْتِياراً ، وَبَسَطَها لِغَيْرِهِ احْتِقاراً ، فَأَعْرَضَ عَنْها بِقَلْبِهِ ، وَأَماتَ ذِكْرَها عَنْ نَفْسِهِ ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُها عَنْ عَيْنِهِ ، لِكَيْلا يَتَّخِذَ مِنْها رِياشاً ، أَوْ يَرْجُوَ فِيها مَقاماً ، بَلَّغَ عَنْ رَبِّهِ مُعْذِراً ، وَنَصَحَ لِاُمَّتِهِ مُنْذِراً ، وَدَعا إِلَى الْجَنَّةِ مُبَشِّراً ، نَحْنُ شَجَرَةُ النُّبُوَّةِ ، وَمَحَطُّ الرِّسالَةِ ، وَمُخْتَلَفُ الْمَلائِكَةِ ، وَمَعادِنُ الْعِلْمِ ، وَيَنابِيعُ الْحِكَمِ ، ناصِرُنا وَمُحِبُّنا يَنْتَظِرُ الرَّحْمَةَ ، وَعَدُوُّنا وَمُبْغِضُنا يَنْتَظِرُ السَّطْوَةَ .

اللغة

(هان) الشيء هوناوهوانا ذلّ و حقرفهوهيّن بالتّشديد و هين بالسّكون ويتعدّى بالهمزة فيقال أهنته وبالتّضعيف فيقال هوّنته أى أذللته و في بعض النّسخ أهون بهابدل أهونها أى لم‌يعتدّ بها ولم تكن عزيزة عليه و (زواه) زيّاوزويّانحاه

وزوى المال عن صاحبه طواه و (الرّيش) والرّياش واحد وهو ماظهر من اللّباس الفاخر و (السّطوة) القهر والذلّة .

الاعراب

اختياراً منصوب بنزع الخافض ويحتمل الحال من فاعل زوى أومن ضمير عنه على تاويله بالمشتق أى مختاراً ، واحتقاراً إما منصوب على المفعول له أوحال من فاعل بسط على التأويل بالمشتق أيضاً ومعذراً ومنذراً ومبشّراً منصوبات على الحال

المعنى

اعلم أنّ هذا الفصل من كلامه عليه السلام متضمّن لأمرين : أحدهما وصف زهد النّبيّ عليه السلام وفيه تعريض على ذمّ الدّنيا وزخارفها ، والثاني افتخاره ومباهاته عليه السلام بكمالاته النفسانيّة و اختصاصه الخاصّ الذى كان له برسول الله صلى الله عليه وآله المستلزم سبقه على غيره و تقدّمه على الكلّ .

اما الامر الاول فهو ما أفصح عنه بقوله عليه السلام (قد حقّر الدّنيا وصغّرها) التشديد للتكثير فيقتضى زيادة تحقيره و تصغيره صلى الله عليه وآله ، وهو أبلغ في الثناء عليه (وأهونها و هوّنها) أى عدّها هيّنة ذليلة في نظره و لم يعتدّ بها (و علم أنّ الله زويها) أى صرفها و طويها (عنه اختياراً) أى مختاراً بصيغة الفاعل و باختيار منه سبحانه زويها وحقّه أواختيارمنه صلى الله عليه وآله ذلك لنفسه ورضاه (وبسطها لغيره احتقاراً) أى محتقراً بالكسر أو لحقارتها عنده سبحانه .

و يشهد بذلك كلّه ما رواه في الكافي باسناده عن عبدالله بن القاسم عن أبي عبدالله عليه السلام قال : إذا أرادالله بعبد خيراً زهّده في الدّنيا وفقّهه في الدّين و بصّره عيوبها ومن أُوتيهنّ فقد أُوتى خيرالدّنيا والآخرة .

و عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال : خرج النّبيّ صلى الله عليه وآله و هو محزون فأتاه ملك ومعه مفاتيح خزائن الأرض فقال يا محمّد هذه مفاتيح خزائن الأرض

يقول لك ربك افتح وخذ منها ما شئت من غير أن ينقص شيئاً عندي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الدنيا دار من لا دار له ولها يجمع من لا عقل له، فقال الملك والذي بعثك بالحق لقد سمعت هذا الكلام من ملك يقوله في السماء الرابعة حين اعطيت المفاتيح .

و عن جميل بن دراج عن أبي عبدالله عليه السلام قال : مر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بجدى أسك ملقى على مزبلة ميتاً فقال لأصحابه : كم يساوى هذا ؟ فقالوا : لعله لو كان حياً لم يساو درهماً ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : و الذي نفسي بيده الدنيا أهون على الله من هذا الجدى على أهله .

وفي احياء العلوم للغزالي قال : قال نبينا صلى الله عليه وآله : إن ربي عز وجل عرض على أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلت : لا يارب أجوع يوماً و أشبع يوماً ، فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع اليك وأدعوك ، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك و اثنى عليك .

و يأتي انشاءالله في فصول الخطبة المأة و السابعة و الخمسين أخبار اخر مناسبة للمقام .

(فأعرض عنها بقلبه و أمات ذكرها عن نفسه و أحب أن تغيب زينتها عن عينه) قال الغزالي : روى أنه صلى الله عليه وآله وسلم مر في أصحابه بعشار من النوق حصل و هى الحوامل وكانت من أحب أموالهم اليهم وأنفسها عندهم ، لأنها تجمع الظهر واللحم واللبن و الوبر ، و لعظمها في قلوبهم قال الله تعالى : و إذا العشار عطلت ، قال : فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وأغمض بصره ، فقيل له : يارسول الله هذه أنفس أموالنا لم لاتنظر إليها ؟ فقال : قد نهاني الله عن ذلك ثم تلا قوله تعالى :

« وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا ــ الآية » .

(كيلا يتخذ منها رياشا) أى لباساً فاخراً (أو يرجو فيها مقاماً) أى اقامة مع الايمان و الاسلام و الشرايع و الأحكام (بلغ عن ربه معذراً) أى مزيلا للعذر عن

النّاس لئلاّ يكون للنّاس على الله حجّة وليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيّ عن بيّنة ولئلاّ يقولوا يوم القيامة انّا كنّا عن هذا غافلين (ونصح لاُمّته منذراً) لهم عن أليم العذاب و شديد العقاب (و دعا إلى الجنّة مبشراً) بجزيل الثّواب وحسن المآب .

وأما الامر الثاني فهوقوله (نحن شجرة النبوّة) أراد به رسول الله ونفسه الشريف وزوجته الصّديقة وأولاده الطّيبين الطّاهرين سلام الله عليهم أجمعين و به فسّر قوله سبحانه : كشجرة طيّبة أصلها ثابت و فرعها في السّماء الآية ، و قد مضى توضيحه في شرح الكلام السّادس و السّتين ، و شرح الخطبة الثّالثة و التّسعين فتذكّر .

(و محطّ الرّسالة) لم يرد بذلك أنهم عليهم السلام جميعاً رسل الله جعلهم محالّ الرّسالة وموضعها كماتوهّمه بعض الغلاة وزعموا أنّ الأئمة يوحى اليهم كالنبيّ صلى الله عليه وآله وقد كذبوا لعنهم الله و انماهم محدثون مفهمون ، بل المراد به أنّ قبيلتهم محلّ نزول الرسالة أونزلت في بيتهم،أوأنّ رسول الله مرسل من عندالله وجميع ماأرسله به و وصل إليه صلى الله عليه وآله فقد وصل اليه سلام الله عليه و أولاده الطّاهرين فهم موضع الرّسالة ومحطّها بهذا المعنى .

ويشهد بذلك ما في الكافي باسناده عن حمران بن أعين عن أبي عبدالله عليه السلام قال : إنّ جبرئيل أتى رسول الله صلى الله عليه وآله برمّانتين فأكل رسول الله إحداهما و كسر الاُخرى بنصفين فأكل نصفاً و أطعم علياً نصفاً ، ثمّ قال له رسول الله صلى الله عليه وآله يا أخي هل تدري ما هاتان الرّمانتان ؟ قال : لا ، قال : أمّا الاُولى فالنبوّة ليس لك فيها نصيب ، و أمّا الأخرى فالعلم فأنت شريكي فيه ، فقلت : أصلحك الله كيف يكون شريكه فيه ؟ قال : لم يعلم الله محمّداً صلى الله عليه وآله علماً إلاّ وأمره أن يعلّمه عليّاً

و عن محمّد بن مسلم قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول ، نزل جبرئيل عليه السلام على محمّد صلى الله عليه وآله برمّانتين من الجنّة فلقاه عليّ عليه السلام فقال :ماهاتان الرّمانتان اللتان في يديك ؟ فقال : أمّا هذه فالنبوّة ليس لك فيها نصيب ، و أمّا هذه فالعلم ،

ثمّ فلقها رسول الله صلى الله عليه وآله بنصفين فأعطاه نصفها وأخذ رسول الله نصفها ثمّ قال : أنت شريكي فيه وأنا شريكك فيه وقال عليه السلام فلم يعلم والله رسول الله صلى الله عليه وآله حرفا مما علّمه الله إلاّ وقد علّمه علياً عليه السلام ، ثمّ انتهى العلم إلينا ثمّ وضع يده على صدره

وبالجملة فالمراد أنّهم مخزن علم الرسالة وأسرارها (ومختلف الملائكة) أي محلّ اختلافهم وتردّدهم ومجيئهم وذهابهم مرّة بعد اخرى ، أما رسول الله صلى الله عليه وآله فظاهر ، وأما الأئمة عليهم السلام فلأنّهم ينزلون اليهم مرّة بعد أُولى و طائفة بعد أُخرى لزيارتهم والتشرّف بهم وإنزال الأخبار اليهم .

ويدلّ عليه ما في الكافي باسناده عن مسمع كردين البصرى قال : كنت لا أزيد على اكلة باللّيل و النّهار فربّما استأذنت على أبي عبدالله عليه السلام وأجد المائدة قد رفعت لعلّي لا أراها بين يديه فاذا دخلت دعا بها فأُصيب معه من الطعام ولا أتأذّى بذلك واذا عقبت بالطعام عند غيره لم أقدر على أن اقرّ ولم أنم من النفخة ، فشكوت ذلك اليه عليه السلام وأخبرته بأنّي اذا أكلت عنده لم أتأذّ به ، فقال : يا با سيّار إنّك تأكل طعام قوم صالحين تصافحهم الملائكة على فرشهم ، قال : قلت : ويظهرون لكم قال ، فمسح يده على بعض صبيانه فقال : هم ألطف بصبياننا منّا بهم.

وعن الحسين بن أبي العلا عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال يا حسين وضرب بيده إلى مساور في البيت، مساور طال ما اتّكت عليها الملائكة وربما التقطنا من زغبها

والمساور جمع المسورة وهو المتّكاء ، والزّغب محرّكة صغار الريش ولينه.

و فيه عن أبي حمزة الثمالي قال : دخلت على علي بن الحسين عليهما السلام فاحتبست في الدار ساعة ثمّ دخلت البيت وهو يلتقط شيئاً وأدخل يده من ورآء الستر فناوله من كان فى البيت ، فقلت : جعلت فداك هذا الذي أراك تلتقطه أيّ شيء هو ؟ فقال : فضلة من زغب الملائكة نجمعه إذا خلونا نجعله سبحاً لأولادنا ، فقلت جعلت فداك وانّهم ليأتونكم؟ فقال: ياباحمزة انّهم ليزاحمونا على تكائتنا

و السبح بالباء الموحدة النّوم و السّكون ، وفي بعض النّسخ سيحاً بالياء المثناة التحتانيّة وهو الكساء المخطط ، وفى البحار عن بصائر الدّرجات سحاباً بدله

و هو ككتاب خيط ينظم فيه خرز و يلبسه الصبيان و الجوارى ، و التّكأة كهمزة ما يتّكا عليه.

و في الكافي أيضاً عن عليّ بن أبي حمزة عن أبي الحسن قال : سمعته يقول : مامن ملك يهبطه الله في أمر مايهبطه إلاّ بدء بالامام فعرض ذلك عليه ، وأنّ مختلف الملائكة من عندالله تبارك وتعالى إلى صاحب هذا الأمر .

وفي البحار من بصائر الدرجات عن أحمد عن الحسين عن الحسن بن برة الأصم عن أبي عبدالله عليه السلام قال : سمعته يقول : إنّ الملائكة لتنزل علينا في رحالنا وتنقلب على فرشنا وتحضر موائدنا وتأتينا من كلّ نبات في زمانه رطب و يابس ، وتقلب أجنحتها على صبياننا ، و تمنع الدّواب أن تصل الينا و يأتينا في وقت كلّ صلاة لتصلّيهامعنا ، و مامن يوم يأتي علينا و لا ليل إلاّ و أخبار أهل الأرض عندنا ، ومايحدث فيها ، ومامن ملك يموت في الأرض ويقوم غيره إلاّ وتأتينابخبره ، و كيف كان سيرته في الدّنيا .

و الأخبار في هذاالمعنى كثيرة ، وفيما ذكرناه كفاية ، و قد عقد العلاّمة المجلسي (ره) في المجلد السابع من البحار باباً في أنّ الملائكة تأتيهم و تطاء فرشهم وأنهم يرونهم صلوات الله عليهم أجمعين .

(ومعادن العلم) أى مستقرّه ومحلّه وقد مضى بيان ذلك في التذييل الثالث من الفصل السابع عشر من فصول الخطبة الاُولى ، و في شرح الفصل الرّابع من فصول الخطبة الثانية .

(و ينابيع الحكم) أى منهم عليهم السلام يخرج الأحكام إلى العباد يجرى إلى الموادّ القابلة على حسب الاستعداد حسبما يجرى المياه من مجاريها و منابعها فتربط الجاش و تسقى العطاش كما يروّى الماء للغليل ويقوى للعليل ، و المراد بالحكم إمّا الأحكام الشرعية أو فصل الخطاب أعنى القضاء و قطع الخصومات بالصّواب في كلّ باب على مامضى تحقيقه وتفصيله في شرح الفصل الرّابع من فصول الخطبة الثانية ، و شرح الفصل الثاني من فصول الخطبة الثالثة هذا .

ويحتمل أن يراد بالحكم الحكمة كما فسّر به قوله سبحانه : وآتيناه الحكم صبيّا ، قال الباقر عليه السلام في رواية الكافي : مات زكريّا فورثه ابنه يحيى الكتاب والحكمة و هو صبيّ صغير ، ثمّ تلى هذه الآية و يؤيّد هذا الاحتمال مافي بعض النّسخ من ضبط الحكم بكسر الحاء وفتح الكاف وهوجمع الحكمة و الحكمة هو الفهم والعقل وبه فسّره الكاظم عليه السلام في قوله سبحانه : ولقد آتينا لقمان الحكمة وفي مجمع البيان أى أعطيناه العقل والعلم والعمل به والاصابة في الأمور ، و كيف كان فلا غبار على كون الأئمة متّصفين بالحكم بأىّ معنى يراد ، وهم الحاكمون بين العباد بالحقّ والصّواب والسّداد .

ثمّ اعلم أنّ الشّارح المعتزلي قد أورد في شرح المقام بعض الأخبار الدالّة على غزارة علم أمير المؤمنين عليه السلام وقال بعد ذلك : وبالجملة فحاله عليه السلام في العلم رفيعة جداً لم يلحقه أحد فيها و لا قاربه و حقّ له أن يصف نفسه بأنه معادن العلم وينابيع الحكم فلا أحد أحقّ به منها بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

أقول : وبعد الاعتراف بسبقه على غيره في العلم والحكم وأنّه لم يدانيه في ذلك أحد ولم يقاربه فيه ، كيف يجوز أن يقدّم غيره عليه ويؤتمّ به دونه

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبابِ » « وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ وَ لَا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلَا الْأَمْواتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ » .

ثمّ إنّه لما أشار إلى بعض فضائله و مناقبه الجميلة عقّب ذلك بذكر ما لعلّه هو الغرض الأصلى من ذكر هذه المناقب وهو الحثّ والترغيب في نصرته ببشرى ناصريه بالثّواب ، والتحذير والتنفير عن عداوته بانذار مبغضيه من العقاب وهو قوله :

(ناصرنا ومحبّنا ينتظر الرّحمة وعدوّنا ومبغضنا ينتظر السّطوة) لما كان

بنزول الرّحمة في حقّ ناصريه و السّخط والعقوبة في حقّ معانديه معلوماً محقق الوقوع لامحالة ، جعل كلاً من الفريقين بمنزلة المنتظرين لما يستحقّه من الأمرين كمن أيقن بشيء فانتظره وإلاّ فلا انتظار للمعاندين حقيقة وأمّا المحبّون والأنصار فلهم الانتظار حقيقة برحمة الله الغفّار و شفاعة الشفعاء الأطهار سلام الله عليهم ماتعاقب اللّيل و النّهار.

و يدلّ على ما ذكرنا في البحار من أمالي الشيخ باسناد أخي دعبل عن الرّضا عن آبائه عليهم السلام أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في «قرء ظ» الآية : لا يستوى أصحاب النّار و أصحاب الجنّة ، أصحاب الجنّة هم الفائزون . فقال صلّى الله عليه وآله أصحاب الجنّة من أطاعني وسلّم لعليّ بن أبي طالب بعدى وأقرّ بولايته ، فقيل وأصحاب النّار قال من سخط الولاية ونقض العهد وقاتله بعدى .

ومن امالي الصّدوق باسناده عن عباد الكلبيّ عن جعفر بن محمّد عن أبيه عن عليّ بن الحسين عن فاطمة الصغرى عن الحسين بن عليّ عن امّه فاطمة بنت محمّد صلوات الله عليهم قالت خرج علينا رسول الله صلّى الله عليه وآله عشيّة عرفة فقال : إنّ الله تبارك تعالى باهى بكم و غفر لكم عامّة ولعليّ خاصّة ، و إنّي رسول الله إليكم غير محاب (١) لقرابتي ، هذا جبرئيل يخبرني أنّ السّعيد كلّ السّعيد حق السّعيد من أحبّ عليّا في حياته وبعد موته ، وأنّ الشقيّ كلّ الشقيّ حقّ الشّقي من أبغض عليّاً في حياته وبعد وفاته .

ومن العيون باسناده عن الرّضا عليه السلام قال : قال النبيّ صلّى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام من أحبّك كان مع النّبيّين في درجتهم يوم القيامة ، و من مات وهو يبغضك فلا يبالي مات يهودياً او نصرانياً .

و الأخبار في هذا المعنى كثيرة جداً و قد تقدّم في التذنيب الثّالث من تذنيبات الفصل الرّابع من فصول الخطبة الأولى روايات مناسبة للمقام .

١ــ غير محاب بتخفيف الباء أى لاأقول فيهم ما لايستحقونه محاباة لهم والمحاباة الميل والمحبة

الترجمة

بعض دیگر از این خطبه در ذکر حضرت رسالتمآب و وصف زهد آنجناب است که فرموده :

بتحقیق که حقیر شمرد و کوچك گردانید آن بزرگوار دنیای غدّار را در نظر خود، و اعتنا نفرمود بآن وخوار نمود آن را درنزد خود، ودانست بعلم یقین که خداوند سبحانه دور نمود وپیچیده کرد دنیا را از او ازجهة برگزیدن او سبحانه دوری آن را در حق او ، وبسط کرد آن را در حق غیر او ازبرای خوار داشتن آن پس اعراض نمود رسول مختار از دنیا بقلب خود ، ومیرانید یاد دنیا را ازنفس خود ودوست داشت آنکه غایب شود زینت دنیا از چشم او تا اینکه أخذ ننماید از زینت آن لباس فاخر یا اینکه امید بدارد در آن اقامه و آسایش را تبلیغ نمود ازجانب پروردگار شریعت وأحکام را درحالتی که زایل کننده بود عذر را ازخلقان ونصیحت فرمود بامت خود درحالتیکه ترساننده بود ایشان را ، ودعوت کرد بسوی بهشت درحالتیکه بشارت دهنده بود بمردمان

مادرخت نبوّت هستیم وموضع نزول رسالت میباشیم ،ومحلّ تردّد فرشتگان ومعدنهای علم و عرفان و سرچشمه های أحکام ، نصرت کننده ودوست دارنده ما منتظر میباشد رحمت پروردگار را ، وخصم و دشمن دارنده ما منتظر میباشد قهر وسطوت کردگار را .

و من خطبة له عليه السلام وهى المأة و التاسعة من المختار فى باب الخطب

وهى ملتقطة من خطبة طويلة معروفة بالديباج رواها حسن بن على ابن شعبة فى تحف العقول حسبما تطلع عليه بعد شرح مافى المتن وهو قوله :

إِنَّ أَفضَلَ ما تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى اللهِ سُبحانَهُ الإِيمانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، وَالْجِهادُ فِي سَبِيلِهِ، فَإِنَّهُ ذُرْوَةُ الإِسلامِ، وَكَلِمَةُ الإِخلاصِ فَإِنَّها الفِطْرَةُ، وَإِقامُ الصَّلوٰةِ فَإِنَّها المِلَّةُ، وَإِيتاءُ الزَّكوٰةِ فَإِنَّها فَرِيضَةٌ واجِبَةٌ، وَصَومُ شَهرِ رَمَضانَ فَإِنَّهُ جُنَّةٌ مِنَ العِقابِ، وَحِجُّ البَيْتِ وَاعتِمارُهُ فَإِنَّهُما يَنفِيانِ الفَقْرَ وَيَرحَضانِ الذَّنبَ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ فَإِنَّها مَثراةٌ فِي المالِ وَمَنسَأَةٌ فِي الأَجَلِ، وَصَدَقَةُ السِّرِّ فَإِنَّها تُكَفِّرُ الخَطِيئَةَ، وَصَدَقَةُ العَلانِيَةِ فَإِنَّها تَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ، وَصَنايِعُ المَعرُوفِ فَإِنَّها تَقِي مَصارِعَ الهَوانِ.

أَفِيضُوا فِي ذِكْرِ اللهِ فَإِنَّهُ أَحسَنُ الذِّكْرِ، وَارغَبُوا فِيما وَعَدَ المُتَّقِينَ فَإِنَّ وَعْدَهُ أَصدَقُ الوَعدِ، وَاقتَدُوا بِهَدْيِ نَبِيِّكُمْ فَإِنَّهُ أَفضَلُ الهُدىٰ، وَاستَنُّوا بِسُنَّتِهِ فَإِنَّها أَهدَى السُّنَنِ، وَتَعَلَّمُوا القُرآنَ فَإِنَّهُ أَحسَنُ الحَدِيثِ، وَتَفَقَّهُوا فِيهِ فَإِنَّهُ رَبِيعُ القُلُوبِ، وَاستَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفاءُ الصُّدُورِ، وَأَحسِنُوا تِلاوَتَهُ فَإِنَّهُ أَنفَعُ القَصَصِ، فَإِنَّ العالِمَ العامِلَ بِغَيرِ عِلْمِهِ، كَالجاهِلِ الحائِرِ الَّذِي لا يَستَفِيقُ مِنْ جَهلِهِ، بَلِ الحُجَّةُ عَلَيهِ أَعظَمُ، وَالحَسْرَةُ لَهُ أَلزَمُ، وَهُوَ عِندَ اللهِ أَلوَمُ.

اللغة

(وسل) الى الله توسيلا عمل عملا تقرّب به الله كتوسّل و (الايمان) إفعال من الأمن الّذى هو خلاف الخوف ثمّ استعمل بمعنى التصديق ، فالهمزة فيه إمّا للصّيرورة كان المصدق صار ذا أمن من أن يكون مكذّبا ، أو للتعدية كانّه جعل المصدّق هنا من التكذيب والمخالفة ، ويعدى بالباء لاعتبار معنى الاقرار والاعتراف كما في عبارته ، ونحوه قوله: يؤمنون بالغيب، وباللاّم لاعتبار معنى الاذعان نحو قوله تعالى : وما أنت بمؤمن لنا، وقد اجتمعا في قوله تعالى : يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين.

(ذروة) الشيء أعلاه و (الجنّة) بالضمّ كلّ ما وقى و (و اعتمر) الرّجل زار البيت والمعتمر الزائر ومنه سمّيت العمرة عمرة لأنها زيارة البيت يقال اعتمر فهو معتمر أى زار وقصد، وفى الشرع زيارة البيت الحرام بشروط مخصوصة مذكورة في محالها و (رحض) الثوب ونحوه بالحاء المهملة والضاد المعجمة من باب منع غسله كأرحضه فهو رحيض و مرحوض و (ثرى) المال ثرا كثر و نمى ، و الثروة كثرة العدد من الناس والمال ، وهذا مثراة للمال بهمز وغيره تكثرة و (المنسأة) بالهمز وغيره أيضاً كمثراة وزان مفعلة بالفتح فالسكون محل النّساء يقال نسأت الشي نسأ أخرته و منه الحديث : صلة الرّحم تنسىء الأجل أى تؤخّره و (صرعه) كمنعه طرحه على الأرض والمصرع وزان مقعد موضع الصّرع و (الافاضة)الاندفاع ومنه افاض الناس من عرفات أى اندفعوا وقيل اسرعوا منها الى مكان آخر قوله تعالى إذ تفيضون فيه ، أى تدفعون فيه بكثرة و (الهدى) بالضمّ الرّشاد مصدر يقال هداه الله هدى وهداية أرشده ،وبالفتح وزان تمر الهيئة والسيرة والطريقة ومنه قولهم: هدى هدى فلان أى سلك مسلكه و (الحائر) المتحيّر .

الاعراب

قوله : إلى الله سبحانه لفظ سبحانه منصوب على المصدر محذوف عامله وجوباً

باضافته إلى الضمير ، والمعنى أُسبّحك سبحاناً لك ، و لنجم الأئمة الرضي في حذف عوامل المصادر تحقيق نفيس أحببت ايراده .

قال في شرح قول ابن الحاجب : وقد يحذف الفعل لقيام قرينة جوازاً كقولك لمن قدم خير مقدم ووجوباً سماعاً نحو سقياً و رعيا وخيبة وجدعا و حمداً و شكراً وعجباً : **أقول** : الذي أرى أنّ هذه المصادر و أمثالها إن لم يأت بعدها ما يبيّنها ويعيّن ما تعلّقت به من فاعل أومفعول إما بحرف جرّ أوباضافة المصدر إليه فليست مما يجب حذف فعله بل يجوز نحو سقاك الله سقياً ورعاك الله رعياً فأمّا ما يبيّن فاعله بالاضافة نحو كتاب الله وسنة الله ووعد الله ، أو يبيّن مفعوله بالاضافة نحو ضرب الرقاب وسبحان الله ولبّيك و سعديك ومعاذ الله ، أويبيّن فاعله بحرف الجرّ نحو بؤساً لك وسحقاً لك أى بعداً ، أو يبيّن مفعوله بحرف جرّ نحو عقراً لك أى جرحا و شرّاً لك وحمداً لك وعجباً منك ، فيجب حذف الفعل في جميع هذا قياساً .

والمراد بالقياس أن يكون هناك ضابط كلّي يحذف الفعل حيث حصل ذلك الضّابط ، والضّابط ههنا ما ذكرنا من ذكر الفاعل أو المفعول بعد المصدر مضافا إليه أو بحرف الجرّ .

وإنّما وجب حذف الفعل مع هذا الضّابط لأنّ حقّ الفاعل والمفعول به أن يعمل فيهما الفعل فيتصلا به ، و استحسن حذف الفعل في بعض المواضع إما إبانة لقصد الدوّام واللزوم بحذف ماهو موضوع للحدوث والتجدّد أى الفعل في نحو حمداً لك وشكراً لك وعجباً منك ومعاذ الله وسبحان الله ، وإمّا لتقدّم مايدلّ عليه كما في قوله تعالى: كتاب الله عليكم ، وصبغة الله ، ووعد الله ، أولكون الكلام ممّا يستحسن الفراغ منه بالسرعة نحو لبيك وسعديك ، فبقى المصدر مبهما لايدرى ما تعلق به من فاعل أو مفعول فذكر ما هو مقصود المتكلّم من أحدهما بعد المصدر ليختصّ به ، فلمّا بيّنها بعد المصدر بالاضافة أو بحرف الجرّ قبح اظهار الفعل بل لم يجز فلا يقال كتاب الله ووعد وعد الله واضربوا بضرب الرّقاب وأُسبّح سبحان الله وأحمد حمداً لك وعقر الله عقراً لك .

وذلك لما ذكرناه من أنّ حقّ الفاعل و المفعول أن يتّصلا بالفعل معمولين له ، فلما حذف الفعل لأحد الدّواعي المذكورة و بين المصدر إمّا بالاضافة أو بحرف الجرّ فلو ظهر الفعل رجع الفاعل أو المفعول إلى مكانه و مركزه متصلا بالفعل ومعمولا له .

فاحفظ ذلك فانه ينفعك في كثير من الموارد و اعراب ساير الفقرات واضح .

المعنى

اعلم أنّ هذه الخطبة الشريفة مسوقة للارشاد إلى بعض أسباب القرب والوسايل التي يتوسل بها إلى الله سبحانه ، و للأمر بالافاضة إلى ذكر الله ، وببعض ما يدرك به رضوان الله حسبما تطلع على تفصيله انشاء الله ، ولما كان أسباب الزلفى والتقرّب كثيرة خصّ أفضلها بالبيان وهو على ما ذكره عشرة :

اولها

الايمان كما أشار اليه بقوله :

(إنّ أفضل ما توسّل بـه المتوسّلون الى الله سبحانه الايمان به و برسوله) و تقديمه على غيره لكونه أصلا بالنسبة اليه ، والمراد به هنا التصديق المجرّد عن الاقرار و العمل بقرينة ذكر كلمة الاخلاص التي هو الاقرار و ساير العبادات التي هو من باب الأعمال بعده ، وتحقيق المقام يحتاج إلى بسط في المقال وبيان الفرق بين الاسلام والايمان .

فأقول : إنـّك قد عرفت المعنى اللّغوى للايمان وأنه التّصديق ، وأما الاسلام فمعناه لغة هو التّسليم والانقياد ، وأمّا في لسان الشرع فقد يستعملان على التساوق والترادف كما في قوله تعالى :

« فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فيها مِنَ الْمُؤْمنِينَ فَما وَجَدْنا فيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

ولم يكن بالاتفاق إلاّ بيت واحد وقال تعالى :

« ياقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ»

وقال تعالىٰ : « يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاٰ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاٰمَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلإِيمانِ » .

وربما استعملا على التقابل كما فى قوله تعالى :

« قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَلَمّا يَدْخُلِ الْاِيْمانُ في قُلُوبِكُمْ » .

فقد نفى عنهم الايمان مع اثبات وصف الاسلام والمستفاد من كلام أكثر الأصحاب ومعظم أخبار الأئمة الأطهار الأطياب أنّ الاسلام أعمّ من الايمان .

قال الصّادق عليه السلام في رواية الفضيل بن يسار عنه عليه السلام : الايمان يشارك الاسلام والإسلام لايشارك الايمان .

وفي رواية سماعة بن مهران قال : سألته عن الايمان والاسلام قلت: أفرق بين الاسلام والايمان؟ قال: فأضرب لك مثله قال: قلت: أراد «اوردخ» ذلك قال: مثل الايمان و الاسلام مثل الكعبة الحرام من الحرم، قد تكون في الحرم ولاتكون في الكعبة ولاتكون في الكعبة حتى تكون في الحرم، وقد يكون مسلماً ولايكون مؤمنا ولايكون مؤمناً حتى يكون مسلماً.

و في رواية أبي الصباح الكناني قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام : أيّهما أفضل الايمان أو الاسلام ؟ فانّ من قبلنا يقولون إنّ الاسلام أفضل من الايمان ، فقال : الايمان أرفع من الاسلام ، قلت : فاوجدني ذلك ، قال : ماتقول فيمن أحدث في المسجد الحرام

متعمّداً ؟ قال : قلت : يضرب ضرباً شديداً ، قال : أصبت فما تقول فيمن أحدث في الكعبة متعمّداً ؟ قلت : يقتل ، قال : أصبت ألاترى أنّ الكعبة أفضل من المسجد وأنّ الكعبة تشرك المسجد والمسجد لايشرك الكعبة، وكذلك الايمان يشرك الاسلام والاسلام لايشرك الايمان.

فانّ المستفاد من هذه الرّوايات وأمثالها أنّه كلّما وجد الايمان وجد الاسلام لا بالعكس و ذلك ·

اما من جهة أنّ الاسلام عبارة عن التصديق بالظاهر أعني الاعتراف باللّسان والايمان عبارة عن التّصديق بالباطن ، والأوّل غيرمستلزم للثّاني ولذلك كذبالله سبحانه الأعراب بقوله : قل لم تؤمنوا ، في دعويهم وصف الايمان لأنفسهم ، حيث قالوا آمنّا ، و ذلك لأجل أنهم لم يكونوا مصدّقين بالباطن ولم يكونوا على ثقة وطمانينة فيما أقرّوا به ظاهراً ، وأثبت لهم وصف الاسلام بقوله : ولكن قولوا أسلمنا باعتبار شهادتهم بالتوحيد والرّسالة واعترافهم ظاهراً .

ويدلّ على ما ذكرنا ما رواه في الكافي باسناده عن سماعة قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام : أخبرني عن الاسلام و الايمان أهما مختلفان ؟فقال عليه السلام : إنّ الايمان يشارك الاسلام والاسلام لايشارك الايمان فقلت : فصفهما لي ، فقال عليه السلام : الاسلام شهادة أن لاإله إلاالله والتصديق برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم به حقنت الدّماء وعليه جرت المناكح والمواريث وعلى ظاهره جماعة النّاس، والايمان الهدى ومايثبت في القلوب من صفة الاسلام وماظهر من العمل به ، والايمان أرفع من الاسلام بدرجة ، إنّ الايمان يشارك الاسلام في الظّاهر ،والاسلام لايشارك الايمان في الباطن ، وان اجتمعا في القول و الصفة .

و نحوه رواية فضيل بن يسار قال : سمعت أباعبدالله عليه السلام يقول : إنّ الايمان يشارك الاسلام و لا يشاركه الاسلام ، إنّ الايمان ما وقر في القلوب ، والاسلام ما عليه المناكح و المواريث و حقن الدّما ، و الايمان يشارك الاسلام ، و الاسلام لا يشارك الايمان .

فان قلت : إذا جعلت الايمان عبارة عن التصديق بالباطن فلابدّ أن تكون النسبة بينهما عموماً من وجه إذ كما أنّ التّصديق ظاهراً لايستلزم التصديق بالباطن كلّياً ، فكذلك العكس ، إذ ربّما يذعن المرء بالله و برسوله من دون أن ينطق بكلمتي الشهادة ، بأن يصدّق بالقلب ولايساعده من العمر مهلة النطق ، نعم لايحكم بايمانه إلاّ بعد النطق والكلام ، لكون اللّسان ترجمان القلب ، لكنه لايقدح فيماذكرنا لأنّ الكلام في منع الملازمة بين نفس الايمان والاسلام لا في الحكم بكون الرجل مسلماً ومؤمناً ، فافهم .

قلت : التصديق بالباطن ملازم عادة للتصديق بالظاهر وإن لم يكن ملازماً له عقلا كما فيما ذكرته من المثال ، فانّ العرف والعادة قاضية بأنّ من كان مصدّقاً بالباطن يكون لا محالة مصدّقاً بالظاهر ، والمثال المذكور فردنادر

نعم لوقيل بأنّ الايمان عبارة عن التصديق بالجنان والاقرار باللّسان والعمل بالأركان أعنى مجموع الثلاثة ارتفع الاشكال رأساً ، و كذا على مذهب من يعتبر فيه الاقرار باللّسان فقط شطراً كما عزى إلى المحقق الطّوسي حيث قال : بأنه مركب من الاقرار و التّصديق ، أو شرطاً كما نسب الى المتكلّمين من الخاصّة وبعض العامة .

واما من جهة أنّ الاسلام عبارة عن الشّهادة بالتوحيد والرسالة مع التصديق الباطني وبدونه ، سواء كان معه الاقرار بالولاية و الاذعان بها أم لا ، والايمان يعتبر فيه ذلك .

ويرشد إليه ما رواه ثقة الاسلام الكليني باسناده عن سفيان بن السمط قال : سأل رجل أباعبدالله عليه السلام عن الاسلام و الايمان ما الفرق بينهما فلم يجبه ثمّ سأله فلم يجبه، ثمّ التقيا في الطريق و قد أزف من الرجل الرحيل فقال له أبوعبدالله عليه السلام : كأنه قدأزف منك رحيل ، فقال : نعم ، فقال : فالقنى في البيت فلقاه فسأله عن الاسلام والايمان ماالفرق بينهما ؟ فقال عليه السلام : الاسلام ماهو الظاهر الذي عليه الناس شهادة أن لاإله إلاالله وأنّ محمّداً رسول الله وإقام الصّلاة وايتاء الزكاة وحجّ البيت وصيام شهر رمضان

فهذا الاسلام ، وقال : الايمان معرفة هذا الأمر مع هذا ، فان أقرّ بها ولم يعرف هذا الأمر كان مسلماً وكان ضالاً.

وعن عجلان بن أبي صالح قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام : أو قفني على حدود الايمان ، فقال : شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله و الاقرار بجميع ما جاء من عندالله وصلاة الخمس وأداء الزكاة وصوم شهر رمضان وحجّ البيت و ولاية وليّنا وعداوة عدوّنا والدخول مع الصّادقين .

فانّ المراد بالدّخول مع الصادقين الدّخول في زمرة آل محمّد سلام الله عليهم والكون معهم كما قال : يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله و كونوا مع الصّادقين ، على ما تقدّم تفصيله في شرح الفصل الثالث من فصول الخطبة السّادسة والثمانين .

واما من جهة أنّ الايمان يعتبر فيه العمل دون الاسلام أعنى العمل بما يقتضيه ذلك التّصديق .

و يدلّ عليه ما في الكافي عن محمّد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام قال : الايمان إقرار وعمل والاسلام إقرار بلا عمل.

فانّ الظّاهر أنّ قوله : والاسلام إقرار بلا عمل هو أنّ العمل غير معتبر فيه لا أنّ عدمه فيه معتبر ، ويدلّ عليه أخبار أُخر

و فيه أيضاً باسناده عن عبدالرّحيم القصير قال : كتبت مع عبدالملك بن أعين إلى أبي عبدالله عليه السلام أسأله عن الايمان ماهو ، فكتب اليّ مع عبدالملك بن أعين : سألت رحمك الله عن الايمان ، والايمان هو الاقرار باللّسان و عقد في القلب و عمل بالاركان ، والايمان بعضه من بعض ، وهو دار و كذلك الاسلام دار والكفر دار ، فقد يكون العبد مسلما قبل أن يكون مؤمناً ولا يكون مؤمناً حتى يكون مسلماً ، فالاسلام قبل الايمان وهو لا يشارك الايمان فاذا أتى العبد كبيرة من كبائر المعاصي أو صغيرة من صغائر المعاصي التي نهى الله عزّ وجلّ عنها كان خارجاً من الايمان ساقطاً عنه اسم الايمان وثابتاً عليه اسم الاسلام ، فان تاب و استغفر عاد إلى دار الايمان ولا يخرجه إلى الكفر إلاّ الجحود والاستحلال ، أن يقول للحلال هذا حرام ، وللحرام هذا حلال ، ودان بذلك فعندها يكون خارجا من الاسلام و الايمان ، داخلا في الكفر ، و كان بمنزلة من

دخل الحرم ثمّ دخل الكعبة وأحدث في الكعبة حدثا فأُخرج عن الكعبة وعن الحرم فضربت عنقه وصار إلى النار

فقد ظهر لك مما ذكرنا كلّه أنّ الاسلام يصدق على مجرّد الاقرار باللّسان من غير تصديق ، و على الاقرار والتّصديق مجرّداً عن الولاية ، و على جميع ذلك مجرّداً من العمل ، و الايمان يعتبر فيه ذلك ، فيكون الايمان أخصّ لكنّ الانصاف أنّ العمل ليس داخلا في مفهوم الايمان حقيقة وإن كان شرطا في كماله .

أما أنّه غير داخل في حقيقته فللتبادر وعدم صحّة السلب و لقوله تعالى : «وَإِنْ طائفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلوُا» وقوله: «يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاص في الْقَتْلى» وقوله «الَّذينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيْمانَهُمْ بِظُلْمٍ».

دلّ اقتران الايمان بالمعاصي فيها على أنّ العمل غير داخل في حقيقته وقوله تعالى «الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلوُا الصّالِحاتِ».

دلّ على التّغاير و أنّ العمل ليس بداخل فيه لأنّ الشيء لايعطف على نفسه و لا الجزء على كلّه ومثله كلام أميرالمؤمنين عليه السلام في هذا المقام

وأمّا أنه شرط في كماله فللخبرين السابقين .

لايقال : إنّ ظاهرهما كون العمل داخلا في مفهومه لا شرطا في كماله .

لأنانقول : بعد تسليم الظهور لابدّ من حملهما على ما ذكرنا بمقتضى الجمع بينهما وبين الأدلّة الّتي قدّمناها آنفا

فان قلت: ما الدّليل على هذا الجمع ؟

قلت : الدليل على ذلك ما رواه في الكافي عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن بكر بن صالح عن القاسم بن بريد قال : حدّثنا أبوعمر الزبيرى عن أبي عبدالله عليه السلام

قال : قلت له : أيها العالم أخبرني أيّ الأعمال أفضل عندالله ؟ قال : مالا يقبل الله شيئاً إلاّ به ، قلت : و ما هو ؟ قال : الايمان بالله الذي لاإله إلاّ هو أعلى الأعمال درجة و أشرفها منزلة وأسناها حظاً قال : قلت : ألا تخبرني عن الايمان أقول هو وعمل أم قول بلا عمل ؟ فقال : الايمان عمل كلّه و القول بعض ذلك العمل بفرض من الله بيّن في كتابه واضح نوره ثابتة حجّته يشهدله به الكتاب و يدعوه اليه قال : قلت له : صفه لي جعلت فداك حتّى أفهمه ، قال : الايمان حالات و درجات وطبقات ومنازل : فمنه التامّ المنتهى تمامه ، ومنه الناقص البيّن نقصانه ، ومنه الراجح الزّايد رجحانه قلت : إنّ الايمان ليتمّ وينقص ويزيد ؟ قال : نعم ، قلت : كيف ذاك ؟ قال : لأنّ الله تبارك وتعالى فرض الايمان على جوارح ابن آدم وقسّمه عليها وفرّقه فيها ، فليس من جوارحه جارحة إلاّ و قد وكّلت من الايمان بغير ما وكّلت به اختها ، فمنها قلبه الذى به يعقل ويفقه ويفهم ، وهوأمير بدنه الذي لاترد الجوارح ولا تصدر إلاّ عن رأيه و أمره ، ومنها عيناه اللّتان يبصر بهما ، و اذناه اللّتان يسمع بهما ويداه اللّتان يبطش بهما ورجلاه اللّتان يمشى بهما ، وفرجه الذى الباه من قبله «قلبه خ» ولسانه الذي ينطق به ، ورأسه الذى فيه وجهه فليس من هذه جارحة إلاّ وقد وكلت من الايمان بغير ما وكّلت به اختها بفرض من الله تبارك وتعالى اسمه ،ينطق به الكتاب لها ويشهد به عليها ،ففرض على القلب غير ما فرض على العينين وفرض على العينين غير مافرض على اللّسان ، وفرض على اللّسان غير مافرض على اليدين وفرض على اليدين غير ما فرض على الرّجلين ، وفرض على الرّجلين غير ما فرض على الفرج وفرض على الفرج غير مافرض على الوجه .

فاما مافرض على القلب من الايمان فالاقرار والمعرفة والعقد والرّضا والتسليم بأن لاإله إلاّ الله وحده لا شريك له إلهاً واحدا لم يتّخذ صاحبة و لا ولدا و أنّ محمّداً عبده ورسوله صلوات الله عليه وآله ، والاقرار بماجاء من عندالله من نبيّ أو كتاب ، فذلك مافرض الله على القلب من الاقرار والمعرفة وهو قول الله عزّ وجلّ :

« إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً » وقال: « أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ » وقال: « الَّذِينَ آمَنُوا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ » وقال: « إِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ».

فذلك ما فرض الله عزّ وجلّ على القلب من الاقرار و المعرفة و هو عمله و هو رأس ايمان.

و فرض الله على اللّسان القول والتعبير عن القلب بما عقد عليه و أقرّ به قال الله تبارك وتعالى اسمه:

« وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً » وقال: « قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ».

فهذا ما فرض الله على اللّسان وهو عمله.

و فرض على السّمع أن يتنزّه عن الاستماع إلى ما حرّم الله و أن يعرض عمّا لا يحلّ لـه مما نهى الله عزّ وجلّ عنه و الاصغاء إلى ما اسخط الله عزّ وجلّ فقال في ذلك:

« وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ».

ثمّ استثنى الله عزّ وجلّ موضع النسيان فقال:

« وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » وقال: « فَبَشِّرْ عِبَادِي الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ

ٱلَّذِينَ هَدَيٰهُمُ ٱللهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ » و قال عزّ وجلّ : « قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَوٰتِهِمْ خَاشِعُونَ وَٱلَّذِينَهُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَاعِلُونَ » وقال : « وَإِذَا سَمِعُوا ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ » و قال : « وَإِذَا مَرُّوا بِٱللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا » .

فهذا ما فرض الله على السّمع من الايمان أن لايصغى إلى مالا يحلّ له و هو عمله و هو من الايمان .

و فرض على البصر أن لاينظر إلى ما حرّم الله عليه وأن يعرض عمّا نهى الله عنه ممالايحلّ له وهوعمله وهو من الايمان فقال تبارك وتعالى :

« قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ».

فنهيهم عن أن ينظروا إلى عوراتهم وأن ينظر المرء إلى فرج أخيه ويحفظ فرجه أن ينظر إليه وقال :

« وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ».

من أن ينظر احديهنّ إلى فرج اختها وتحفظ فرجها من أن تنظر اليها وقال عليه السلام كلّ شيء في القرآن من حفظ الفرج فهو من الزّنا إلاّ هذه الآية فانّها من النظر ثمّ نظم مافرض الله عزّوجلّ على القلب و اللّسان و السّمع و البصر في آية أخرى فقال :

« وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ » .

يعني بالجلود الفروج والافخاذ وقال :

«وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤَادَ كُلُّ أُولٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً» .

فهذا ما فرض الله على العينين من غضّ البصرعمّا حرّم الله وهوعملهما وهومن الايمان

و فرض على اليدين أن لا يبطش بهما إلى ماحرّم الله وأن يبطش بهما إلى ما أمرالله عزّوجلّ و فرض عليهما من الصّدقة و صلة الرّحم و الجهاد في سبيل الله والطّهور للصّلوات فقال :

« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلوٰةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ »
و قال: « فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّىٰ إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمّا مَنّاً بَعْدُ وَ إِمّا فِداءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها »

فهذا ما فرض الله على اليدين لأنّ الضّرب من علاجهما .

و فرض على الرّجلين أن لايمشى بهما إلى شيء من معاصي الله وفرض عليهما المشي إلى مايرضى الله عزّوجلّ فقال :

« وَلاَ تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً » و قال : « وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » .

وقال فيما شهدت الأيدى والأرجل في أنفسهما وعلى أربابهما من تضييعهما لما أمر الله عزّوجلّ به وفرضه عليهما :

« أَلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »

فهذا أيضا ممّا فرض الله عزّ وجلّ على اليدين و على الرّجلين وهو عملهما و هو من الايمان .

وفرض على الوجه السّجود له باللّيل والنهار في مواقيت الصّلاة فقال :

« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

وهذه فريضة جامعة على الوجه واليدين والرّجلين وقال في موضع آخر :

« أَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً ».

و قال فيما فرض على الجوارح من الطّهور والصلاة بها وذلك أنّ الله عزّ وجلّ لمّا صرف نبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى الكعبة عن بيت المقدّس أنزل الله عزّ وجلّ :

« وَ مَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ »

فسمّى الصّلاة إيمانا فمن لقى الله عزّ وجلّ حافظا لجوارحه موفيا كلّ جارحة من جوارحه مافرض الله عزّ وجلّ عليها لقى الله عزّ وجلّ مستكملا لايمانه و هو من أهل الجنّة ، و من خان في شيء منها أو تعدّى ما أمر الله عزّ وجلّ فيها لقى الله عزّ وجلّ ناقص الايمان قلت: قد فهمت نقصان الايمان وتمامه؛ فمن أين جائت زيادته؟ فقال عليه السلام: قول الله عزّ وجلّ

« وَ إِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هٰذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ » و قال : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ

بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى».

ولو كان كلّه واحداً لا زيادة فيه ولا نقصان لم يكن لأحد منهم فضل على الآخر ولاستوت النعم فيه، ولاستوى الناس وبطل التفضيل ولكن بتمام الايمان دخل المؤمنون الجنّة، و بالزّيادة في الايمان تفاضل المؤمنون بالدّرجات عندالله، و بالنقصان دخل المفرطون النّار.

فانّ صدر هذه الرّواية الشريفة أعني قوله عليه السلام: الايمان عمل كلّه، وإن كان موهما في بادي الرأي كون العمل داخلا في مفهوم الايمان، إلاّ أنّ ذيلها أعني قوله: لقي الله عزّ وجلّ مستكملا لايمانه، إلى قوله: لقي الله عزّ وجلّ ناقص الايمان، إلى آخر الرّواية نصّ صريح في كونه شرطاً في كماله لاجزء من مفهومه و قد استفيد منها أيضاً كونه قابلا للزّيادة و النقصان كما هو مذهب المحقّقين من الفريقين.

وأمّا ماتوهّمه كثيرمن المتكلّمين من أنه إن كان الايمان هو التّصديق فلايقبلهما، لأنّ الواجب هواليقين، و هو غير قابل للتفاوت لا بحسب ذاته ولا بحسب متعلّقه أمّا بحسب الذّات فلأنّ التفاوت باعتبار احتمال النقيض ولو بأبعد وجه وهوينافي اليقين ولايجامعه، وأمّا بحسب المتعلّق فلأنّ متعلّقه جميع ما علم مجيء الرّسول به والجميع من حيث هوجميع لايتصوّر فيه تعدّد، و إلاّ لم يكن جميعاً، و إن كان هوالعمل وحده أومع التّصديق فيقبلهما وهوظاهر، وما وردت في الكتاب والسّنّة ممّا يدلّ على قبوله إيّاهما فباعتبار الأعمال فيزيد بزيدها وينقص بنقصانها

ففيه منع ذلك أمّا باعتبار الذّات فلأنّ التّصديق من الكيفيات النّفسانيّة المتفاوتة قوّة وضعفاً فيجوزأن يكون التفاوت فيه بالقوّة والضّعف، فانّ عين اليقين أعلى مرتبة وأقوى من علم اليقين، وللفرق الظاهر بين ايمان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة وآحاد الرعيّة، قال أميرالمؤمنين عليه السلام: لو كشف الغطاء ماازددت يقيناً.

و امّا باعتبار المتعلّق فلأنّ التّصديق التّفصيلي في أفراد ما علم

مجيء الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم به جزء من الايمان يثاب عليه ، مضافاً إلى ثوابه على تصديقه بالاجمال فكان قابلا للزّيادة ، والله الهادي إلى المنهج القويم ، والصراط المستقيم .

(و) الثانى

من الوسايل إلى الله سبحانه (الجهاد في سبيله فانه ذروة الاسلام) لما كان ذروة كلّ شيء عبارة عن أعلاه جعل الجهاد ذروة الاسلام باعتبار رفعته وعلوّ رتبته فيه وتقدّمه على ساير العبادات البدنيّة باعتبار اقتضائه قوّة التصديق واليقين بماجاء به خاتم النبيين مالا يقتضيه ساير الطّاعات والقربات وإلاّ لما ألقى المجاهد نفسه إلى المهالك مع غلبة ظنّه بأنه عاطب هالك ولولا سيف المجاهدين لما اخضرّ للاسلام عود ولا قام له عمود وقد تقدّم في الخطبة السّابعة و العشرين انه باب من أبواب الجنّة فتحه الله لخاصّة أوليائه إلى آخر ما ذكره من فضائله وبيّنا في شرحها مافيه كفاية لمن له علم ودراية .

(و) الثالث

(كلمة الاخلاص) أى الكلمة المتضمّنة لاخلاص الله تعالى و تنزيهه عن الشركاء و الأنداد و هى كلمة التّوحيد أعنى لاإله إلاّ الله وقد تقدّم في شرح الفصل الثّاني من فصول الخطبة الثانية فضايل تلك الكلمة الطيّبة المباركة و فوايدها وعلل عليه السّلام كونهما من أفضل القرب بقوله (فانها الفطرة) أى الفطرة المعهودة الواردة في الكتاب العزيز المأمور باتّباعها بقوله :

« فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا »

و أصلها الخلقة من الفطر بمعنى الخلق ثمّ جعلت للخلقة القابلة لدين الحقّ على الخصوص ، وربما تطلق على التّوحيد والمعرفة وبه فسّرت الآية الشريفة وفسّر قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : كلّ مولود يولد على الفطرة حتّى يكون أبواهما اللّذان يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه ، قال في مجمع البيان أى اتبع فطرة الله وهى التّوحيد التي

فطر النّاس أى خلق النّاس عليها و لها و بها ، أى لأجلها و التمسّك بها فيكون كقوله : و ما خلقت الجنّ و الانس إلاّ ليعبدون ، وهو كما يقول القائل لرسوله : بعثتك على هذا ولهذا وبهذا، والمعنى واحد.

وعن الصّدوق في التوحيد في أخبار كثيرة عن الصّادق عليه السلام قال : فطرهم على التوحيد وباسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال : سألته عن قول الله :

(حُنَفاءَ لِلّٰهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ) .

و عن الحنيفيّة فقال : هى الفطرة التي فطر النّاس عليها لاتبديل لخلق الله ، قال : فطرهم الله على المعرفة قال زرارة وسألته عن قول الله عزّ وجلّ :

(وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَني آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ـ الآية) .

قال عليه السلام أخرج من ظهر آدم ذريّته إلى يوم القيامة فخرجوا كالذّرّ فعرفهم وأراهم و لولا ذلك لم يعرف أحد ربّه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : كلّ مولود يولد على الفطرة بأنّ الله عزّ وجلّ خالقه فذلك قوله تعالى :

(وَلَئِنْ سَئَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ) .

و قد تقدّم في شرح الفصل الرّابع عشر من فصول الخطبة الاُولى أخبار اُخر في هذا المعنى هذا .

ولماكانت كلمة الاخلاص متضمّنة للفطرة التي هى التوحيد والمعرفة دالاّ عليها جعلها نفس الفطرة تسمية للدّال باسم مدلوله .

(و) الرابع

(إقام الصّلاة فإنّها الملّة) وقال الطّريحى الملّة في الأصل ما شرع الله لعباده على ألسنة الأنبياء ليتوصلوا به إلى جوار الله و يستعمل في جملة الشرايع دون آحادها ولا يكاد توجد مضافة إلى الله ولا إلى آحاد اُمّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بل يقال ملّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم

قال تعالى : ملّة أبيكم إبراهيم ، أى دينه .

أقول : لما كان الصّلاة هو الركن الأعظم من الدّين اطلق اسمه عليها و أتى بالملّة معرفة بلام الجنس قصداً للحصر مبالغة من باب زيد الأمير و نحوه الحديث النّبوىّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قال عليه السّلام : الصّلاة عماد الدّين ، فانه لماكان قوام الدّين وثباته بها جعلها عماداً له كما صرّح بذلك في رواية اُخرى قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : مثل الصّلاة مثل عمود الفسطاط إذا ثبت العمود ثبتت الأطناب والأوتاد والغشاء ، وإذا انكسر العمود لم ينفع طنب ولاوتد ولاغشاء ، وفي رواية اُخرى عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم ، الصّلاة عماد الدّين فمن ترك صلاته متعمّداً فقد هدم دينه و كيف كان فالآيات و الروايات في فضلها وعقوبة تاركها فوق حدّ الاحصاء قال تعالى :

(أَقِمِ الصَّلٰوةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً) وفي سورة النّساء : (فَأَقِيمُوا الصَّلٰوةَ إِنَّ الصَّلٰوةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً) وفي سورة مريم : (أَضاعُوا الصَّلٰوةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) وفي سورة العنكبوت : (وَأَقِمِ الصَّلٰوةَ إِنَّ الصَّلٰوةَ تَنْهىٰ عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ) وفي سورة أرأيت : (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلٰوتِهِمْ ساهُونَ) .

أى غافلون غير مبالين بها قال عليّ بن إبراهيم القمّي : عنى به تاركون لأنّ كلّ انسان يسهو في الصّلاة ، وفي المجمع عن الصّادق عليه السّلام هو التّرك لها والتواني عنها ، وعن الخصال عن أمير المؤمنين عليه السّلام : ليس عمل أحبّ إلى الله عزّ وجلّ من الصّلاة فلا يشغلكم عن أوقاتها شيء من اُمور الدّنيا ، فانّ الله عزّ وجلّ ذمّ أقواما فقال :

الذين هم عن صلاتهم ساهون ، يعني أنهم غافلون استهانوا بأوقاتها .

وفي الكافي باسناده عن معاوية بن وهب قال سألت أباعبدالله عليه السلام عن أفضل مايتقرّب به العباد إلى ربّهم وأحبّ ذلك إلى الله عزّ وجلّ ماهو ؟ فقال عليه السلام : ماأعلم شيئاً بعدالمعرفة أفضل من هذه الصّلاة ، ألا ترى أنّ العبد الصّالح عيسى بن مريم قال : وأوصاني بالصّلاة والزّكاة ما دمت حيّاً .

و عن زيد الشّحام عن أبي عبدالله عليه السلام قال : سمعت يقول : أحبّ الأعمال إلى الله عزّ وجلّ الصّلاة ، وهى آخر وصايا الأنبيا عليهم السّلام فماأحسن الرّجل يغتسل أو يتوضّأ فيسبغ الوضوء ثمّ يتنحّى حيث لايراه أنيس فيشرف عليه وهوراكع أوساجد ، إنّ العبد إذا سجد فأطال السجود نادى إبليس : ياويله أطاعوا وعصيت وسجدوا وأبيت، ونحوه في الفقيه إلاّ أنّ فيه فيشرف الله عليه .

وعن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إذا قام العبد المؤمن في صلاة نظر الله إليه أو قال أقبل الله عليه حتى ينصرف ، وأظلّته الرّحمة من فوق رأسه إلى أفق السماء والملائكة تحفّه من حوله إلى افق السّماء ، ووكل الله به ملكا قائماً على رأسه يقول : أيّها المصلّى لوتعلم من ينظر إليك ومن تناجي ما التفتّ ولازلت من موضعك أبداً .

و عن محمّد بن الفضيل عن أبي الحسن الرّضا عليه السلام قال : الصّلاة قربان كلّ تقيّ .

و عن حفص بن البختري عن أبي عبدالله عليه السلام قال : من قبل الله منه صلاة واحدة لم يعذّبه ومن قبل منه حسنة لم يعذّبه .

وعن الحسين بن سيف عن أبيه قال : حدّثني من سمع أباعبدالله عليه السلام يقول : من صلّى ركعتين يعلم مايقول فيهما انصرف وليس بينه وبين الله ذنب .

وفي الفقيه قال الصّدوق : قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : مامن صلاة يحضر وقتها إلاّ نادى ملك بين يدى النّاس : أيّها النّاس قوموا إلى نيرانكم الّتي أوقدتموها على ظهوركم فأطفؤها بصلاتكم .

قال : وقال الصّادق عليه السلام : أوّل ما يحاسب به العبد الصّلاة فاذا قبلت منه قبل ساير عمله ، وإذا ردّت عليه ردّ عليه سايرعمله .

قال : وقال النبيّ صلى الله عليه وآله : إنّما مثل الصّلاة فيكم كمثل البوى وهوالنهرعلى باب أحدكم يخرج إليه في اليوم و اللّيلة يغتسل منه خمس مرّات فلم يبق الدّرن على الغسل خمس مرّات ، ولم يبق الذّنوب على الصّلاة خمس مرّات .

وفي جامع الأخبار قال : قال النبيّ صلى الله عليه وآله : لا تضيّعوا صلاتكم ، فانّ من ضيّع صلاته حشره الله تعالى مع قارون وفرعون وهامان لعنهم الله وأخزاهم وكان حقا على الله أن يدخله النارمع المنافقين ، فالويل لمن لم يحافظ على صلاته .

قال : وقال النبيّ صلى الله عليه وآله : من ترك الصّلاة حتّى تفوته من غير عذر فقد حبط عمله ، ثمّ قال : بين العبد وبين الكفر ترك الصّلاة .

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله من ترك الصّلاة لايرجو ثوابها ولا يخاف عقابها فلا اُبالي يموت يهوديّا أو نصرانيّا أو مجوسيّا .

وقال صلى الله عليه وآله : من أعان تارك الصّلاة بلقمة أو كسوة فكأنّما قتل سبعين نبيّاً أوّلهم آدم و آخرهم محمّد صلى الله عليه وآله هذا .

والأخبارفي هذا المعنى كثيرة جداً وفيما أوردناه كفاية للمهتدى المسترشد وإنما المهمّ الاشارة إلى علّة وجوب الصلوات الخمس وبعض أسرارها .

اماعلة وجوبها فقدروى في الفقيه عن الحسن بن عليّ بن أبى طالب عليهم السّلام أنّه قال : جاء نفر من اليهود إلى رسول الله فسأله أعلمهم عن مسائل فكان فيما ساله أنه قال له : أخبرنى عن الله لأىّ شيء فرض الله عزّ وجلّ هذه الخمس الصّلوات في خمسة مواقيت على اُمّتك في ساعات اللّيل والنّهار ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وآله إنّ الشمس عند الزّوال لها حلقة (١) تدخل فيها فاذا دخلت فيها زالت الشمس فيسبّح كلّ شيء دون العرش بحمد ربّي جلّ جلاله وهى السّاعة التي يصلّى

١- الظاهر أنّ المراد بها دائرة نصف النهار، منه

فيها علي ربّي ففرض الله عليّ وعلى اُمّتي فيها الصّلاة وقال :

(أَقِمِ الصَّلٰوةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ).(١)

وهى السّاعة التي يؤتى فيها بجهنّم يوم القيامة فمامن مؤمن يوافق تلك السّاعة أن يكون ساجداً أو راكعاً أو قائماً إلاّ حرّم الله جسده على النّار .

وأمّا صلاة العصر فهى السّاعة التي اكل آدم فيها من الشجرة فأخرجه الله من الجنّة فأمرالله ذرّيته بهذه الصّلاة إلى يوم القيامة و اختارها لامّتي فهى من أحبّ الصّلوات إلى الله عزّ وجلّ وأوصاني أن أحفظها من بين الصّلوات .

وأمّا صلاة المغرب فهى السّاعة التي تاب الله على آدم عليه السلام وكان بين ما اكل من الشجرة وبين ما تاب الله عليه ثلاثمأة سنة من أيّام الدّنيا و في أيّام الآخرة يوم كألف سنة (٢) مابين العصر إلى العشاء فصلّى آدم ثلاث ركعات ركعة لخطيئته وركعة لخطيئة حوّا ، و ركعة لتوبته فافترض الله هذه الثلاث ركعات على امّتي وهي السّاعة التي يستجاب فيها الدّعا فوعدني الله أن يستجيب لمن دعاه فيها وهى الصّلاة التي أمرني ربّي بها في قوله :

« فَسُبْحانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ » .

و أمّا صلاة العشاء الآخرة فانّ للقبر ظلمة ، و ليوم القيامة ظلمة أمرني الله بهذه الصّلاة وامّتي لتنوّر الصّور و ليعطني واُمّتي النّور على الصّراط ، و مامن قدم مشت الى صلاة العتمة (٣) إلاّ حرّم الله جسدها على النّار و هى الصّلاة التي اختارها الله للمرسلين قبلي .

١ـ غسق الليل منتصفه لا ظلمة اوله كماقال بعض اللّغويين،مفتاح الفلاح

٢ـ أى يوم واحد من أيام الآخرة كألف سنة من أيام الدنيا وقوله مابين العصر الى العشاء اى كان ثلاث مأة سنة من أيام الدنيا مابين العصر الى العشاء من أيام الاخرة،حاشية فقيه

٣ـ العتمة محركة ثلث الليل الاول بعد غيبوبة الشفق اووقت صلاة الاخرة،حاشيه فقيه

وأمّا صلاة الفجر فانّ الشّمس إذا طلعت تطلع على قرن شيطان ، فأمرني الله أن اُصلّي قبل طلوع الشّمس صلاة الغداة وقبل أن يسجد لها الكافرلتسجد اُمتي لله عزّ وجلّ وسرعتها أحبّ الى الله وهى الصّلاة التي يشهدها ملائكة اللّيل وملائكة النّهار

وعلة اخرى لذلك وهوما رواه في الفقيه أيضاً عن الحسين بن أبي العلاء عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال : لما هبط آدم عليه السلام من الجنّة ظهرت به شامة سوداء في وجهه من قرنه إلى قدمه ، فطال حزنه و بكاؤه على ما ظهر به ، فأتاه جبرئيل فقال له : مايبكيك يا آدم ؟ فقال : لهذه الشامة التي ظهرت بي ، قال : قم يا آدم فصلّ فهذا وقت الصّلاة الأولى ، فقام فصلّى فانحطت الشامة إلى عنقه ، فجاءه في الصّلاة الثانية فقال : يا آدم قم فصلّ فهذا وقت الصّلاة الثانية ، فقام فصلّى فانحطت الشامة إلى سرّته ، فجاءه في الصّلاة الثالثة فقال : يا آدم قم فصلّ فهذا وقت الصّلاة الثالثة فقام فصلّى فانحطت الشامة إلى ركبتيه ، فجاءه في الصّلاة الرّابعة فقال : يا آدم قم فصلّ فهذا وقت الصّلاة الرابعة ، فقام فصلّى فانحطت الشامة إلى قدميه ، فجاءه في الصّلاة الخامسة فقال : يا آدم قم فصلّ فهذا وقت الصّلاة الخامسة ، فقام فصلّى فخرج منها ، فحمدالله و أثنا عليه فقال جبرئيل : يا آدم مثل ولدك في هذه الصّلاة كمثلك في هذه الشّامة ، من صلّى من ولدك في كلّ يوم وليلة خمس صلوات خرج من ذنوبه كما خرجت من هذه الشّامة، ويأتي لها علّة ثالثة انشاء الله في شرح الخطبة المأة والحادية والتسعين .

وأما أسرار الصلاة فهى كثيرة لا يمكن استقصاؤها و إنّما نشير إلى نبذ منها مما اشير إليها في الروايات ووصل إلينا من اُولى الألباب والدّرايات و أرباب المعرفة والاشارات فنقول وبالله التوفيق :

إنّ الصّلاة الكاملة قد خصّت من بين ساير العبادات بأنّها بمنزلة انسان كامل مشتمل على روح وجسد ، منقسم إلى ظهر و بطن وسرّ و علن ، و لروحه و سرّه أخلاق و صفات ، و لجسده و علنه أعضاء و أشكال ، فروح الصّلاة أهل معرفة الحقّ والعبوديّة له بالاخلاص والتوحيد.

أمّا أخلاقها وصفاتها الباطنة فيجمعها اُمور وهي : حضور القلب ، و التفهّم والتعظيم ، والهيبة ، و الرجاء ، والحياء ، و هذه ستّ خصال شريفة وحالات كريمة وملكات عظيمة لا يوجد جميعها إلاّ في مؤمن امتحن الله قلبه بنورالايمان والعرفان

اما حضور القلب فهوتفريغ القلب عن غير ماهوملابس له ومتكلّم به وصرفه إلى ما يتلبّس به من الأفعال ويتكلّم به من الأقوال ، ولايحصل ذلك إلاّ بعد معرفة المصلّي بأنّ الغرض المطلوب منه هوالايمان والتصديق بأنّ الآخرة خيروأبقى ، وأنّ الصّلاة وسيلة اليها ، فاذا اضيف إلى تلك المعرفة العلم بحقارة الدّنيا و خسّتها وزوالها انصرف القلب عن مهمّات الدّنيا لامحالة و توجّه إلى صلاته الموصلة وإلى سعادات الآخرة وهومعنى حضور القلب .

روى إبراهيم الكرخي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال : إنّي لاُحبّ الرّجل المؤمن منكم إذا قام في صلاة فريضة أن يقبل بقلبه إلى الله تعالى و لا يشغل قلبه بأمر الدّنيا ، فليس من عبد يقبل بقلبه في صلاته إلى الله تعالى إلاّ أقبل الله إليه بوجهه ، وأقبل بقلوب المؤمنين إليه بالمحبة بعد حبّ الله إليه ايّاه .

و عن الخصال باسناده عن عليّ عليه السلام في حديث الأربعمأة قال : لا يقومنّ أحدكم في الصّلاة متكاسلا ، ولاناعساً ، ولا يفكّرن في نفسه ، فانه بين يدي ربّه عزّوجلّ ، وإنما للعبد من صلاته ما أقبل عليه منها بقلبه .

أقول : و مرّ ذلك أنّ الصّلاة في الحقيقة معراج المؤمن و مناجاة الرّب المعبود ، فلابدّ فيه من الاقبال ، لأنّ من لا يقبل عليك لا يستحقّ اقبالك عليه ، كما لوحاربك من تعلم غفلته من محاربتك وإعراضه عن محاورتك ، فانّه يستحق إعراضك عن خطابه واشتغالك بجوابه .

قال الصّادق عليه السلام من أراد أن ينظر منزلته عندالله فلينظر منزلةالله عنده ، فانّ الله ينزل العبد مثل ماينزل العبد إليه من نفسه .

وأماالتفهم فهوالتّدبر في معنى اللّفظ ، وهوأمر وراء حضور القلب ، فربما يكون القلب حاضراً مع اللفظ ولا يكون حاضراً مع معنى اللّفظ ، فاشتمال القلب

القلب على العلم بمعنى اللّفظ هو المراد بالتفهم ، و قد ذمّ الله أقواماً على ترك التدبّر حيث قال :

« أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفالُها » .

و روى سيف بن عمير عمّن سمع أباعبدالله عليه السلام يقول : من صلّى ركعتين يعلم مايقول فيهما انصرف وليس بينه وبين الله ذنب إلاّ غفر له .

ثمّ الناس في هذا المقام أى مقام التفهّم متفاوتون ، إذ ليس يشترك الجميع في تفهّم معاني القرآن والتّسليمات ، وكم من معاني لطيفة يفهمها المصلّى في أثناء الصّلاة ولم يكن خطر بقلبه قبل ذلك ، ومن هذا الوجه كانت الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فانّما يفهم أُموراً هى مانعة من الفحشاء لا محالة .

روى يونس بن ظبيان عن أبى عبدالله عليه السلام أنه قال : اعلم أنّ الصّلاة حجزة الله في الأرض فمن أحبّ أن يعلم ماأدرك من نفع صلاته فلينظر ، فان كانت صلاته حجزته عن الفواحش و المنكر فانّما أدرك من نفعها بقدرما احتجز ، ومن أحبّ أن يعلم ماله عندالله فليعلم ماالله عنده

واما التعظيم فهو أمر وراء حضور القلب و الفهم ، فربما يخاطب الرّجل عبده بكلام وهو حاضر القلب فيه ومتفهّم لمعناه ، ولا يكون معظماً له ، فالتعظيم أمر زايد عليهما ، و هو حالة للقلب منشأُها معرفة جلال الرّب سبحانه و كبريائه وعظمته مع معرفة حقارة النّفس وخسّتها و كونها عبداً مسخّراً مربوباً ، فيتولّد من هاتين المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه ، فيعبّر عنه بالتعظيم .

روى الحلبيّ عن أبي عبدالله عليه السلام قال : إذا كنت في صلاتك فعليك بالخشوع و الاقبال على صلاتك ، فانّ الله تعالى يقول : الّذينهم في صلاتهم خاشعون ، ثمّ الخشوع كما يكون في القلب كذلك يكون في الجوارح ، و يدلّ عليه ما رواه الطّبرسي في مجمع البيان أنّ النبيّ رأى رجلا يعبث بلحيته في صلاته فقال صلّى الله عليه وآله : أما أنه لوخشع قلبه لخشعت جوارحه .

واما الهيبة فأمر زايد على التعظيم، و هى عبارة عن خوف منشأه التعظيم، لأنّ من لايخاف لايسمّى هايبا، والمخافة من العقرب والحيّة وساير الموذيات ومن العقوبة وسوء خلق العبد و مايجرى مجرى ذلك من الأسباب الخسيسة لا تسمّى مهابة، فالهيبة خوف مصدره الاجلال، و هى متولّدة من المعرفة بقدرة الله و سطوته ونفوذ أمره ومشيّته فيه مع قلّة مبالاته به، وأنّه بحيث لو أهلك الأوّلين والآخرين لم ينقص من ملكه مثقال ذرّة، لا سيّما إذا انضمّ إلى ذلك ملاحظة ما جرى على الأنبياء و الأولياء من أنواع المحن و المصائب و البلاء، و كلّما زاد العلم بالله و كبريائه زادت الهيبة و الخشية، و لأجل ذلك قال تعالى: إنّما يخشى الله من عباده العلماء.

روى فضيل بن يسار عن أبي عبدالله عليه السلام قال: كان عليّ بن الحسين عليه السلام اذا قام إلى الصّلاة تغيّر لونه، فاذا سجد لم يرفع رأسه حتى يرفض عرقا

وعن أبان بن تغلب قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام إنى رأيت عليّ بن الحسين عليهما السلام إذا قام إلى الصلاة غشى لونه لون آخر، فقال لى: والله إنّ عليّ بن الحسين عليهما السلام كان يعرف الذى يقوم بين يديه.

وعن جهم بن حميد عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال أبي: كان عليّ بن الحسين إذا قام إلى الصّلاة كأنّه ساق شجرة لايتحرّك منه شيء إلاّ ما حرّكت الرّيح منه

وقد اخرجت هذه الرّوايات وسابقتها من الوسايل رواها فيه باسنادها من الكافي وغيره.

واما الرجاء فلا شك أنّه زايد على ما سبق؛ فكم من معظم ملكاً من الملوك يهابه أويخاف سطوته و لا يرجوانعامه و مبرّته، و العبد ينبغي أن يكون راجياً بصلاته ثواب الله كما أنه خائف بتقصيره عقاب الله، و منشا الرّجا معرفة لطف الحقّ و كرمه وعميم جوده واحسانه و شمول رحمته وانعامه ومعرفة صدقه في وعده على الصلاة بالثواب وبشراه بالجنّة وحسن المآب، فبمجموع المعرفة بلطفه سبحانه والمعرفة بصدقه يحصل الرجاء.

قال رسول الله ﷺ الصّلاة مرضاة الله ، وحبّ الملائكة ، وسنّة الأنبياء ونور المعرفة ، وأصل الايمان ، واجابة الدّعاء ، وقبول الأعمال ، وبركة في الرّزق وراحة في البدن ، و سلاح على الأعداء ، وكراهة الشّيطان ، و شفيع بين صاحبها و ملك الموت ، و السراج في القبر ، و فراش تحت جنبه ، وجواب منكر و نكير ، ومونس في السّراء والضّراء ، وصائر معه في قبره إلى يوم القيامة .

و أما الحياء فزيادته على ماسبق واضحة ، لأنّ مستنده استشعار تقصير وتوهّم ذنب ، ويتصوّر التعظيم والخوف والرّجاء من غير حياء ، حيث لايتوهّم تقصير وخطاء و منشأ استشعار التقصير و توهّم الذّنب علم المكلف بالعجز عن القيام بوظائف العبوديّة والتعظيم على مايليق بحضرة الرّبوبيّة سبحانه ، ويزيد ذلك بالاطلاع على كثرة عيوب النّفس و آفاتها ، و فرط رغبتها في أفعالها وحركاتها وسكناتها إلى الدّنيا وشهواتها ، وقلّة اخلاصها في طاعاتها مع العلم بعظيم مايقتضيه جلال الله وعظمته و كبريائه ، ومع المعرفة بأنه خبير بصير مطلع على السرائر ؛ عالم بالضمائر ؛ وهذه المعارف إذا حصلت يقيناً انبعث منها الحياء .

وأما اعضاء الصلاة وأشكالها فهى : القيام ، والقعود ، والقرائة ، والتشهد والركوع ، و السجود ، وظاهرها يرتبط بظاهر الانسان ، و به يكلف العوام الذين درجتهم درجة الأنعام ، ليمتازوا بذلك التعبّد الظاهرى عن ساير أنواع الحيوان في العاجل ، ويستحقوا به نوعا من الثواب في الاجل ، وباطنها يلتزم بباطن الانسان ممن له قلب أو ألقى السّمع وهو شهيد .

أمّا صلاة الظاهر المأمور بها شرعاً والمفروضة على كافة المكلّفين سمعاً فأعدادها معلومة ، و أوقاتها مرسومة ، و أركانها مضبوطة ، و أحكامها في الكتب مسطورة ، لاحاجة بنا إلى تفصيلها لشهرتها ، و كفاية الكتب الفقهيّة في تعيين شرايطها وأحكامها

و أمّا صلاة الباطن و صلاة أهل الخصص فنشير إلى بعض أسرارها ويسير ممّا ينبغى لها لتكون على ذكر منها عند القيام بها ، وتأتى بها على وجه البصيرة والمعرفة إن كنت من أهل القرب والطّاعة فنقول وبالله التوفيق :

اما الطهارة فاذا أتيت بها في مكانك وهو طرفك الأبعد ، ثمّ في ثيابك وهو غلافك الأقرب ، ثمّ في بشرتك وهو قشرك الأدنى فلا تغفل عن تطهير ذاتك وإزالة رجس الشيطان عن لبّك بالتوبة والنّدم على التفريط في جنب الله كما قال سبحانه : وثيابك فطهّر والرّجز فاهجر ، فطهّر قلبك فانّه منظر معبودك .

واما ستر العورة فمعناه تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق أعنى سكّان عالم الأرض ، فاذا وجب عليك ستر ظاهر البدن عن الخلق و هم مخلوق مثلك فما ظنك في عورات باطنك وفضايح سترك الذي هو موضع نظر معبودك وخالقك ، فانها أولى بالسّتر وأحرى ، فاحضر تلك الفضايح ببالك ، وطالب نفسك بسترها بالنّدم والخوف والحياء ، ونزل نفسك منزلة العبد المجرم المسيء الآبق الذى ندم فرجع إلى مولاه ناكساً رأسه من الحياء والخوف .

واما الاستقبال فهو صرف ظاهر وجهك من ساير الجهات إلى جهة البيت الحرام ، أفترى أنك مأمور بذلك ولست مأموراً بتوجيه قلبك إلى معبودك ، فليكن وجه قلبك مع وجه بدنك ، و كما لايمكن التوجّه بالبيت إلاّ بالالتفات عن ساير الجهات ، فكذلك لا يمكن التّوجّه إلى الحقّ ، إلاّ بالاعراض عن كلّ ماعداه ، والانقطاع بكلّيته إلى الله .

وأما القيام فليكن على ذكرك في الحال خطر القيام بين يدى الربّ المتعال في القيامة و هول المطّلع في مقام العرض و السّؤال حين ما أيقن أهل الجرائم بالعقاب وعاينوا أليم العذاب ، فقم بين يديه سبحانه قيام عبد ذليل بين يدى ملك جليل ، وعليك بخفوت أطرافك وهدو أطراقك وسكون جوارحك وخشوع أجزائك وحاسب نفسك قبل أن تحاسب ، وزن نفسك قبل أن توزن .

وأما النية فاعلم أنّ الأعمال بالنيات و أنّ النّية رأس العبادات ، فاجتهد في تحصيل الاخلاص رجاء للثّواب وخوفاً من العقاب وطلباً للقرب إلى ربّ الأرباب

قال الصادق عليه السلام إذا كان أوّل صلاته بنيّة يريد بها ربّه فلا يضرّه مادخله بعد ذلك فليمض في صلاته وليخسإ الشّيطان .

وأما التكبير فاذا نطق به لسانك فينبغي أن لا يكذّبه قلبك، فان كان هواك أغلب عليك من أمر الله و أنت أطوع له منك لله فقد اتّخذته إلهاً لك و معبوداً من دون الله كما قال عزّ من قائل: أرأيت من اتّخذ إلهه هويه، فقولك: اللهُ أكبر يكون حينئذ كلاماً بمجرّد اللّسان من دون أن يساعده القلب والجنان، فيشهد الله سبحانه عليك بأنك لكاذب في تكبيره وتعظيمه كما شهد على المنافقين بأنهم لكاذبون في قولهم: نشهد أنّك لرسول الله، و ما أعظم الخطر في ذلك لولا التّدارك بالتوبة و الاستغفار.

واما القرائة فالناس فيها على ثلاثة أقسام: السّابقون وهم المقرّبون، وأصحاب اليمين و هم أهل الجنّة، و أصحاب الشّمال و هم أهل النّار، فرجل يتحرّك لسانه وقلبه غافل عما هوفيه ويتكلّم به، بل مشغول الفكر بأغراض نفسه ومعاملاته وتجاراته وخصوماته و غيرها، و رجل يتحرّك لسانه وقلبه يتبع اللّسان فيفهم و يسمع منه كانه يسمعه من غيره و هو مقام أصحاب اليمين، و رجل يسبق قلبه إلى المعاني أوّلا ثمّ يخدم اللّسان القلب فيترجمه كما ربّما يخطر ببالك شيء فينبعث منك داعية الشّوق إلى التكلّم به وفرق بين أن يكون اللّسان ترجمان القلب و بين أن يكون القلب ترجمانا تابعاً للسان، و المقرّبون لسانهم ترجمان قلوبهم.

وتوضيح ترجمة المعانى أنك اذا قلت: أعوذ بالله من الشيطان الرّجيم، فادفع وساوس قلبك وعجب نفسك، وطهّر ساحة قلبك من خطرات ابليس وأحاديث النفس ليتيسّر لك الدّخول في باب الرّحمة فينفتح لك باب الملكوت بالمغفرة وباب الجبروت بالفضل و الكرامة، وإذا قلت: بسم الله الرّحمن الرّحيم، فانوبه التبرّك باسمه، واعلم أنّ الأمور كلّها بالله وهى من فيض رحمته في الدّنيا والآخرة فاذا كانت النعم الدّنيويّة و الاخرويّة مبدؤها وجوده و كانت كلّها من بحر كرمه وجوده كما قال عزّ من قائل: و ما بكم من نعمة فمن الله، فاعلم أنه لا يليق الحمد والثناء إلاّ لله سبحانه، فقل: الحمد لله، فلو كنت ترى نعمة من عند غيره وتتوقّع منه

الوصول اليها وتقرع بيد السؤال بابه بزعم استقلاله فيها لا باعتقاد أنه واسطة في ايصالها إليك و آلة لوصولهـا إلى يديك فتشكره بذلك ، ففي تسميتك و تحميدك نقصان وأنت بقدر التفاتك إلى غيره كاذب فيهما .

ثمّ اعلم أنّك تأسّيت في تحميدك لله بالملائكة المقرّبين حيث قالوا قبل أن يخلق الله سبحانه هذه النشأة : نحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك ، وبعباد الله الصّالحين، حيث إنهم بعد مايحكم بينهم و بين المجرمين يوم الحاقة بالحقّ فيحمدون ربهم كما اخبر عنهم بقوله : وقضي بينهم بالحقّ وقيل الحمد لله ربّ العالمين ، وبعد ما يعبرون الصراط ويجدون رايحة الجنان يقولون : الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وبعد مايتمكنون في قصور الجنّات و يجلسون وسط الرّوضات يقولون : الحمد لله الذي صدقنا وعده ، وبعد ما ينالون غاية الآمال ويجزون الحسنى بالأعمال يكون آخر كلامهم حمد الرّب المتعال، و آخر دعويهم أن الحمد لله رب العالمين ، فاذا كان بدية العالم ونهايته مبنيّة على الحمد فاجتهد أن يكون بداية عملك و نهايته كذلك ، و كما أنّ حمد هؤلاء المقرّبين ناش عن وجه الاخلاص واليقين ، فليكن ثناؤك كذلك

و إذا قلت : ربّ العالمين، فاعلم أنّه سبحانه مربّيك و مربّي ساير الخلائق أجمعين ، حيث إنه خلقهم وساق اليهم أرزاقهم ودبّر أُمورهم وقام بمصالحهم وبدء بالآمال قبل السؤال ، وأنه رباهم بعظيم ماليديه من دون جلب ربح ومنفعة منهم إليه كما هو شأن ساير المربّين و المحسنين فانهم انما يربون و يحسنون ليربحوا على ذلك وينتفعوا بذلك إما ثواباً أو ثناء ، فاذا كان تربيته كذلك فلينبعث منك مزيد شوق ورجاء إلى فضله ونواله .

وليشتدّ ذلك الرّجاء إذا قلت : الرّحمن الرّحيم ، فانّ رحمته سبحانه لانهاية لها ، فبرحمته الرّحمانية خلق الدّنيا ومافيها ، وبرحمته الرّحيميّة يجزى لمؤمنين الجزاء الأوفى ، وهو الذي ينادى عبده و يشرفه بألطف الخطاب حين ماوارده في التراب ، وودّعه الأحباب ويقول : عبدي بقيت فريداً وحيداً فأنا أرحمك اليوم رحمة يتعجّب الخلائق منها .

ثمّ لاتغترّ بذلك ولا تأمن من غضبه واستشعر من قلبك الخوف ، وإذا قلت : مالك يوم الدّين ، فاحضرفي نظرك أنواع غضبه وقهره على أهل الجرايم والجوائز واعلم أنّه لا مانع ذلك اليوم من سخطه ولا رادّ من عقابه، لا نحصار الملك يومئذ فيه ، فليس لأحدلجأ يؤويه .

ثمّ إذا حصلت بين الخوف و الرّجاء فجرد الاخلاص والتوحيد وقل : إيّاك نعبد ، أى لا يستحقّ العبادة إلاّ أنت ولا معبود سواك ولا نعبد إلاّ إيّاك ، و تفطّن لسرّ التكلّم بصيغة الجمع نكتة تشريك الغير معك في الاذعان بالعبوديّة ، وهوأنّ من باع أمتعة كثيرة صفقة بعضها صحيح و بعضها معيب فاللاّزم على المشتري إمّا قبول الجميع أو ردّ الجميع ، و لا يجوز له ردّ المعيب و أخذ الصحيح ، فههنا قد مزجت عبادتك بعبادة غيرك من الأنبياء والمرسلين والملائكة المقرّبين وعبادالله الصّالحين ، وعرضت الجميع صفقة واحدة على حضرة ربّ العالمين ، فهوسبحانه أجلّ من أن يردّ المعيب و يقبل الصحيح ، فانّه قد نهى عباده عن ذلك فلا يليق بكرمه ذلك ، كما لا يليق به ردّ الجميع لكون بعضها مقبولا البتة فلم يبق إلاّ قبول الجميع وهوالمطلوب .

ثمّ القيام منك بوظايف العبودية والاتيان بلوازم الطّاعة لما لم يكن ممكنا إلاّ باعانة منه سبحانه و إفاضة منه الحول و القوّة اليك فتضرّع إليه تعالى واطلب منه التوفيق و الاعانة و قل : و إيّاك نستعين ، و تحقّق أنه ماتيسّرت طاعتك إلاّ باعانته و أنّه لولا توفيقه لكنت من المطرودين مع الشّيطان اللعين واذا أظهرت حاجتك إليه سبحانه فى إفاضته الاعانة و التّوفيق فعيّن مسؤولك و اطلب منه تعالى أهمّ حاجاتك وليس ذلك إلاّ طلب القرب من جواره ؛ ولا يكون ذلك إلاّبالحركة والسكون نحوه وسلوك السّبيل المؤدّى اليه ولا يمكن ذلك إلاّ بهدايته سبحانه فقل: اهدنا الصّراط المستقيم،قال الصادق عليه السلام يعني أرشدنا للزوم الطّريق المؤدّى إلى محبّتك و المبلغ إلى جنّتك و المانع من أن نتبع أهوائنا فنعطب أو نأخذ بآرائنا فنهلك .

وزد ذلك شرحاً وتفصيلا وتأكيداً بقولك: صراط الذين أنعمت عليهم، وهم الذين أنعم عليهم بالتوفيق والطاعة لا بالمال والصحّة وهم الذين قال الله تعالى.

« وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَـٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـٰئِكَ رَفِيقاً ».

وأمّا الذين انعم عليهم بالمال والصحّة فربما يكونون كفّاراً أو فسّاقا من الذين لعنهم الله و غضب عليهم، أو من الضّالين المكذّبين، و لذلك حسن التأكيد بأن تقول: غير المغضوب عليهم، وهم اليهود قال الله فيهم: من لعنه الله و غضب عليه، ولا الضّالّين، وهم النّصارى قال الله فيهم قد ضلّوا من قبل وأضلّوا كثيراً

فاذا فرغت من قراءة فاتحة الكتاب فاقرء ما شئت من السّور، و عليك بالترتيل وتعمد الاعراب في ألفاظ ماتقرؤها والتّفكّر في معناها، وسؤال الرحمة و التّعوذ من النقمة عند قراءة آيتيهما، ثمّ إذا فرغت من القراءة فجدّد ذكر كبرياء الله سبحانه و عظمته و ارفع يديك حيال وجهك و قل: الله أكبر استجارة بعفوه عن عقابه وإتباعاً لسنّة رسوله، ثمّ تستأنف له ذلاً وتواضعاً بركوعك وتجتهد في ترقيق قلبك وفي استشعار الخشوع له، وعليك بالطمأنينة والوقار وتسوية ظهرك و مد عنقك.

فقد قال أبوجعفر عليه السلام: من أتمّ ركوعه لم يدخله وحشة في القبر.

وفي مرفوعة أبي القاسم بن سلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا ركع لوصبّ على ظهره ماء لاستقرّ، وأمّا مدّ العنق فمعناه إنّي آمنت بك ولو ضربت عنقي.

ثمّ تشهد على ربّك بالعظمة وأنه أعظم من كلّ عظيم فتقول: سبحان ربّي العظيم و بحمده، و تكرّر ذلك على القلب و تؤكده بالتكرير، ثمّ تنتصب قائماً وتقول: سمع الله لمن حمده والحمدلله ربّ العالمين، ثمّ تهوى إلى السّجود و هو أعلى درجات التذلّل والاستكانة حيث المقت أعزّ جوارحك وأشرفها وهو الجبهة بأذلّ الأشياء و أخسّها و هو التراب، و قد نهيت عن السجود على الذهب والفضّة

والمطاعم والملابس ، لأنها متاع الحياة الدنيا والسجدة زاد الآخرة

روى الصدوق باسناده عن هشام بن الحكم أنه قال لأبي عبدالله عليه السلام : أخبرني عما يجوز السجود عليه وعما لا يجوز ، قال : السجود لا يجوز إلا على الأرض أو على ما أنبتت الأرض إلا ما أكل أو لبس ، فقال له : جعلت فداك ما العلة في ذلك؟ قال : لأن السجود خضوع لله عز وجل فلا ينبغي أن يكون على ما يؤكل ويلبس ، لأن أبناء الدنيا عبيد ما يأكلون و يلبسون ، والساجد في سجوده في عبادة الله عز وجل فلا ينبغي أن يضع جبهته في سجوده على معبود أبناء الدنيا الذين اغتروا بغرورها .

وأما تعدد السجود فسره ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام حيث سأله رجل ما معنى السجدة الأولى؟ فقال عليه السلام : تأويلها اللهم منها خلقتنا يعني من الأرض ، وتأويل رفع رأسك : ومنها أخرجتنا والسجدة الثانية : وإليها تعيدنا ، ورفع رأسك منها : ومنها تخرجنا تارة أخرى .

أقول : وهو مأخوذ من قوله سبحانه في سورة طه :

« مِنها خَلَقْناكُمْ وَفيها نُعيدُكُمْ وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى » .

ثم تجلس لتشهد على يسارك وترفع يمينك وتأويل ذلك : اللهم أمت الباطل واقحم الحق ، فتجدد العهد لله سبحانه بالشهادة بالتوحيد وللنبي بالشهادة بالرسالة ، وتصلي عليه وآله الذين هم وسايط الفيوضات النازلة ، وبهم قبول الصلاة وساير العبادات ، وبالتقرب اليهم يرجى نزول الرحمة من الحق ، لكونهم واسطة بينك وبين الرسول كما أنه واسطة بين الله وبين الخلق .

ثم احضر شخصه صلى الله عليه وآله في قلبك وقل : السلام عليك أيها النبي و رحمة الله وبركاته ، لتدخل في زمرة المؤمنين المجيبين لنداء يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ، ثم سلم على نفسك وعلى عباد الله الصالحين ، وتأمل أن الله يرد عليك سلاما بعدد عباده الصالحين ، وأما قولك : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فتقصد بخطابك فيه الأنبياء والملائكة والأئمة عليهم السلام والمؤمنين من الجن والانس

وتحضرهم ببالك وتخاطبهم به ، وإلّا كان التسليم بصيغة الخطاب لغواً وإن كان مخرجاً عن العهدة ، و حقيقة هذا التسليم هو الرّجوع عن الحقّ إلى الخلق ، فانّ الصّلاة معراج للمؤمن و مناجاة للعبد مع معبوده و حضور له مع الله وغيبته له عما سواه ، فاذا انصرف منه لزم عليه تجديد العهد بالخلق والتّسليم عليهم كما يسلم الغائب إذا قدم من سفره .

هذا قليل من كثير و نبذ يسير من أسرار الصّلاة ، و المقام لا يسع الزيادة ، والله وليّ التوفيق والهداية .

(و) الخامس

من الوسايل (إيتاء الزّكاة فانها فريضة واجبة) والاتيان بالوجوب بعد الفرض لمحض التأكيد والاشارة إلى تأكّد وجوبها نظير قوله سبحانه :

« إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسَاكِينَ وَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَ الْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَ اللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

فانّه سبحانه بعد الأمر بها بالجملة الخبرية التي هى في معنى الانشاء ، عقّبه بقوله : فريضة ، تأكيداً للوجوب ، قال الزّجاج : فريضة منصوب على التوكيد ، لأنّ قوله : إنّما الصّدقات لهؤلاء جار مجرى قوله : فرض الله الصّدقات لهؤلاء فريضة وذلك كالزجر عن مخالفة هذا الظاهر .

قال رفاعة بن موسى : سمعت أباعبدالله عليه السلام يقول : ما فرض الله على هذه الأمّة أشدّ عليهم من الزّكاة وفيها تهلك عامّتهم .

أو الفريضة من الفرض بمعنى القطع والتقدير ومنه قوله سبحانه : « لاتّخذن من عبادك نصيباً مفروضاً » أى منقطعاً محدوداً ويطلقون الفقهاء في باب المواريث

على ذوى السهام المقدّرة ذوى الفرايض باعتبار أنّ سهامهم مقدّرة معيّنة في كتاب الله سبحانه و على هذا فيكون معنى قوله عليه السلام : انّها فريضة واجبة أنها شيء مقدّر منقطع متّصف بالوجوب ، و كيف كان فهى من أعظم دعائم الدّين و أقوى أركان الاسلام ، والكلام فيها في مقامين .

المقام الاول

في علّة وجوبها وفضلها وعقوبة مانعها .

أمّا فضلها و وجوبها فكفى بذلك أنّ أكثر الآيات المتضمّنة للأمر باقامة الصّلاة متضمّنة للأمر بايتاء الزّكاة ، فجعل الزّكاة تالى الصّلاة ، والأخبار في هذا المعنى فوق حدّ الاحصاء .

ففي الكافي باسناده عن محمّد بن مسلم وأبي بصير وبريد عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام قالا : فرض الله الزّكاة مع الصّلاة .

و عن مبارك العقرقوفي قال : قال أبو الحسن عليه السلام إنّ الله عزّ وجلّ وضع الزّكاة قوتا للفقراء و توفيراً لأموالكم .

و عن أحمد بن محمّد بن عبدالله و غيره عن رجل من أهل ساباط قال : قال أبوعبدالله عليه السلام لعمّار السّاباطي : يا عمّار أنت ربّ مال كثير ؟ قال : نعم جعلت فداك ، قال : فتؤدّى ما افترض الله عليك من الزّكاة ؟ فقال : نعم ، قال : فتخرج الحقّ المعلوم من مالك ؟ قال : نعم ، قال : فتصل قرابتك ؟ قال : نعم ، قال : فتصل اخوانك؟ قال : نعم ، فقال عليه السلام : ياعمّار إنّ المال يفنى والبدن يبلى والعمل يبقى والدّيان حيّ لايموت ، ياعمّار إنّه ما قدّمت فلن يسبقك ، وما أخّرت فلن يلحقك . ورواه الصّدوق في الفقيه عنه عليه السلام مثله .

وفيه أيضاً عن معتب مولى الصّادق عليه السلام قال : قال الصّادق عليه السلام : إنما وضعت الزّكاة اختباراً للأغنياء ومعونة للفقراء ، ولوأنّ النّاس ردّوا زكاة أموالهم مابقى مسلم فقيراً محتاجاً ، ولاستغنى بمافرض الله له ، إنّ النّاس ما افتقروا ولا احتاجوا

و لا جاعوا و لا عروا إلاّ بذنوب الأغنياء ، و حقيق على الله أن يمنع رحمته ممن منع حقّ الله في ماله ، واقسم بالذي خلق الخلق وبسط الرّزق إنه ماضاع مال في برّ ولا بحر إلاّ بترك الزّكاة ،.وماصيد في برّ ولا بحر إلاّ بتركه التسبيح في ذلك اليوم وإنّ أحبّ النّاس إلى الله أسخاهم كفاً ، وأسخى النّاس من أدّى زكاة ماله و لم يبخل على المؤمنين بما افترض الله لهم في ماله .

وفيه أيضاً أنّه كتب الرّضا عليّ بن موسى عليهما السلام إلى محمد بن سنان فيما كتب إليه من جواب مسائله : أنّ علّة الزكاة من أجل قوت الفقراء و تحصين أموال الأغنياء ، لأنّ الله كلّف أهل الصّحة القيام بشأن أهل الزمانة و البلوى كما قال تعالى .

« لَتُبْلَوُنَّ في أمْوالِكُمْ وأنْفُسِكُمْ » .

في أموالكم اخراج الزكاة ، و في أنفسكم توطين النفس على الصّبر مع ما في ذلك من أداء شكر نعم الله و الطمع في الزّيادة مع ما فيه من الرفادة و الرأفة و الرّحمة لأهل الضعف ، و العطف على أهل المسكنة والحثّ لهم على المواساة ، وتقوية الفقراء و المعونة لهم على أمر الدّين ، وموعظة لأهل الغنى ، و عبرة لهم ليستدلّوا على فقراء الآخرة بهم ومالهم عن الحثّ في ذلك على الشكر لله لماخوّلهم و أعطاهم و الدّعا والتضرّع و الخوف من أن يصير وامثلهم في أُمور كثيرة في أداء الزكاة والصّدقات وصلة الأرحام واصطناع المعروف .

قال الصّدوق : وقال أبو الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام : من أخرج زكاة ماله تامّاً فوضعها في موضعها لم يسأل من أين اكتسب ماله .

قال : و قال الصّادق عليه السلام: إنما جعل الله الزكاة في كلّ ألف خمسة وعشرين درهما ، لأنّ الله تعالى خلق الخلق فعلم غنيّهم وفقيرهم وقويّهم وضعيفهم ، فجعل من كلّ ألف خمسة وعشرين مسكيناً لولا ذلك لزادهم الله لأنه خالقهم وهو أعلم بهم .

اماعقوبة تارك الزكاة ومانعها فقد قال تعالى في سورة آل عمران:

« وَلاَ يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » وفي سورة البرائة: « وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ».

ولا يخفى ما في الآيتين من وجوه الحثّ على الانفاق والوعيد على الامساك.

أما الاية الاولى فجهات الانذارفيها غير خفيّة **الأولى** أنّه سبحانه نهى عن حسبان الممسكين إمساكهم خيراً لهم ونفعاً في حقّهم وأكّدذلك بالنون المفيدة للتوكيد **الثانية** أنّه وصف الممسكين بصفةالبخل وهو صفة ذمّ **الثالثة** أنّ مابخلوا به هوممّا آتاهم الله فاللاّزم عليهم أن يتصرّفوا فيه بماأمرالله ويصرفوه إلى ما أراده الله **الرابعة** أنّ ذلك شرّ لهم و ضرّ في حقّهم **الخامسة** أنّهم يطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة.

روى الصّدوق عن حريزعن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال: مامن ذى ذهب أوفضة تمنع زكاة ماله إلاّ حبسه الله يوم القيامة بقاع قرقر(١) وسلّط عليه شجاعا أقرع(٢) يريده وهو يحيد عنه فاذا رأى أنه لا يتخلّص منه انكسه فقضمها كما يقضم الفجل ثمّ يصير طوقاً في عنقه وذلك قوله:

١ـ قاع قرقر اى مستو مصباح .

٢ـ الاقرع من الحيات المتمعط شعررأسه اى الابيض لكثرة سمه،ق.

«سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ».

ومامن ذي ابل أو بقر أو غنم يمنع زكاة ماله إلاّ حبسه الله يوم القيامة بقاع قرقر تطأه كلّ ذات ظلف بظلفها ، وينهشه كلّ ذات ناب بنابها ، ومامن ذي نخل أو كرم أوزرع يمنع زكاته إلاّ طوّقه الله ريعة أرضه إلى سبع أرضين إلى يوم القيامة .

وفي الكافي باسناده عن محمّد بن مسلم قال : سألت أباعبدالله عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ : سيطوّقون ما بخلوابه يوم القيامة ،فقال : يا محمّد ما من أحد يمنع من زكاة ماله شيئاً إلاّ جعل الله ذلك يوم القيامة ثعبانا من نار مطوّقا في عنقه ينهش من لحمه حتّى يفرغ من الحساب ، ثمّ قال هو قول الله عزّوجلّ : سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة ، يعنى مابخلوا به من الزكاة **السادسة** أنّ ميراث السماوات والأرض كلّه لله سبحانه بمعنى أنّه وحده يبقى وغيره يفنى ويبطل ملك كلّ مالك إلاّ ملكه ، فاذا كان المال في معرض الفناء و الزّوال فأجدر بالعاقل أن لايبخل بالانفاق ، و لايحرص على الامساك ، فيكون وزره عليه ونفعه لغيره **السابعة** أنّه سبحانه خبير بما يعمله المكلّفون بصير بمخالفتهم لأمره لا يعزب عن علمه بخلهم بالانفاق ومنعهم عن أهل الاستحقاق ، فسيذيقهم وبال أمرهم عندالمساق ، اذا التفّت السّاق بالساق .

و اما الآية الثانية فقد روى الطبرسيّ عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه لما نزلت هذه الآية قال صلّى الله عليه وآله : تبّاً للذهب والفضّة ، يكرّرها ثلاثاً ، فشقّ ذلك على أصحابه فسأله عمر : أيّ المال نتّخذ ؟ فقال : لسانا ذاكراً ، وقلباً شاكراً ، و زوجة مؤمنة تعين أحدكم على دينه .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام مازاد على أربعة آلاف فهو كنز أدّى زكاته أولم يؤدّ

و عن التّهذيب عن الصادق عليه السلام ما أعطى الله عبداً ثلاثين ألفاً وهويريد به خيراً وقال ماجمع رجل قطّ عشرة ألف درهم من حلّ وقد يجمعها لأقوام إذا أعطي القوت ورزق العمل فقدجمع الله له الدّنيا والآخرة .

ومحصّل المعنى أنّ الذين يجمعون المال ولايؤدّون زكاتهم فأخبرهم بعذاب موجع ، وللتعبير عن ذلك بلفظ البشارة مبنيّ على التّهكّم ، لأنّ من يكنز الذّهب والفضّة فانما يكنزهما لتحصيل الوجاهة بهما يوم الحاجة ، والتوسل الى الفرج يوم الشدّة فقيل له : هذا هو الوجاهة والفرج كما يقال تحيّتهم ليس إلاّ الضرب وإكرامهم ليس إلاّ الشتم «يوم يحمى عليها» أى يوقد على الكنوز «في نار جهنّم» حتى تصير ناراً « فتكوى بها » أى بتلك الأموال و الكنوز التي منعوا حقوقها الواجبة « جباههم وجنوبهم وظهورهم » وتخصيص هذه الأعضاء بالكيّ بوجوه .

أحدها أنّ منظورهم بكسب الأموال وترك الانفاق ليس إلاّ الأغراض الدّنيويّة وهو حصول الوجاهة لهم عند النّاس وحصول الشّبع لهم بأكل الطّيبات فينفتح منه الجنبان و لبس ثياب فاخرة يطرحونها على ظهورهم فوقع الكيّ على هذه الأعضاء جزاء لأغراضهم الفاسدة .

الثاني أنّ الجباه كناية عن مقاديم البدن و الجنوب عن طرفيه والظهور عن المآخير ، والمراد به أنّ الكيّ يستوعب تمام البدن .

الثالث أنّ الجبهة محلّ السّجود فلم يقم فيه بحقّه و الجنب مقابل القلب الّذي لم يخلص في معتقده ، و الظّهر محلّ الأوزار قال : يحملون أوزارهم على ظهورهم .

الرّابع أنّ هذه الأعضاء مجوفة و ليست بمصمتة و في داخلها آلات ضعيفة يعظم التألم بسبب وصول أدنى أثر اليها ، بخلاف ساير الأعضاء .

الخامس وهو أحسن الوجوه و ألطفها أنّ صاحب المال إذا رأى الفقير أ وَّلاً قبض جبهته وعبس وجهه وإذا دار الفقير يوليه جنبه و إذا دار يولّيه ظهره و قوله « هذا ما كنزتم لأنفسكم » أى يقال لهم في حالة الكيّ هذا هو الذى ادّخرتموه لأنفسكم ، وهو تبكيت لهم بأنّ المال الذى بخلتم بانفاقه وادّخرتموه لتنتفعوا به صار عذابكم به ، فكأنّكم أكنزتموه ليجعل عقابا لكم « فذوقوا » عقاب « ما كنتم تكنزون » به لا بغيره .

قال الطّبرسيّ صاحب التفسير قال رسول الله صلى الله عليه وآله : مامن عبدله مال لايؤدّى زكاته إلاّ جمع يوم القيامة صفايح يحمى عليها في نارجهنم فتكوى بها جبهته وجنباه وظهره حتّى يقضى الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ممّا تعدّون ، ثمّ يرى سبيله إما إلى الجنة و إما إلى النّار قال

و روى ثوبان عن النبيّ صلى الله عليه وآله من ترك كنزاً مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يتبعه ويقول : ويلك ما أنت ، فيقول أنا كنزك الذي تركت بعدك فلايزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضمها ثمّ يتبعه ساير جسده

المقام الثاني

في أسرار الزّكاة ودقايق بذل المال وهى امور :

الاول أنّ المؤمن الموحّد إذا أقرّ بالتّوحيد باللّسان لزم إذعانه به بالجنان ومعنى التوحيد إفراد المعبود بالمحبوبيّة واخلاص القلب عمّا سواه والفراغ عن كلّ ماعداه، فانّ المحبّة أمر لايقبل الشركة والأموال محبوبة عند الخلايق، لأنها آلة تمتّعهم بالدّنيا ، و بسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون عن الموت مع أنّ فيه لقاء المحبوب، فجعل الله بذل المال امتحاناً لهم وتصديقاً لدعوتهم المحبّة له سبحانه والناس في ذلك ثلاثة أصناف :

صنف صدقوا التوحيد و حذفوا عن ساحة قلوبهم ما سوى المعبود و بذلوا أموالهم من غير تعرّض بوجوب الزّكاة ولم يدّخروا لأنفسهم ديناراً ولادرهماً ، ولم يتركوا بعدهم صفراء ولا بيضاء ، وهم الذين قال الله سبحانه في حقهم :

« وَيُؤْثِرُونَ عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ » «وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً » .

روى في الكافي باسناده عن محمّد بن سنان عن المفضّل قال : كنت عند أبي عبدالله عليه السلام فسأله رجل في كم تجب الزّكاة من المال ؟ فقال عليه السلام له : الزكاة الظاهرة أم الباطنة تريد ؟ فقال : أُريدهما جميعاً ، فقال عليه السلام : أمّا الظّاهرة ففي

كلّ ألف خمسة و عشرون ، و أمّا الباطنة فلا تستأثر على أخيك بما هو أحوج إليه منك .

وصنف درجتهم دون درجة الصنف السابق وهم الممسكون أموالهم المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات ، فيكون قصدهم في الادّخار الانفاق على نفسه و عياله الواجب النفقة بقدر الحاجة ، و صرف الفاضل إلى وجوه البرّ مهما ظهر ، و هؤلاء لايقتصرون على مقدار الزّكاة و هم الذين في أموالهم حقّ معلوم للسائل و المحروم .

روى في الكافي باسناده عن أبي بصير قال : كنّا عند أبي عبدالله عليه السلام و معنا بعض أصحاب الأموال ، فذكروا الزكاة فقال أبوعبدالله عليه السلام : إنّ الزكاة ليس يحمد بها صاحبها ، وانما هوشيء ظاهر إنما حقن بها دمه وسمّى بها مسلماً ، ولولم يؤدّها لم يقبل له صلاة ، و إنّ عليكم في أموالكم غير الزكاه ، فقلت أصلحك الله ومالنا في أموالنا غير الزكاة ؟ فقال عليه السلام : سبحان الله أما تسمع الله عزّ وجلّ يقول في كتابه :

« وَٱلَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَٱلْمَحْرُومِ » .

قال : ماذا الحقّ المعلوم الذي علينا ؟ قال عليه السلام : هوالشيء يعلمه الرجل في ماله يعطه في اليوم أو في الجمعة أوفي الشهر قلّ أو كثر غير أنه يدوم عليه .

وعن إسماعيل بن جابر عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ

« وَٱلَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَٱلْمَحْرُومِ » .

أهوسوى الزكاة ؟ فقال عليه السلام : هو الرّجل يؤتيه الله الثروة من المال فيخرج منه الألف و الألفين و الثلاثة آلاف و الأقلّ والأكثر فيصل به رحمه ويحمل به الكلّ عن قومه.

و عن القاسم عبدالرّحمن الأنصارى قال : سمعت أباجعفر عليه السلام يقول : إنّ

رجلا جاء إلى أبي عليّ بن الحسين عليهما السلام فقال له: أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ: والذين في أموالهم حقّ معلوم للسّائل والمحروم، ما هذا الحقّ المعلوم؟ فقال له عليّ بن الحسين عليهما السلام: الحقّ المعلوم الشيء يخرجه الرّجل من ماله ليس من الزّكاة ولا من الصّدقة المفروضين، قال: فاذا لم يكن من الزكاة ولا من الصدقة فما هو؟ فقال عليه السلام: هو الشيء يخرجه الرّجل من ماله إن شاء أكثر وإن شاء أقلّ على قدر ما يملك، فقال له الرّجل: فما يصنع به؟ قال: يصل به رحما ويقوى به ضعيفاً أو يحمل به كلاًّ أو يصل به أخاً له في الله أو لنائبة تنوبه فقال الرّجل: الله أعلم حيث يجعل رسالاته هذا.

والمحروم الرّجل الذي ليس بعقله بأس ولم يبسط له في الرزق، رواه الكلينيّ عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام.

والصنف الثالث الذين يقتصرون على أداء الواجب فلا يزيدون عليه ولا ينقصون منه وهى أدون الرتب، وقد اقتصر جميع العوام عليه لبخلهم بالمال وفرط ميلهم إليه وضعف حبّهم للاخرة.

السر الثاني من أسرار الزّكاة أنها مطهّرة من صفة البخل وهى صفة مذمومة من جنود النفس قال سبحانه:

«خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها» وقال: «وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

الثالث أنّ شكر النّعمة واجب عقلا وشرعاً وهو على ما قاله العلماء عبارة عن صرفها إلى طلب مرضات المنعم، فالعبادات البدنيّة شكر لنعمة البدن، و العبادات المالية شكر لنعمة المال، فيحكم العقل بوجوبها لكونها شكراً للمنعم، وما أخسّ من ينظر إلى الفقير وقد ضيق عليه الرزق وانتقع لونه من مسّ الجوع ثمّ لا يسمح نفسه أن يؤدّى شكر الله تعالى على إغنائه عن السّؤال و إحواج غيره إليه بربع العشر أو العشر من ماله.

قال الصّادق عليه السلام في رواية سماعة بن مهران المرويّة في الكافي: ومن أدى

ما فرض الله عليه فقد قضى ما عليه وأدّى شكر ما انعم الله عليه في ماله إذا هو حمده على ما أنعم الله عليه فيه بما فضّله به من السّعة على غيره ، و لما وفّقه لأداء ما فرض الله عزّ وجلّ عليه وأعانه عليه .

الرابع أنّ النفس الناطقة لها قوّتان : نظريّة وعمليّة ،فالقوّة النظريّة كمالها في التعظيم لأمر الله ، و القوّة العمليّة كمالها في الشفقة على خلق الله فأوجب الله الزّكاة ليحصل لجوهر الرّوح هذا الكمال، وهو اتّصافه بكونه محسنا إلى الخلق ، ساعياً في ايصال الخيرات إليهم ، دافعا للآفات عنهم .

الخامس أنّ المال سمّى مالا لميل كلّ أحد إليه و هو في معرض التلف والزّوال مهادم في يده فهو غاد و رائح ، وإذا أنفق في مصارف الخير ووجوه الله بقى بقاء لايزول ، لأنّه يوجب الثناء الجميل في الدّنيا و الثواب الجزيل في الآخرة ، و قد مرّ في الخطبة الثانية و العشرين أنّ لسان الصدق يجعله الله للمرء في النّاس خير له من المال يورثه غيره ، فانّ المراد بلسان الصدق هو الذكر الجميل ، قال حاتم لامرأته مارية :

أماريّ إنّ المال غاد و رائح　　　ويبقى من المال الأحاديث والذكر
لقد علم الأقوام لو أنّ حاتما　　　أراد ثراء المال كان له وفر

السادس أنّ كثرة المال موجبة لحصول الطغيان والانحراف عن سبيل الرحمن كما قال عزّ من قائل :

(إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى) .

فأوجب الله الزكاة لتقليل سبب الطغيان وجبر المفسدته، إلى غير ذلك من الأسرار التي يستنبطها العقل بأدنى توجّه ، والله الهادى إلى الخيرات .

(و) السادس

(صوم شهر رمضان فانّه جنّة من العقاب) و وقاية من النّار يوم الحساب ،

وانما خصّه بهذه العلة مع كون ساير العبادات كذلك لكونه أشدّ وقاية من غيره، بيان ذلك أنّ استحقاق الانسان للعقوبة إنما هو بقربه من الشيطان و اطاعته له وللنفس الأمّارة، وبشدّة القرب وضعفه يتفاوت العقاب شدّة وضعفاً، وبكثرة الطاعة وقلّتها يختلف العذاب زيادة و نقصاناً، و سبيل الشّيطان على الانسان و وسيلته إليه إنّما هي الشّهوات، و قوّة الشهوة بالأكل و الشرب، فبالجوع و الصوم يضعف الشهوة وينكسر صولة النفس وينسدّ سبيل الشيطان وينجى من العقوبه و الخذلان، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم إنّ الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيّقوا مجاريه بالجوع.

و قال صلوات الله عليه و آله لعايشة: و ادمى قرع باب الجنّة، قالت: بماذا؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: بالجوع.

قال الغزالي في احياء العلوم في تعداد فوائد الجوع ويأتي إنشاء الله جميعها في التّذييل الثاني من شرح الفصل الثاني من الخطبة المائة والتاسعة و الخمسين: «الفائدة الخامسة» وهى من أكبر الفوائد كسر شهوات المعاصي كلّها والاستيلاء على النّفس الامارة بالسّوء، فانّ منشأ المعاصي كلّها الشهوات والقوى ومادّة الشهوات والقوى لامحالة الأطعمة، فتقليلها يضعف كلّ شهوة وقوّة، وإنّما السعادة كلّها في أن يملك الرّجل نفسه، والشقاوة في أن تملكه نفسه، وكما أنّك لا تملك الدّابة الجموح إلاّ بضعف الجوع، فاذا شبعت قويت وشردت وجمحت فكذلك النفس، وهذه ليست فائدة واحدة، بل هى خزائن الفوائد، و لذلك قيل الجوع خزانة من خزائن الله.

فقد اتّضح بذلك كون الصّوم جنّة من النّار، و وقاية من غضب الجبّار، وأنّ فيه من إذلال النّفس و قهر إبليس و كسر الشهوات ما ليس في ساير العبادات و هو واجب بالضرورة من الدّين و اجماع المسلمين و نصّ الكتاب المبين قال سبحانه:

(يا أيُّهَا الّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلى الّذينَ مِنْ

قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ، أَيّاماً مَعْدُوداتٍ فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنّاسِ وَبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كانَ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى ما هَداكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) .

قال الصادق عليه السلام في هذه الآية : لذّة ما في النداء أزال تعب العبادة والعناء وفي قوله : لعلّكم تتّقون ، إشارة إلى ما ذكرنا سابقا من أنّ الصوم جنّة ووقاية به يتّقى من العقاب وينجى من العذاب .

والمستفاد من الآية الشريفة أنّ الصّوم كان مكتوباً مفروضاً على الأُمم السالفة كما أنه مكتوب على الأمّة المرحومة، ولا خلاف في ذلك ، وإنّما الخلاف في أنّ الصوم المفروض علينا بهذه الكيفية المخصوصة في وقته وعدده هل كان في ساير الأُمم كذلك

ذهب بعض العامّة إلى ذلك على ما حكاه في مجمع البيان ، حيث روى فيه عن الشعبي والحسن أنهما قالا إنه فرض علينا صوم شهر رمضان كما كان فرض صوم شهر رمضان على النّصارى ، وكان يتّفق ذلك في الحرّ الشديد والبرد الشديد فحوّلوه إلى الرّبيع وزادوا في عدده .

و ذهب آخرون إلى أن التّشبيه في الآية بين فرض صومنا وفرض صوم من تقدّمنا من الأُمم ، أي كتب عليكم صيام أيّام كما كتب عليهم صيام أيّام ، وليس في ذلك تشبيه عدد الصوم المفروض علينا ولا وقته بعدد الصوم المفروض عليهم ولا

وقته ، قال الطبرسي : وهواختيار أبي مسلم والجبائي .

أقول : و هذا هو الأقوى و يدلّ عليه صريحاً ما رواه في الفقيه عن سليمان ابن داود المنقري عن حفص بن غياث النخعي قال : سمعت أباعبدالله عليه السلام يقول : إنّ شهر رمضان لم يفرض الله صيامه على أحد من الاُمم قبلنا ، فقلت له : فقول الله عزّ وجلّ :

(يا أيّها الّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلى الّذينَ مِنْ قَبلِكُمْ) .

قال عليه السلام : إنما فرض الله صيام شهر رمضان على الأنبياء دون الاُمم ، ففضّل الله به هذه الامّة وجعل صيامه فرضاً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى امّته هذا .

و الكلام بعد في علّة وجوب الصوم و فضله و فضل صوم شهر رمضان خصوصاً والآداب التي يكون عليها الصايم .

أما علة وجوب الصوم ففي الفقيه سأل هشام بن الحكم أباعبدالله عليه السلام عن علّة الصّيام فقال عليه السلام : إنما فرض الله الصيام ليستوى به الغنى والفقير ، و ذلك إنّ الغنى لم يكن ليجد مسّ الجوع فيرحم الفقير ، لأنّ الغنيّ كلّما أراد شيئاً قدر عليه ، فأراد الله أن يسوّى بين خلقه وأن يذيق الغنى مسّ الجوع والألم ليرقّ على الضعيف ويرحم الجائع .

و كتب أبوالحسن عليّ بن موسى الرّضا عليه السلام إلى محمد بن سنان فيما كتب من جواب مسائله : علّة الصّوم عرفان مسّ الجوع والعطش ليكون ذليلا مستكيناً مأجوراً محتسباً صابراً ويكون ذلك دليلا له على شدايد الآخرة مع ما فيه من الانكسار له عن الشّهوات واعظاً له في العاجل دليلا على الآجل ليعلم شدّة مبلغ ذلك من أهل الفقر والمسكنة في الدّنيا والآخرة .

وروى عن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليهما السلام أنّه قال : جاء نفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسأله أعلمهم من مسائل فكان فيما سأله أنّه قال : لأىّ شيء

فرض الله الصوم على امتك بالنهار ثلاثين يوماً و فرض على الأمم أكثرمن ذلك ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إن آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة بقى في بطنه ثلاثين يوماً ففرض الله على ذريته (١) ثلاثين يوماً الجوع و العطش ، و الذي يأكلونه بالليل تفضل من الله عليهم و كذلك كان على آدم ففرض الله عز وجل ذلك على أمتي ثم تلى هذه الآية .

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيّاماً مَعْدُوداتٍ) .

قال اليهودى صدقت يا محمد فما جزاء من صامها ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ما من مؤمن يصوم شهر رمضان احتساباً إلا أوجب الله له سبع خصال : **اولها** يذوب الحرام من جسده و **الثانية** يقرب من رحمة الله **والثالثة** يكون قد كفرخطيئة أبيه آدم عليه السلام **والرابعة** يهون الله عليه سكرات الموت **والخامسة** أمان من الجوع و العطش يوم القيامة **و السادسة** يعطيه الله برائة من النار **و السابعة** يطعمه الله من طيبات الجنة ، قال : صدقت يا محمد .

وأما فضل الصوم مطلقاً ففي الكافي والفقيه عن أبي جعفر عليه السلام قال : بنى الاسلام على خمسة أشياء : على الصلاة ، و الزكاة ، و الصوم ، والحج ، و الولاية ، و قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الصوم جنة من النار .

وفيهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لأصحابه : ألا أخبركم بشيء إن أنتم فعلتموه تباعد الشيطان منكم كما تباعد المشرق من المغرب ؟ قالوا : بلى يارسول الله ، قال : الصوم يسود وجهه ، و الصدقة تكسر ظهره ، و الحب في الله و الموازرة على العمل الصالح يقطع دابره ، و الاستغفار يقطع وتينه ، ولكل شيء زكاة و زكاة لأبدان الصيام .

١ـ اى ذريته من امة محمد ومن الانبياء السالفين دون الامم السالفة كما ظهر من رواية حفص بن غياث ويظهرمن قوله فى هذه الرواية ففرض الله ذلك على امتى منه

وفيهما عن أبي عبدالله عليه السلام قال : أوحى الله إلى موسى مايمنعك من مناجاتي ؟ فقال : يا ربّ أُجلّك عن المناجاة لخلوف فم الصّايم ، فأوحى الله إليه يا موسى لخلوف فم الصّايم أطيب عندي من ريح المسك .

وعنه عليه السلام للصّائم فرحتان : فرحة حين افطاره ، وفرحة حين لقاء ربّه .

و قال عليه السلام من صام لله يوماً في شدّة الحرّ فأصابه ظماء وكّل الله به ألف ملك يمسحون وجهه ويبشّرونه حتّى إذا أفطر قال الله عزّوجلّ : ما أطيب ريحك وروحك يا ملائكتي اشهدوا أنّي قد غفرت له .

وفي الكافي عن أبي الصباح عن أبي عبدالله عليه السلام قال : إنّ الله تبارك و تعالى يقول : الصوم لي وأنا اجزى عليه ، ورواه في الفقيه عن رسول الله صلى الله عليه وآله مثله إلاّ أنّ فيه به بدل عليه .

و تخصيصه من بين ساير العبادات مع كون جميعها لله سبحانه من جهة مزيد اختصاصه به تعالى ، إمّا لأجل أنّ الصّوم عبادة لم يعبد بها غير الحقّ سبحانه بخلاف ساير العبادات و الرّكوع و القيام والقربان و نحوها ، فانها ربما تؤتى بها للمعبودات الباطلة كما يعبد بها للمعبود بالحقّ ، وأما الصّوم فلم يتعبّد به إلاّ لله سبحانه و تعالى ، أولأنّ الصوم عبادة خفيّة بعيدة عن الرّيا و ليست مثل ساير العبادات التي تعلّقها بالجوارح و الأعضاء الظاهرة غالبا ، و لذلك لم تسلم من الشرك الخفى والرياء كثيراً .

وأما فضل شهر رمضان وفضل صومه ففي الوسايل عن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : اعطيت امّتي في شهر رمضان خمساً لم يعطها الله أُمة نبيّ قبلي إذا كان أولّ يوم منه نظر الله إليهم فاذا نظر الله عزّ وجلّ إلى شيء لم يعذّ به بعدها ، وخلوف أفواههم حين يمسون أطيب عند الله من ريح المسك ، ويستغفر لهم الملائكة كلّ يوم وليلة منه ، ويأمر الله عزّ وجلّ جنّته فيقول تزيّني لعبادي المؤمنين يوشك أن يستريحوا من نصب الدّنيا واذاها إلى جنّتي و كرامتي ، فاذا كان آخر ليلة منه غفر الله عزّ وجلّ لهم جميعاً .

و عن علي بن موسى الرضا عن آبائه عليهم السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : رجب شهر الله الأصب وشهر شعبان تتشعب فيه الخيرات وفي أول يوم من شهر رمضان تغل المردة من الشياطين ويغفر في كل ليلة لسبعين ألفاً فاذا كان ليلة القدر غفر الله لمثل ما غفر في رجب و شعبان و شهر رمضان إلى ذلك اليوم إلا رجل بينه وبين أخيه شحناء ، فيقول الله عز وجل انظروا هؤلاء حتى يصطلحوا .

و عن علي بن الحسين عليه السلام كان يقول : إن لله عز وجل في كل ليلة من شهر رمضان عند الافطار سبعين ألف ألف عتيق من النار كل قد استوجب النار ، فاذا كان آخر ليلة من شهر رمضان اعتق مثل ما اعتق في جميعه .

وعن الصادق عليه السلام قال : حدثني أبي عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث قال : من صام شهر رمضان و حفظ فرجه و لسانه و كف أذاه عن الناس غفر الله له ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر ، وأعتقه من النار ، و أدخله دار القرار ، وقبل شفاعته بعدد رمل عالج من مذنبي أهل التوحيد .

وفي العيون باسناده عن حسن بن فضال عن أبيه عن الرضا عن آبائه عن علي عليهم السلام إن رسول الله صلى الله عليه وآله خطب ذات يوم فقال :

أيها الناس إنه قد أقبل إليكم شهر الله بالبركة والرحمة والمغفرة، شهر هو عند الله أفضل الشهور ، وأيامه أفضل الأيام ، ولياليه أفضل الليالي ، وساعاته أفضل الساعات ، و هو شهر دعيتم فيه إلى ضيافة الله ، و جعلتم فيه من أهل كرامة الله ، أنفاسكم فيه تسبيح ، و نومكم فيه عبادة، وعملكم فيه مقبول ، ودعاؤكم فيه مستجاب فاسألوا الله ربكم بنيات صادقة و قلوب طاهرة أن يوفقكم لصيامه و تلاوة كتابه فان الشقي من حرم غفران الله في هذا الشهر العظيم ، واذكروا بجوعكم وعطشكم فيه جوع يوم القيامة و عطشه ، و تصدقوا على فقرائكم و مساكينكم ، و وقروا كباركم ، وارحموا صغاركم ،وصلوا أرحامكم ، واحفظوا ألسنتكم ،وغضوا عما لايحل النظر إليه أبصاركم ، و عما لايحل الاستماع إليه أسماعكم وتحننوا على أيتام الناس يتحنن على أيتامكم ، وتوبوا إلى الله من ذنوبكم ، وارفعوا اليه أيديكم

بالدّعاء في أوقات صلاتكم ، فانّها أفضل السّاعات ينظر الله عزّ وجلّ فيها إلى عباده يجيبهم إذا ناجوه ، و يلبّيهم اذا نادوه ، و يعطيهم إذا سألوه ، و يستجيب لهم اذا دعوه .

أيّها الناس إنّ أنفسكم مرهونة بأعمالكم ففكّوها باستغفاركم ، وظهوركم ثقيلة من أوزاركم فخفّفوا عنها بطول سجودكم ، واعلموا أنّ الله أقسم بعزّته أن لا يعذّب المصلّين والسّاجدين ، وأن لا يروّعهم بالنار يوم يقوم الناس لربّ العالمين

أيّها النّاس من فطر منكم صائما مؤمنا في هذا الشهر كان له بذلك عند الله عتق نسمة ، و مغفرة لما مضى من ذنوبه ، فقيل يا رسول الله فليس كلّنا نقدر على ذلك ، فقال صلى الله عليه وآله : اتّقوا النّار ولو بشقّ تمرة ، اتّقوا النّار ولو بشربة من ماء .

أيها الناس من حسن في هذا الشهر منكم خلقه كان له جوازاً على الصّراط يوم تزلّ فيه الأقدام ، ومن خفّف في هذا الشّهر عمّا ملكت يمينه خفّف الله عليه حسابه ، و من كفّ فيه شرّه كفّ الله عنه غضبه يوم يلقاه ، و من أكرم فيه يتيماً أكرمه الله يوم يلقاه ، ومن وصل فيه رحمه وصله الله برحمته يوم يلقاه ، ومن تطوّع فيه بصلاة كتب الله له برائة من النار ، و من أدّى فيه فرضاً كان له ثواب من أدّى سبعين فريضة فيما سواه من الشهور ، ومن أكثر فيه من الصلوات عليّ ثقّل الله له ميزانه يوم تخفّ الموازين ، ومن تلى فيه آية من القرآن كان له مثل أجر من ختم القرآن في غيره من الشهور .

أيّها الناس إنّ أبواب الجنان في هذا الشهر مفتّحة فاسألوا ربّكم أن لا يغلقها عليكم ، وأبواب النيران مغلقة فاسألوا ربّكم أن لا يفتحها عليكم ، والشياطين مغلولة فاسألوا ربّكم أن لا يسلّطها عليكم .

قال أمير المؤمنين عليه السلام فقمت و قلت يا رسول الله ما أفضل الأعمال في هذا الشهر ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم : يا أبا الحسن أفضل الأعمال في هذا الشهر الورع عن محارم الله عزّ وجلّ ، ثمّ بكى صلى الله عليه وآله ، فقلت : ما يبكيك يا رسول الله ؟ فقال : أبكي لما يستحلّ منك في هذا الشهر ، كأنّي بك وأنت تصلّي لربّك وقد انبعث أشقى الأوّلين

و الآخرين شقيق عاقر ناقة ثمود ، فضربك ضربة على قرنك فخضب منها لحيتك ، فقلت : يا رسول الله وذلك في سلامة من ديني ؟ فقال صلى الله عليه وآله : في سلامة من دينك ثمّ قال صلى الله عليه وآله : ياعليّ من قتلك فقد قتلني ، ومن أبغضك فقد أبغضني ، لأنك منّي كنفسي وطينتك من طينتي وأنت و صيّي وخليفتي على اُمتي.

وأما آداب الصوم والحالات التي يجب أن يكون الصّائم عليها فنقول : إنّ الصّوم على ثلاث مراتب ودرجات بعضها فوق بعض **الاولى** صوم العموم **الثانية** صوم الخصوص **الثالثة** صوم الأخصّ .

أما صوم العموم فهو المفروض على عامة المكلّفين ، وهو الكفّ عن المفطرات من طلوع الفجر الثاني إلى الغروب الشرعي مع النيّة ، و المشهور في المفطرات أنها عشرة : الأكل ، والشرب ، والجماع ، والبقاء على الجنابة عمداً ، وفي حكمه النوم بعد انتباهتين ، والغبار الغليظ ، وفي حكمه الدخان كذلك ، والكذب على الله سبحانه ورسوله والأئمة عليهم السلام ، والارتماس ، والاستمناء مع خروج المني ، والحقنة ، والقيء والتفصيل مذكور في الكتب الفقهيّة .

وأمّا صوم الخصوص فهو أن يكون جامعاً لشرايط الكمال مضافة إلى شرايط الصحّة كما أشار إليه الامام سيّد السّاجدين وزين العابدين عليه السلام في دعائه عند دخول شهر رمضان حيث قال : « اللّهمّ صلّ على محمّد و آل محمّد و ألهمنا معرفة فضله و اجلال حرمته و التحفّظ ممّا حظرت فيه ، و أعنّا على صيامه بكفّ الجوارح عن معاصيك واستعمالها بما يرضيك حتّى لانصغى بأسماعنا إلى لغو ولانسرع بأبصارنا إلى لهو ، وحتّى لا نبسط أيدينا إلى محظور و لا نخطو بأقدامنا إلى محجور ، و حتّى لاتعى بطوننا إلاّ ما أحللت ولا تنطق ألسنتنا إلاّ بما مثلت ، ولا نتكلّف إلاّ مايدنى من ثوابك ولا نتعاطي إلاّ ما يقى من عقابك ، ثمّ خلص ذلك كلّه من رياء المرائين وسمعة المسمعين لانشرك فيه أحداً دونك ، ولا نبغى به معبوداً سواك » .

و محصّل شروط الكمال أن لا يكون يوم صومه كيوم فطره ، و مداره على اُمور :

—

منها غضّ السّمع و البصر عن محارم الله ، و عن كلّ مايلهى النّفس عن ذكرالله ، و كذلك حفظ سايرالأعضاء عن المعاصي والآثام .

قال أبوعبدالله عليه السلام في رواية الكافي : إذا صمت فليصم سمعك وبصرك وشعرك وجلدك وعدّد أشياء غيرهذا وقال : لا يكون يوم صومك كيوم فطرك ، و تقدّم ما يدلّ على ذلك ،وسيأتي أيضاً .

ومنها حفظ اللّسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنّميمة و الفحش والخصومة بل عن مطلق التّكلّم الاّ بذكر الله .

روى في الكافي عن جراح المدايني عن أبي عبدالله عليه السلام قال : إنّ الصيام ليس من الطّعام والشراب وحده ثمّ قال عليه السلام : قالت مريم : إنّي نذرت للرحمن صوماً أى صمتاً ، فاحفظوا ألسنتكم وغضّوا أبصاركم ولا تنازعوا ولا تحاسدوا .

قال : وسمع رسول الله صلى الله عليه وآله امرأة تسبّ جارية لها و هي صائمة،فدعى رسول الله صلى الله عليه وآله بطعام فقال لها : كلى ، فقالت : إنّي صائمة ، فقال : كيف تكونين صائمة وقد سببت جاريتك ، إنّ الصّوم ليس من الطعام والشّراب .

قال : وقال أبوعبدالله عليه السلام إذا صمت فليصم سمعك وبصرك من الحرام والقبيح و دع المراء و أذى الخادم ، و ليكن عليك وقار الصّيام ، و لا تجعل يوم صومك كيوم فطرك .

ويأتي إنشاءالله في شرح الكلام المأة والأربعين في ضمن الأخبار الواردة في حرمة الغيبة حديث الفتاتين الصّائمتين الذي رواه المحدّث الجزائري في الأنوار النعمانية وفيه تنبيه على عظم خطر الغيبة في حال الصّيام فانتظر لما يتلى عليك وتبصّر .

وعن مسعدة بن صدقة عن أبي عبدالله عليه السلام عن آبائه عليهم السّلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ما من عبد صالح يُشتم فيقول : إنّي صائم سلام عليك لا أشتمك كما تشتمني إلاّ قال الرّب تبارك و تعالى : استجار عبدى بالصّوم من شرّ عبدي وقد أجرته من النّار .

و عن حمّاد بن عثمان وغيره عن أبى عبدالله عليه السلام قال : لا ينشد الشعر بليل

ولا ينشد في شهر رمضان بليل ولا نهار ، فقال له إسماعيل : يا أبتاه وإن كان فينا ، فقال عليه السلام : وإن كان فينا .

و بالجملة فاللازم على الصّائم التحفظ من سقطات اللّسان و فضول البيان والمواظبة على الاستغفار والدّعاء وتلاوة القرآن وساير الأذكار .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : عليكم في شهر رمضان بكثرة الاستغفار والدّعاء، فأما الدّعاء فيدفع به عنكم البلاء ، وأمّا الاستغفار فتمحى به ذنوبكم .

و قال أبوعبدالله عليه السلام و كان عليّ بن الحسين عليه السلام إذا كان شهر رمضان لم يتكلّم إلاّ بالدّعاء والتسبيح والاستغفار والتكبير فاذا أفطر قال : اللّهم إن شئت أن تفعل فعلت .

ومنها ترك شمّ الرّياحين ولا سيّما النرجس .

ومنها الكفّ عن الافطار على الشّبهات ، روى في الوسائل عن أبي عبدالله عليه السلام عن أبيه عليه السلام قال: جاء قنبر مولى عليّ عليه السلام بفطره اليه فجاء بجراب فيه سويق وعليه خاتم قال عليه السلام : فقال له رجل : يا أمير المؤمنين إنّ هذا لهو البخل تختم على طعامك قال : فضحك عليه السلام ثمّ قال : أو غير ذلك لا أُحبّ أن يدخل بطني شيء لا أعرف سبيله .

ومنها أن لا يكثر من الحلال وقت الافطار بحيث يمتلي و يثقل فما من وعاء أبغض الى الله من بطن مملوّ .

روى في البحار عن مجالس ابن الشّيخ (ره) باسناده عن جعفر بن محمّد عن آبائه عليهم السلام في حديث طويل لابليس مع يحيى عليه السلام قال : قال يحيى عليه السلام : فهل ظفرت بي ساعة قطّ ؟ قال : لا ، ولكن فيك خصلة تعجبني ، قال يحيى عليه السلام : فما هي ؟ قال : أنت رجل أكول فاذا أفطرت أكلت و بشمت ، فيمنعك ذلك من بعض صلاتك وقيامك باللّيل ، قال يحيى : فاني اعطى الله عهداً أني لا أشبع من الطعام حتى ألقاه ، قال له إبليس : وأنا أعطى الله عهداً أني لا أنصح مسلماً حتّى ألقاه ثمّ خرج فما عاد اليه .

ومنها أن يكون قلبه بعد الافطار مضطربا بين الخوف والرّجاء إذ لا يدري أنّ صومه مقبول فهو من المقرّبين أومردود فهو من المحرومين .

مرّ بعض أصحاب العقول بقوم يوم عيدهم وهم ضاحكون مستبشرون فقال: إنّ الله سبحانه جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه يستبقون فيه بطاعته فسبق أقوام ففازوا وتخلّف أقوام فخابوا فالعجب كلّ العجب للضاحك اللاّعب في اليوم الذي فازفيه المسارعون وخاب فيه المبطلون .(١)

وأمّاصوم أخص الخواصّ فصوم القلوب عن الهمم الدّنيوية والأغراض الدّنية و كفّه عن التوجّه إلى ما سوى الله بالكلّية لدوام استغراقه بالحقّ عن الالتفات بغيره ، فالفطر في هذا الصّوم الذي هو ... هو الفكر فيما سوى الله و اليوم الآخر وصرف الهمة في غير طاعة الله وطاعة رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم من أغراض النفس ومقاصدالطبع

(و) السابع

(حجّ البيت و اعتماره فانّهما ينفيان الفقر و يرحضان الذّنب) أي يغسلانه ويطهّرانه و ... الحجّ و المشاعر العظام وفضل البيت الحرام ... في الفصل الثامن عشر من فصول الخطبة الاولى ، ونورد هنا مالم يسبق ذكره هناك .

فأقول : تعليل الحجّ والاعتمار بنفي الفقرورحض الذنب إشارة إلى أنّ فيهما جمعاً بين منفعة الدنيا ومنفعة الآخرة وإلى ذلك أشار سبحانه في سورة الحجّ بقوله :

« وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ » .

قال ابن عباس: يعني بالمنافع التجارات، وقال سعيد بن المسيّب و عطيّة : هي منافع

---

١ ـ هذا الذى ذكره المصنف « قد »عن بعض أصحاب العقول نسبه الفاضل النراقى أعلا الله مقامه في «جامع السعادات » الى الامام (ع) حيث قال : روى أنّ الامام أبامحمد الحسن المجتبى (ع) مرّ بقوم يوم العيد وهم يضحكون فقال (ع) انّ الله تعالى « الخ » إلاّ أنّ فيه « لطاعته » بدل « بطاعته » و قال في آخره : أما و الله لو كشف الغطا لاشتغل المحسن باحسانه و المسيء عن اسائته « المصحح »

الآخرة وهي العفو و المغفرة ، و قال مجاهد : هي التّجارة في الدّنيا والأجر والثّواب في الآخرة .

و يشعر به المرويّ عن الصّادق عليه السلام حيث قال في رواية : إنّي سمعت الله عزّ و جل يقول : ليشهدوا منافع لهم فقيل : منافع الدّنيا أو منافع الآخرة ؟ فقال عليه السلام : الكلّ .

وفي الفقيه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما من حاجّ يضحّى ملبّياً حتّى تزول الشمس إلاّ غابت ذنوبه معها ، والحجّ والعمرة ينفيان الفقر كما ينفى الكير خبث الحديد

وفي الكافي باسناده عن خالد القلانسي عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قال عليّ ابن الحسين عليهما السلام : حجّوا و اعتمروا تصحّ أبدانكم و تتّسع أرزاقكم و تكفون مؤنات عيالاتكم ، وقال عليه السلام الحاجّ مغفور له وموجوب له الجنّة ومستأنف له العمل ومحفوظ في أهله وماله .

و عن السّكوني عن أبي عبدالله عن آبائه عليهم السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحجّة ثوابها الجنّة ، والعمرة كفّارة لكلّ ذنب .

و عن إسحاق بن عمّار قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام : إنّي قد وطنت نفسى على لزوم الحجّ كلّ عام بنفسى أو برجل من أهل بيتي بما لي ، فقال عليه السلام و قد عزمت على ذلك ؟ قال : قلت : نعم ، قال : إن فعلت فأيقن بكثرة المال .

وعن الفضيل بن يسار قال: سمعت أباجعفر عليه السلام يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وآله لايخالف (١) الفقر والحمى مدمن الحجّ والعمرة .

وعن أبي محمّد الفرا قال : سمعت جعفر بن محمّد عليه السلام يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وآله تابعوا بين الحجّ والعمرة فانهما ينفيان الفقر والذّنوب كما ينفى الكير خبث الحديد

وعن ابن الطيّار قال : قال أبوعبدالله عليه السلام : حجج تترى وعمر تسعى يدفعن عيلة الفقر وميتة السّوء .

أقول: المستفاد من هذه الروايات أنّ للحجّ والعمرة بذاتهما مدخليّة في زيادة المال ونفى الفقر لا من حيث التجارة الحاصلة في موسم الحجّ وقيام الأسواق حينئذ كما زعمه الشارح البحراني .

١ـ اى لايأتى «منه» وقال فى الوافى: المحالفة بالحاء المهملة: الملازمة والمعاقدة «المصحح»

(و) الثامن

(صلة الرّحم فانها مثراة في المال و منساة في الأجل) يعنى أنها موجبة للزيادة فى المال و التأخير في الأجل و محلّ لهما ، وقد مرّ الكلام فيها مستوفى في شرح الفصل الثاني من الخطبة الثالثة والعشرين .

قال الشارح البحراني : كونها مثراة في المال من وجهين :

أحدهما أنّ العناية الالهية قسمت لكلّ حيّ قسطاً من الرّزق يناله مدّة الحياة الدّنيا وتقوم به صورة بدنه ، فاذا اعدّت شخصاً من النّاس للقيام بأمر جماعة و كفلة بامدادهم و معونتهم وجب في العناية إفاضة أرزاقهم على يده و ما يقوم بامدادهم بحسب استعداده لذلك ، سواء كانوا ذوى أرحام أومرحومين في نظره حتّى لو نوى قطع أحدهم فربما نقص مالـه بحسب رزق ذلك المقطوع ، و ذلك معنى كونـه مثراتا للمال .

الثّاني أنّ صلة الرّحم من الأخلاق الحميدة التي يستمال بها طباع الخلق فواصل رحمه مرحوم في نظر الكلّ ، فيكون ذلك سبباً لامداده ومعونته من ذوى الأمداد والمعانات كالملوك ونحوهم فكان صلة الرّحم مظنّة لزيادة المال .

و كونها منساة في الأجل من وجهين :

أحدهما أنّ صلة الرّحم توجب تعاطف ذوى الأرحام وتوازرهم ومعاضدتهم لواصلهم ، فيكون عن أذى الأعداء أبعد وفى ذلك مظنّة تأخيره وطول عمره .

الثّاني أنّ مواصلة ذوى الأرحام توجب تعلّق هممهم ببقاء و اصلهم و اعداده بالدّعاء ، ويكون دعاؤهم وتعلّق هممهم ببقائه من شرايط بقائه ونساء أجله فكانت مواصلتهم منساة في أجله .

(و) التاسع

الصدقة وهى على قسمين :

أحدهما (صدقة السرّ فانّها تكفرّ الخطيئة) و تطفي غضب الرّبّ سبحانه ، وإنما خصّها بذلك مع كون ساير العبادات كذلك لكونها أبعد من الرّياء وتضمّنها

من الخلوص والتقرّب ماليس في غيرها .

روى في الكافي عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : صدقة السرّ تطفى غضب الرّب تبارك وتعالى .

و عن عمار السّاباطي قال : قال لي أبوعبدالله عليه السلام : يا عمار الصّدقة والله في السرّ أفضل من الصّدقة في العلانية ، و كذلك والله العبادة في السّر أفضل منها في العلانية .

وعن معلّى بن خنيس قال : خرج أبوعبدالله عليه السلام في ليلة قد رشت وهو يريد ظلّة بني ساعدة فاتّبعته فاذا قد سقط منه شيء فقال: بسم الله اللّهم ردّ علينا ، قال : فأتيته فسلّمت عليه فقال عليه السلام : معلّى قلت : نعم ، جعلت فداك ، فقال لي : التمس بيدك فما وجدت من شيء فادفعه الىّ ، فاذا أنا بخبز منتشر كثير فجعلت أدفع عليه ماوجدت فاذا أنا بجراب أعجز عن حمله من خبز ،فقلت: جعلت فداك أحمله على رأسي «عاتقي خ» فقال : لا ، أنا أولى به منك ولكن امض معي ، قال : فأتينا ظلّة بني ساعدة فاذا نحن بقوم نيام، فجعل يدس الرغيف والرّغيفين حتى أتا على آخرهم ثمّ انصرفنا،فقلت: جعلت فداك يعرف هؤلاء الحق ؟ فقال : لو عرفوه لواسيناهم بالدّقة والدّقةهي الملح إنّ الله تبارك وتعالى لم يخلق شيئاً إلاّ وله خازن يخزنه إلاّ الصدقة فانّ الرّب يليها بنفسه وكان أبي عليه السلام إذا تصدّق بشيء وضعه في يد السائل ثمّ ارتدّه منه فقبّل وشمّه ثمّ ردّه في يد السّائل ، إنّ صدقة اللّيل تطفى غضب الرّب و تمحو الذّنب العظيم وتهوّن الحساب،وصدقة النهار تثمر المال وتزيد في العمر،إنّ عيسى بن مريم عليهما السلام لما أن مر على شاطيء البحر رمى بقرص من قوته في الماء ، فقال له بعض الحواريّين يا روح الله و كلمته لم فعلت هذا وانما هو من قوتك ؟ قال عليه السلام : فعلت هذا لدابة تأكله من دوابّ الماء وثوابه عندالله عظيم .

(و) الثّاني (صدقة العلانية فانّها تدفع ميتة السّوء) كالغرق و الحرق والهدم ونحوها .

و يدلّ عليه روايات اخر مثل ما رواه ثقة الاسلام الكليني عطّر الله مضجعه

باسناده عن عبدالله بن سنان قال : سمعت أباعبدالله عليه السلام يقول : إنّ الصّدقة باليد تقي ميتة السّوء وتدفع سبعين نوعاً من أنواع البلاء وتفكّ عن لحى سبعين شيطاناً كلّهم يامره أن لا يفعل

وعن أبي ولاّد قال : سمعت أباعبدالله عليه السلام يقول : بكروا بالصّدقة وارغبوا فيها ، فمامن مؤمن يتصدّق بصدقة يريد بها ما عندالله ليدفع الله بها عنه شرّ ماينزل من السّماء إلى الأرض في ذلك اليوم إلاّ وقاه الله شرّما ينزل في ذلك اليوم .

وعن السّكوني عن جعفرعن آبائه عليهم السّلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنّ الله لا إله إلاّ هو ليدفع بالصّدقة الدّاء و الدّبيلة (١) والحرق و الغرق و الهدم والجنون وعدّ صلى الله عليه وآله وسلم سبعين باباً من السّوء .

و عن سالم بن مكرم عن أبي عبدالله عليه السلام قال : مرّ يهوديّ بالنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال : السّام عليك ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : عليك ، فقال أصحابه انما سلّم عليك بالموت ، فقال الموت عليك قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : و كذلك رددت ، ثمّ قال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ، إنّ هذا اليهودي يعضّه أسود في قفاه فيقتله ، قال : فذهب اليهودى فاحتطب حطباً كثيراً فاحتمله ثمّ لم يلبث أن انصرف فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ضعه ، فوضع الحطب ، فاذا أسود في جوف الحطب عاض على عود ، فقال : يا يهودى أىّ شيء عملت اليوم ؟ قال : ما عملت عملا إلاّ حطبي هذا احتملته وجئت به فكان معى كعكتان فأكلت واحدة و تصدّقت بواحدة على مسكين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : بها دفع الله عنك ، فقال : إنّ الصدقة تدفع ميتة السوء عن الانسان .

وعن حنان بن سدير عن أبيه عن أبي جعفر عليه السلام : إنّ الصّدقة لتدفع سبعين بلية من بلايا الدّنيا مع ميتة السوء ، إنّ صاحبها لا يموت ميتة السوء أبداً مع ما يدخر لصاحبها من الأجر في الآخرة .

(و) العاشر

(صنايع المعروف فانها تقى مصارع الهوان) المعروف اسم لكلّ فعل يعرف

١ـ بضم الدال الطاعون وداء فى الجوف ، منه

حسنه بالعقل والشرع كالاحسان والبرّ والصّلة والصّدقة على الناس والرفق معهم وساير أعمال الخير ، واصطناع المعروف لما كان مستلزماً لتأليف قلوب الخلق وجامعاً لهم على محبة المصطنع لاجرم كان وقاية له ، و النّاس يتّقون قتله و يجتنبون عن فعل مايوجب الهوان به وذلّته وهوظاهر .

و نظير هذا الكلام ما رواه عبدالله بن ميمون القداح عن أبي عبدالله عن آبائه عليهم السّلام قال : صنايع المعروف تقي مصارع السوء .

و روى عبدالله بن سليمان قال : سمعت أباجعفر عليه السلام يقول : إنّ صنايع المعروف تدفع مصارع السّوء .

وهذا من جملة خواصّه في الدّنيا ومنها أيضاً زيادة البركة .

روى السّكوني عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إنّ البركة أسرع إلى البيت الذي يمتار(١) منه «فيه خ» المعروف من الشفرة إلى سنام البعير أو من السّيل الى منتهاه .

وأمّا ثمراته الاُخروية فكثيرة اُشيرت اليها في أخبار متفرّقة ففي الفقيه قال رسول الله صلى الله عليه وآله : أوّل من يدخل الجنة المعروف و أهله و أوّل من يرد عليّ الحوض، وقال صلى الله عليه وآله : أهل المعروف في الدّنيا أهل المعروف في الآخرة، وتفسيره انه اذا كان يوم القيامة قيل لهم : هبوا حسناتكم لمن شئتم وادخلوا الجنة ، و قال صلى الله عليه وآله : كلّ معروف صدقة والدّالّ على الخير كفاعله والله يحبّ اغاثة اللهفان .

و قال الصّادق عليه السلام : أيّما مؤمن أوصل الى أخيه المؤمن معروفا فقد أوصل ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال عليه السلام : المعروف شيء سوى الزّكاة فتقرّبوا إلى الله عزّ وجلّ بالبرّ وصلة الرّحم ، و قال عليه السلام : رأيت المعروف كاسمه وليس شيء أفضل من المعروف إلّا ثوابه ، وذلك يراد منه ، وليس كلّ من يحبّ أن يصنع المعروف الى الناس يصنعه وليس كلّ من يرغب فيه يقدر عليه ولا كلّ من يقدر عليه يوذن له فيه فاذا اجتمعت الرغبة والقدرة والاذن فهنالك تمّت السّعادة للطالب والمطلوب اليه .

١ـ يمتار فيه اى يأخذ فيه الميرة ،لغة

وقال الصّادق عليه السلام أيضاً : رأيت المعروف لا يصلح الاّ بثلاث خصال: تصغيره، وستره، وتعجيله فانّك إذا صغّرته عظّمته عند من تصنعه أليه ، وإذا سترته تمّمته ، وإذا عجّلته هنّاته ، و ان كان غير ذلك محقته ونكدته ، ورواه في الكافي باسناده عنه عليه السلام نحوه ، وهو إشارة إلى بعض آداب صنع المعروف .

ومن جملتها أيضاً ما اشير اليه في رواية مفضّل بن عمر قال : قال أبوعبدالله عليه السلام : يامفضّل إذا أردت أن تعلم الى خير يصير الرّجل أم إلى شرّ انظر الى أين يضع معروفه ، فان كان يضع معروفه عند أهله فاعلم أنّه يصير إلى خير ، وإن كان يضع معروفه عند غير أهله فاعلم أنّه ليس له في الآخرة من خلاق .

هنا انتهى الجزء السابع من هذه الطبعة النفيسة القيمة ، وتمّ تصحيحه و ترتيبه و تهذيبه بيد العبد «السيد ابراهيم الميانجى» عفى عنه و عن والديه و ذلك فى اليوم الثالث من شهر رجب الاصب سنة ١٣٨٠ ويليه ان شاء الله الجزء الثامن، والحمدلله أوّلا و آخراً وظاهراً وباطناً

فهرس الجزء الرابع من شرح نهج البلاغة

العنوان	الصفحة
الفصل السادس	
في كيفية الأرض ودحوها على الماء	٢
شرح جملات الخطبة	٩
في تذييل المقام بهدايات	١٦
الهداية الاولى	
في دلائل القدرة في الأرض	١٦
الثانية	
في انفجار الينابيع والعيون من الأرض	١٩
الثالثة	
في حكمة خلق الهواء ونفعه	٢١
الرابعة	
في دلائل القدرة في خلق السحاب	٢٢
الخامسة	
في دلائل القدرة في انبات النبات والاشجار	٢٧
الترجمة	**٢٩**
الفصل السابع	
في إهباط آدم عليه السلام الى الأرض .	٣١
ذكر بعض جهات تفضيل آدم عليه السلام	٣٥
تحقيق خبرين يفيد ظاهرهما الجبر.	٣٩
الترجمة	**٤٥**
الفصل الثامن	
في عموم علمه تعالى بالأشياء .	٤٦
في الدّعاء والسؤال والتضرّع والابتهال	٥٦
الترجمة	**٥٨**
المختار الواحد والتسعون	
قاله عليه السلام لما اريد على البيعة .	٦٠
تنبيه	
متضمّن لبعض الأخبار المناسبة للمقام	٦٦
الترجمة	**٦٨**
المختار الثاني والتسعون	**٦٩**
وشرحها في ضمن فصلين	٦٩
الفصل الاول	**٦٩**
في اظهار مناقبه وفضائله عليه السلام	٦٩
ذكر حديث سلوني من قبل أن تفقدوني	٧٣
تنبيهان	**٧٨**
الاول في نكتة قوله عليه السلام سلوني «الخ» وشرحه .	٧٨
الثاني في ذكر الأخبار الغيبيّة لأمير المومنين عليه السلام	٨٢
الترجمة	**٨٥**
الفصل الثاني	**٨٦**

العنوان	الصفحة
في الاخبار عن فتن بني امية وما يرد على الناس فيها من الشدايد والمكاره	٨٦
تكملة	**٩٢**
في ذكر المختار على رواية العلاّمة المجلسي قدّس سرّه في البحار .	٩٢
الترجمة	**٩٥**
المختار الثالث والتسعون	**٩٦**
في وصف الأنبياء والأولياء عليهم السلام	٩٦
في طهارة نسب الأنبياء والأولياء عليهم السلام	١٠٢
ذكر نسب النبي صلى الله عليه وآله وأجداده عليهم السلام	١٠٥
تحقيق معنى العترة .	١٠٦
في أنّ اسرة رسول الله صلى الله عليه وآله خير جميع الخلق	١٠٨
في الذكرى والموعظة .	١١١
الترجمة	**١١٢**
المختار الرابع والتسعون	**١١٣**
في التنبيه على فوائد البعثة	١١٣
الترجمة	**١١٥**
المختار الخامس والتسعون	**١١٦**
في الثناء على الواجب تعالى والاشارة إلى فوائد البعثة	١١٦
الترجمة	**١١٩**
المختار السادس والتسعون	**١٢١**
في ذمّ أصحابه وتوبيخهم على تثاقلهم عن جهاد معاوية .	١٢١
في مدح أصحاب الرسول المعظم	١٣١
الترجمة	**١٣٢**
المختار السابع والتسعون	**١٣٤**
في الاشارة إلى طغيان بني امية وظلمهم	١٣٤
في ذكر عموم جور بني امية وانتهاكهم المحارم واحتجاج قيس بن سعد على معاوية	١٣٨
احتجاج ابن عباس على معاوية	١٤٠
طغيان جور معاوية وبني امية في حقّ علي عليه السلام وشيعته .	١٤٢
الترجمة	**١٤٤**
المختار الثامن والتسعون	**١٤٥**
في الوصيّة بالتقوى والأمر برفض الدّنيا	١٤٥
الترجمة	**١٥٤**
المختار التاسع والتسعون	**١٥٥**
في إخباره عليه السلام بما يكون بعده من أمر الأئمة عليهم السلام	١٥٥
الترجمة	**١٦١**
المختار المأة	**١٦٣**

العنوان	الصفحة
في ذكر الملاحم والوقايع التي اتّفقت بعده عليه السلام	١٦٣
الترجمة	**١٧٢**
المختار المأة والواحد	**١٧٣**
في الملاحم وذكر بعض أهوال يوم القيامة .	١٧٣
في الملاحم	١٧٦
الترجمة	**١٧٨**
المختار المأة و الثانى	**١٧٩**
وشرحه في فصلين	
الفصل الاول	**١٧٩**
في التزهيد عن الدنيا والتنفير منها	١٧٩
في أنّ العالم من عرف قدره وذكر حديث شريف .	١٨٤
الترجمة	**١٨٧**
الفصل الثانى	**١٨٨**
في اخباره عليه السلام عن المستقبل	١٨٨
وينبغى التنبيه على امور: الاول	**١٩١**
في فوائد العزلة	١٩١
الفائدة الاولى	١٩٢
الفائدة الثانية	١٩٤
الفائدة الثالثة	١٩٧
الفائدة الرابعة	١٩٩
الفائدة الخامسة	٢٠٠
الفائدة السادسة	٢٠١
الثانى فى النميمة	**٢٠٢**
بقى الكلام في السعاية	٢٠٥
الثالث فى اذاعة الاسرار	**٢٠٦**
الترجمة	**٢٠٨**
المختار المأة والثالث	**٢٠٩**
خطب به عليه السلام عند خروجه الى البصرة .	٢٠٩
تكملة في نقل المختار على رواية البحار .	٢١٢
الترجمة	**٢١٤**
المختار المأة والرابع	**٢١٥**
وشرحه في فصلين	٢١٥
الفصل الاول	**٢١٥**
في ذكر محامد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومناقبه .	٢١٥
في ذكر بني امية ومآل حالهم	٢١٨
حديث السفاح و انقراض دولة بني اميّة على يديه و كيفيّة انقراضهم تفصيلا	٢٢٢
الترجمة	**٢٢٤**
الفصل الثانى	**٢٢٥**

العنوان	الصفحة
في النهي عن الركون الى الجهالة .	٢٤٥
في وجوب النهى والتناهي	٢٥١
الترجمة	**٢٥٣**
المختار المأة والخامس	**٢٥٤**
وشرحه في ضمن فصلين	٢٥٤
الفصل الاول	**٢٥٤**
في وصف الاسلام ومدح الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله	٢٥٤
لطيفة شريفة ونقل كلام لابن أبي الحديد .	٢٦٢
كلام للشارح المصنف « قد » .	٢٦٤
تكملة في نقل المختار على رواية الكافي .	٢٦٧
الترجمة	**٢٦٨**
الفصل الثاني	**٢٧١**
في خطاب أصحابه الذين أسلموا مدنهم ونواحيهم إلى جيوش معاوية	٢٧١
الترجمة	**٢٧٣**
المختار المأة والسادس	**٢٧٤**
خطب به في بعض أيام صفين	٢٧٤
الترجمة	**٢٧٧**
المختار المأة والسابع	**٢٧٧**
وشرحه في فصلين	٢٧٧

العنوان	الصفحة
الفصل الاول	**٢٧٧**
في ذكر الملاحم	٢٧٧
في ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذكر الملاحم	٢٨٢
قصة الطبيب اليوناني مع أمير المؤمنين عليه السلام	٢٨٧
في توبيخ الغافلين الحايرين الجاهلين	٢٩٢
الترجمة	**٢٩٤**
الفصل الثاني	**٢٩٥**
في الاشارة إلى مايحدث في آخر الزمان من الفتن	٢٩٥
الترجمة	**٣٠٤**
المختار المأة والثامن	**٣٠٦**
وشرحه في ضمن فصول	٣٠٦
الفصل الاول	**٣٠٦**
في التوحيد والتنزيه والاجلال وذكر نعوت الجمال والجلال	٣٠٦
في ذكر حالات الملائكة ووصفهم	٣٢١
الترجمة	**٣٢٣**
الفصل الثاني	**٣٢٥**
في تحذير المتمردين العصاة وتنفيرهم عن الركون إلى الدنيا .	٣٢٥
في الاشارة إلى سكرات الموت	٣٣٣

العنوان	الصفحة
في الاشارة إلى ما يحلّ على الناس عندالموت .	٣٣٥
ايقاظ في ذكر بعض ماورد في وصف الموت وحالات الميّت	٣٤١
تنبيه في ذكر الرواية المتضمّنة لتكلّم الميّت مع سلمان الفارسي رضى الله عنه	٣٤٥
الترجمة	**٣٥٤**
الفصل الثالث	**٣٥٧**
في بيان حال العباد في المعاد وكيفيّة محشرهم	٣٥٧
في بيان حال أهل الطاعة	٣٦٣
في بيان حال أهل المعصية	٣٦٥
الترجمة	**٣٧١**
الفصل الرابع	**٣٧٢**
في ذكر النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ووصفه	٣٧٢
في وصف الأئمّة عليهم السلام	٣٧٥
في وصف أمير المؤمنين عليه السلام	٣٧٨
الترجمة	٣٨٠
المختار الماة والتاسع	**٣٨٠**
في ذكر أفضل ما توسّل به المتوسّلون إلى الله سبحانه وهو على ما ذكره عليه السلام في هذا المختار عشرة .	٣٨٠
اولها	
الايمان بالله وبرسوله .	٣٨٤
تحقيق الكلام في الايمان والاسلام وبيان الفرق بينهما .	٣٨٤
حديث شريف فيما فرض على الجوارح من الايمان والأعمال .	٣٩٠
والثانى	
من الوسائل الجهاد في سبيله فانه ذروة الاسلام	٣٩٦
والثالث	**٣٩٦**
كلمة الاخلاص فانها الفطرة .	٣٩٦
والرابع	
إقام الصلاة فانها الملة	٣٩٧
في ذكر الآيات والروايات الواردة في فضل الصلاة	٣٩٨
ذكر علّة وجوب الصلوات الخمس .	٤٠٠
ذكر أسرار الصّلاة .	٤٠٢

العنوان	الصفحة
توضيح ترجمة معاني الصّلاة	٤٠٨
والخامس	
ايتاء الزّكاة فانهافريضة واجبة	٤١٣
ذكر علّة وجوب الزّكاة وفضلها وعقوبة مانعها .	٤١٤
في أسرار الزكاة .	٤١٩
والسادس	
صوم شهر رمضان فانّه جنّة من العقاب .	٤٢٢
علّة وجوب الصوم .	٤٢٥
في فضل الصوم .	٤٢٦
في فضل شهر رمضان وفضل صومه وذكر بعض الروايات الواردة فيه	٤٢٧
في آداب الصوم .	٤٣٠
والسابع	
حجّ البيت واعتماره فانهما ينفيان الفقر ويرحضان الذنب .	٤٣٣
والثامن	
صلة الرحم فانها مثراة في المال ومنسأة في الأجل .	٤٣٥
والتاسع	
صدقة السرّ فانهاتكفر الخطيئة	٤٣٥
والعاشر	
صنايع المعروف فانهاتقي مصارع الهوان .	٤٣٧